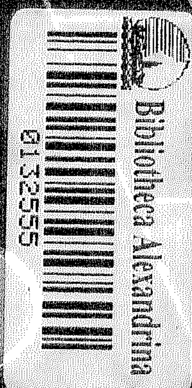
موسوعة الشرباصي في الخطب المنبرية

تأليف
الدكتور
أحمد الشرباصي

الجزء الأول

دار الجيل بيروت



الموسوعة الشرباصية
في
الخطب المنبرية

الموسوعة الشرباصية
في
الخطب المنبرية

الدكتور أحمد الشرباصي

المجلد الأول

دار الجيل
ص.ب ٨٧٣٧ - ت: ٢٦٦١٥٨
بيروت - لبنان

حُقوق الطبْع مَحفوظة للناشِر
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

واستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » . « ربنا هيىء لنا من أمرنا رشداً » .

قبس من كتاب الله

﴿ ومَن أَحسَنُّ قولا ممَّن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين ﴾

« سورة فصلت »

تقديم

كان الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله حركة لا تهدأ ، فهو إما أن يكون خطيباً فى محفل ، أو محاضراً فى جامعة ، أو راحلا للدعوة فى قطر ناء ، أو مؤلفاً يكتب للناس خلاصة أفكاره . وأحد هذه الميادين كفيلة بتشريف صاحبها وإحلاله المحل اللائق بين القادة المجاهدين والدعاة المخلصين . فكيف بها إذا اجتمعت فى شخص واحد ، لتصور حركة قوية ذات اتجاهات مختلفة لرجل المنبر والعلم والرحلة واللسان المبين ، ومؤلفاته خير شاهد على ذلك ، إذ ظهرت للرجل الداعية مؤلفات كثيرة يستمد معظمها مدده من القرآن الكريم ، وبهذه المؤلفات التى زادت على مائة مؤلف قدم أستاذنا الدكتور الشرباصى رحمه الله خدمات للاسلام والمسلمين فى شتى المجالات فمما ألفه فى مجال الدعوة الإسلامية كتابه « التربية الدينية » وكتابه « عودة الإسلام » وكتابه « الدين والمجتمع » وكتابه « توجيه الرسول للحياة والأحياء » وكتابه « يسألونك فى الدين والحياة » فى سبع مجلدات أجاب فيها عن كل ما يهم المسلم معرفته فى القضايا المختلفة ، وكتابه « أسماء الله الحسنى » .

ومما أخرجه فى مجال الدراسات الأدبية كتابه « ملامح أدبية » وكتابه « المقصورة فى الأدب العربى » وكتابه « الشاعر سليل المحمدين » وكتابه « أمير البيان شكيب أرسلان » .

ومن منطلق أن الدين جاء ليسعد الناس فى دنياهم وفى أخراهم وضع كتابه « الدين والحياة » وكتابه « بين الدين والدنيا » داعياً فيه إلى حسن الجمع بين الدين والدنيا حيث يقول : « الدين شريعة مجيدة تنظم خطوات الإنسان فى

هذا الكون وتهديه إلى سواء السبيل ، ليقوى ويهنأ ويسعد ، ويكون فى نفسه صالحاً ولغيره مصلحاً ، وبالقيم الفاضلة والمثل العليا متمسكاً ومهتدياً ، وترسم له الطريق السوى إلى نعيم الدار الآخرة باستقامة العقيدة ، وصدق العبادة وإخلاص الدين لله عز وجل ، وبهذا الجمع الحكيم بين العمل للدنيا الفاضلة المؤمنة القوية العادلة ، والعمل المخلص للآخرة التى هى دار البقاء وعالم الخلود يكون المؤمن قد حقق العبادة لله كاملة » . ومن هذا المنطلق نفسه دعا رحمة الله إلى ربط الفن بالدين ووضع فى هذا المجال عدة مسرحيات إسلامية وكان يردد دائماً كلمته « إذا تفنن رجل الدين وتدين رجل الفن التقيا فى منتصف الطريق لخدمة العقيدة الصحيحة والفن السليم » كما دعا إلى رفع مستوى المعيشة وزيادة الإنتاج وفى هذا المجال وضع كتابه « الإسلام والتنمية » وكتابه « الإسلام والاقتصاد » . وفى المجال القومى وضع كتابه « حب الوطن فى نظر الدين » وكتابه « واجب الشاب العربى » وكتابه « من أجل فلسطين » وكتابه « وسائل تقدم المسلمين » داعياً إلى الوحدة العربية كوسيلة للوحدة الإسلامية الكبرى ومنبهاً على أن عزة العرب فى وحدتهم وقوة الإسلام فى تقدمهم ولذلك كان يردد دائماً كلمته « العروبة وعاء الإسلام والإسلام روح العروبة » .

وهكذا نرى شيخنا الجليل لم يقف عند مجال بعينه بل طوف بشتى المجالات موجهاً وعياً إلى الخير والصلاح . وبهذا نستطيع القول بأنه كان يتميز بالموسوعية الشاملة التى تصورها أصدق تصوير خطبه المنبرية فقد عشق المنبر منذ صباه وظل يدعو إلى الله على بصيرة من فوق منبر الجمعة أكثر من أربعين عاماً إلى أن لقى ربه فى الرابع من شهر شوال سنة ١٤٠٠ هـ وفى الرابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٨٠ م وكانت خطبه مرآة صادقة لما حوى الإسلام من معرفة صالحة وتربية واعية .

ومن كياسة شيخنا الدكتور الشرباصى وفطنته أنه كان يكتب كل خطبة يلقيها من فوق المنبر مسجلا عليها تاريخ الإلقاء ، فتكونت لديه ثروة هائلة من الخطب المنبرية التى تعالج كثيراً من أمور الدين وشئون الحياة فنها ما يتصل بالعقائد والعبادات والمعاملات والسلوك ومنها ما يتصل بشئون الأسرة والمجتمع ومنها ما يتصل بأمور كثيرة متفرقة لها صلتها بالدين والحياة . بل كان رحمه الله يتخذ من أى حادثة يراها أو يسمع بها موضوعاً لخطبة الجمعة لأنه يرى فى ذلك محلا لالتقاط موعظة أو استنباط عبرة تنفع المسلمين ولذا نرى لبعض الخطب عناوين تبدو غريبة ولكن بقراءتها يتبين أن الداعية النابه والخطيب البارع رحمه الله يهدف من ورائها إلى استخلاص موعظة أو استلهام عبرة أو استنباط درس .

وكم كنت ألح عليه فى جلساتى معه فى السنوات الأخيرة من حياته التى لازمته فيها أن يجمع هذه الخطب وينشرها حتى تكون زاداً نافعاً للأئمة والدعاة الناشئين مثلى وتحقق النهوض بمستوى الخطابة فى المساجد . فكان يردد على مسامعى : نعم أريد أن ننشر موسوعة الخطب ، ولكن القدر لم يمهله فلحق بربه عز وجل قبل تحقيق هذه الرغبة ومن ثم نشطت عقب وفاته باحثاً فى مكتبته عن هذه الخطب لأحقق رغبته فى إخراجها وفاء له وخدمة للدعوة الإسلامية ، وقد استطعت بتوفيق الله ثم بمساعدة زوجته الوفية وابنيه الكريمين المهندس حازم والدكتور الطبيب عاطف ، أن نجمع معظم هذه الخطب التى تعد حصيلة أكثر من أربعين عاماً قضاها شيخنا رحمه الله فى الخطابة المنبرية . وهنا وجدت نفسى أمام حشد هائل من الخطب المنبرية فى موضوعات متعددة ، كل خطبة منها تستقل بموضوع واحد واضح غير متشعب الأطراف ولا متعدد القضايا ، كل عنصر فيها يسلم إلى الذى يليه فى تسلسل منطقى مقبول وأسلوب رائع مؤثر . ولذا عزمت بمشيئة الله

تعالى أن أخرج هذه الخطب على أجزاء متتالية تنضوى كلها تحت عنوان واحد هو « الموسوعة الشرباصية فى الخطب المنبرية » وهو عنوان أوحت به إلى عبارة المؤلف السابقة التى كان يرددها فى بعض جلساتى معه .

وهأنذا أقدم اليوم للقارىء الكريم الجزء الأول من هذه الموسوعة مشتملا على مائةوعشرين خطبة لم ألتزم فيها بالترتيب من حيث تاريخ الإلقاء كما لم ألتزم فيها بالترتيب من حيث المجالات التى تعالجها بل اكتفيت بالعنوان لكل خطبة ومنه يسهل على القارىء نسبة كل خطبة إلى ميدانها من عبادات أو عقائد أو معاملات أو غير ذلك .

والله تعالى نسأل أن ينفع بها وأن يتغمد أستاذنا وشيخنا المؤلف برحمته وأن يسكنه فسيح جنته إنه سميع الدعاء . وهو حسبى ونعم الوكيل .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

دكتور / عبد الستار حسين زموط
المدرس بكلية اللغة العربيـــة
جامعة الأزهر بالقــــاهرة

خطبة الجمعة [1]

الحمد لله عز وجل « تباركَ الذى نزَّلَ الفرقانَ على عبده ليكونَ للعالمينَ نذيراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، صاحب الفضل وأهل المجد ، خلق ورزق ، فوجب أن يحمد ويعبد .. «وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون ، ما أُريدُ منهم مِنْ رزقٍ وما أريدُ أنْ يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذوُ القوةِ المتين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، حذر وأنذر ، ووعد وأوعد : « فذكرْ إنما أنت مذكرٌ ، لستَ عليهمْ بمصيطر » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى التقاة من آله ، والهداة من صحابته ورجاله ، والدعاة إلى هديه وأعماله : « الذين آمنوُا وتطمئن قلوبهمْ بذكرِ اللهِ ، ألا بذكر الله تطمئنُ القلوُبُ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كتب بعض الناس ينتقد ويشكو من أن خطبة الجمعة فى كثير من المساجد تطول وتمتد ، حتى تبلغ نصف ساعة أو أكثر من ذلك ، واقترح بعضهم ألا تزيد خطبة الجمعة عن عشر دقائق أو اثنى عشرة دقيقة على الأكثر ، وقد حاول البعض أن يجعل من هذه المسألة مشكلة عويصة كأنها تشغل بال العالم الإسلامى ، أو يتعلق على علاجها صلاح المسلمين جميعاً ، ومن العجيب أن أكثر الذين يتحدثون فى هذا الموضوع ناقدين أو ضائقين ليسوا ممن يحرصون على الجمعِ أو سماع خطبها ، وليسوا ممن يعنيهم أمر الدين أو يشغل بالهم صلاح المسلمين ، وهذا مما يفتح الباب لسوء الظن بهذه الحملة ، ويسوغ

---

(١) القيت يوم الجمعة ١٧ ذى الحجة سنة ١٣٧٧ والموافق ٤ يوليه سنة ١٩٥٨ م .

إدخالها فى سلسلة المحاولات الموصولة المرادة لتوهين سلطان الدين فى النفوس والتخلص من ألوان التعبد والتفقه لوناً بعد لون .

ولسنا علم الله من دعاة التطويل الممل فى الخطب . ولا من أنصار الإثقال بها على الناس ، أو استغلالها لغير ما أراد منها الحق جل جلاله ولكنا نحب أن نقول :

إن خطبة الجمعة هى العظة الأسبوعية العامة التى يتلاقى على سماعها أبناء الإسلام ، وإن شئت تعبير العصر فقل إنها الصحيفة الأسبوعية الإسلامية الناطقة التى يستمع فيها المسلمون إلى كلمة الله فيما يهمهم من شئون الدين وشئون الدنيا ، وهذه الخطبة تأتى فى يوم الجمعة العظيم الجليل الذى ورد فى شأنه وفضله من الأحاديث والآثار ما ورد ، وحسبنا قول رسولنا صلوات الله عليه : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة » . وقد سمى هذا اليوم بالجمعة لأنه يجمع الناس ، إذ يجتمعون للخطبة والصلاة . وتأكيداً لتعارف ، وتوطيد المحبة ،وإحياء القلوب وقد جعلت الخطبة كركعتين تضافان إلى ركعتى الجمعة ليكون المجموع كصلاة الظهر التى تنوب الجمعة عنها ، ولعل الخطبة تأتى قبل الصلاة لتكون إيقاظاً لمشاعر التدين فى النفوس فتقبل على الصلاة بخشوع واعتبار ، وليسمعها الناس فى هدوء واصطبار لأن بعدها واجب الصلاة ، وقد ورد فى شأن الاستماع إلى الخطبة والإندماج فيها والتأثر بها والتأدب معها ما لا نزيد عليه ، حتى عدها فريق من الفقهاء كجزء من الصلاة ، والرسول هو الذى يقول : « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة : أنصت ، فقد لغوت » .

ولا عجب فخطبة الجمعة يراد منها التفقيه فى الإسلام ، والحديث يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ، وهى تذكير بالله ، وتحبيب فى

ثوابه . وتخويف من عقابه ، والله يقول : « فذكرْ بالقرآن منْ يخافُ وَعيد » ، ويقول : « وذكرْ فإن الذكرَى تنفعُ المؤمنينَ » : فذكر إنْ نفعت الذكرى » . وهي محاولة لإيقاظ القلوب التي تظل طيلة الأسبوع راتعة جامحة ، فهي بحاجة إلى إحياء وتقوية وجلاء وتصفية ، وما أنفع الكلم الطيب في تحريك الأفئدة السليمة : « يثبتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

ولمكانة الاجتماع يوم الجمعة للخطبة والصلاة حرص الإسلام المسلم على أن يذهب إلى هذا الاجتماع الجليل نظيفاً مغتسلا متطهرا متطيباً لابساً أحسن ثيابه ، مستعداً لكي يجلس مع إخوته في الله هذه الجلسة المبسوطة المنفوحة بالبركة ، يتذاكرون ويتبادلون مشاعر الخير وعواطف البر ، وأمر الإسلام بأن يترك المسلم من أجل الخطبة والصلاة ما يشغله أو يستحوذ على اهتمامه وعنايته ، وها هوذا القرآن يأمر الناس بأن يدعوا أهم ما يشغلهم ويجذبهم وهو البيع والشراء ، فيقول : « يا أيها الذينَ آمنوا إذا نودى للصلاةِ منْ يوْم الجمعةِ فاسعوْا إلى ذكرِ اللهِ وذروا البيعَ ذلكمْ خيرٌ لكمْ إنْ كنتمْ تعلمونَ » ، أي أقبلوا على الجمعة بنياتكم وقلوبكم وهمتكم ، واتركوا من أجل ذلك ما يحلو لكم أو يعجبكم . فلو كان الإسلام يريد منا أن نؤدى الخطبة والصلاة أداء آلياً سريعاً ، لا تأثر به ولا استغراق فيه ولا انسجام معه ، فلماذا يحرضنا على العناية بالسعي كل هذا التحريض ؟ ولماذا يؤكد علينا أن نقبل على الجمعة بعزم واجتهاد ؟ ! . .

ومما يتعلل به الدعاة إلى أن تكون خطبة الجمعة خطبة عاجلة مبتورة آلية شكلية أن بعض من يسمعها يكون على سفر أو في مرض أو نحو ذلك ؛ وقد جهل هؤلاء أن الإسلام لم يوجب الجمعة على أصحاب الأعذار والضعفاء ، فلم يوجبها على المرضى أو الزمنى أو المسافرين أو النساء أو المكفوفين

أو الخائفين من الجور حتى قال الفقهاء إن المشغول بجنازة صديق حميم لا يجد من ينوب عنه فيها تسقط عنه الجمعة ، ومن يؤذيه المطر والوحل تسقط عنه وهكذا ومما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة ، إلا مريض أو مسافر أو إمرأة أو صبي أو مملوك ، فمن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غني حميد » .

لكن هؤلاء فى الواقع لا يقصدون الرفق بأصحاب المعاذير ، وإنما يريدون أن تكون الخطبة عشر دقائق ، حتى يوهنوا عوامل التدين فى النفوس ويجعلوا الدين رسوماً حائلة وأركاناً مائلة ، وإذا كان الفقهاء قد ذكروا الحد الأدنى الذى يصح أن نطلق عليه إسم خطبة وهو الكلام الذى فيه حمد لله وذكر له وأمر بالتقوى أو تبصير بالدين ، فإنهم أرادوا بذلك تحديد الأحكام لا بتر الخطب ، وهل تتحقق الثمرة المرجوة من الخطبة إذا اتسمت بهذه العجلة وهذا الاقتضاب ونحن فى زمن تعطلت فيه ينابيع الثقافة الدينية ، وزحمت الناس فيه ألوان من الثقافات الدخيلة والمعارف العليلة ؟ . وإذا كان السلف فى صدر هذه الأمة المسلمة قد أوجزوا فى خطبهم واختصروا أحياناً فلأن الفقه بالدين كان شائعاً ، ولأن الحرص على أوامر الله كان ذائعاً ، ولأن صوت الإسلام كان مرتفعاً ، لا يزاحمه فسوق أو إلحاد أو انحلال ، وأما اليوم فما أجدر الخطبة بأن تنبسط وتمتد قليلا أو طويلا : «يا أيهاُ الذينَ آمنوُا اذكرُوا الله ذكراً كثيراً وسبحوهُ بكرةً وأصيلاَ » .

وما رأيكم أيها الناس فى أن أهل الأديان الأخرى لم يشكوا ولم يبكوا من طول الأوضاع التعبدية عندهم . فهم يقضون أوقاتاً طويلة فى القيام بطقوسهم ورسومهم وترتيلاتهم وترنيماتهم وغير ذلك من تقاليدهم الدينية الواضحة أو المبهمة ،المفهومة أو الغامضة ، دون شكوى أو صراخ فما سر هذا ؟ . ألأنهم يعتزون بدينهم أكثر مما نعتز بديننا ، ويغارون على عبادتهم أكثر مما نغار على عبادتنا ، أم ماذا يكون الجواب يا أولى الألباب ؟ .

لقد كان أجدادنا يقبلون على مواطن العظة والعبرة والأدكار بأفئدة واعية وجلود مقشعرة ، وكانوا يجدون لذتهم الروحية والنفسية فى إطالة اللحظات التى يركنون فيها إلى تلاوة أو مناجاة أو حديث عن الله والإسلام ، وهذا هو الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يروى عنه أنه كان كثير الاستماع إلى العظات ، فكلما لقى رجلا أهلا لقول كلمة طيبة يقول له : « عظنى » ، وكان كثير التلاوة والاعتبار بما يسمع أو يقرأ ، ويروى أنه صلى العشاء وجلس يتلو سورة الأنفال ، فما زال يرددها ، وكلما مر بآية عذاب تضرع ، أو بآية رحمة دعا ، حتى أذنوا للفجر ، وكان يجمع الفقهاء عنده كل ليلة يتذاكرون الموت والآخرة ثم يبكون كأن بين أيديهم جنازة ؟

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . نقرر مرة أخرى أننا لسنا من الدعاة إلى الإثقال على الناس فى الحديث ، ولسنا نرتضى من صاحب الخطبة أن يسىء عرضها أو استغلالها ، أو يخضعها للأهواء والأغراض ، ولكننا نريد يقظة الوعى الدينى فى صدور الذين ينتسبون إلى الإسلام ثم يجهلون الكثير من تعاليم هذا الإسلام ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

حكمة الصلاة (1)

الحمد لله تبارك وتعالى ، جعل ذكره مفتاح الخيرات ومنبع البركات : « قد أفلحَ منْ تزكى وذكرَ اسمَ ربه فصلىّ » . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، جعل الخير الكثير جزاء للطاعة والخشوع فى الصلاة : « إنا أعطيناكَ الكوثرَ ، فصل لربكَ وأنحرْ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله الذى قال له ربه : « وامرْ أهلكَ بالصلاةِ واصطبرْ عليها ، لا نسألكَ رزقاً نحن نرزقكَ والعاقبة للتقوىَ » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى نجوم ذريته ، وأقطاب صحبته ، والأوفياء المخلصين لدعوته : « قدْ أفلحَ المؤمنونَ ، الذينَ هم فى صلاتهمْ خاشعونَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

ما زلنا بحاجة — أيها الأحبة — إلى أن نزداد مع شبابنا بصراً بالدين ومعرفة بالإسلام . وهذا شاب حائر يسألنى قائلا : إننى أصلى منذ حين ، ولى أصدقاء صلتهم بالدين ضعيفة ، وهم يحاوروننى كثيراً : ويقولون لى فيما يقولون : إنك تصلى منذ سنوات ، فما حكمة هذه الصلاة ؟ وأى شىء أفادتك ؟ أليست نوعاً من التكرار المسئم الممل ؟ . ومع إيمانى بالصلاة لم أجد رداً أقوله لهؤلاء . قلت له : هون عليك يا بنى ، فمن نعمة الله عليك أن يشغلك بالدين ، ويجعلك تفكر فى حكمه وتعاليمه ، والصلاة التى تسأل عنها هى عماد الدين وأساس العبادة ، وقديماً دعا أبو الأنبياء إبراهيم ربه فقال : « رب إجعلنى مقيمَ الصلاةِ ومن ذريتىِ ، ربنا زتقبلْ دعاء » . وحكمة الصلاة أولا أن فيها معنى الطاعة المطلقة لله تبارك وتعالى ، وفيها معنى تحقق

(1) القيت يوم الجمعة ٦ رجب سنة ١٣٩٤ الموافق ٢٦ يوليه سنة ١٩٧٤ م .

العبودية من الإنسان وإظهاره معنى الربوبية للخالق الديان ، وفيها مناجاة لله من حين إلى حين ، فإذا هم الشيطان اللعين يأن ينسى الإنسان ذكر ربه فرغ إلى الصلاة ، فناجى بها خالقه ومولاه ، فتظل صلة الإنسان ببديع السموات والأرض قائمة وثيقة ، والارتباط بالله بلسم يعرف مذاقه الذين ينعمون به ، ولذلك قال سيد الخلق عليه الصلاة والسلام : « وجعلتْ قرةُ عيني في الصلاة » وكان إذا اشتد به الكرب ، أو استفحل الخطب قال لمؤذنه بلال في شأن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال » .

والصلاة أيضاً فيها معنى « الاستجمام الروحي » و « الشحن المعنوي » ، فإذا تكاثرت شواغل الحياة من حول الإنسان وغلبت عليه الناحية المادية بغلظها وكثافتها هرع إلى الصلاة ، فإذا هو يخلع نفسه من دنياه ، ويدخل عالم المناجاة ، فيستمد من هذا الرحاب زاداً وقوة وعتاداً ، فيستطيع بهذا التفتح والنشاط والتزود أن يتابع مراحل الحياة بعزيمة وإشراق ، ولهذا يمكن أن نصف الصلاة بأنها معراج يومي يتكرر في حياة المؤمن فيحس بروح التسامي والعلو ، ولعل من سر ذلك أن الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي فرضت ليلة الإسراء والمعراج .

والصلوات الخمس تتكرر لتكون معواناً على يقظة الروح وطهارة القلب وتزكية النفس ، ولذلك أخبر سيدنا رسول الله أن هذه الفرائض الخمس يمحو الله بهن الخطايا ، ما دامت تستوفى شروطها وأركانها وخشوعها ، ولذلك يقول الحق جل جلاله « وأقم الصلاةَ طرفيَ النهارِ وزلفا من الليـــل إن الحسنات يذهبنَ السيئاتِ ذلك ذكرى للذاكرين » ويقول : «أتلُ ،ما أوحى إليك من الكتاب ، وأقمِ الصلاةَ إنالصلاةَ تنهىَ عن الفحشاءِ والمنكرِ ولذكرُ اللهِ أكبرُ واللهُ يعلمُ ما تصنعوُن » .

وفى الصلاة تحقيق للوحدة بين الأمة المؤمنة كلها ، فالجميع يعبدون إلهاً واحداً ، ويصلون له صلاة واحدة ويتجهون جميعاً إلى قبلة واحدة : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » وهذا التوحيد بين الجميع فى العبادة والوجهة يولد تأكيد روح الأخوة والديمقراطية والمساواة ، وخصوصاً إذا جمع بيت الله : المسجد بين هؤلاء ، فيكون هناك تطبيق عملى لهذه المساواة ، إذ ليس فى الصلاة تفرقة بين كبير وصغير ، أو غنى وفقير ، وليست فى المسجد مقاعد محجوزة ولا أماكن مميزة ولا صفوف خاصة : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » . والمسجد — كما يذكر المرحوم الرافعى — يجمع الناس بقلوبهم . ليخرج كل إنسان من دنيا ذاته إلى دنيا ربه ، فلا يفكر واحد منهم أنه أسمى من الآخر ، ولقد يكون إلى جانبك الفقير أو الأجير ، وأنت الغنى أو الخطير ، فلا تحس فى الصلاة بفارق بينكم ، وكأن خواطرك حينئذ متطهرة متوضئة ، تذكر أن الله فوق الجميع ، وأنكما شريكان فى الإنسانية ، وميزانها بيد الله وحده : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وإذا أنت تردد فى دعاء الاستفتاح ما كان يردده الرسول فى أول صلاته : « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من ذنوبى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم أغسلنى من ذنوبى بالثلج والماء والبرد » .

وليست الصلاة تطهيراً لذنوب النفس والروح وحدها ، بل هى للجسم والبدن ، فهى تدفعنا دائماً إلى الطهارة والنظافة سر القوة والسعادة ، والنظافة من الإيمان ، ولا صلاة فى الإسلام بغير وضوء ، ولا صلاة بغير طهارة الجسم والثوب والمكان ، والرسول يقول « مفتاح الصلاة الطهور » ، والإنسان فى الحياة يتكرر تعرضه للتراب والغبار والأوساخ والجراثيم ، فيتكرر الوضوء للصلاة ، فكأنه مطهرة مستمرة تقاوم ذلك التلوث المستمر الدائم فى هذه

الحياة ، والإسلام هو الدين الفرد الذى يجعل النظافة والطهارة فرضاً دينياً يربطه بالصلاة التى تتكرر كل يوم خمس مرات على الأقل : « حافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى وقوموا للهِ قانتينَ » .

وفى الصلاة رياضة جسمية ملائمة ، تتحرك فيها جميع أجزاء الجسم تقريباً من الرأس حتى أصابع القدمين ، أثناء التكبير والقيام والركوع والسجود والتشهد والتسليم ، وفى هذا تليين للأطراف والأعضاء ، وتنشيط للدورة الدموية فى الجسم ، فكأن الصلاة تمرين صحى مستمر ، يستعيد به الإنسان نشاطه ، فوق فوزه برضا ربه : « واستعينوُا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا علىَ الخاشعينِ » .

ومن حكمة الصلاة أنها تعلمنا روح النظام وتوزيع الأعمال على الأوقات فالله تبارك وتعالى لم يجعل الصلاة كلها فى وقت واحد ، بل جعلها خمس صلوات موزعة على اليوم والليلة . ولكل فريضة منها ميقات له بداية لا تسبقها وله نهاية لا تتأخر عنها : « إنّ الصلاةَ كانتْ علىَ المؤمنينَ كتاباً موْقوتاً » ومن هنا يعرف الإنسان كيف يوزع أعمال اليوم على ساعاته ، وأعمال الأسبوع على أيامه ، وأعمال الشهر على أسابيعه ، وأعمال السنة على شهورها وهكذا : « إنا كل شيءٍ خلقناه بقدرٍ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن حكم الصلاة تتكاثر أمام الإنسان كلما تدبر فيها ، ولكن لا ينبغى أن ننسى أن الصلاة بتكرارها هى التى تديم رابطتنا بالقرآن الكريم . واستبقاءنا له فى الصدور حفظا وعلى الشفاه تلاوة لأن كل ركعة من الركعتين الأوليين نقرأ فيها جانبا من القرآن غير الفاتحة ، وكثير من حافظى القرآن يتخذون الصلوات فرصة لتلاوته فيها وتثبيت آياته والقرآن هو العماد وهو السناد . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الوضوء سلاح المؤمن [1]

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى طهارة الحس وصفاء النفس : « إن الله يحبُ التوّابينَ ويحبُ المتطهرِّينَ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، مهد لعباده طريق الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة ، والله رءوف بالعباد ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل النظافة من الإيمان ، فكان نبى الطاهرين الطيبين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وجماعته : « الذين يظنوُّن أنهمْ ملاقوُ ربهمْ وأنهمْ إليهِ راجعوُن » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سخر أحد الأشخاص من الأثر الإسلامى الذى يقول : « الوضوء سلاح المؤمن » وتندر عليه قائلا : ياله من سلاح مضحك ، لم يبق فى أيدى المسلمين إلا سلاح الوضوء ، فما أهونه من سلاح ! . . وهذا التندر الأحمق علامة من علامات الغفلة عن الدراسة الإسلامية ، والجهل بحكمة التعاليم الدينية ، والإسلام دين يظلمه أعداوْه ، ويتطاول عليه الضائعون به والكائدون له ليقلبوا حسناته إلى سيئات ، « يريدونَ ليطفئوُا نورَ اللهِ بأفواههمْ والله متمُّ نورهِ ولوْ كره الكافروُن » .

وما هذا الوضوء الذى يسخر منه ذلك العابث ؟ إنه غسل الكفين ، وتطهير الفم والأسنان بالمضمضة ، وتنظيف داخل الأنف بالإستنشاق ، وغسل الوجه بما فيه من جبهة وحاجبين وعينين وخدين ، ثم غسل الذراعين إلى المرفقين ، ثم مسح شعر الرأس ، ولك أن تمسح على أذنيك ورقبتك ،

---

(1) ألقيت يوم الجمعة ١٦ من ذى الحجة سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ١٠ يونيه سنة ١٩٦٠ م

ثم غسل القدمين إلى الكعبين ؛ وبعبارة أخرى هو تطهير جميع الأعضاء والأطراف التى تستخدم فى العمل اليومى وتتعرض للأتربة والجراثيم . . .

وهذا الوضوء المتكرر كل يوم عدة مرات هو السلاح الذى يحفظ اليدين من القذر ، والذراعين من الوسخ ، والفم من النتن ، والأنف من الغبار ، والعينين من العمص ، والرجلين من رائحتهما الكريهة ، وهو فوق هذا يلطف حرارة الجسم ، ويزيل عنه الركودة ويبعث فيه النشاط ، ويجدد الهمة ، فيقبل المرء على العمل فى عزمه واجتهاده ، فليس عجيباً ولا غريباً بعد هذا أن يعتبر الإسلام الوضوء سلاحاً من أسلحة المؤمن التى تصونه وتحصنه ، فهو سلاح حسى طبى ، يصون الأطراف مما تتعرض له من الأقذار والجراثيم التى تأتى من الجو ومن التراب ومن مزاولة الأعمال ومن مصافحة المرضى أو غير المتطهرين وما من طبيب إلا ونجده يشدد تشديداً واضحاً ملحوظاً فى المطالبة بتنظيف الأطراف وتطهير الأعضاء . . .

والوضوء أيضاً سلاح روحى أخلاقى لأنه يذكر الإنسان بأنه فى حصانة شرعها الله جل جلاله ، فهو يذكر دائماً هذا الإله العظيم فى مراقبته ، فلا تهم بأثم أو عبث إلا ويتذكر أنه على وضوء يهيىء صاحبه للصلاة ولمناجاة الله ولتلاوة القرآن ولغيرهما من القربات والعبادات ، وكأن المرء بدون الوضوء معرض لمهاجمة الباطل والشر من هنا وهناك ، ولكنه مع الوضوء يحيط نفسه بستار قوى ربانى يحفظه ويقيه ، والوضوء أيضاً سلاح عقلى ، لأن العلاقة بين الجسم والعقل وثيقة متينة ، وهم يقولون : إن العقل السليم فى الجسم السليم . وتطهير الأطراف نوع من التجديد للنشاط ، وهذا يجعل العقل متفتحاً مقبلا على التفكير وبذل المجهود بنشاط وعزيمة .

ولم يكن غريباً بعد هذا أن نجد الكثير من الأحاديث فى فضل الوضوء ، كقول الرسول : « لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » وقوله : « من توضأ

فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده ، حتى تخرج من بين أظفاره » وقوله : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » وقوله : « لا صلاة لمن لا وضوء له » . وعمر رضي الله عنه يقول : « إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان » ومن هنا شرع الإسلام الوضوء للصلاة ومس المصحف والقراءة بالقرآن وغيرها من العبادات والشعائر ، وجعل الوضوء على الوضوء كالنور على النور ، وهذا ترغيب فى زيادة التطهير أى ترغيب .

ولا شك أن من مفاخر الإسلام أنه يحض على الوضوء والمحافظة عليه كل هذا الحض ، لأن الشخص الحريص على وضوئه لا يقبل أن يكون جسمه من الداخل وسخاً أو قذراً ، وإلا كان ذلك سفهاً وتناقضاً ، ولذلك يحرص المسلم المتطهر بالوضوء على الاغتسال والاستحمام ، وما أكثر مناسبات الاستحمام فى الإسلام ، ومن حرص على نظافة جسمه لا يقبل أن تكون ثيابه قذرة أو وسخة ، وإلا لم تكن هناك فائدة لطهارة الجسم مع قذارة الثياب ، لأن الثياب القذرة لا تترك الجسم نظيفاً أو سليماً ، ومن حرص على طهارة أطرافه وجسمه وثيابه حرص على طهارة مكانه وبيئته ، وحرص على طهارة من معه ومن حوله ؛ وهكذا يتبين لنا أن الوضوء نقطة ارتكاز وبداية انبثاق للطهارة والنظافة ، فكأنه سلاح أى سلاح .

والوضوء المتجدد يذكرنا بنعمة عظمى من نعم الله العلى الأكبر ، وهى نعمة الماء الذى جعل الله منه كل شىء حى ، والله تعالى يقول عنه : « وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً » . ومما يلفت النظر أنه وصف الماء هنا بوصف « طهور » وطهور هذه صيغة مبالغة فى الطهارة ، فكأنه يريد أن يقول إننا أنزلنا الماء ليكون بليغاً فى تطهير ما يحتاج إلى التطهير ؛ ومن فضل الله على عباده أن خلق لهم هذا الماء بهذا القدر الكبير الهائل ، ليكون رياللظمأ ، وإنباتاً للزرع ، وتطهيراً للأبدان ، وتنظيفاً للأدوات والآلات ، وجمالا فى المنظر ، حتى

جاء فى الأثر : « ثلاثة يذهبن الحزن : الماء والخضرة والوجه الحسن » ، كما أنه من لطيف صنع الله لعباده وإنعامه عليهم أن جعل النظافة والطهارة لوناً من ألوان العبادة مع أنهما فى الوقت نفسه ترفيه وتجميل وتجديد للنشاط : « وما جعلَ عليكمْ فى الدين من حرجٍ » .

والدولة تشن حملة واسعة النطاق لمحاربة الذباب ، وتنفق فى هذه الحملة ما تنفق من جهد ومال ، لعلمها أن هذا الذباب يتلف الكثير من النفوس والأجسام والأموال ، ويسبب من الخسائر ما لا يسهل احتماله ، ولكن الذباب لا يزول إذا اقتصر الأمر على قول القائلين : كافحوا الذباب ، حاربوا الذباب ؛ وإنما يزول الذباب إذا سادت النظافة والطهارة الأشخاص والأمكنة وأجدى وسيلة من وسائل النظافة هى صيانة الجسم والأطراف فى حضن الطهارة وأقرب وسائل الطهارة هو الوضوء ، فكيف لا يكون الوضوء بعد هذا كله سلاحاً للمؤمن يفيده فى بدنه وخلقه ودينه ؟ .

قد يقال إن هناك أناساً يحرصون على الوضوء وعلى تطهير أطرافهم وأعضائهم ، ومع ذلك لا تتطهر نفوسهم ، ولا تستقيم أخلاقهم ، ولا تصفو أرواحهم . . . وهذا القول لا يتعارض مع أن الوضوء سلاح المؤمن ، لأن الأثر الإسلامى لم يقل إن الوضوء سلاح لكل إنسان ، بل قال إن الوضوء سلاح المؤمن ، والمؤمن هو من آمن بالله تبارك وتعالى ، وهو أيضاً من أمن الناس شروره وبوائقه ، ومثل هذا لن يتسلح بالوضوء من الظاهر أولا مع تسلحه بالطهارة الروحية من الداخل ، ولذلك قال الرسول . « الطهور شطر الإيمان » أى نصفه ، فطهارة الحس شطر ، وطهارة النفس هى الشطر الثانى ، ومن دقائق التشريع الإلهى والتأديب الإسلامى أن الوضوء تطهير حسى يرتبط بنية عبادة . فالمتوضىء يتوضأ ليصلى أو ليتقرب إلى ربه بإحدى القربات المختلفة . فكأنه لا يتوضأ لمجرد النظافة وحدها ، بل هو يتطهر حسياً

ليتطهر نفسياً ، ومن وراء هذا الارتباط البديع بين الوضوء والتعبد يلوح لنا التوجيه الحكيم والمقصد النبيل الذى قصده الشارع من الوضوء . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان من عادة آبائكم المسلمين ألا يمشى الواحد منهم إلا وهو متوضىء ليكون على صلة بربه وعبادته ، وليكون صالحاً لأداء صلاته وترديد ذكره ، ولتشعره طهارة الحس والجسد بوجوب طهارة النفس والروح ، فليت هذه العادة بقيت بيننا ، إذ ما أحوج المجتمع المادى إلى نسمات الطهارة ونفحات التعبد ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن اللهَ معَ الذينَ اتقوْا والذينَ همْ محسنوُن ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الاسلام والتطهر [1]

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذى يحب الطيب ، النظيف الذى يحب النظافة ، الجميل الذى يحب الجمال ، « إن الله يحب التوابينَ ويحبُّ المتطهرينَ ». أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى الصلاح والنقاء : « يا أيها الرسلُ كلوُا منَ الطيباتِ واعملوُا صالحاً إنّى بما تعملونَ عليمٌ ». وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدب وهذب ، وطهر وعمر ، « وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمينَ ». فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، وأتباعه المعتصمين بشرعة اليقين : « فأولئكَ كانَ سعيهمْ مشكوراً ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا الإسلام غريب بين كثير من أهله ، وقد اتسعت مسافة البعد بينهم وبينه ، بعد أن تنكروا له وساءت ظنونهم فيه ، وولوا وجوههم شطر نظم وتقاليد وعادات ، يستعيرونها من غيرهم ، ويعيشون عالة عليها ؛ وقد يكون فى هذه النظم ما يثير إعجابهم أو يحوز تقديرهم ، ولو أقبلوا على الإسلام وتعرفوا إليه لوجدوا فيه ما هو أزكى وأعلى : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ».

وهذا مثل صغير عارض يشير إلى سبق الإسلام وفضله ؛ وقد تدل على البحر رشفة ، كما تدل على الشمس نظرة إلى شعاع . فقد نشر [2] أن إحدى الدول الأوربية حرمت أخيراً ركوب السيارات العامة على من تفوح منه رائحة الثوم أو البصل ، وقد نشر هذا النبأ وكأنه مظهر من مظاهر المدنية المعاصرة ، فعاد الذهن بسرعة إلى هدى الإسلام وسنة محمد عليه الصلاة والسلام التى

---

(١) ألقيت يوم الجمعة ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٣٧٨ هـ ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .

(٢) انظر جريدة الشعب يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٨ .

علمت الناس منذ قرون وقرون آداب المجتمع قليلها وكثيرها ، كبيرها وصغيرها ، حتى رسمت لهم صورة الإنسان السليم الذوق ، الكامل الأدب ، الرقيق الإحساس ، المهذب فى مختلف نواحى الحياة ؛ وخطر بالبال كيف سبق نبي الإسلام منذ أكثر من ألف عام إلى ما هو أنق وأرق من هذا التقليد الجديد ، فقال : « من أكل ثوماً أو بصلا أو كراثاً فليعتزلنا وليقعد فى بيته » . وقال : « من أكل من هذه البقلة الخبيثة (أى مالها رائحة كريهة) فلا يقربن المساجد [1] » . ويلحق بالمساجد الأماكن العامة التى يجتمع فيها الناس ويتقابلون . ولقد حرم النبي على نفسه ــ وهو إمام الذوق والتهذيب ــ أن يأكل الثوم أو البصل أو ما أشبههما ، وأراد أن يصور ما يقصده بهذا التصون من تطهر وتسام فأخبر بأنه يناجى جبريل عليه السلام ، وكأن صفاء لقاء الملائكة لا يلائمه أن يتناول النبي شيئاً من هذه البقول . وقد نهى النبي أمته عن غشيان المساجد والمجتمعات حين تناولهم شيئاً منهما لئلا يؤذوا الناس برائحتها ، أو يضايقوا سواهم بأبخرتها ، ولذلك كانت نظرة الإسلام إلى تناول هذه الأشياء نظرة كراهية وتبغيض ، وقد يقال إن فريقاً من الناس قد لا يجدون غير هذه البقول ، وقد يكون فيها فوائد يطلبونها للعلاج ونحوه ، فيجاب على ذلك بأن الإسلام لم يحرمها ، وإنما حذر آكلها من الاختلاط بالناس متى بقيت رائحتها ، وفى الحديث : « من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا حتى يذهب ريحها » وعن أبي أيوب أن النبي أرسل إليه طعاماً فيه ثوم ولم يأكله فسأله أبو أيوب : أحرام هو ؟... قال النبي : لا ، ولكنى أكرهه من أجل ريحه ، ولذلك ينصح الهدى النبوى بأن تؤكل هذه البقول بعد طبخها أو إماتة رائحتها وإزالتها بالشى أو القلى ، فجاء فى الحديث : « إن كنتم لابد آكلها فأميتوها » .

---

(١) وفى رواية : مساجدنا

ولكن الإنسان قد يمتنع عن أكل هذه الأشياء ، ومع ذلك تكون رائحة فمه كريهة من مرض فى أسنانه ، أوجوع فى بطنه ، أو غير ذلك من الأسباب ، ولذلك حرض الإسلام الإنسان على تطهير فمه فى كل مناسبة ، فدعا إلى استعمال السواك ، أو ما يقوم مقامه كالفرشة والمعجون ، أو السائل المطهر أو غيره ، فقال الرسول : « السواك مطهرة للفم مرضاة الرب » وقال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » . كان الرسول صلوات الله عليه يكره لقاء من اصفرت أسنانه من فضلات الطعام أو ترك التنظيف ، وكان يوصى بدلك الأسنان عند تطهيرها حتى يزول ما علق بها ، وذلك لكيلا يتأذى الناس بمرأى هذه الأسنان ، أو يتضايقوا من رائحتها السيئة ، والفقهاء يسقطون سنة الصلاة مع الجماعة عن المصاب بالبخر ، وهو نتن رائحة الفم ، وبعضهم يرى عدم وجوب الجمعة على مثل هذا حتى لا يتضرر بوجوده المصلون ، والبخر الدائم أو نتن الرائحة الذى لا علاج له قد يصلح سبباً للتفريق بين الزوجين إذا لم يستطيعا الصبر عليه . لأن الزوجية تقوم على الوئام والانسجام ، والإنسان قد يحتمل من غيره ألواناً من الأذى ولكنه لا يصبر على الرائحة المنتنة تنبعث من فم أو عرق أو غير ذلك ، ولذلك نص الكثير من النصوص الدينية على أن رائحة المسلم الكامل تكون على الدوام رائحة طيبة محبوبة .

والإسلام بعد هذا حريص كل الحرص على أن يتعود أبناؤه نظافة الحس والنفس ، وطهارة الروح والبدن ، وصفاء القلب والجسم ، فالله تعالى يقول : « والله يحبُّ المطهرينَ » ويقول : «ما يريدُ اللهُ ليجعلَ عليكم فى الدينِ من حرجٍ ، ولكن يريدُ ليطهركم ». والرسول يقول : «الطهور شطر الإيمان» أى الطهارة نصف الإيمان ، وقد شرع الإسلام الوضوء كل يوم عدة مرات ، كما شرع الاغتسال فى مختلف المناسبات ، والوضوء على الوضوء كنور على

نور ، كما حثت السنة النبوية على غسل الشعر ودهنه بالطيب وترجيله ، ولقد رأى الرسول رجلا شعثاً قد تفرق شعره فقال : أما كان هذا يجد ما يسكن به شعره ؟ . رأى رجلا عليه ثياب وسخة فقال : أما كان هـــذا يجد ما يغسل به ثوبه ؟ . ورأى رجلا فى ثوب قديمة غير لائق به ، مع أنه غنى ميسور ، فعاتبه على ذلك وقال : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » . والإسلام حريص على تعليم أبنائه كيف يظهرون بالمظهر المحبوب الذى يشرح صدور الناس ويسرهم ، ولا يدخل عليهم بما يؤذيهم أو يضايقهم ولذلك حث على نظافة البدن والأطراف والثياب والأفواه ، وبخاصة أثناء الاجتماع والالتقاء بالناس ، .

وقد ذكر النبي أن من الفطرة (أى السنة التى دعا إليها الأنبياء وحافظ عليها المؤمنون ، حتى كأنها أمر طبيعى جبلى) السواك ، والاستنشاق وهو تنظيف الأنف بالماء ، وقص الأظفار لكى لا يبقى تحتها أوساخ ، وغسل البراجم (وهى غضون مفاصل الأصابع) ونتف شعر الإبط لكى لا تنبعث منه رائحة كريهة ، وحلق العانة من أجل ذلك أيضاً ، والاستنجاء لتطهير المخرجين من النجاسة ، وكل هذه وسائل للتنظيف والتطهير .

وكذلك عودنا الإسلام العادات الطيبة الكريمة ، وباعد بيننا وبين ما يسوء الغير ، أو يقبح فى المنظر ، فليس من أدب الإسلام مثلا أن تتثاءب فى وجه أخيك ، أو تتجشأ ، أو تنظف أسنانك وتخرج فضلاتها بحيث يراها ، وليس من أدب الإسلام أن تختلط بغيرك وأنت قذر الثياب ، أو وسخ الجسم أو فائح العرق ، وليس من أدب الإسلام أن يأكل الشخص بصلا أو فجلا ، ويركب الترام مثلا ويدركه التجشوء ، فلا ينحرف بوجهه ليكتمه ، بل يفتح فمه فى وجوه الناس ، ويتجشأ فى منظر بغيض كريه منفر ، ولا يتحرز من التمخط بصوت منفر أو البصق أمام الناس وليس من أدب الإسلام أن

يخرج العامل من المصنع وثيابه مليئة بالشحم أو الزيت أو الفحم ، ويركب الترام أو السيارة ، أو يأتى إلى صلاة الجمعة بدون تطهر ، فيلطخ المكان ، ويوسخ ثياب غيره ويثير فيمن حوله الضيق به والتقزز منه ، والقوم مجتمعون فى بيت الله ، وهم مشتركون فى صلاة عامة يتوجهون بها إلى الله وأساس الصلاة طهارة الحس والنفس ، ونظافة البدن والثوب والمكان ، والله يقول (خذوا زينتكم عند كل مسجد) والرسول يقول (لا ضرر ولا ضرار) والإسلام ينفر من إيذاء الغير فى أى صورة من الصور فكيف يستنتج الإنسان لنفسه الإساءة إلى غيره بالحضور إلى المسجد فى ثياب وسخة أو برائحة قذرة أو بمظهر غير نظيف مريح وإذا لفته أحد إلى ذلك غضب وثار ، وتحدث عن الكرامة والمساواة ؛ ونسى أن من المساواة أن يحترم الإنسان غيره ويحافظ على شعوره ، وأن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، والمسلم هين لين ، وهو إلف مألوف ، وهو كالنسمة الرقيقة التى ينجذب الناس إليها ويودونها ، وهو كالعافية التى إن جاءتهم فرحوا بها ، وإن غاب عنهم حنوا إليها ، والله جميل يحب الجمال .

ولنتذكر أن المسلمين هم الذين علموا أوربا الطهارة ، وهم الذين أدخلوا إليها الحمام ونظام الاستحمام والاغتسال بعد أن كان أهل أوربا يفتخرون بالقذارة وعدم الاستحمام . وحينما دخل المسلمون الأندلس نشروا فيها النظافة والتطهر ، وكان رجال الدين فى الأندلس يعلمون الناس أن من وسائل التقرب إلى الله والتعبد له أن يمتنع الإنسان عن غسل جسده بالماء ، حتى كانوا يتفاخرون بطول المدة التى يظلونها بدون اغتسال . . .

ولقد وضع المسلمون عقب فتحهم الأندلس نظاماً يقضى بأن كل من بنى داراً جديدة بنى بجوارها حماماً عاماً ليتطهر الناس فيه ، وعلم المسلمون

الأوربيين أن الماء الذى خلق الله منه كل شىء يجب أن يكون رفيقاً دائماً للانسان ليتطهر به .

وحينما دخل المسلمون أوربا كان أهلها لا يعرفون لبس « القميص » ، بل كانوا يلبسون الثوب على أجسادهم مباشرة ، فعلمهم المسلمون العرب كيف يلبسون القميص تحت الثوب الخارجى ليكون وقاية يتشرب العرق ، ويمكن تغييره بسهولة ، فلا يتسرب العرق أو الوساخة إلى الثوب الخارجى .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الإسلام يدعوكم إلى أن تتطهروا ، وتتنظفوا ، وتتجملوا ، وتتعطروا وتتزينوا ، وتبتعدوا ما استطعتم عن سىء العادات وضار التصرفات ، وهذا الإسلام لم يترك جهة من جهات الآداب الاجتماعية إلا تحدث عنها ونظم شأنها فعلمنا كيف نأكل وكيف نشرب ، وكيف نلبس وكيف نتزين وكيف نزور وكيف نستأذن ، وكيف نتطهر وكيف نتنظف ، وكيف نمشى وكيف نجلس وكيف نستريح وكيف نعمل ، إلى آخر ما هناك من عادات وآداب ، وفى هذا الإسلام الغنى كل الغنى عما سواه من مذاهب أو طرائق . . . « ومنْ يبتغ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يقبلَ منه وهو فى الآخرةِ منَ الخاسرينَ » فإلى الإسلام يا أبناء الإسلامِ وإلى هدى النبوة الكريم يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله معَ الذينَ اتقوْا والذينَ هم محسنونَ .

وهذه طائفة من الأحاديث التى تتحدث عن وجوه شتى من التطهر والتنظف فى مختلف أعضاء الجسم :

قيل للنبى : كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله ؟ قال : أرأيت لو أن رجلا له خيل غر محجلة بين ظهرى خيل دهم بهمْ ، ألا يعرف

خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال فإنهم يأتون غرا محجلين من الوضوء رواه مسلم .

وقال النبي : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، والسواك ، وتمس من الطيب » رواه مسلم . وقال : « بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده » رواه أبو داود . وقال النبي : « تخللوا (أى نظفوا ما بين الأسنان بأعواد) فإنه نظافة ، والنظافة تدعو إلى الإيمان . والإيمان مع صاحبه فى الجنة » . رواه الطبرانى . وقال : « حبذا المتخللون من أمتى . قيل : وما المتخللون يا رسول الله ؟ قال : المتخللون فى الوضوء ، والمتخللون من الطعام . (أما تخليل الوضوء فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع ، وأما تخليل الأسنان فمن الطعام) إنه ليس شىء أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو قائم يصلى » رواه أحمد . وقال : « ما جاءنى جبريل إلا أوصانى بالسواك ، حتى لقد خشيت أن يفرض على وعلى أمتى » رواه ابن ماجه . وفى رواية : « لقد أمرت بالسواك حتى ظننت أنه ينزل علىّ فيه قرآن أو وحى » .

وقال : « لقد أمرت بالسواك حتى خشيت أن أوردَ (أى تسقط أسنانى من شدة الدلك) .

وقال : « من بات وفى يده ريح غمرٍ (أى رائحة من زهومة اللحم) فأصابه شىء فلا يلومن إلا نفسه » رواه البزار .

وقال : « من كان له شعر فليكرمه » رواه أبو داود . وأتى رجل النبى صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس واللحية ، فأشار إليه الرسول كأنه يأمره بإصلاح شعره ففعل ، ثم رجع . فقال النبى : أليس هذا خيراً من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » ؟ رواه مالك .

وعن أبى قتادة قال : يا رسول الله . إن لى جمة (والجمة مجتمع شعر الناصية) أفأرجلها ؟ قال له النبى : نعم وأكرمها . فكأن أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين من أجل قول رسول الله . رواه النسائى .

وقال الرسول : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . فقال النبى : « إن الله تعالى جميل يحب الجمال » رواه مسلم . وقال النبى : « إن الله تعالى يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ، ولا تشبهوا باليهود » رواه ابن خزيمة . وكان ابن عباس يلبس أطيب الحلل ويقول : لقد رأيت على رسول الله أحسن ما يكون من الحلل . رواه أبو داود .

سورة الفاتحة [1]

الحمد لله عز وجل ، أنزل الكتاب وفصل الخطاب : « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل قرآنه منبع الحكمة ومصدر الرحمة : « وننزلُ منَ القرآنِ ماهوَشفاءٌ ورحمةَ للمؤمنينِ » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل كتاب ربه رائدة وقائدة ، فكان خير الداعين وإمام المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئكَ لهمْ مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

سأل سائل فقال : لماذا اختار الله تبارك وتعالى سورة « الفاتحة » بالذات لكي نكررها فى الصلاة ؟ ومن الممكن أن نختصر الجواب على السؤال . فنقول : هكذا أراد الله واختار ، وحكمته أعمق من كل حكمة ، وعلمه أوسع من كل علم ، وفوق تدبيرنا لله تدبير . ومن الممكن أن نبسط الجواب بعض البسط ، فنقول إن الله تعالى قد اختارها لأنها تصور كليات العقيدة ومبادىء الإسلام . وتجمل فى إيجاز وإعجاز ما فصله القرآن الكريم من معتقدات وعبادات ومعاملات واتجاهات ، ولعل هذا الإجمال الرائع فى سورة الفاتحة هو الذى أهلها لكى تسمى بطائفة من الأسماء الكريمة العظيمة ، فهى أم الكتاب وفاتحة الكتاب التى تفتتح بها سوره ومصاحفه . وهى الوافية والكافية ، ففيها ما يشفى ويكفى لمن تدبر واعتبر ، وهى السبع لمثانى التى تكرر وتثنى فى الصلوات فتزداد حلاوة على تتابع الأوقات وتكرار المرات ؛ وسورة الفاتحة كما نعرف جميعاً تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمدُ للهِ ربِ العالمين ، الرحمنِ الرحيم . مالكِ يومِ الدينِ ، إياكَ نعبدُ ، وإياكَ نستعين ،

---

(1) ألقيت يوم الجمعة ١١ شوال سنة ١٣٨٤ هـ ١٢ فبراير سنة ١٩٦٥ م .

اهدنا الصراطَ المستقيمَ ، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهمْ ، غيرِ المغضوبِ عليهمْ ، ولا الضالينَ » . فى هذه الآيات السبع التى لا تستغرق تلاوتها دقيقة من الزمن تتجمع أصول جليلة للدين الإلهى الخالد ، فهى تقرر أن البدء فى العمل والقول يكون باسم الله ، وأن الرحمة الواسعة الشاملة المطلقة من اختصاص الله ، وأن الحمد كله يجب أن يكون لله . وأن الربوبية الشاملة الكاملة لا تجوز لغير الله ، وأن الأمر كله يوم البعث والجزاء بيد الله ، وأن العبادة له ، والاستعانة به وحده . وأن نعمة الله لمن اهتدى واستقام ، وأن غضبه وعقابه لمن طغى وبغى ، أو جهل وضل . وتمضى السورة فى عرض هذه الأسس بتنسيق عجيب وتسلسل لطيف ، فتبدأ بتلمس البركة عن طريق الاستفتاح باسم الله : « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ » . ويلى ذلك ثناء على الله : « الحمدُ لله » ، ثم تسبيح لله وتمجيد : « ربِّ العالمينَ » ، ثم تأكيد لفضله ورحمته مرة ثانية : « الرحمن الرحيم » ثم تقرير لسلطانه العام يوم الجزاء : « مالكِ يومِ الدينِ » ، ثم عبادة خالصة لله : « إياكَ نعبدُ » ، ثم استعانة خالصة بالله : « وإياك نستعين » ، ثم رجاء للاهتداء بهدى الله : « إهدنا الصراطَ المستقيم » ، ثم تحديد لأهل الخير : « صراطَ الذين أنعمتَ عليهمْ » ، ثم تمييز لأهل الشر : « غيرِ المغضوبِ عليهمْ ولا الضالينَ » . وكل هذا فى أقل من دقيقة .

ومن لطائف هذه السورة الوجيزة المعجزة أنها تتحدث عن صفات الله عز وجل فيأتى حديثها ممثلا لثلاث شعب : شعبة تتعلق بالبداية ، وشعبة تتعلق بالوسط وهو مجرى الحياة ، وشعبة تتعلق بالنهاية ، فهى تشير إلى البداية حين تتحدث عن الإيجاد الربانى ، والإبداع الإلهى ، فنقول : « الحمدُ لله رب العالمين » أى موجدهم وموجههم والقائم على أمورهم ، ثم تشير إلى الوسط حينما تتحدث عن الرحمة الواسعة التى يفيضها الله تعالى على عباده منذ الأزل . ولا يزال يفيضها عليهم كل يوم إلى الأبد ، ولا غرو ولا عجب ،

فهو « الرحمن الرحيم » أى المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، وخفيها وظاهرها ، وماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وفى كل يوم يتجلى الله على عباده بآيات رحمته وآلاء بركته ، ثم تشير إلى النهاية ، وهى تأتى عند الرجوع إلى الله عقب البعث من القبور ، والاجتماع يوم النشور ، وإذا كان الله قد سيطر على الخلق فى البداية لأنه الخالق ، وسيطر على الخلق فى الوسط لأنه المنعم المتفضل على الدوام ، فإنه سيكون كذلك المسيطر يوم اللقاء الأخير : « مالك يوم الدين » . وإذا كنت أيها الإنسان قد عرفت أن الله تعالى هو المتصف بصفات الجلال والكمال والجمال فى البداية : لأنه خلق وأنشأ وربى ، وأنه المنصف بصفات الجلال والجمال والكمال فيما بين البداية والنهاية ، لأنه صاحب الفضل العظيم الموجود الدائم ، وأنه المتصف بصفات الجلال والجمال والكمال فى النهاية لأنه الباعث المحاسب المعاقب المثبت فى دار البقاء والخلود ، فليس لك إلا أن تخضع له وتعبده ، وحينئذ تلتفت أنت ومن معك من المؤمنين وقد عقلتم كل هذه الصفات ، وأدركتم كل هذه الحقائق ، وإذا أنتم بلسان الاعتراف بالحق والخضوع لمقتضاه تقولون : « إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين » . ولو أن سائلا سألكم : ولم تخصونه بالعبادة والاستعانة؟ لكان السؤال فى غير حاجة إلى ذكر لجواب ، لأنه هناك أوضح من هذا الجواب . فقد تقدمت بين يديه الدوافع والأسباب ، فقد استحق الله الاختصاص بالعبادة والاستعانة . لأنه رب العالمين . ولأنه الرحمن الرحيم ، ولأنه مالك يوم الدين .

وآية : « إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعين » تتكون من فقرتين جليلتين . ونحن بذكرنا لأولاهما وهى : « إياك نعبد » ننزه أنفسنا عن الإشراك بالله فى العبادة فإنه لا إله إلا هو ، ولا شريك له . وله الدين الخالص . وهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، وهو الذى لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ونحن بذكرنا للفقرة الأخرى وهى : « وإياك نستعين » ننزه أنفسنا عن

الاستعانة بما سوى الله تعالى ، فإذا سألنا فإنا نسأل الله ، وإذا دعونا فإنما ندعو الله ، وإذا استعنا فإنا نستعين الله ، ، وإن كان بعضنا يستعين بالآخر فى ظاهر الأمور ومسالك الحياة فليس ذلك بمتعارض مع إيماننا الوطيد بأن سبب الأسباب هو الله ، وأن المعونة الأساسية من الله لا من سواه ، وهو سبحانه الذى يسخر بعض العباد لبعض ، ويربط بعض الأسباب ببعض ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ، لذلك كان على كل مؤمن أن يبتهل دائماً إلى ربه فيقول : ﴿وجهتُ وجهيَ للذى فطرَ السمواتِ والأرضِ حنيفاً وما أنا منَ المشركين ، إنّ صلاتِي ونسكِي ومحيايَ ومماتِي للهِ ربِّ العالمين ، لا شريكَ لهُ ، وبذلك أمرتُ وأنا أولُ المسلمينَ﴾ ، وينبغى أن نلاحظ أن « إياك نعبدُ » سبقت « إياك نستعين » ، لأنه لا يليق فى شرعة العقلاء أن نستعين به قبل أن نعبده ، بل المنطق السليم هو أن نعرفه أولا ، ثم نعبده ثانياً ، ثم نرجو رحمته بعد ذلك ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنّى ، فإنى قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذاَ دعانِ ، فليستجيبوُا لى ، وليؤمنوُا بى لعلهم يرشدون ﴾ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا شعاع خاطف نقبسه فى مجالنا الضيق من شمس سورة الفاتحة التى تضم ما لا يحد من الأشعة والأضواء ، ومن هذا الشعاع . نستطيع أن نفهم بعض الحكمة فى اختيارها لتلاوتها فى كل صلاة ، ولو اتسع نطاق التدبر والتأمل لعرفنا بالتفصيل كيف تنطوى هذه السورة الوجيزة المعجزة على دقائق و حقائق تجعلها أهلا لهذه المكانة التى نوه بها القرآن حيث قال : « ولقد آتيناكَ سبعا منَ المثانِى والقرآنِ العظيم ». واتقوُا الله الذىِ أنتمْ بهِ مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

سيد الاستغفار [1]

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله القائل : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وصحابته ، وأتباعه وشيعته ، والذين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الكمال لله وحده ، والإنسان مهما بذل فى الحياة عرضة للخطأ أو التقصير ولقد أشار الرسول إلى هذا حين قال : «لا يدخل أحدكم عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ . قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته ؛ وكأن الإنسان قد خلقه الله تعالى كذلك ليحس دائماً بحاجته إلى خالقه وبارئه فيبقى فى نفسه عنصر الهيبة والإجلال لهذا الخالق العظيم سبحانه ، ويبقى على لسانه صوت الدعاء والرجاء من الله مولاه ، ولذلك جاء فى السنة : « الدعاء مخ العبادة » وجاء فيها « ليس شىء أكرم على الله من الدعاء » . ومن اللافت للنظر المثير للفكر أن مادة المغفرة والاستغفار قد وردت فى القرآن المجيد أكثر من ثلاثمائة مرة ، وأن وصف الله بصفة« الغفور »ورد نحو مائة مرة ، وأن وصفه بأنه « غفور رحيم » ورد نحو ستين مرة ، والله جل جلاله يأمرنا بالاستغفار فيقول : «واستغفروا الله إن الله غفور رحيم» ويقول الرسول : «فسبح

---

(1) ألقيت يوم الجمعة ١٦ محرم سنة ١٣٩٦ هـ ٨ فبراير سنة ١٩٧٤ م .

بحمد ربكَ واستغفره إنهُ كانَ توّاباً ». وكان الرسول إذا قام من المجلس قال سبحانك اللهم وبحمدك ، استغفرك وأتوب إليك » ، وما أشد حاجتنا إلى تكرار الاستغفار ، خلال غمرات الغفلة والنسيان ، وشوائب التقصير والانحراف . حتى نجدد الصلة بربنا من حين إلى حين ، ونعاود الاستقامة على صراطه قدر ما نستطيع .

وإذا كان هناك أكثر من صيغة أو عبارة للاستغفار تكفلت ببيانها كتب السنة ، فقد أرشدنا سيدنا رسول الله إلى سيد الاستغفار ، فقال فيما يرويه البخارى : «سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء لك بذنبى ، أغفر لى فإنه لايغفر الذنوب إلاأنت » . ثم قال النبي : « ومن قالها من النهار مؤمناً بها فمات بها من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو مؤمن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » . وتسمية هذا النص النبوى الكريم بأنه « سيد الاستغفار » تفيد أنه أفضل العبارات وأحسنها ، وأنه الأكثر نفعاً لقائله عند توافر الإخلاص واليقين ، ولما كان هذا الدعاء جامعاً لمعانى التوبة كلها استعير له اسم « السيد » كأنه قد ساد غيره وعلاه . وحق له ذلك فهو يبدأ بقوله : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت » وهذا اتجاه إلى الله فى علاه ، وإقرار له بالألوهية والربوبية والوحدانية ، والتوحيد هو لب الدين وجوهر الإيمان « اللهُ لاَ إلهَ إلاّ هوَالحىُّ القيومُ » . « قلِ اللهُثم ذرهمْ فى خوضهمْ يلعبونَ » فيا الله ، أناديك وأناجيك وألجأ إليك وأعتمد عليك ، لا رب لى غيرك ، ولا معبود لى سواك : «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت » . أنت خلقتنى ورزقتنى ، وأنت الذى ربيتنى ونميتنى . وأنت الذى حفظتنى وصنتنى :

الذى خلقنى . . . الآيات

يا منتهى الآمال أنت كفلتنى وحفظتنى
وعدا الزمان على كى يغتالنى فمنعتنى
فانقاد لى متخشعاً لما رآك نصرتنى
وكسوتنى ثوب الغنى ومن المذلة صنتنى
فإذا سكت بدأتنى وإذا سألتك زدتنى
وإذا شكرت غمرتنى فمنحتنى وبهرتنى

« خلقتنى وأنا عبدك » هذا تعبير كالدليل على استحقاق الله جل جلاله للألوهية والربوبية والوحدانية ، فهو بديع السموات والأرض ، وهو الخالق لعباده ، الرازق لهم . وهم لا غنى لهم عنه ، فهم إذن عبيده وأسارى فضله ، « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » .

« وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت » : أنا يارب على ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك والخضوع لأمرك والإخلاص لك ، فأنا مقيم على عهدك ، مستمسك بدينك ، طائع لأمرك ، وهذه مقابلة للجميل بالجميل «هلْ جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ» وإنما يقول المؤمن هنا كلمة « ما استطعت» ليدلل على أنه سيبذل كل جهد يقدر عليه ، «لا يكلفُ اللهُ نفساً إلا وسعها » وفى هذا إشارة إلى الاعتراف بالعجز والقصور عن بلوغ الكمال فى أداء حق الله سبحانه ، وكأن هذا تعليم من رسول الله لأمته أن أحداً لا يقدر على الإتيان بجميع ما يجب عليه ، ولا الوفاء بكمال الطاعات والشكر على كل النعم ، فترفق الله بعباده ، فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم وطاقتهم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم .

« أعوذ بك من شر ما صنعت » وهذا اعتراف بالتقصير وإقرار بالذنب والتجاء إلى الله جل جلاله أن يعيذه ويحفظه من شر ما صنع ، بأن يتفضل بغفران الماضى ، وأن يوفق للصيانة والتحفظ من العودة إلى هذه الشرور والآثام .

« أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء لك بذنبي » : أعترف لك بنعمتك على ، فأنا لم أحصل عليها بمهارتى ولا بذكائى ، بل بفضلك وكرمك وأنا لم أقم بواجب شكرك عليها ، وهذا ذنبي منى أعترف به واستغفرك منه ، أيها الغفور الرحيم .

« أغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » : أنا استغفرك كما أمرت ، وأتوب إليك كما شرعت . ولا يملك المغفرة أحد سواك . فأنت القائل : « والذينَ إذاَ فعلوُا فاحشةً أو ظلموُا أنفسهم ْ ذكروُا اللهَ فاستغفروُا لذنوبهم ْ ومن يغفرُ الذنوبَ إلا اللهَ ولم يُصرّوا علىَ ما فعلوُا وهم يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

إن الدعاء قوة حسية ونفسية ، فهو كالحمام الساخن ، المنظف المطهر ، الباعث على الهدوء والسكينة ، وبذلك يقوى حس الإنسان ويعتدل ، وهو قوة نفسية لأنه يجدد الصلة بالله ، ويوطد الثقة بالله ، ومن توكل على الله كفاه ، ومن رجع إليه تقبله وحماه ، وما أشد حاجتنا اليوم إلى الرجوع إلى الله . َففرّوا إلى اللهِ إنىْ لكمْ منهُ نذيرٌ مبين . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

من أسرار الاستغفار [1]

لله الحمد ، فاضت من يديه على عباده النعمة ، وكتب على نفسه لخلقه الرحمة ، « إنَّ رحمةَ الله قريبٌ من المحسنينَ »، سبحانك سبحانك ، تقدم عفوك على عقابك ، وتغلب نعيمك على عذابك : « نبيءْ عبادى أنِّى أنا الغفورُ الرحيم ، وأن عذابى هو العذابُ الأليم » . نشهد أن لا إله إلا أنت ؛ الكل منك وإليك ، والاعتماد بك وعليك ، ولا حول ولا قوة إلا بك يا على يا عظيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، إمام المربين ، وسيد المرشدين ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آل بيته وأغصان دوحته ، والخلص الكرام من جنده وصحابته ، والموفين بعهدهم من أتباعه وشيعته ، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموُا الصلاةَ ، وآتوُا الزكاةَ ، وأمروُا بالمعروفِ ، ونهوُا عنِ المنكرِ ، ولله عاقبةُ الأمورِ .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هناك كثير من تعاليم الدين ، لا يستطيع المرء أن يصل فيها إلى الحكم الفاصل بالنظر العاجل أو الهوى المائل ، بل لابد من التأنى والتحرى ، ومعرفة العلل والأسباب ، ودراسة الحكم والثمرات ، وهنا يسهل عليه أن يحكم حكماً صائباً ، وأن يدرك ما انطوت عليه أمور ذلك الدين من أسرار وثمار ، « والله يدعوُ إلى دارِ السلام ، ويهدِى من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم » ! . .

مر مثلا بخاطرى موضوع المغفرة والاستغفار فى الإسلام فرأيت عجباً ، وبدا لى ما يستوجب النظر ويثير الفكر ، إن آيات الاستغفار وأحاديث الحض على التوبة كثيرة كثرة تستلفت البصيرة والبصر ، فالقرآن الكريم لا يكتفى بإباحة الاستغفار ، بل يطالب به فيقول : « واستغفروُا اللهَ إنّ اللهَ غفورٌ

---

(1) ألقيت يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ١٣٦٩ هـ ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٩ م .

رحيم » . ويأتى بعض الأحاديث الشريفة فيستفيض فى توسيع الباب قائلا : لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم . . . ويعود القرآن فيذكر العباد بأن الله هو البر الرحيم ، والرؤف الكريم ، الذى يجب أن يقصد لغفران الذنوب مهما كانت كبائر ، ، وأن يلجأ إليه فى الأزمات مهما كانت شدائد فيقول . « ومن يغفرُ الذنوبَ إلا الله » ؟ . . ثم يصل الخاطئين بأسباب الرجاء والطمع ، مهما كان مقدار بعدهم عن رحاب الاستقامة ، فيقول : « إن الله لا يغفر أن يشركَ به ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمن يشاءَ ».. ثم يعمم المغفرة والقبول لكل من تاب وأناب ، مهما سلف منه ، فيقول : «قلْ يا عبادى الذين أسرفوُا على أنفسهمْ لا تقنطوا من رحمة الله ، إن اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً ، إنهُ هوَ الغفورُ الرحيم » . ويفسر هذا رسول الله عليه صلوات الله فيقول : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله لغفر لكم » . . إلى غير ذلك من عشرات الآيات والأحاديث التى تشرق بأضواء الأمل فى التوبة والغفران . . .

قد يضل ضال فى فهم هذه النصوص المقدسة ، فيخيل إليه أن البـــاب مفتوح له بترحيب وبلا نظام مهما فسق واستعصى على أمر ربه ، فيقال له : كلا ، ليس الأمر كما حسبت ، فإن رب المغفرة هو رب المعاقبة ، والذى وسعت رحمته كل شىء هو نفسه الذى يقول : « وأن ليسَ للانسان إلا ما سعىَ وأن سعيهَ سوفَ يرى» .ويقول : .فمن يعملْ مثقالَ ذرة خيراً يرهْ ومن يعملْ مثقالَ ذرة شراً يرهْ » .فيعترض الضال قائلا : إذن فهناك تناقض وتعارض بين بعض الآيات وبعض ، وستظل آيات المغفرة الكثيرة إذن بلا موضوع . فنقول له : إن التناقض ليس موجوداً إلا فى ذهنك الضيق وتفكيرك المحدود ، لأنك تحكم شخصك فى أمر عالمى وضعه رب العالم

للعالمين وفيهم أصناف وأشكال وألوان : وما هذا الحديث الطويل فى القرآن عن الاستغفار والحض عليه إلا أسلوب الحكيم العليم فى تربية الخلق ، فهو ينهض على كثير من الأسس القويمة العالية :

إن الإسلام الحنيف بأسلوبه هذا فى التحريض على الاستغفار يريد ألا يصادم الطبيعة البشرية ، بل يتمشى معها بما يلائمها ، إذ هو يعرف أن الإنسان بطبيعته خطاء ، قد كتب عليه حظه من النقص والعيب ، فلو سد فى وجهه باب الندم والتوبة لأخلد إلى الأرض ، وأفلس من أول الطريق ، وإذن فليلتمس الإسلام للخاطىء عذراً ، وليبسر لتقويمه أمراً ، وهو أن يحرضه على الاستغفار المشتمل على قوى التذكار والاستحضار ، المؤدى إلى لون من المحاسبة والمراقبة التى تحيي موات الضمير فى الإنسان ، وتنقله من بيداء الضلال إلى جادة الإيمان ، ولعل الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم حينما كان يحرض صحابته على الاستغفار ويخبرهم أنه يستغفر فى اليوم سبعين مرة ، لم يقصد نفع نفسه ، أو التخلص من ذنوب نسبت إليه ، فهو المعصوم الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولكنه قصد أن يعلم أتباعه كيف يفيئون بعد غفلة ، ويستقيمون بعد زلة ، ولا عجب فهو بالمؤمنين رءوف رحيم .

ومن أغراض الاستغفار والمتاب فى الإسلام إظهار فضل الله الرحمن الرحيم على عباده الحيارى الضعفاء فهو الذى برأهم ، وهو الذى أنعم عليهم ، وهو الذى حلم معهم ، وهو أيضاً الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ؛ فيالها من منة لا يقدر عليها إلا الخلاق العظيم الذى يفتح أمام الخطائين عن سهو أو نسيان أو زلزلة باب الأمل والرجاء ، حتى لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلا : فإنه لا ييأسُ منَ روحِ اللهِ ، إلا القومُ الكافرون ؛ ويهيء لهم دائماً فرصة للارتداع والاسترجاع . والله أفرح بعبده التائب من

الذى فقد شيئاً نفيساً لديه ثم عثر عليه ؛ وها هوذا سبحانه يجعل فرصة التطهر والتخلص ممزوجة بالتزود من الخير والاقتراب من البر فيجعل عمل الخير تكفيراً لسالف الشر ، وإتيان الحسنة محوا للسيئة ، وفى ذلك ما فيه من الإغراء والتحريض على الدنو من حمى الخيرات. فيقول : « إن الحسنات يذهبنَ السيئات ذلكَ ذكرى للذاكرين » ويقول عن فريق من عباده الناجين بمشيئته : « خلطوُا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسىَ اللهَ أن يتوبَ عليهمْ » . ويقول رسوله عليه السلام : « واتبع الحسنة السيئة تمحها وخالق الناسَ بخلق حسن » .

ومن ثمرات الاستغفار الذى جعله الإسلام متكررا ما تكرر الذنب والخطأ ، تربية الحياء والخجل فى نفس الإنسان ، فإنه إذا أخطأ ثم استغفر فغفر له ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، حدثته نفسه — إن لم تكن قد ماتت — بأن هذا لا يليق به كإنسان ، ولا يجدر به كرجل حر ذى ضمير ، فيخجل من نفسه ، ويستحى من تكرار خطئه ، فيستشعر فى صدره قوة عزم على المقاومة للهوى ، والمغالبة للشيطان حتى يقهره ويستجيب لنداء الرحمن ، ولعل هذا هو المعنى الذى أراده على رضى الله عنه حينما جاءه شخص فسأله قائلا : رجل أذنب فماذا يفعل ؟ . قال على : يتوب ويستغفر ! . قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! . قال على : يتوب ويستغفر ! . قال الرجل : قد فعل ثم عاد ! . . قال على : يتوب ويستغفر ولو فعل ذلك مائة مرة حتى يخزى الشيطان ! . . ولو فرضنا ما لا يليق بالمرء وهو أن يستمر فى غيه وبغيه بلا خجل أو ارعواء ، رغم انفتاح باب المتاب أمامه ، لحقق الإسلام من ذلك شيئاً آخر هو الإعذار إلى مثل هذا الميت الخبيث كيلا يكون له على الله حجة بعد ما ساسه بكل أساليب الرحمة والتكريم ! . .

ومن فوائد الإكثار من حديث الاستغفار إشعار الهداة وتذكير المصلحين بأن الخطأ والزلل من طبيعة البشر ، فيجب على أولئك المرشدين أن تتسع

صدورهم ، وأن تقوى عزائمهم ، وأن يجمل صبرهم ، فلا يتضايقون ولا ييأسوا لرؤية الفشل أو تكرار الزلل ، بل يحتملون الصدمات ويعاودون الكرات والمحاولات ، إذ لو كان الخير عاماً وطبيعة فى الناس لما احتجنا إلى معلمين ومقومين ، ولكن الله يقول : « ولتكنْ منكمْ أمةٌ يدعونَ إلىَ الخير ويأمرونَ بالمعروفِ وينهونَ عن المنكرِ ، وأولئكَ همُ المفلحونَ » ويقول : « وأمرْ بالمعروفِ وأنهْ عنِ المنكرِ واصبرْ علىَ ما أصابكَ إنَّ ذلكَ منْ عزمِ الأمور » ! . .

ولا ننسى أيضاً ما فى الاستغفار والدعاء والمناجاة من لذة روحية وطمأنينة نفسية ، وتباعد عن صخب الحياة ، واتصال بالملأ الأعلى . وفى ذلك استعداد قوى وتهيؤ فعال لحسن التحول وكريم الاتجاه ، ولعل هذا هو مغزى الحديث النبوى الشريف : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

الكمال المطلق للبشر محال ، والعصمة للأنبياء والمرسلين ، والخضوع المطلق للهوى الأثيم ضلال أى ضلال ، فلم يبق إذن إلا أن نحاول الخير ما استطعنا ، ولا يضيرنا أن نعثر أو نزل ، فذلك حظ مقسوم ، ولكن يضيرنا أن نستمر على الخطأ أو نرضى به ، أو نسعى إليه مختارين مستحلين ، فلنرفع رءوسنا مرة جديدة أخرى ، ولنطو صفحات الماضى بما فيه ، ولنستغفر الله إنه هو الغفور الرحيم ، ولنبدأ الطريق من جديد ، فلن يقطعه علينا الحليم الكريم ، واتقوُا اللهَ الذى أنتمُ بهِ مؤمنونَ ، إنَّ اللهَ معَ الذينَ اتقوْا والذينَ همْ محسنونَ .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

هدف الدعاء [1]

الحمد لله عز وجل ، هو سميع الدعاء محقق الرجاء : « أمّن يجيبُ المضطرَ إذا دعاه ويكشفُ السوءَ ويجعلكمْ خلفاءَ الأرضِ أإلهَ معَ اللهِ قليلاً ما تذكرونَ » أشهد أن لا إله إلا الله يحكم بالعدل ويمن بالفضل « إنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ منَ المحسنينَ » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا وعمل ، وآمن وأحسن ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، « تتجافَى جنوبهمْ عنِ المضاجعِ يدعونَ ربهمْ خوفاً وطمعاً ومما رزقناهمْ ينفقوُن » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

الدعاء أمر مشروع فى الإسلام ، بل هو شئ محبوب مطلوب ، وقد قال الله جل جلاله : « وقالَ ربكمُ أدعونِى أستجبْ لكمْ » وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض » ولكن آلافاً من الناس يدعون معتقدين أن كل المطلوب منهم هو تحريك ألسنتهم ، ثم ينتظرون فى كسل وبلادة تحقيق ما أرادوا ، فإذا لم يتحقق غضبوا وثاروا ، أو عصفت بقلوبهم الشكوك والأوهام ، وبذلك تضيع جهود وأوقات ، وتنحرف أفكار ومفاهيم ، كما تزهق روح الاستجابة العملية التى أرادها الإسلام من الداعى حين يردد دعاءه ، فلو تدبر فى معانى الكلمات التى يدعو بها ، لثارت هذه المعانى فى نفسه ، وذكرّته بما يجب أن يكون عليه من خير وفضل ، وجد وعمل ، وما يجب أن ينأى عنه من شر وعجز ، وجمود وكسل ، فيندفع بحسه ونفسه ، فى مسالك هذه الاستجابة وأسبابها ، فيكون أهلا لإعانة الله له ، وتحقيق الأقدار لما أراده فى دعائه ، وكأن الله

---

(1) ألقيت يوم الجمعة ٢٦ شعبان سنة ١٣٨٦ هـ ٩ ديسمبر سنة ١٩٦٦ م .

تبارك وتعالى يشير إلى هذا المعنى فى قوله : « وإذاَ سألكَ عبادى عنىّ فإنّى قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذادعانِ فليستجيبوُا لى ليؤمنوُا بِى لعلهمْ يرشدون» فهو يذكر عباده فى مقام الدعاء ومقام التحقيق لهذا الدعاء بالاستجابة ، وهى إقبال عملى على مواطن الرضى الإلهى ومواقع الطاعة المقبولة ويذكر بالإيمان والإيمان تصديق ويقين يصحبهما عزم وهمة وتصميم ، ويذكر بالرشد ، والرشاد يفيد الصواب فى العمل ، والموافقة للحق والمصاحبة للواجب ، فكأنه يقول اعملوا وأطيعوا ، وأنا أحقق لكم دعاءكم ورجاءكم ، « إنماَ يتقبلُ اللهُ منَ المتقينَ » .

وفى الحديث : « الدعاء مخ العبادة » وفى رواية : « الدعاء هو العبادة » أى أن الدعاء هو كالعقل الواعى للعبادة المذكر بها ، فالداعى يستثير كل جوارحه وحواسه ، لتكون حاضرة مهيأة للاستجابة ، ومعنى العبادة واسع فسيح ، فكل عمل طيب يؤدى بنية طيبة مخلصة يكون عبادة . وفى الحديث أيضاً : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء منْ قلبٍ غافل لاه » أى ادعوا الله بحيث تكونون على حالة تستحقون فيها الإجابة ، وهى حالة العمل والطاعة والمجاهدة ، وأما الدعاء مع غفلة عن الواجبات أو لهو عن الأعمال فهو غير جدير بالإجابة ، ولذلك قال عمر الفاروق : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويرفع يديه نحو السماء ويقول : اللهم أرزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » ثم حرض بعد ذلك على العمل والجد ، فالدعاء لم يشرع ليكون تمتمة سلبية ، أو ترديداً لكلمات دون استشعار لمعناها أو استجابة لمغزاها ، وإنما الدعاء كأنه لون من التوجيه والإدعاء : تردد الشفاه الكلمات ، فيحسن العقل تلقى معناها ، ويحسن القلب الاستجابة للتأثر بهذا المعنى ، ويشيع هذا التأثر فى الإنسان ، وينتقل من مجال النفس إلى مجال الحس ، فتشرع الهمة فى تسخير الأعضاء والحواس ،

فيرتفع المرء إلى درجة الرضا الإلهى ، فيستحق منه الرعاية ، ويكون أهلا لموطن العناية ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وحينما نرجع إلى روضة السنة المطهرة نجد فيها من الأدعية ما تستطيع أن نعده لوناً من الحث والتحريض على إثارة معانى العزم والحزم والتصميم فى نفس من أصابه فتور أو حزن ، وكأن الدعاء فى هذه الحالة حمام ساخن للبدن والنفس معاً ، يشملهما بمائه الطهور ، فيوجد فيهما اليقظة والنشاط ، ويدفع بهما إلى مواصلة الجهد فى سبيل ما يريده الإنسان ، ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا جالساً فى المسجد ، فقال له : « مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت الصلاة » فشكا الرجل إليه هموماً وديوناً لزمته ، فقال له الرسول : « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » . والواجب أن نطيل التأمل فى قوله صلى الله عليه وسلم : « مالى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت الصلاة » . كأن المكان الطبيعى للرجل فى غير وقت الصلاة هو مجال العمل والكسب ، ولنتأمل كذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمسيت وإذا أصبحت » . كأنه يعلمه أن يجعل حديث التصميم والعزم والتأبى على الضعف فاتحة يومه وخاتمته ، ليكون ذلك محرضاً دائماً لحسه ونفسه . ولنتأمل أيضاً قوله : « اللهم إنى أعوذ بك . . . » فهو هنا يستعيذ بالله من شر قبيح ، ومن أمر يفر منه الإنسان إلى من يعصمه منه ، ولنتأمل قوله : « غلبة الدين وقهر الرجال » . كأن الداء الدوى فى الإنسان هو أن يستسلم فيصبح مغلوباً أمام مشكلة أو مقهوراً لغيره من الناس . أليس هذا تحريضاً قوياً على الإحساس بمعانى الدعوات ، والاستجابة لما يليق بالإنسان العاقل البصير عند تذكر معانيها من جد واجتهاد؟!.

ولقد تعلمنا من تراثنا الديني أن الله تبارك وتعالى يجعل الاستجابة للدعاء في صور مختلفة ، فقد يعجل للانسان قضاء ما يريده من أمور مادية ، وقد يؤجل له ذلك إلى حين ، وقد يعوضه عما يريده بما هو أفضل منه في دينه أو خلقه أو علمه أو سمعته أو غير ذلك من النواحي ، وكأن معنى هذا أن الدعاء ليس جواز مرور مباشر من الإنسان إلى ما يريد في كل الأحوال ، بل مرجع ذلك إلى الله القدير الذي تصير إليه الأمور ، وفي هذا ما فيه من توجيه للانسان كي يظل حريصاً على رضى هذا الإله العظيم ، وعلى الاستمساك بما يأمر به والابتعاد عما يحذر منه ، وعلى الاستسلام القانع الخاشع المطمئن المرحب بكل ما يقضيه الله ويأتي به ، حتى يكون المرء جديراً باستماع هذا الإله العظيم لدعائه ، واستجابته لرجائه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ليكن دعاؤنا دائماً مقروناً باستثارة للنفس ، وتنبيه للحس ، وإيقاظ للعزم ، ودفع بالهمة إلى الأمام في مضاء ، ولنتدبر مثل هذا الدعاء الذي دعا به أحد العقلاء : اللهم هبني الصبر والقوة لأرضى بما ليس منه بد ، وهبني الشجاعة والهمة لأميز ما تقوى على تغييره اليد ، وهبني الرشاد والحكمة لأميز بين هذا وذاك . واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلو ربكم التوفيق يستجب لكم .

من دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم [1]

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يتقبلُ التوبةَ عن عباده ويعفو عن السيئات والهفوات ، وهو اللطيف الخبير ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو واسع العطاء سميعُ الدعاء ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، استعاذ بربه من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء ، فوقاه ربه وهو خير الحافظين ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وشيعته ، والسائرين على طريقته الذين « تتجافى جنوبهمْ عنِ المضاجعِ يدعونَ ربهمْ خوفاً وطمعاً ومما رزقناهمْ ينفقونَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

جاء فى الحديث الصحيح : « الدعاء مخ العبادة » ، وذلك لأن الداعى الواعى هو الذى إذا تدبر معانى الكلمات التى يرددها لسانه ويدعو بها ، ثارت هذه المعانى فى نفسه ، وذكرته بما يجب أن يكون عليه من خير وفضل ، وجد وعمل ، وما يجب أن يحذره من سوء وإثم ، أو جمود وكسل ، فيندفع بحسه ونفسه فى طرق هذه الاستجابة وأسبابها ، فيكون أهلا لإعانة الله له ، وتحقيق الأقدار لما أراده فى دعائه السليم القويم ، فكأن الدعوات حينئذ حوافز روحية تدفع الإنسان أثناء التدبر العميق لكلمات الدعاء إلى الأسباب والوسائل الموصلة لتحقيق هذه المعانى التى يديرها بعقله ، ويخطرها فى قلبه ، ويرددها بلسانه ، فيكون ممن قال لهم ربهم : « وقال ربكم أدعونى أستجبْ لكمْ » . وكأنى أفهم أن الله تبارك وتعالى يشير إلى هذا المعنى فى قوله عز من قائل : «وإذا سألكَ عبادى عنىٍّ فإنى قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِى إذاَ دعانِ ، فليستجيبوُا لى وليؤمنوُا بى لعلهمْ يرشدوُن » فإن الله تعالى يذكر عباده فى

---

(1) القيت يوم الجمعة ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ ٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ م.

مقام الدعاء بالاستجابة ، وهى إقبال عملى على مواطن الرضى الإلهى ، ومواقع الطاعة المقبولة ، ويذكرهم كذلك بالإيمان ، والإيمان تصديق ويقين يصاحبهما عزم وهمة وتصميم ، ويذكرهم بالرشد ، والرشاد يفيد الصواب فى العمل ، والموافقة للحق ، والمصاحبة للواجب ، فكأنه سبحانه يقول وهو أعلم بمراده : أدعونى وأنتم مستجيبون لى ، مؤمنون بى ، سالكون طريق الحق والصواب نحوى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذاَ دعاكمْ لما يحييكمْ ، واعلموا أنّ اللهَ يحولُ بينَ المرءِ وقلبهِ ، وأنهّ إليهِ تحشرُون ﴾[1] .

وللرسول صلوات الله وسلامه عليه أدعية كثيرة بليغة ليت المسلم يعكف عليها ، ويستمد منها ، ليكون ممن اهتدى بهدى سيدنا وقائدنا وإمامنا وزعيمنا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ومن جوامع الكلم فى دعائه قوله : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وعمل لا يرفع ، ودعاء لا يُسمع [2] ». وهو دعاء قصير بليغ ، فيه أكثر من حكمة وأكثر من عظة ،فهو يبدأ بقول الرسول « اللهم إنى أعوذ بك » ، والاستعاذة هى الالتجاء والتحصن والاستنجاد ولا يجوز لمسلم أن يطلب الحفظ والأمان إلا من الله واهب القوى والقدر ، ولذلك علم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ به ، ويلتجىء إليه ، فقال له : «وإماّ ينزغنكَ منَ الشيطانِ نزغٌ فاستعذْ باللهِ إنهَ سميعٌ عليمٌ» وقال له : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، وقال له عز من قائل : « قل أعوذُ بربِ الفلقِ من شرِ ما خلق ومن شرِ غاسقٍ إذا وقبَ ، ومن شر النفاثات فى العقد ومن شرِ حاسدٍ إذا حسد » ، وقال له :

---

(١) انظر كتابى « وسائل تقدم المسلمين » ص ٥٠

(٢) حديث صحيح رواه أحمد والحاكم وابن حيان فى صحيح وفى رواية «اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من كل هؤلاء الأربع » رواه الترمذى والنسائى والحاكم وابن ماجه .

« قلْ أعوذُ بربِ الناسِ ، ملكِ الناسِ ، إلهِ الناسِ ، من شرِ الوسواسِ الخناسِ الذى يوسوسُ فى صدورِ الناسِ ، من الجنةَ والناسِ » .

وأول دعوة دعاها الرسول هنا : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع » وهكذا يعلمنا رسول الله التمييز وحسن الاختيار ، فيتعلم الإنسان ما يفيده وينفعه فى دينه ودنياه ، . يحذر العلوم التى تضر وتسيء ، كالسحر والكهانة وعلوم الزندقة والإلحاد ، ووسائل التحريض على الفسق والفجور والفساد ، وإذا كان المسلم يستعيذ بالله — كما علمه رسول الله — من العلم القتال المضل الذى لا ينفع ، أو الذى لا يحقق المصلحة الفردية والجماعية ، فواجبه مع ذلك أن يطلب العلم الصالح النافع المحقق لمطلب الحياة السليمة العظيمة التى يعيشها الأحرار الأبرار ، ومن هنا جعل الإسلام العلم فريضة على كل مسلم ، وقال الحق جل جلاله : « وقل ربِّ زدنى علماً » . وكأن هذه الدعوة توجيه نبوى كريم إلى ولاة الأمور فى الإسلام أن يغربلوا مناهج تعليمهم وثقافتهم ليطهروها من كل دخيل أو عليل ، وأن يقووا فيها جوانب الخير والبر ، وفى طليعتها التربية الدينية والأخلاقية التى تطهر وتعمر ، فذلك هو طريق الخير فى الدنيا والآخرة « يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ ، إلا منْ أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ » .

والدعوة النبوية الثانية : « وأعوذ بك من عمل لا يرفع » ، أى لا يقبل عند الله ، بل يرد على صاحبه كما يرد الثوب الخلق القذر ، وإذا العلم الصحيح السليم النافع قاعدة أساسية للايمان والعمل الطيب المثمر ، فلابد أن يكون من وراء هذا العلم تطبيق وتنفيذ ، وما دام العلم سليما قويماً ، فمن الواجب فى شرعة العقلاء أن يكون العمل كريماً نافعاً ، حتى يرفع إلى مقام القبول والرضى والرضوان من الله عز وجل ، وقد أرشدنا القرآن إلى العمل الذى يرفع ، وقرر أنه العمل الصالح : « منْ كانَ يريدُ العزةَ فللهِ العزةُ جميعاً إليه يصعدُ الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعهُ ، والذين يمكرونَ السيئاتِ لهمْ عذابٌ شديدٌ

ومكرُ أولئك هو يبوُر » . كما قرر الكتاب العزيز أن من أراد لقاء الله لقاء حسناً يزينه الثواب والنعيم فعليه بهذا العمل الصالح ، المرفوع المقبول : « قلْ إنمآ أنابشرٌ مثلكمْ يوحى إلىّ انما إلهكمْ إلهٌ واحدٌ ، فمنْ كانَ يرجوُ لقاءَ ربه فليعملْ عملاً صالحاً ولايشركْ بعبادة ربه أحداً » كما قرر أن أصحاب العمل الصالح هم الناجون من الخسران والبوار : « والعصر إن الإنسان لفى خسرٍ إلاّ الذينَ آمنوُاوعملوُا الصالحاتِوتواصوْا بالحقِ وتواصوْا بالصبرِ » . والعمل الصالح ليس مقصوراً على العبادات الدينية المفروضة ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، وإن كانت تأتى فى القمة وفى المقدمة ، بل يشمل العمل الصالح كل جهد نافع يبذله الإنسان فيحقق به خيراً أو نفعاً لنفسه أو لأسرته أو لوطنه أو للانسانية كلها ، وما أكثر هذه الأعمال .

والدعوة النبوية الثالثة : « وأعوذ بك من دعاء لا يسمع » أى لا يقبل عند الله ولا يستجاب له وقد أرشدنا رسول الله فى حديث آخر إلى طريق الاستجابة فى الدعاء فقال : « أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » أى ادعوا ربكم وأنتم بحال تستحقون فيها الإجابة ، وهى حالة القيام بطاعة الله تعالى ، واليقين بأنه يجيب الداعى إذا دعاه باستقامة وإخلاص ، وأما إذا دعا الإنسان وهو غافل عن واجبه لاه عن طاعته ، والقرآن الكريم يقول : « إنما يتقبلُ الله منَ المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

العلم النافع والعمل الصالح ، والدعاء المخلص . . . إنها ثلاثة أعمدة تنهض عليها حياة المسلم الكريم ، فتعلموا وأعملوا وادعوا ربكم وأنتم موقنون بالإجابة أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

فانا أول العابدين [1]

الحمد لله جل جلاله ، تعالى عن الشبيه والنظير : ليسَ كمثلهِ شيءٌ وهوَ السميعُ البصيرُ ، أحمده سبحانه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وله الكبرياءُ فى السمواتِ والأرضِ ، وهو العزيز الحكيم » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أول من استجاب وطليعة من أناب ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى أغصان دوحته وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته « لهمُ البشرى فى الحياةِ الدنيا وفى الآخرةِ لا تبديلَ لكلماتِ اللهِ ذلكَ هو الفوزُ العظيمُ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن نقص الثقافة الإسلامية عند شبابنا ظاهرة فاشية مؤسفة ، لا يقتصر ضررها على هؤلاء الشباب ، بل يتسع أثرها وشرها ، حتى تسيء إلى الإسلام نفسه . لأن أبناء الدين مظهر له وعنوان ، والناس ينظرون إلى الدين من خلال تصرفات أبنائه وأقوالهم ، فإذا كان هؤلاء الأبناء يجهلون مبادىء الدين وتعاليمه ، فإنهم يعطون صورة مشوهة لهذا الدين ، ويظهرون بمظهر سيء مخجل أمام أهل الأديان الأخرى . ويزداد الأمر خطورة إذا تذكرنا أن هناك من يصنيدون فى الماء العكر . فيرددون الشبهات . ويروجون المفتريات ، ويسلكون طريقة المشككين الماكرين ، فيخادعون الغافلين عن فهم الدين ، المعرضين عن تدبر القرآن الحكيم .

وهذا نموذج من ذلك القبيل : جاءنى شاب مسلم تبدو عليه الحيرة والضيق والقلق ، وقال لى إن شاباً غير مسلم قد أحرجه منذ حين فسأله عن آية فى كتاب الله لم يعرف معناها ، فسخر منه وشككه وأثاره . فقلت له

(١) ألقيت يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٩٤ هـ ٥ يوليه سنة ١٩٧٤ م .

بهدوء : لعل العيب منك ، لأنك لم تحسن أولا اختيار من تخالط ، ولأنك لم تعن ثانياً بتفقه دينك وتدبر قرآنك ، ولأنك لم تبادر ثالثاً إلى تطلب المعرفة من أهلها مع أن دينك يقول لك: فاسألوُا أهلَ الذكرِ إنْ كنتمْ لاَ تعلموُن .

ثم سألته عن الآية التي شككه السائل فيها : فقال : هي الآية التي تقول : « قل إنْ كانَ للرحمنِ ولدٌ فأنا أولُ العابدين » .فقلت له : هون عليك ، وافهم أولا أن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً ، وأنه كل لا يتجزأ ، ويجب أن يؤخذ ككل ، لأن الآيات الكريمة تفهم مجتمعة متلاقية متعاونة ، والقرآن الحكيم قد عني في طليعة ما عني به — بتقرير الوحدانية وتأكيدها . ونفي الولد والصاحبة عن الله جل جلاله ، فقال مثلا : « ما كانَ لله أن يتخذَ من ولد سبحانه »وقال :«ما اتخذَ اللهُ منولدٍ وما كانَ معهُ من إلهٍ إذن لذهبَ كلُ إلهٍ بما خلقَ ولعلابعضهم على بعض سبحانالله عما يصفوُن»وقال« وأنه تعالى جد ربنا (أي جلاله وسلطانه (ما اتخذَ صاحبةً ولا ولداً » . والآية المسئول عنها تقول : «قلْ إنكانَ للرحمنِ ولدٌفأنا أولُ العابدين » ، وهي في سورة الزخرف ، وقد تكرر اسم الرحمن في هذه السورة سبع مرات ، والرحمن أحد أسماء الله الحسنى ، ومعناه : المنعم بجلائل النعم ، أو كثير الإحسان إلى العباد ، أو الذي تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل ، وهي إفاضة النعم والإحسان على الخلائق . ومعنى الآية باختصار هو أن الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للكافرين والمشركين : إن كان لله المنعم الأول ولد — كما تزعمون وتفترون — فأنا أول العابدين الموحدين لله ، المكذبين لافترائكم عليه بنسبة الولد إليه ، فهو هو سبحانه الآمر بقوله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ،ولم يكن له كفواً أحد»،فإنكان للرحمن ولد في زعمكم الواهم أو وهمكم الزاعم . فلست من الزاعمين أو الواهمين ، بل أنا أول العابدين له على بصيرة رباً واحداً لا شريك له ولا معبود سواه ، فأنا

أعبده على أساس الحقيقة والواقع ، وهو أنه لا ولد له ، وأنا أول من يكذب تكذيباً عملياً ذلك الافتراء على الله عز وجل .

أو يكون معنى الآية : قل لهم يا محمد ، إن كان للرحمن ولد فرضاً ، فأنا ملتزم طاعة ربى فى كل الأحوال ، لأننى عبد من عبيده ، مطيع لجميع ما يأمرنى به ، ليس عندى أى إباء أو استكبار عن عبادته ، فلو فرض هـذا لكان هذا ، ولكن هذا الفرض ممتنع فى حقه ، مستحيل عليه جل جلاله ، والأمر على حد قوله فى آية أخرى : « لو أرادَ اللهُ أن يتخذَ ولداً لاصطفىَ مما يخلقُ ما يشاءسبحانهُ هو اللهُ الواحدُ القهارُ » . ولذلك جاء بعد الآية المسئول عنها مباشرة قوله : « سبحان ربِّ السمواتِ والأرضِ ربِّ العرشِ عما يصفونَ فذرهم يخوضُوا ويلعبوُا حتى يلاقوُا يومهم الذى يوعدون » . أى تقدس ربنا ، وتنزه فى جلاله وكماله . فهو خالق الأشياء كلها . ومالك الأشياء كلها ، ورب السموات كلها ، ورب الأرض كلها ، ورب العرش كله : تنزه عن أن يكون له ولد ، بل هو الله الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وكأن الله تبارك وتعالى يريد — وهو أعلم بمراده — أن يعلم رسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم ، الطاعة المطلقة لله الرحمن فى كل الأحوال ، بلا تردد ولا توقف ، فالحق واضح ، والصراط لائح ، واليقين موفور :

وفى كلِ شيءٍ لـهُ آيةٌ تدلُّ على أنهّ الواحـدُ

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهو على يقين من أمره ، وعلى نور من ربه ، يجعل نفسه أول العابدين ، وأول المستجيبين وأول الملتزمين بصفة العبودية الكاملة والطاعة الشاملة . لله الخالق البارىء المصور : اللهُ لاَ إلهَ إلاَ هوُ الحىُ القيومُ لاتأخذهُ سنةٌ ولانومٌ لهُ ما فِى السمواتِ وما فى الأرضِ

من ذا الذى يشفعُ عندهَ إلا بإذنهِ يعلمُ ما بينْ أيديهمْ وما خلفهمْ ولا يحيطون بشىءٍ من علمهِ إلا ما شاءَ وسع كرسيهُ السمواتِ والأرضَ ولا يؤدُهُ حفظهما وهو العلىّ العظيم » .

لقد استراح الشاب الحائر إلى الحديث الذى اتسع وامتد ، وردد وكأنه يتحدث إلى نفسه : آه لو كنت أعرف هذا حينما سئلت ؟ قلت : يا بنى من أدب الإسلام أن يعود أبناءه عدم الإكثار من التلفت إلى الوراء على سبيل التحسر والتأسف ، والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم المسلم بقوله : «ولا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا فإن لو تفتح باب الشيطان » . وأدب الإسلام يعود أبناءه التطلع إلى المستقبل بعين الثقة والهمة والعزيمة وحسن الرجاء فى الله أرحم الراحمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

ان القرآن الكريم كنز قد نعرف بدايته ولكننا مهما بذلنا لا نبلغ غايته ، وهو مأدبة الله فى الأرض كما قال الصادق المصدوق صلوات الله عليه ، ومن واجبنا أن نقبل إليه وأن نتدبر فيه ، حتى تكون على بصيرة من أمرنا ، وهذه من ديننا ، وعلى اللهِ قصد السبيلِ ومنها جائر ، ولو شاءَ لهداكم أجمعين . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

طريق السعادة [1]

الحمد لله ، عز وجل خلق الخلق وهو يريد بهم اليسر ، ولا يريد بهم العسر ، وهو اللطيف الخبير ، وأجرى الرزق ليبدى عظمه ، ويظهر كرمه وهو الرءوف الرحيم ؛ نشهد أن لا إله إلا الله ، أوضح الطرق والمعالم ، ويسر المناهج والمغانم : « إن اللهَ لذو فضلٍ على الناسِ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرون » ونشهدُ أنَّ سيدنا محمداً رسول الله ، أرضى مولاه ولم يضع دنياه ، وعمل لأخراه ولم ينس أولاه ، ففاز فوزاً عظيما ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الخيرة الطيبة من آله ، والصفوة النقية من أصحابه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « فأولئكَ معَ المؤمنينَ وسوفَ يؤتِ اللهُ المؤمنينَ أجراً عظيما ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

كل إنسان فى الحياة يبحث جاهداً عن السعادة ، ويود الوصول إليها والحصول عليها بأى ثمن من الأثمان ، وكثير من الواهمين يدعون أن السعادة لفظ لا حقيقة له ، وخيال يبتدعه الوهم ويكذبه الواقع ؛ ويظهر أن هؤلاء جاهلون أو مخادعون ، لأنه لا يعقل أن يخلقنا الله تعالى فى هذا الكون الوسيع الملىء بالآلاء والخيرات ، والنعم والبركات ، وهو يريد لنا جميعاً أن نشقى ، وكيف والله يقول لرسوله : « طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ويقول : « فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى » ؟ وهو أيضاً يجعل الأشقياء أهل النار : « فأما الذينَ شقُوا ففى النارِ لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ » ، « ويتجنبها الأشقىَ ، الذى يصلىَ النارَ الكبرى ، ثم لا يموتُ فيها ولا يحيىَ » ، « كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها » ، « قالوا ربنا غلبتْ علينا شقوتنا وكناً قوماً ضالين » كما يجعل للجنة السعداء : « وأما الذين سعدوا ففى الجنة

---

(١) ألقيت فى مسجد الصباح يوم الجمعة ١٩٧٥/٦/٦ م .

خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرض » ؟ . . . ولكن يظهر أن السعادة بين أيديهم وهم عن الشعور بها والالتفات إليها غافلون . . .

لو نظر هذا الإنسان الواهم إلى ذاته لوجدها مكونة من جسم همه الطعام والشراب ، وازدياد من الغذاء بلا ارعواء ، ونفس همها أن ترتع فى الآثام ، وأن تعب من الفواحش والمنكرات بلا احتشام ، وقلب متقلب ينوء بما يحمل من هموم ، وما يصطنعه من أحزان وأشجان ، ولسان ينطلق بالخنا والفحش واللغو فيخرج جراحات لا تقبل الالتئام ، وقد لاحظ هذا الطبيب الإسلامى المشهور ثابت بن قرة ، فاستخرج منه الطريق الموصل إلى السعادة ، وصاغه فى عبارة قليلة جليلة ، هى من خير ما يوضع أمام بصر المسلم وبصيرته ليديم فيها تفكيره وتدبيره ، قال : « راحة الجسم فى قلة الطعام ، وراحة النفس فى قلة الآثام ، وراحة القلب فى قلة الاهتمام ، وراحة اللسان فى قلة الكلام » ! . .

صدق الحكيم اللبيب ؛ إن راحة الجسم فى قلة الطعام ، لأن الجسم آلة وقودها طعامها ، والوقود يجب أن يعطى بمقدار ، فإن زاد كان أخبث النار ، والجسم حينما نطلق له العنان ليأخذ مشتهاه يصبح نكبة على صاحبه تسلخه من الإنسانية وتلحقه بالبهيمية ، وربما عجلت له بالتلف والدمار والعقلاء إنما يأكلون ليعيشوا ، بينما السفهاء هم الذين يعيشون ليأكلوا ، ومن هنا رأينا القرآن يقول : « وكلوُا واشربوُا ولا تسرفوُا إنهَ لا يحبُ المسرفينَ » ويقول الرسول فيما ينسب إليه : « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » ويقول : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » ويقول : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

وارحة النفس فى قلة الآثام ، لأن النفس أمارة بالسوء ، وهى إذا تحررت من ضوابطها وانطلقت من عقالها جرت مع الشيطان فى عناق ، فاختلست وانتهكت ، وغشت وخدعت ، وظلمت وأسرفت ؛ ولذلك كان أعدى أعداء الإنسان نفسه التى بين جنبيه ، إن استجاب لها قضت عليه ، وإن حال بينها وبين مشتهاها من البغى والإثم عادت بالخير إليه : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » وصدق البوصيرى حين قال :

والنفسُ كالطفلِ إنْ تهملهُ شبّ على ... حبِّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها ، وحاذرْ أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم أو يصم

وحين نصح فقال :

وخالف النفسَ والشيطانَ واعصهما ... وإن هما محضناك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكماً ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يدعو بهذه الكلمات الموضحة لخطر النفس على الإنسان :

« يارب ، خلقتنى وأمرتنى ونهيتنى ، ورغبتنى فى ثواب ما أمرتنى به ، ورهبتنى عقاب ما نهيتنى عنه ، وسلطت على عدواً فأسكنته صدرى ، وأسكنته مجرى دمى ، إن أهم بفاحشة شجعنى ، وإن أهم بطاعة ثبطنى . لا يغفل إن غفلت ، ولا ينسى إن نسيت ، ينصب لى فى الشهوات ، ويتعرض لى فى الشبهات ، وإلا تصرف عنى كيده يستزلنى . اللهم فاقهر سلطانه على بسلطانك عليه حتى تخنسه ، بكثرة ذكرى لك ، فأفوز مع المعصومين بك ، ولا حول ولا قوة إلا بك [1] !! . .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٩٤

وراحة القلب فى قلة الاهتمام ، أى فى قلة الهم والخوف والحزن لأن القلب الضعيف الجبان المنخوب يفتح على صاحبه دائماً أبواب الهم والحزن ، ويحول بينه وبين البركات والمنن ويذوده عن مواطن العزم والإقدام ، فهو يخاف من الأوهام ، ويتفزع من طيف فى الظلام ، ويبيت فى هم مقعد مقيم . لأنه من هلعه وفزعه يفكر فى الماضى ويندم على ما فيه ، ويضيق بالحاضر فتضيع بهجته ويذهب بهاؤه ، ويتصور الغد المحجب سبعاً سيفتك به فلا يستريح ، وهو يخلق له من الناس أعداء بالحق وبالباطل ، ويحسب لكلامهم وهمسهم ألف حساب فيصيبه ألف عذاب ، وهو يطمع فيما لا ينال ، ويتعلق حلمه بالخيال ، مع أن ما لا يمكن أن يدرك يمكن أن يترك ، وإذا لم يكن للمرء ما يريد فليرد ما يكون ، وبذلك يتمتع الإنسان بحياته ، ويخضع أيامه لرضاه ومسراته ، ويستقبل المنحة خير استقبال ، ويحتمل المحنة أفضل احتمال ، وهذه نعمة لا يفوز بها إلا صاحب القلب الثابت على الرضا بالله حظاً ونصيباً ، ومن هنا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يكثر من قوله فى دعائه : اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ! . . .

ومتى ثبت القلب على دين الله ، واعتصم بحبل الله ، ولجأ إلى حمى الله ، فقد آوى إلى ركن شديد ، والإسلام يعلم أهله أمن النفس ، وطمأنينة القلب ، ورباطة الجأش ، فيقول القرآن فى صفة المؤمنين : « الذينَ آمنوُا وتطمئنُ قلوبهمْ بذكرِ اللهِ ألا بذكرِ الله تطمئنُ القلوُب » ويأمرهم بالابتعاد عن الحزن وأسبابه فيقول : « ولا تهنوُا ولا تحزنوُا وأنتم الأعلونَ إن كنتم مؤمنين » . ويقول فى صفات أولياء الله : « ألا إن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنوُن . الذين آمنوا كانوا يتقون » ويصف العباد المستقيمين بأنهم لا يخافون ولا يحزنون : « إن الذينَ قالوُا ربنا الله ثم استقاموا تتنزُل عليهمُ الملائكةُ ألا تخافوُا ولا تحزنوُا وابشروُا بالجنةِ التى كنتمْ

توعدُون ، نحن أولياؤُكمْ فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكمْ فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعوُن . نزلاً عن غفور رحيم » .

وراحة اللسان فى قلة الكلام ، لأن المكثار معثار ، واللسان إذا تعود الكلام المنطلق بلا ضابط أو رابط كان مصيبة يجل فيها العزاء ، ولذلك أوصى الرسول فقال : : « أمسك عليك لسانك » . ولقد قيل لأحد الحكماء : متى يصبح الإنسان رجلا قوياً ؟ فأجاب : عندما يشتهى لسانه أن يقول كلمة غير حكيمة فيصده عنها بقوة واقتدار .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

هذا هو طريق السعادة فى الحياة ، يستطيع كل مكلف أن يسلكه ، ومن سار على الدرب وصل ، ولقد عبر عنه آخر فقال : إن التقى هو السعيد ، والتقوى هنا معنى يتسع فيعم ما فصله الطبيب الحكيم ، فإذا اتقى الجسم الإسراف فى الطعام ، واتقت النفس معاطب الآثام ، واتقى القلب أحمال الهم والاغتمام ، واتقى اللسان لغو الكلام ، فقد استقام المؤمن على الصراط ، وضمن لنفسه البهجة والهناء « قل هذه سبيلى أدعوُ إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله معَ الذينَ اتقوْا والذين هم محسنوُن .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

استقامة السلوك[1]

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذى لا يقبل إلا طيباً : « إليه يصعدُ الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعهُ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أدب عباده بالحسنى ، وهذبهم بالطريقة المثلى : « صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة؟ ونحنُ له عابدون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى فروع روضته ، ونجوم صحبته ، وأتباع ملته : «للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

الدين المعاملة ، والعقائد السليمة تظهر قيمتها فى تطبيقها ، والتعاليم الكريمة تبدو ثمراتها فى الحرص عليها والعمل بها ، وإذا ظل الدين اعتقاداً فى القلب ، أو فكرة فى العقل ، أو شعوراً فى النفس ، دون ترجمته أو التعبير عنه فى مجال السلوك ودنيا الحس والواقع ، كان محدود الأثر أو مطوى الخبر ؛ ويراد بالسلوك ما يجمع الأطراف الكثيرة من تصرفات الإنسان وأعماله وأقواله ، وهو يشمل معاملة الإنسان مع ربه ، ومعاملته مع بنى جنسه ، ومعاملته مع نفسه ؛ وقد جمع القرآن الكريم دستور الاستقامة فى السلوك مع الله عز وجل فى أمرين هما الإسلام والإحسان . بأن يسلم المـــرء نفسه وشأنه لربه ، فينقاد له فى جميع أحواله وشتى أموره ، ويحسن العمـــل فى السر والعلن ، فلا ينحرف عن صراط الاتزان والإحسان فى قليل أو كثير ، وبذلك ينال الإنسان عظيم الأجر ودائم الطمأنينة يقول القرآن : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه . ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٩ رجب سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ١٣ من نوفمبر سنة ١٩٦٤ م .

وإسلام المرء نفسه إلى بارئه مع الاستقامة فى الحركة والسكون هو مرتبة المراقبة الدائمة والإنسان الكامل الذى يعبر عنه سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه فيقول : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . ويصوره أبو ذر بقوله : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم أن أخشى الله كأنى أراه ، فإن لم أكن أراه فإنه يرانى » . وهو مرتبة الإيمان الكامل الذى لا يفضله إيمان ، فقد جاء فى الحديث : « أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » . وإذا علم المرء أن الله معه دائماً ، يرقبه ويحصى عليه ، واستشعر أنه يراه ، ويرى ما فى صدره وما فى سره ونجواه ، استقام منه السلوك والمعاملة مع هذا الإله العظيم المحيط بكل الأمور .

واستقامة السلوك مع الخلق نتيجة لاستقامة السلوك مع الخالق ، فإن المؤمن المستقيم مع ربه لن يكون إلا مستقيما مع عباده ، يحسن إليهم ويتلطف معهم ، ومن هنا جمع الحديث النبوى بين التقوى وحسن المعاملة للناس ، فقال : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » والواقع أن حسن الخلق هو المفتاح العجيب الذى يفتح به الإنسان قلوب البشر ، ويستحوذ به على إعجابهم ورضاهم ، وقد يعجز المرء عن إرضاء الخلق من جهة المال والمادة ، ولكنه يستطيع أن يؤثر فيهم أقوى التأثير بروحه العالية وخلقه الطيب ، ومن هنا قال إمام الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق » . والناس يشتدون فى عداوة من يسيء خلقه معهم ، أويشذ فى صلاتهم بهم ، إذ يرونه متكبراً متعجرفاً . وقد نبه الهدى النبوى الكريم على مثل هذا حين قال الرسول لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر . فقال رجل : يا رسول الله ، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً

وفعله حسناً . فقال النبي : إن الله يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس (أى إنكار الحق واحتقار الناس) .

وأما استقامة المرء فى سلوكه مع نفسه فهى أن يجنبها مواطن الذلةوالصغار وأن يربطها بمعالى الأمور ، فلا يرتضى لكرامته موقف مهانة ، ولا لصدره عاطفة خسة ، ولا للسانه كلمة وقاحة ، ولا لبدنه مذلة إثم ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها . ويكره سفسافها » . وأن يتسامى بنفسه عما لا يعنيها أو لا يدخل فى اختصاصها ، فالرسول يقول : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » وأن يباعد بينها وبين ظلمات الريبة ومظان الشك والاتهام ، فالرسول يقول : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . ويقول سرى السقطى : « الأمور ثلاثة : أمر بان لك رشده فاتبعه ، وأمر بان لك غيه فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فقف عنده ، وكله إلى الله عز وجل » .

واستقامة السلوك كما تكون فى جلائل الأعمال تكون فى دقائق ربما لا يحفل بها الغافلون ، فالتلطف فى الأخذ ، والنبل فى الإعطاء ، والشكر على الجميل ، والإشعار عند الإقبال ، والاستئذان عند الإنصراف ، والاعتدال فى الصوت ، والاتزان فى المشية والجلسة والنظرة ، كل هذه أمور يجب أن يلاحظها من أراد أن يحسن المعاملة مع الناس لتتحقق له استقامة السلوك . وكذلك انحراف السلوك قد يكون فى أمور يحسبها الغافلون هينة ، وهى قبيحة مستهجنة ، فالبصق فى الطريق ، والتمخط بلا تحفظ ، والتثاؤب فى وجوه الناس ، والتجشؤ فى مواجهة الجالسين ، وفتح الأبواب على أهلها بلا إشعار أو استئذان ، والاطلاع على أشيائهم بلا إذن . والانصات إلى حديث المتناجين أو المتهامسين على سبيل الاستراق والتطلع ، والتجسس على المنفردين . والنظرة الوقحة إلى المرأة أو الفتاة . والزيارة بلا موعد أو فى

وقت غير مناسب ، والإطالة فى الكلام بغير موجب ، والإلحاح فى السؤال عن خصوصيات الناس ، والاعوجاج فى الجلسة ، والتمايل فى المشية ، وقضم الأظافر بالأسنان ، واللعب فى الأنف أو الفم أو الأذن بالأصابع ، كل هذه وأمثالها حقائر ليست من استقامة السلوك فى شيء . والمسلم الكامل فى هذه الحياة قد برأه خالقه ليكون نسمة من نسمات الربيع الحانية الجميلة ، وليكون كالعافية التى تقبل على الناس فيفرحون بها ، ويطلبون المزيد منها ، والتى قد تدبر عنهم فيتلهفون عليها ويشتاقون إليها ، ومن هنا قال سيد الخلق : « المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » ، وقال : « أقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الذين يألفون ويؤلفون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

إن رسالة المسلم فى الحياة أن يكون مستقيما مع ربه بالتقى والخشية والمراقبة وأن يكون مستقيما مع الناس ، يبسط يده إليهم بالخير ، ويمنع عنهم الأذى والشر ، وأن يكون مستقيما مع نفسه ، فيصونها عما يشينها ، ويحفظها مما يهينها ويحملها بما يزكيها ، ليفوز ويسعد : « ونفس وما سوّاها ، فألهمها فجورَها وتقواها ، قد أفلحَ منْ زكاها ، وقدخابَ من دساها » ، وليحسن التدبير فى قول خالقه جل جلاله : لرسوله « فاستقمْ كما أمرتَ ومن تابَ معكَ ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملونَ بصيرٌ » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .واتقوا اللهالذى أنتم به مؤمنون ، إنّ اللهَ معَ الذينَ اتقوْا والذين هم محسنون .

الدعوة الى الله [1]

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى النعمة ومصدر الرحمة : «انّ رحمةَ اللهِ قريبٌ منَ المحسنينَ» وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هو نبي المرحمة وقائد الملحمة : «وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمينَ». وأصلى وأسلم على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، واستفتح بالذى هو خير ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول الله جل جلاله واصفاً ذاته القدسية : « والله يدعو إلى دارِ السلامِ ، ويهدى منَ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم » ويقول عن دينه الكريم : « له دعوة الحق » . ويقول لرسوله صلوات الله وسلامه عليه : « فلذلك فادعُ واستقمْ كما أُمرتَ » . ويقول لعباده : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكمُ لما يحييكمْ » . ومن الحقائق البديهية التى يجب أن نؤمن بها ونسلم لها ، أن الدين أساسه الدعوة ، لأنه لا دين بغير تكليف ، ولا تكليف إلا بتبليغ ، ولا تبليغ إلا بالدعوة : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليكَ من ربك ، وإن لمْ تفعل فماَ بلغتَ رسالتهَ » . وكذلك كانت الدعوة فى نظر الإسلام أمراً مقدساً يجب الحفاظ عليه وتلزم الاستجابة إليه : ولكن الدعوة إلى الله تعالى أمانة ودراية وعلم وفن ، ولذلك كان القيام بالدعوة على وجهها ، مع التزام أصولها وآدابها ، غير متيسر لكل من هب ودب ، فإنه واجب ثقيل جليل نبيل . يحتاج إلى الأخيار من الرجال والأبرار من الأبطال ،

---

(١) ألقيت بمسجد الفتح بالمعادى فى ١٩٧٤/١٢/١٣ ، وسجلت بعد ذلك لاذاعة القرآن الكريم .

المتدرعين بالحكمة ، المتذرعين بالصبر ، المتضلعين من المعرفة والتقيين : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . وقد أوجز القرآن الكريم التصوير لمنهج الداعية إلى الله فى آيات قليلة العدد وجيزة الكلمات معجزة البيان ، فقال : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحاً ، وقال إننى من المسلمين ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزعنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم » . وهذه الآيات الكريمة تشير أول ما تشير إلى أن الداعى إلى الله ينبغى أن يكون كلامه أحسن قول مستطاع فى طاقة البشر ، بحيث لا يكون هناك من هو أحسن كلاماً من الداعية إلى الله تعالى ، ولذلك قالت الآيات السابقة : « ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله » . والكلمة الطيبة حسنة راجحة فى ميزان الإسلام ، ولذلك قال القرآن عن الأخيار من العباد : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » . وقال : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » وقال : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

ويلزم الداعية أيضاً أن تكون مخلصة خالصة لوجه الله عز وجل ، ولا يسيرها غرض ولا مرض ، ولا يتحكم فيها جاه أو سلطان ، ولذلك جاء فى الآيات قوله : « دعا إلى الله » لا لمعبود سواه ولا لكائن ما عداه ، ويزكى القرآن لزوم هذا الإخلاص بقوله : « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » وقوله : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب » . ومما يؤكد وجود هذا الاخلاص أن يؤيد الداعية القول بالعمل .

وألا يكتفى بأن يعمل كيفما اتفق ، بلا إتقان أو إحسان ، بل لا بد أن يكون هذا العمل عملا نقياً طيباً ، موافقاً لقوله النقى الطيب وعقيدته السليمة الطيبة جاء فى الآيات : « وعملَ صالحاً » ، وما أشد استنكار القرآن المجيد للقول الذى لا يؤيده العمل أليس هو القائل : «يا أيها الذينَ آمنوالِم تقولونَ ما لا تفعلُون ، كبرَ مقتاً عندالله أنْ تقولوُا ما لا تفعلونَ » . والعمل الصالح لا يكون صالحاً إلا إذا صادف محله وأصاب أهله ، وكان ناشئاً عن اعتقاد وإيمان ، ولذلك كرر القرآن قوله : « الذين آمنوُا وعملوُا الصالحاتِ » عشرات المرات ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه وفى ذلك عبرة لأولى الألباب ، « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسهِ وإلىِ اللهِ المصير » .

ومن صفات الداعية الأساسية لتكوين شخصيته القويمة : الاعتزاز بالعقيدة ، وإعلان كلمتها ، وتأكيد الثبات عليها ، والافتخار بالإنتساب إليها والتحدث عنها بلا ريب أو تردد ، ولذلك جاء فى الآيات : « وقالَ اننى منَ المسلمينَ » . ولذلك جاء فى القرآن (فاصدع . . .) الخ وجاء (لا تخافون لومة لائمٍ . . .) الخ وجاء (. . . إنى آمنت بربكم فاسمعوُن) وقديماً قال أحد المعتزين بعقيدتهم وإسلامهم ، فى مجتمع كان يفخر كل الفخر بالآباء والأنساب :

أبى الإســلامُ لا أب لى سواه إذا افتخرُوا بقيس أو تميمِ

ومن صفات الداعية تمجيد الشىء الحسن ، والميل إليه بالقلب والحس ، وتقبيح الأمر السيء والبعد عنه ، وكذلك التمييز بين الحق والباطل ، وبين الهـدى والضلال ، وبين الصواب والخطأ ، ولذلك جاء فى الآيات : ولا تستوِى الحسنةُ ولا السيئةُ » . فهناك أولا فرق واضح بين الحسنة والسيئة ، وكذلك هناك بين الحسنة والحسنة تفاوت ودرجات ، فهناك حسنة خير من حسنة أو أعلى منها ، وكذلك يوجد بين السيئة والسيئة ، تفاوت ودرجات ،

فهناك سيئة هينة أو محتملة ، وهناك سيئة ثقيلة أو وبيلة ، وهكذا . ومعرفة الفروق بين الحسنات والسيئات ، أو بين الحسنات والحسنات ، أو بين السيئات والسيئات ، تحتاج إلى علم وبصيرة وحكمة . والواجب على الداعية أن يقابل السيئة بالحسنة لاجتذاب المدعوين إلى صراط الله العزيز الحميد عن طريق احتماله وصبره ، وأن يدفع السوء بالعمل الصالح الطيب ، وأن يقاوم الشر بعوامل الخير ، وأن يزيل الخبث بطهور الإيمان ، ولذلك جاء فى الآيات : «ادفعْ بالتى هىَ أحسنُ » والحديث يقول : « اتقِ اللهُ حيثُما كنتَ ، واتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . فالداعية مطالب بأن يلزم التى هى أحسن أى أحسن الخصال ، وأحسن الأحوال ، وأحسن الأقوال ، وأحسن الأعمال . والمقابلة بالتى هى أحسن إنما تكون عند الإساءة التى تقبل الاحتمال أو الإغفال ، ولكن إذا كانت الإساءة موجهة إلى العقيدة أو الأمة ، أو أخذت صورة البغى والطغيان ، فهناك تكون الحسنة نعم الحسنة . هى التأديب والردع ، ولذلك قال القرآن : « والذينَ إذا أصابهمُ البغىْ هم ينتصرونَ » وقال : « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئكَ ما عليهمْ من سبيلٍ » . وقال : « ولا تَهنوُا ولا تحزنوُا وأنتمْ الأعلونَ إن كنتمْ مؤمنينَ »

ومن واجبات الداعية العمل على كسب الأصدقاء والأولياء باسم الله تبارك وتعالى ، وباسم الدعوة إلى دين الله عز وجل ، وتحويل الأعداء إلى أنصار وأحباب ، على أساس من الإيمان واليقين ، ببراعة وذكاء ، ولذلك جاء فى الآيات : « فإذا الذى بينكَ وبينهَ عداوةٌ كأنهُ ولىُ حميمٌ ».ومن واجبه أيضاً أن يتذكر دائماً أن احتمال تبعات الدعوة إلى الله ، بما فيها من التزام القول الطيب والعمل الصالح ، والجهر بالعقيدة ، ودفع السيئة بالحسنة ، أمور تحتاج إلى عزيمة راسخة وإرادة ثابتة وصبر جميل : ولذلك قالت الآيات

« وما يلقاها إلا الذين صبروا » وتحتاج أيضاً إلى قوة الشخصية والتحلى بالنصيب الأوفر من الأخلاق والعلم والحكمة ولذلك قالت الآيات : « وما يلقاها إلا ذوُ حظٌ عظيم . ومن واجب الداعية عدم الاستجابة لهواتف التردد أو الشك ، والبعد عن وسوسة الشيطان أو الاستجابة له فى شىء ، والاعتصام بحبل الله القوى المتين أمام إغراء الشيطان ومخادعته والتحصن بقوة الله العلى الكبير ، ولذلك جاء فى الآيات : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذْ بالله ». والقرآن يقول : «فلذلك فادعُ واستقمْ كما أمرتَ ولا تتبعْ أهواءهمْ ..» وأخيراً يجب أن يكون عند الداعية إيمان جازم بأن الله جل جلاله هو المراقب المشاهد ، وهو المثيب المجازى ، لأنه يسمع كل شىء ، ويعلم كل أمر ، وهو لا يضيع أجر العاملين ، ولذلك جاء فى الآيات : « إنهُ هو السميعُ العليم » . وهكذا صورت هذه الآيات الوجيزة منهج الداعية إلى الله « ومنْ أحسنُ قولاً . . » الخ

الايمان طريق النصر

الحمد لله عز وجل ، هو الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل للحرية طلابها . . وللعزة أسبابها : « والذينَ جاهدوُا فينا َ لنهدينهم سبلنا َ وإنَّ اللهَ لمعَ المحسنينَ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، آمن فأيقن ، وجاهد فأتقن ، فكان خير المنصورين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه أولئكَ حزبُ اللهِ ، ألا إن حزبَ اللهِ همُ المفلحوُن » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

هناك من يظن أن الدعوة إلى اتخاذ العقيدة والدين أساساً فى القتال والنضال إنما هى بضاعة يتعود رجل الدين تقديمها بحكم صنعته وحرفته ، وهذا ضلال فى التفكير وبهتان فى التصوير ، ومن أقرب الدلائل على ذلك أن ضابطاً عراقياً كبيراً أصدر منذ أيام كتاباً جعل عنوانه «الوجيز فى العسكرية الإسرائيلية» وهذا المؤلف هو اللواء الركن محمود شيت خطاب ، وقد تحدث فيه حديث الخبير البصير عن أهداف إسرائيل التوسعية ، وأنواع قواتها العسكرية من برية وبحرية وجوية ، وطرق التدريب والتعبئة ، والقتال عندها ، وأنواع الأسلحة التى تستوردها أو تصنعها أو تحاول صنعها ، ثم تحدث عن واجب الأمة العربية أمام عدوان إسرائيل ونزعتها التوسعية الإجرامية . ومع أن الكتاب بحث عسكرى فنى من رجل عسكرى متخصص نلمح فيه شواهد اليقين بأن الإيمان الدينى الواعى هو الطريق إلى الفوز والنصر ، فالمؤلف يفتتح كتابه بخبر عظيم من القرآن الكريم هو قول الله جل جلاله : « لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذينَ آمنوُا اليهودَ والذين أشركوُا »، وهو يجعل إهداء الكتاب « إلى المجاهدين الذين سيرفعون راية العرب والمسلمين فوق المسجد الأقصى » وحينما يبلغ المؤلف فصل «الخاتمة» يفتتحه بشعار كريم من كلام

رب العالمين، وهو قوله : « وأعدُوا لهم ما استطعتم من قوة ». وهو فى عباب بحثه الفنى العسكرى لا ينسى ما يعتقده بقلبه وعقله ووجدانه ، وما يعتقده كل مؤمن غيور على دينه ووطنه وقومه وأمته ، وهو أن العقيدة الإلهية والإيمان الدينى ، وروح الجهاد المقدس ، ونزعة الاستشهاد فى سبيل الله ، هى مفاتيح العزة والسعادة، فيتلمس المواطن المناسبة تلمساً لكى يترجم عن هذا الاعتقاد بأقوى ما يستطيع ، وبأعمق ما يحس ، كأن يقول مثلا : « يجب أن نقول للشعب العربى : إن النصر لا يكتب إلا للذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » وهو يقرر مؤكداً أن أول أسباب الانتصار على اليهود والصهيونية هو « إعادة النظر فى تربية النشىء العربى ، ووضع مناهج تربيتهم على أسس مستمدة من تعاليم الدين الحنيف ، وحضارتنا العربية الأصيلة » ومن بين هذه الأسباب أيضاً التعاون مع المسلمين فى كل مكان لإنقاذ فلسطين ثم تأتى آخر صفحة من الكتاب ، وفيها يختتمه بقوله : « البشر بدون عقيدة، غثاء كغثاء السيل ، وللعرب عقيدة سماوية قادتهم إلى النصر ، فكانت انتصاراتهم انتصارات عقيدة لا مراء ؛ ولما ضعف العرب صانتهم تلك العقيدة من التفسخ والانحلال ، وهذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله : العودة إلى الإسلام بما فيه من تكاليف البذل والتضحية والفداء ، وحينئذ سيقول اليهود عن العرب كما قال أسلافهم من قبل : إنّ فيها قوماً جبارين ؛ ويومئذ يفرحُ المؤمنونَ بنصرِ الله » .

إن هذا ليس كلام عالم من علماء الأزهر الشريف ، ولكنه كلام ضابط عسكرى برتبة لواء ، وتزداد قيمة هذا الكلام جلالة وخطورة حين نتذكر أن الصهيونية تتخذ من دينها المحرف أساساً لتحركاتها ومحاولاتها للقضاء على أهل الدين الحق والعقيدة الباقية والكتاب الإلهى الذى لم يتطرق إليه أدنى تحريف ، لم تزد الدهور والعصور إعجازه إلا ضياء وبهاء ، ويا عجبا كل العجب من باطل يتوقح ويتبجح ، ويتجمع ويتوسع ، على حساب حق

ضيعه أهلوه واستخف به جاهلوه ، فهذه هى الصهيونية تسمى دولتها الأثيمة باسم نبيها « إسرائيل » ، وتحيى لغتها الدينية « العبرية » بدعوى أنها لغة التوراة والدين اليهودى ، وتصف فلسطين بأنها أرض الميعاد لهم استناداً إلى مزاعمهم ، وتجعل من أهدافها أن تتجمع حول حائط المبكى لكى تعيد هيكل سليمان وتزيل المسجد الأقصى ، وهى تجمع فلولها من شتى أنحاء العالم وتناديهم باسم اليهودية وبعنوان أنهم « شعب الله المختار » ، وأنهم يجب عليهم فى شريعتهم — كما يزعمون — أن يعودوا من المنفى إلى فلسطين لأن البقاء خارجها خروج على الدين ، فيالله من حق يضيع بين باطل يتنمر ، ويالله لهؤلاء العرب والمسلمين الذين يبدون وكأنهم لا يريدون الانتفاع بعظات أو عبر ، وما أنت بمسمع من فى القبور .

وهذا هو كتاب « الوجيز فى العسكرية الإسرائيلية » يحدثنا بالأدلة والشواهد والنصوص من كلام الأعداء أنفسهم عن سعى اليهود لإحياء الدولة اليهودية من النيل إلى الفرات ، ومن شمال الموصل حتى المدينة المنورة ، والتى تشمل تبوك وخيبر وأماكن أخرى حول المدينة : مدينة الرسول العربى محمد عليه الصلاة والسلام ، وكأنهم بهذا لا يكتفون بإحياء ديانة حرفت وبدلت ، بل يحاولون طمس المعالم البادية لدعوة الإسلام ورسالة محمد عليه السلام ، ويواصلون إحياء العادات الدينية القديمة بينهم حتى فى مجال الحرب ، فإن إسرائيل مثلا لا تحتفظ فى معسكراتها بصفة دائمة بعدد كبير من الجنود ، بل تدرب كل أفرادها على السلاح والقتال ، ثم يعودون إلى أعمالهم فى الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها ، وعند التعبئة يسارع الجميع بالعودة إلى الخدمة العسكرية فوراً ، وتتبع إسرائيل فى ذلك طريقة تقول إنها مأخوذة من خطة حربية وضعها االملك سليمان قبل ثلاثة آلاف عام ، وتتحدث عنها كتب اليهود الدينية ، فتقول إن سليمان قد بنى قلعة (مجدو) فى غرب من مدينة (جنين) وتضم القلعة مخازن للطعام والشراب تكفى خمسة آلاف مقاتل ، وأماكن

صالحة لثلاثمائة عجلة حربية ، ولا يقيم فى هذه القلعة بصفة دائمة إلا مائة رجل فقط ، فإذا ظهرت بوادر الحرب انطلق من القلعة ثلاثون فارساً على خيولهم لجمع الناس فى القلعة استعداداً للقتال ، وكذلك فعلت إسرائيل الآن ، فعند التعبئة العامة تظهر عبارة رمزية على شاشات السينما والتليفزيون ، فيبادر كل مجند احتياطى بترك عمله ، ويقف على الطريق العام خارج قريته ، وأى سائق مدنى أو عسكرى يمر عليه إلى المعسكر أو الميدان بمجرد (اطلاعه على ما يثبت شخصيته ، ولا يحتاج هذا الجندى إلى مجهود فى إعداده لأداء واجبه فوراً ، لأنه يتدرب كل سنة ثلاثين يوماً بعقيدة دينية صارخة تغرس فى نفسه أن هذا واجب دينى مفروض ، وبذلك تظل نفسه ممتلئة بمايسمى بالحقد الإسرائيلى المقدس على العرب والمسلمين .

ويؤكد الكتاب العسكرى الفنى أن الالتجاء إلى هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن لن يحل قضية فلسطين ولن يرد حقوق العرب ، ولن يحرر الأرض المغتصبة ، وهذا يذكر بمن هتف بقومه منذ سنوات وسنوات فقال :

فيم انتظاركمُ والحق حقكم ... يعدىَ عليهِ ليعطى للملاعين
لا تطلبوُه احتكاماً فى مجامعهم ... بل استردوه قسرًا فى الميادين
والمسلمون جميعاً من ورائكمُ ... بأندونيسيا وباكستان والصينِ

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد استبان الصبح لذى عينين ، وقد أجمع العقلاء والبصراء على أنه لا نصر إلا بعقيدة وإيمان ، وقد تكرر الجهر بذلك مرات ومرات ، ولو اكتفينا بترديد القول دون عمل ، لما كانت هناك جدوى ، ولا تمت فائدة ، فليت بارئنا يأخذ بنواصينا إلى العمل بمقتضى ما آمنا به ورددناه ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

رسالة المسجد [١]

الحمد لله عز وجل ، هو الطيب الذى لا يقبل إلا طيباً : « إليه يصعدُ الكلم الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعه » . أشهد أن لا إله إلا الله ، كتب عظيم الأجر للسعى الحميد ، وضمن جميل الذكر للعمل المجيد : « المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدنياَ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربكَ ثواباً وخيرٌ أملاً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أخلص من عبد ربه ودعاه ، وأصدق من تقرب إليه وناجاه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المستجيبين لخالقهم ، وصحبه المهتدين بملتهم ، وأتباعه الحافظين لدينهم ، ومنْ تزكىَ فإنماَ يتزكى لنفسهِ وإلى اللهِ المصيرِ

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما قيمة الحياة إذا خلت من السعى المشكور والعمل المبرور ؟ وما غناء أيامها المعدودة وأعوامها المحدودة إذا لم يقدم المرء بين يديه ، أو يخلف من ورائه ما يعظم به أجره عند الله ، أو يعلو به قدره ويحمد ذكره بين الناس ؟ .

دقاتُ قلب المرء قائلةٌ لـــهُ ... إن الحيـــاةَ دقائق وثوانِ

فارفع لنفسكَ بعدموتكَ ذكرها ... فالذكرُ للانسانِ عمرٌ ثانِ

وقد جرت عادة الأخيار الأبرار من أبناء هذه الأمة المؤمنة ن يتقربوا إلى ربهم ويفيدوا أبناء دينهم ووطنهم ببناء المساجد ينفقون عليها الجزيل من مالهم ، ويرجون بها سبباً للمثوبة عند خالقهم ، ولعل هذا العمل فى طليعة الأعمال التى يثبت أثرها ويدوم ثمرها ، مع ما أعد الله للقائمين بهذا العمل من تكريم عظيم يوم لقائه ؛ وحسبنا قول رسولنا صلوات الله عليه : « من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتاً فى الجنة » . ولا عجب فإن من شاد مسجداً

(١) ألقيت بمسجد الصباح فى يوم ١٩٧٥/١٠/٢٤ م .

فتح منفذا لنسمات الجنة ونفحات الفردوس ، حتى أخبر الرسول بأن المساجد رياض الجنة .

وإنما نال المسجد هذه المكانة العالية الملحوظة لأنه مركز الإشعاع الأول فى الإسلام ، بل نستطيع أن نقول إن المجتمع الإسلامى ينهض على نقطة ارتكاز أساسية هى المسجد ، ولعل القرآن الكريم يريد ان يلفتنا إلى هذا المعنى حينما يقرر أن أول بيت أقيم للناس باسم الله وباسم الدين هو المسجد الأول والقبلة الجامعة لملايين المسلمين المتمثلة فى الكعبة : « إنَّ أولَ بيتٍ وضعَ للناسِ للذى ببكةَ مباركاً وهدىً للعالمينَ ، فيهِ آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيمَ ومنْ دخله كان آمناً » . وحينما انبثق نور الإسلام فى أيامه الأولى كان هذا المسجد الأول مثابة للمسلمين ، إليه اتجهت أبصارهم ، ومن حوله تحلقت جموعهم وعلى فكرته الموحدة الماجدة تلاقت أفكارهم .

ثم نرى أن أول عمل قام به الرسول عقب الهجرة مع صحابته هو بناء المسجد ، وصار هذا المسجد كمركز الدائرة ، صدرت عنه ورجعت إليه موجات الفئة المسلمة التى أخذت تتكاثر على الأيام ، ويجمعها ذلك البناء الواحد وهو المسجد . . . ولقد فتح المسلمون باسم الله وباسم الشريعة الغراء المحررة من العبودية كثيراً من البلدان والأمصار ، ونرى عقب الفتح أن المسلمين يبدأون بتشييد مسجد يكون واسطة العقود المتوالية من صفوف الدولة الجديدة ؛ وعندنا شاهدتاريخى فى وادينا ما زال قائماً ، فحينما تفتحت أبواب مصر لنور الإسلام القادم إليها من منزل الوحى فى الجزيرة بدأ البطل

الفاتح بإنشاء جامع عمرو ، ثم صار الجامع بداية امتداد من مختلف الجهات للمجتمع الإسلامى الناشىء .

واتسعت رسالة المسجد فى الإسلام أو تعددت ، فهو معبد تؤدى فيه الصلوات ، ويعتكف داخله القانتون والمذاكرون والمرتلون لتنزيل ربهم المجيد ، وهو أيضاً مدرسة مفتحة الأبواب ، لا يرد عنها راغب فى علم أو طالب لثقافة ؛ وفى هذه المدرسة الإسلامية الشعبية يتلاقى أبناء الأمة ليفقهوا تعاليم شريعتهم ، ويسمعوا سير أجدادهم وبلادهم ، ويتدارسوا ما ينبغى لمجتمعهم وجموعهم ؛ والمسجد أيضاً مبعث وجدان عام ومثار عاطفة مشتركة ، فمن فوق منبره وفى رحاب ساحته يتيسر لهداة الأمة أن يعبئوا مشاعرها ، ويوقظوا أرواحها ويوجهوا موكبها نحو ما ينبغى أن يتجه إليه ، ولو طالعنا صفحات تاريخنا الإسلامى المشرق لوجدنا أن الأعمال الكبرى التى تمت فيه قد بدأت الدعوة إليها فى أغلب الأحوال من داخل المسجد ، ففيه كانت تعد النفوس ، وتوضع الخطط ، وترسم المناهج ، وتعين الولاة وأمراء الجيوش ، كما كان المسجد يتخذ مجالا للتعليم والتقويم الاجتماعى ، وللتدريب الحربى فى بعض الأحوال ، وإنه لمن الخير كل الخير أن يسهم المسجد فى وثباتنا الاجتماعية والعلمية والروحية بنصيبه الذى يحسن فيه الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، مسترشداً فى ذلك بالأثر الإسلامى الحكيم الذى يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

ونحن نرى من مصلحة بلادنا وأمتنا أن نعتز بقوميتنا وأن نحرص على وطنيتنا ، وهــذا مسلك إن طالبتنا به حريتنا وكرامتنا واستلزمته حياتنا ومصلحتنا ، فإن عقيدتنا تباركه وتؤيده ، لأنها تعلمنا أن حب الوطن من الإيمان ، وأن الغيرة على الحمى والحرمات والأوطان ، وعلى مواريث الأجداد

من شأن المؤمنين الأوفياء ، وأن العروبة وعاء الإسلام والإسلام روح العروبة وأن الرسول يقول : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » . ومفهوم هذا أنه إذا عز العرب عز الإسلام ؛ والمسجد الإسلامى دعامة قوية للقومية العربية ، لأن علماء القوميات يذكرون أن اللغة هى الأساس الأول للقومية ، أو من الأسس الأولى لها ، ومعنى هذا أن عماد قوميتنا فى لغتنا ، والمسجد هو عماد هذه اللغة الفصحى ، فقد تموت هذه اللغة فى أماكن كثيرة ، ولكنها تظل حية دائماً فى المسجد الإسلامى ، لأن الصلوات المتكررة كل يوم يؤديها الألوف باللغة العربية الفصحى ، لغة القرآن أعلى بيان ، وجموع المصلين يرددون آيات هذا البيان المعجز يومياً ، ويسمعونها من أئمتهم ؛ ثم تأتى خطبة الجمعة كل أسبوع ، وهى تلقى على الجموع بلغة عربية ناصعة ، فتصغى إليها الآذان فى صمت وخشوع ، فتظل موصولة الأسباب بهذه اللغة فى مفرداتها وتعبيراتها ومدلولاتها ، والدروس التى تلقى يومياً فى مختلف المساجد تعتمد على القرآن وهو بيان عربى معجز ، وعلى الحديث وهو عربى بليغ ، وعلى قصص التاريخ وآثار السلف وشواهد المنثور والمنظوم ، وكلها بلغة عربية مشرقة الأسلوب . . .

وأكبر العلم أن أمرين حفظا على لغة العرب حياتها وجدتها ، وشبابها ونضارتها ، وهما القرآن والمسجد ، ولسنا ندرى ماذا يكون مصيرها لولاهما ؟ ! .

ثم إننا ندعو إلى مجتمع ديمقراطى تعاونى اشتراكى ، وهذه أفكار يطبقها رواد المسجد عملياً ، فالصلاة أوضح مثال للمساواة والديمقراطية ، إذ لا فرق فيها بين كبير وصغير ، وفيها تصف الصفوف ، وتتلاصق الأقدام ، وتخضع الجموع لقيادة واحدة مهتدية بهدى الله العلى الكبير ، وهذا تعاون واضح ومشاركة عامة . ومن داخل المسجد تنبعث أصوات الحث على التكافل

والتراحم وأداء الزكاة والتقريب بين الطبقات ، وفى هذا توجيه إلى الاشتراكية العادلة . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما أحوجنا فى عالمنا الصاخب اللاعب إلى روضة المسجد ، ، نتطهر عندها ونتعبد ، ونتسامى فى شعورنا ونتعالى ، ونتجمع حول تعاليمه السامية ونتلاقى ، وما أجدرنا فى نهضتنا بأن نجعل من المسجد دار عبادة ورياضة ، وتعليم وتقويم ، حتى ندخل إليه طالبين زاداً ومدداً ، ونخرج منه إلى الحياة وفى حسنا يقظة ، وفى صدرنا بصيرة ، وفى أرواحنا ضياء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إنَّ اللهَ معَ الذينَ اتقوْا والذين هم محسنونَ . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

في المسجد [1]

الحمد لله عز وجل، كتب السعادة لمن حرص على دعوته وطاعته ، وجعل العزة لمن خضع لسلطانه وعظمته : « ومن يقلْ منهمْ إنيّ إلهٌ منْ دونه فذلكَ نجزيه جهنمَ . كذلكَ نجزى الظالمينَ » . أشهد أن لا إله إلا الله، ذلت الرقاب أمام جلاله ، وخشعت الأصوات لبهاء مقاله : «أإلهٌ معَ اللهِ ؟ تعالى الله عما يشركُون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من اعتز بربه ، واحتمى بجنابه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذريته ، وأعلام صحبته ، وأنصار دعوته ، « أولئكَ الذينَ هداهم الله ، وأولئكَ همْ أولوُ الألباب ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

حرمت يوم الجمعة الماضى متعة الحديث إليكم ، إذ كنت أتحدث مع إخوة لكم فى الدين والوطن ، فقد دعيت لإلقاء خطبة الجمعة فى المسجد الجديد الذى أقيم فى معسكر الجلاء بمدينة الإسماعيلية ، فدارت بالعقل خواطر ، وثارت فى القلب مشاعر . ؛ ومعسكر الجلاء هذا معسكر ضخم ، كان فيما مضى قبل الاستقلال يبدو كدولة داخل الدولة ، أو كمدينة تنافس المدينة ، وكانت بقعته أيام الظلمات رقعة يتمثل فيها الخنا والفجور ، فالاحتلال الأجنبى الأثيم بطغيانه وبهتانه ، وفجوره وخموره ، كان يجعل منها ماخوراً واسعاً كبيراً ، وأذكر أنى دنوت من هذا المعسكر مرة فى أيام الاحتلال فأحسست كأن الهواء قد أنتنت رائحته واشتد ضغطه ، وكأنه يريد أن يكظم أنفاسى ويفسد إحساسى ؛ ثم دخلت المعسكر فى الأسبوع الماضى وقد عمر بأبناء الوطن المتحرر المؤمن ، فأحسست بنعيم الحرية يملأُ صدرى ويثير فكرى ، ويرد إلى صحوتى بعد غفوتى ؛ ورحم الله أجداداً لنا كانوا يضيقون بالخضوع للغير ولو تقلبوا فيه على الدمقس والحرير ، وكانوا يفرحون بالحرية ولو كان طريقها مليئاً بالأشواك والمصاعب .

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢١ من ذى القعدة سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٩ من مايو سنة ١٩٥٩ م .

لقد تذكرت أن هذه البقعة كانت تفيض بالرذيلة فصارت اليوم عامرة بصوت الفضيلة ، وبالأمس كانت تسيل فيها الخمور ، واليوم تتزكى بجباه الراكعين الساجدين المتطهرين : « إنّ اللهَ يحبُ التوابينَ ويحبُ المتطهرينَ » وكانت تنبعث فيها أصوات الدخلاء المعتدين فأصبحت تتردد فيها أصوات المسبحين العابدين كأنها زجل الملائكة المقربين .

ودخلنا المسجد فإذا أغلب من فيه جنود وضباط وقواد ، والكل جلوس فى صمت وخشوع يستمعون القرآن كلام الرحمن ، فثار فى الذهن خاطر عميق الدلالة ، وهو أن المسجد الإسلامى أصلح مكان لإظهار الديمقراطية فى الإسلام ، ولا عجب فليس المسجد ملكاً لأحد من الناس كائناً من كان ، بل هو ملك لله : « وأنّ المساجدَ للهِ فلا تدعوا معَ اللهِ أحداً » ، والمسجد هو بيت الله ، ، والله هو رب الجميع فبيته بيت الجميع ، وباب المسجد مفتوح للجميع لا يرد عنه أحد قل أو كثر ، كبر أو صغر ، والأرجاء فى المسجد متساوية ، ليس لمكان فيه فضل على مكان آخر . وليس فيه موضع محجوز لوجيه أو كبير بأجر أو بغير أجر ، والنصيحة فى المسجد توجه عامة شاملة إلى الجميع بلا استثناء ، ويؤمهم الإمام فى الصلاة فيتبعوه طائعين ، ولا يتخلفون ولا يسبقون ولا يعترضون ، اللهم إلا إذا أخطأ الإمام أوسها فإنهم فى رفق ينبهون ، وبهذا تجمع الصلاة بين روح الجماعة وجلال الطاعة وحسن التعاون على البر والتقوى ؛ وتطلعت فوجدت القوم من رتبة اللواء إلى رتبة الجندى العادى ، فى عقد واحد متسق فالجنود بمختلف درجاتهم والضباط بمختلف رتبهم والقواد بمختلف مناصبهم ، الكل قد سعوا إلى بيت الله عباداً متساوين ، وخلعوا عند باب المسجد كل ما كسبوه من جاه الحياة ، ودخلوا بإنسانيتهم وإسلامهم فقط ، يسألون ربهم عفوه وثوابه ، ويخافون حسابه وعقابه ، وكأن كل نفس من هذه النفوس قد توضأت من غرورها حين دخولها المسجد . فلو أدركها شىء من ذلك لأحست كأن وضوءها

قد انتقض فهي بحاجة إلى وضوء روحي جديد . . . لقد ناداهم المسجد بأذان واحد تردد فى آذانهم قائلا (حي على الصلاة حي على الفلاح) فسعوا إلى رب واحد وقبلة واحدة ، هي الكعبة الحرام ، واقتدوا بإمام واحد ، يركعون حين يركع ، ويرفعون حين يرفع ، ويسجدون حين يسجد ، ويتشهدون حين يتشهد ، ويسلمون حين يسلم . . .

والتصقت الأكتاف بالأكتاف ، وتراصت الجباه بجانب الجباه ، وانتصبت الهام وصفت الأقدام ، وتوقفت قيادة الأرض عن مباشرة سلطانها وأسلمت الزمام لقيادة واهب القوى والقدر ، رحمن الدنيا والآخرة ، قيوم السموات والأرض ، «وخشعتِ الأصواتُ للرحمنِ فلا تسمعُ إلاَّ همساً » ، وكأن المسلمين يعدون أنفسهم فى الصلاة للقاء ربهم يوم الهول الأكبر ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم «وعنتِ الوجوه للحيِ القيومِ وقدْ خابَ منْ حملَ ظلماً » .

فأية مساواة وراء هذه المساواة التى تحققها الصلاة فى الإسلام ، وتتجلى فى بيوت الله المساجد: «صبغةَ اللهِ ومنْ أحسنُ منَ اللهِ صبغةً ونحنُ لهُ عابدونَ»

إن المسلمين يدخلون المسجد مؤمنين بالله واليوم الآخر : « إنما يعمرُ مساجدَ اللهِ منْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ ولمْ يخشَ إلاَّ اللهَ فعسىَ أولئكَ أنْ يكونوُا منَ المهتدين » ، وهم يدخلونها متوجهين إلى الله مخلصين له العبـــادة مستقيمين فى الطاعة ، « قلْ أمرَ ربىّ بالقسطِ وأقيموُا وجوهكمْ عندَ كلِّ مسجدٍ وادعوُه مخلصينَ لهَ الدينَ » . وهم يدخلونها متجملين فى ثيابهم ومظهرهم : « يا بنيِ آدمَ خذوُا زينتكمْ عند كلِّ مسجد » وهم يدخلون خائفين راجين ، « فىَ بيوتِ أذنَ اللهُ أنْ ترفعَ ويذكر فيها اسمهُ يسبحُ لهُ فيها بالغدوُ والآصال . رجال لاتلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عنْ ذكرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يخافوُن يوْماً تتقلبُ فيه القلوبُ والأبصارُ ، ليجزيهمُ اللهُ أحسنَ ما عملوُا ويزيدهمْ من فضلهِ واللهُ يرزقُ منْ يشاءُ بغيرِ حسابٍ » .

وأية وسيلة لتعليم المسلم خلق التواضع كهذه الوسيلة ؟ . . . إن الإسلام يعرف أن خنزُوَانية الكبرياء تراود الإنسان من حين إلى حين ولذلك يحرص الإسلام على أن يعليه التواضع والتخفف من الغرور والزهو ، ومن هنا قال الرسول : « إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ، ولا يفخر أحد على أحد » وقال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان » . . . وهذا محمد صلوات الله عليه ، وهو سيد الأنبياء وخاتم المرسلين وإمام العالمين ، ما كان يظن فى نفسه أنه صالح للتعالى على فرد من أفراد الأمة ، وما كان يشعر بمعنى التجبر فى خلقه ، ولذلك قال للأعرابى الذى هابه من جلال روحه حين رآه : هون عليك يا أعرابى ، فلست بملك ولا جبار ، وإنما أنا ابن إمرأة كانت تأكل القديد بمكة » ! . . . وكان لحرصه على التواضع يدعو ربه فيقول : « اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، وأحشرنى فى زمرة المساكين » . والتاريخ يروى الصورة المقابلة لذلك ، وهى أن جبلة بن الأيهم الملك الغسانى أعلن دخوله فى الإسلام على عهد عمر ، وأتى الكعبة يطوف حولها وفى خياله بقايا من خيلاء الجاهلية وتعاظم الملوك ، ظاناً أنه سيجد الرءوس من حول الكعبة وقد انحنت لجلالته المكذوبة ، ولكنه وجد رءوساً مرفوعة ، فيها عزة الإسلام ، وفيها وقار المؤمنين ، وحدث أن أعرابياً من فزارة كان بجانبه فى الطواف فداس خطأ على ثوبه الطويل المرخى ، فثارت عنجهية جبلة الموروثة ، وضرب الأعرابى على وجهه ، فسارع بالشكوى إلى عمر العادل ، فقضى بالقصاص ، وعلم جبلة بالحكم فأطلق ساقية للفرار ، وتنصر بعد إسلام ، وتوالت الأيام وكلما كسب المسلمون عزا كسب جبلة هواناً وذلا ، حتى قال يترجم عن ذله وندمه :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفنى فيها لجـــاج ونخوة ... وبعت لها العين الصحيحة بالعور
فيا ليتنى أرعى المخاض بقفـــرة ... وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر
وياليت لى بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومى ذاهب السمع والبصر
فياليت أمى لم تلدنى وليتـــنى ... رجعت إلى القول الذى قاله عمر!

ولقد قلت لهؤلاء يومئذ إن الجنود أشد حاجة من غيرهم إلى زاد اليقين والإيمان ، لأن الجندى مرابط على ثغر من الثغور ، وهو يعد نفسه للثبات فى ميدان النضال والجهاد ، ويترقب ساعة الهول فى كل حين ، ولابد له أن يكون فى صدره من نور العقيدة ومدد الإيمان ما يجعله يقبل على الفزع ساعة الفصل جريئاً مقداماً ، لا يبالى أوقع على الموت أموقع الموت عليه ، لأنه موقن أنه سينال إحدى الحسنيين ، إما أن ينتصر فيكون غازياً فى سبيل الله ، عزيزاً كريماً فى هذه الحياة ، وإما أن يموت فيكون شهيداً له ثوابه العظيم عند الله ، فليكن ما يكون ، فإنه ليس بخاسر ولا مغبون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن المسجد فى الإسلام معبد للصلاة مفروضة أو نافلة ، وهو أيضاً مدرسة يتلقى فيها المسلمون فقه دينهم ودروس شريعتهم وأنباء تاريخهم ، فيزدادون بالدين معرفة ، وبالحياة خبرة ، والمسجد نقطة ارتكاز يتلاقى فيه أبناء الإسلام ، فيعبئون مشاعرهم ، ويوقظون أرواحهم ، ويبدأون منه انبثاقهم ، وهو أيضاً مكان توجيه ، ولو راجعنا تاريخ الإسلام لوجدنا أن الأعمال الكبرى فيه قد بدأت الدعوة إليها والتحريض عليها من داخل المسجد ، ففيه كانت توضع الخطط ، وينظم التحريض ، ويعين الولاة وأمراء الجيوش ، فمن واجب المسلمين أن ينتفعوا برسالة المسجد وأن يعيدوا إليه وظيفته ومهابته وحيويته ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إنّ اللهَ معَ الذينَ اتقوْا والذينَ همْ محسنونَ .

المسجد بيت الله (١)

الحمد لله عز وجل ، هو خالق كل شيء بديع السموات والأرض : «ومنْ آياته الليلُ والنهارُ، والشمسُ والقمرُ ، لا تسجدوُا للشمسِ ولاَ للقمرِ ، واسجدوُا لله الذى خلقهنّ إنْ كنتمْ إياه تعبدوُن » . أشهد أن لا إله إلا اللهَ ، بيده ملكوت كلّ شيء : « ولله المشرقُ والمغربُ ، فأينماَ تولوُا فثمَّ وجهُ اللهِ إن اللهِ واسعٌ عليمٌ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، دعا إلى خير الدنيا والآخرة ، فكان رحمة الله للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أسرته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : « إنهُ منْ يتقِ ويصبرْ فإنّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

نشرت بعض الصحف أن خادم أحد المساجد استولى على هذا المسجد ، ومنع الناس من دخوله ، وقال لهم : فتشوا عن مسجد آخر لتصلوا فيه فهذا بيتى . وسواء أكان هذا الخبر صحيحاً أم كان من صنع الذين يجيدون تزوير الوقائع وتزييف التاريخ ، فإنه خبر يستحق التعليق عليه من الناحية الإسلامية : ونحن هنا نتذكر أولا قول الحق تبارك وتعالى : « ومنْ أظلمُ ممنْ منعَ مساجدَ اللهِ أنْ يذكرَ فيها اسمهُ ، وسعىَ فى خرابها » أى أليس هناك أحد أشد ظلما من الذى يمنع الناس من دخول المساجد وتأدية الشعائر فيها ، فيؤدى ذلك إلى تعطيل وظيفتها وتخريب ساحتها من العبادة والعابدين ، وإذا كان هناك من المفسرين من يقول إن المراد بالمساجد هنا الكعبة أو بيت المقدس ، فالصحيح أن المراد به كل مسجد إلى يوم القيامة ، لأن اللفظ عام شامل لمساجد الله كلها ، ونتذكر أيضاً قول الله تعالى : « وأنّ المساجدَ للهِ فلا تدعوُا معَ

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٣ من صفر سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٥٩ م .

الله أحداً » أى بنيت المساجد لذكر الله وطاعته وتقديسه ، فهى بيوته الخالصة لوجهه ، فلا يذكر فيها إلا الله ، ولا يشرك معه سواه ، ولذلك أفتى الفقهاء الأصحاء قديماً وحديثاً بأنه لا يجوز أن ندعو فى المساجد لأحد ، أو نهتف أو نصفق فيها لأحد ، حتى قال البصراء من الفقهاء إن الدعاء للحاكم فى الخطبة الثابتة يوم الجمعة لا يكون باسمه ، بل يكون الدعاء لولاة الأمور رجاء أن يكتب الله لهم التوفيق والرشاد . وليس من هدى الإسلام فى شىء أن نستغل المساجد لترويج مذهب من المذاهب ، أو الدعوة إلى اتجاه من الاتجاهات التى لا تقوى صلتها بالدين ، أو الدعاية لشخص من الأشخاص فى مجال من مجالات الدنيا ، وليس من هدى الإسلام أن تستغل الدنيا المسجد ، فتخرج به عن رسالته التى هى تذكير وتبصير وعبادة لله ، بل المسجد هو الذى يهيمن على المسلمين ووجهتهم ، ليسدد خطاها ويستديم هداها ، فالله تعالى يقول : « قدْ جاءكمْ منِ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدى بهِ اللهُ من اتبعَ رضوانهَ سبلَ السلامِ ، ويخرجهمْ من الظلماتِ إلى النورِ بإذنهِ ويهديهمْ إلى صراطٍ مستقيمٍ » . . .

وبلغ من هدى الإسلام فى احترام المساجد وإخلاصها لله ومراعاة الأدب فيها أنه نهى عن المناداة فيها على الأشياء الضائعة حتى لا يحدث الضجيج والتشويش ، وجاء الحديث الصحيح يقول : « من نشد ضالة فى المسجد فقولوا : لا ردها الله عليك ؛ فإن المساجد لم تبن لهذا » ومن هنا نعلم أن الذين يتخذون المساجد ميداناً للشحاذة منحرفون عن هدى الإسلام ، وأن الذين يرفعون فيها أصواتهم ولو بالتلاوة حتى يشوشوا على غيرهم منحرفون عن هدى الإسلام ، وأن الذين يشغلون المصلين عن صلاتهم واستماعهم أثناء الخطبة ببيع الكتب والمجلات ، أو نحو ذلك من الوسائل منحرفون عن هدى الإسلام ، وأن الذين يتخذونها مكاناً للنوم ليبثوا فى ساحتها أسراباً من الحشرات التى تعبث فى أجسامهم منحرفون عن هدى الإسلام ، والله تعالى يقول :

« يا بنى آدمَ خذوا زينتكم عندَ كلِّ مسجدٍ ». وكأن الله أراد ممن يدخل المسجد أن يكون متطهراً متزيناً ، لابساً ثيابه النظيفة ، حتى لا يضايق غيره فى بيت الله المفتوح للجميع ، ولذلك حث الإسلام عند دخول المسجد على التطهر والتجمل والتطيب ، ونهى عن أن يدخله المسلم عقب أكله بصلا أو ثوماً أو كراثاً أو طعاماً له رائحة خبيثة ، وأباح الإسلام للمسلم ألا يحضر الجماعة أو الجمعة إذا كانت رائحة عرقه أو رائحة فمه مؤذية لغيره ولا يستطيع علاجها لأن بيت الله يجب أن يشعر فيه كل مسلم بالراحة والسكينة ، والهدوء والطمأنينة ليقبل على العبادة فى بهجة وانشراح ، ولذلك كان واجباً على المسلمين — وليتهم يسمعون — أن يجعلوا مساجدهم فى أرفع ما يمكن من درجات النظافة والطهارة ، وأن يصونوها عن القذارة والتراب وهوام الأرض وغير ذلك ، وصلوات الله على نبيه إبراهيم واسماعيل إذ يقول فيهما : « وعهدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طهراً بيتِى للطائفينَ والعاكفينَ والركعِ السجود » ، فلم يأمرهما بتطهير البيت ليكون وقفاً عليهما أو على آلهما ، بل ليكون لكل راكع ساجد فى هذا الوجود .

وإن الرجل من المسلمين ليقدم على بناء مسجد من المساجد ، وينفق فى ذلك ما ينفق ، ويبذل ما يبذل فى شراء الأرض وبناء الجدران والسقف ، وتأثيث المسجد ، فإذا انتهى من ذلك كله لم يبق له من حق فى المسجد أكثر من حق أى مسلم آخر ، فهو يدخله مصلياً فرداً عادياً كما يدخله أى مسلم من قريب أو من بعيد ، لأنه بوقفه هذا المسجد للصلاة قد خرج من ملكه إلى ملك الله ، وما كان ملكاً لله فهو مشترك بين سائر عباد الله ، ولذلك أجمعت الأمة على أن البقعة إذا عينت للصلاة بالقول خرجت من ملك صاحبها عامة لجميع المسلمين . . .

ومن حرص الإسلام على تجريد المساجد لله وإخلاصها لوجهه أنه حرم جعل القبور أو الأضرحة فيها بلا حاجز أو فاصل ، حتى لا يظن ظان أن السعي إليها هو بقصد التعظيم لهذه القبور أو الطواف حول هذه الأضرحة ، فإن الله لا يقبل مثقال ذرة من الإشراك به فى العبادة والتقديس ، وهناك فى بلاد المسلمين كثير من المساجد التى تضم قبوراً وأضرحة ، والتى يرتكب العامة فيها أموراً لا ترتضيها وحدانية الإسلام ، ومن واجب المسلمين أن يعالجوا هذه الناحية التى تخل بجلال بيوت الله ، وتجعلها مظنة للابتعاد عن إخلاص العبادة لله وحده ، وأن يحجزوا بين المساجد والأضرحة حتى لا تذهب الظنون بأبناء الإسلام مذهباً غير حميد .

إن المسجد هو بيت الله عز وجل ، لا بيت أحد من الأحياء أو الأموات ، فيه نتطهر ونتذكر ، وفيه نسمو ونعلو ، وإن الإنسان ليتقلب فى هذه الحياة ما استطاع التقلب ، وتؤثر فيه الدنيا بما تستطيع من تأثير ، فيناله اعوجاج هنا ، أو رهق هناك ، ويعلق به من زيف الحياة أو باطلها ما يعلق . فإذا سعى إلى المسجد ، وتطهر بالوضوء عند بابه ، ودخل فى رحابه ، وتوجه إلى الله فى محرابه ، سما فوق المادة ، وتخلص من زيف الحياة ، وارتبطت أسبابه بالله وتنزلت عليه فيوضات ربه الغنى الواسع الرحيم ، وأحس كأنه ليس فى بقعة من بقاع الدنيا بل فى رقعة من أرض الفردوس ، ولعل هذا ما يشير إليه الرسول حين يخبرنا بأن المساجد رياض الجنة ، وهو أيضاً القائل : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا حفتهم الملائكة ، ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . يروى عن النبي أنه كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وقال : « وأنَّ المساجدَ للهِ فلا تدعوا معَ اللهِ أحداً ، اللهم أنا عبدك وزائرك ، وعلى كل مزور حق ، وأنت خير مزور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار ؛ فإذا خرج من المسجد قدم رجله اليسرى وقال : اللهم صب على الخير صباً ، ولا تنزع عنى صالح ما أعطيتنى أبداً ، ولا تجعل معيشتى كدا ، وأجعل لى فى الأرض جداً » أى يساراً وغنى وهذا الدعاء النبوى الرائع يشعرنا بأن رسول الله كان يدرك خير إدراك أن المسجد هو بيت الله ، ومحط رحمته ، ومستراد نعمته ، وأنه بدخوله فيه قد صار ضيفاً على الله ، وقريباً من سيده ومولاه . . . فلنحسن التمييز بين حق الله وحق العباد ، ولنعرف الفرق بين بيت الله وبيوت الناس ، ولندرب أنفسنا على التأدب بأدب المسجد ، والانتفاع بروحانية المسجد ، حتى نكون ربانيين من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وذلك هو الفوز الكبير ، واتقوا الله الذى هم به مؤمنون .

وان المساجد لله

الحمد لله عز وجل ، تعالى بالسلطان فتنزه عن المثيل والنظير ، وتفرد بالقدرة فهو العلى الكبير ، ألا لهَ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمين أشهد أن لا إله إلا الله ، يعطى ويمنع ، ويرفع ويضع ، وهو على كل شىء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، استعصم بجاه ربه فكان أقوى الأقوياء ، واستغرق فى دعوته فكان أوفى الأوفياء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأحفاده ، وصحابته وأجناده ، أولئك لهم عز الدنيا ونعيم العقبى : « الله يجتبى إليهِ منْ يشاءُ ، ويهدى إليهِ من ينيبُ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

فى شعاب الحياة لابد من الدليل المبين ، وفى مفارق الطرق لابد من المرشد الأمين ، وقد أنزل الله تعالى إلى عباده نوراً تضمن هديه الحكيم هو ذلك القرآن الكريم ، الذى جعل فيه الدواء والشفاء ، والهداية والهناء ، وأقامه كنزاً لا تفنى عجائبه ولا تنتهى مواهبه ، ومن خصائص القرآن الدقيقة أنك تنظر بعين الخبير اللبيب فى اللفظة من ألفاظه ، فإذا هى تحوى الكثير من المعانى ، وكل معنى منها يفهم بحسب حاله ، ولا يتعارض مع غيره ، ولعل هذا برهان أى برهان على أن القرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد .

هذه مثلا آية من الآيات ، يقول الله تبارك وتعالى فيها : « وأنَّ المساجدَ لله فلاَ تدعوُ معَ اللهِ أحداً » . فلننظر إلى كلمة « المساجد » فى هذه الآية الكريمة . قد يكون المراد منها هو تلك الأبنية التى يقيمها المؤمنون للعبادة ، ويجعلونها للصلاة ، ولما كان أهم ما يقام فيها هو الصلاة ، وكان أكبر مظهر للخشوع فى الصلاة هو السجود ، سمى البناء مسجداً لكثرة السجود فيه ،

ويكون المعنى إذن أن بيوت الله – وهى المساجد – يجب أن تكون خالصة لوجهه ، لا يشرك معه غيره ، ولا تستعمل إلا فيما أمر به . وقد يكون المراد من كلمة « المساجد » نواحى المعمورة ومواطن الأرض ، لأن كل بقعة طاهرة من الأرض صالحة لاتخاذها مسجداً ، وجعلها للصلاة ، ومن هنا قال رسول الله : « جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً » وقال أيضاً : « أينما كنتم فصلوا ، فأينما صليتم فهو مسجد » . ويكون مفهوم الآية حينئذ هو أن الأرض كلها لله ، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين : « قل اللهمّ مالكَ الملكِ ، تؤتى الملكَ مَنْ تشاءُ ، وتنزعُ الملكَ ممن تشاءُ ، وتعزُّ منْ تشاءُ ، وتذلُّ منْ تشاءُ ، بيدكَ الخيرُ ، إنكَ على كلِّ شىءٍ قديرٌ » . وقد يكون المراد من كلمة « المساجد » هنا أعضاء السجود التى يسجد عليها الإنسان ، فكل عضو منها يسمى مسجداً ، وهى الوجه واليدان والركبتان والقدمان ، ويكون مفهوم الآية إذن هو أن هذه الأعضاء قد أنعم الله تعالى بها عليك ، فهى فى الحقيقة ملكه ، فلا تذلها لغيره فتجحد نعمته ، وأن الإنسان مملوك لله ، فيجب ألا يعبد سواه ، وألا يخضع لغيره فى دنياه : « قلِ الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبونَ » . وقد يكون المراد من كلمة « المساجد » جمع مسجد بمعنى السجود . أى أن السجدات فى الصلاة لا تكون إلا لله ، ولا تجوز أبداً لمن عداه ، فثنى القامات وتعفير الجباه بذل السجود لا يليق إلا لبادىء هذه القامات وتلك الجباه ولا يدعى مشاركته فى ذلك إلا جهول أحمق أو طاغية جبار ، وكلاهما إلى الضلال والخسار وبئس القرار .

وقد يكون المراد من « المساجد » فى الآية أرجاء مكة المكرمة ، لأن كل ناحية منها تسمى مسجداً ، بحكم أن الكعبة المطهرة فيها ، وأن أية جهة نحوها تعتبر قبلة ، فتعتبر ناحيتها مسجداً ، ومن هذا نفهم أن مكة البلد الحرام يجب أن تكون طاهرة خالصة لله ، لا يرتفع فيها صوت إلا لله ، ولا يجرى

فيها شيء إلا لله ، ولا يتولى أمرها إلا عباد الله ، ولا يدنس أرضها أحـــد من أعداء الله : «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا تقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم » ، « وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود» ، «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم » . وقد يكون المراد من كلمة « المساجد » المساجد الثلاثة الكبرى التى يعتز بها الإسلام ، والتى يجب أن يحرص عليها المسلمون وأن يدافع عنها المؤمنون ، وهى المسجد الحرام فى مكة ، ومسجد الرسول فى المدينة ، والمسجد الأقصى فى بيت المقدس (فى فلسطين) ، لأن هذه المساجد هى التى تجمعت حولها نفحات الوحى والتنزيل ، وفى رحابها ظهرت النبوات والدعوات وبنور الله المنزل حولها جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا ؛ ولذلك كرمها رسول الإسلام حين قال : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . وما دامت هذه المساجد لله فيجب دائماً أن تكون هى وما حولها وما اتصل بها ميراثاً إلهياً مقدساً فى أيدى الصادقين من عباد الله ، ويجب أن تكون حرماً آمناً للمؤمنين بالله ، ويجب أن تتطهر من رجس كل فاسق لا يدين بالحق من دين الله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » .

أرأينا إذن أن لفظة قرآنية واحدة فى آية كريمة واحدة أثارت هـــذه الخواطر ، ونثرت تلك المعانى ، وبعثت من المكامن تلك العواطف ، وجالت بالألباب فى هذه الآفاق ، وبقى لها مع كل هذا مفهومها العام الذى يؤخذ من قسط مشترك بين كل هذه المعانى التى أدركناها لكلمة « المساجد » ، وهذا المفهوم هو أن الأمر كله لله ، وأن الملك جميعه بيد الله ، فبيوت العبادة كلها ، والعبادة ذاتها ، والإنسان نفسه ، والأرض جميعها ، كل هذا لله ،

فلا تدعوا مع الله أحداً ، وأن هذه الأماكن وتلك المواريث يجب على عباد الله أن يحرسوها ويذودوا عنها ، ولا يمكنوا غريباً أو دخيلا منها ، فلا يكون الإنسان عبد غيره وقد جعله الله حراً ، ولا تستغل المساجد لغير ما يرضى الله سبحانه ، ولا تهون أرض الموحدين حتى تصير نهباً مقسما للباغين ، ولا يضيع الإيمان حتى يعبد المال أو الشهوة أو الجاه من دون الله : « بل اللهَ فاعبدْ وكنْ منَ الشاكرينَ » . هذه كلمة واحدة كان من فيضها ما رأينا ، فكيف لو عاش المؤمنون مع كتاب الله وعكفوا يتدبرون آياته ويقطفون من ثمراته ؟ إذن لرتعوا فى روضات من جنات العقول والقلوب والأرواح : « كتابٌ أنزلناهُ إليك مباركٌ ليدبروُا آياته وليتذكر أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

فلنتذكر جيداً أن التدبر لكتاب الله سبب نعمة وأن الحياة مع كتاب الله مفتاح رحمة ، فهذا سيد البشرية يقول : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » ومن اللافت للنظر هنا أن الرسول ربط بين كتاب الله وبيوت الله وهى المساجد التى يستشعر عندها الإنسان الخير وتتجدد فيها حوافز البر ، ولذلك لم يكن غريباً أن يروى عن رسول الله أنه كان إذا دخل المسجد قدم رجله اليمنى وتلا قوله تعالى : « وأن المساجدَ للهِ فلاتدعوُا معَ اللهِ أحداً » ثم قال : « اللهمّ أنا عبدكَ وزائرك ، وعلى كل مزور حق ، وأنت خير مزور ، فأسألك برحمتك أن تفك رقبتى من النار ، وإذا خرج قدمرجله اليسرىوقال : اللهم صبّ علىّ الخير صباً ، ولا تنزع منى صالح ما أعطيتنى أبداً ، ولا تجعل معيشتى كدّا ، واجعل لى فى الأرض حدّاً أى غنى ويساراً فليكن لنا فى رسول الله أسوة حسنة نألف كتاب الله ونعمر بيوت الله نكن من الفائزين . واتقوا الله الذى أنتم بهمؤمنونإنّ اللهَ معَ الذين اتقو وللذين هم محسنوُن .

طلاب يذاكرون فى المساجد

الحمد لله عز وجل ، ما أجل سلطانه ، وأعظم شأنه ، وأعم إحسانه ، « إنَّ رحمةَ اللهِ قريبٌ من المحسنينَ » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، يعز من يشاء بعلمه وحكمته ، ويذل من يشاء بعدله وقدرته ، وهو أعدل العادلين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ربى وعلم ، وأدب وقوم ، فكان إمام المصلين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله مصابيح الدجى ، وأصحابه مفاتيح الهدى ، وأتباعه خير الورى : « ومنْ يعتصمْ باللهِ فقدْ هدى إلى صراطٍ مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

نشرت بعض الصحف أن المسئولين قد أمروا بفتح المساجد بعد صلاة العشاء حتى منتصف الليل . ليذاكر فيها طلاب المدارس والمعاهد والكليات ، نظراً لقرب مواعيد الامتحانات ، وقد قرأت هذا الخبر فى سطور قليلة ومكان غير بارز لعل الكثيرين قد مروا عليه دون أن يشعروا به أو يفكروا فيه ، ولكنى ما كدت أقرأ هذا الخبر حتى دار فى ذهنى قول الأول حين قال :

وقدْ يجمعُ اللهُ الشتيتين بعدَ ما ... يظنان كلَّ الظنِ أنْ لاَ تلاقيـا

وحقاً قد يثاب المرء برغم أنفه ، ويؤخذ أخذاً إلى طريق دينه ، فإن فى الطلاب من غير شك عدداً كبيراً هائلا لم يسبق لهم أن تعودوا السعى إلى المسجدأو التعبد فيه ، ولعل هذا الإجراء الذى أريد لغير العبادة يكون سبباً لحثهم على ارتياد المسجد للتعبد ، ويكون معواناً على إنشاء علاقة بين الشباب

القيت فى يوم الجمعة ٢٥ من المحرم سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٥ من مايو سنة ١٩٦٧ م .

المسلم ودور العبادة ، ولقد خيل إلى أن المساجد حين تتفتح أبوابها أمام هؤلاء الأفواج من الطلاب ستقول لهم : مرحباً بالوجوه التى كنت أرقبها وأنتظرها من زمن بعيد . مرحباً بكم فى داركم التى طال عنها إعراضكم وهجرانكم لها ، وإذا كنتم قد سعيتم نحوى لغرض عارض أو لهدف ليس من صميم رسالتى ، فإنى لا أضيق بكم ، بل أفتح ذراعى لكم ، وأرجو أن تذكرونى بعد امتحانكم وفوزكم ، فأبوابى لا تغلق فى وجه من يقصدنى ، وليس هناك من البشر من يملكنى ليتحكم فىّ أو يوجهنى ، وإنما أنا بيوت الله ، فأبوابى ينبغى أن تكون دائماً مفتوحة لكل عباد الله .

ولا ريب أن هناك أكثر من سبب مسوغ لهذا الإجراء ، فهناك كثرة السكان وازدحام المساكن مع ضيقها ، وهناك كثرة اللغط والضوضاء التى يحدثها من لا خلاق لهم من الناس فيحرمون التلاميذ والطلاب نعمة الهدوء فى المذاكرة ، وهناك عدم توافر النور الساطع الكافى للاستذكار المريح ، ولكن ليتنا مع هذا الإجراء ننتهز الفرصة لنعلم أبناءنا وشبابنا أن المساجد هى بيوت الله تعالى فى الأرض ، وأن عمارها هم زوار الله جل جلاله ، وأن الله عز شأنه هو الذى يقول : «إنما يعمرُ مساجدَ اللهِ منْ آمن باللهِ واليومِ الآخر » ، وأن رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام يقول : « من ألف المسجد ألفه الله تعالى » ويقول : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » . ويقول سعيد بن المسيب رضى الله عنه : « من جلس فى المسجد فإنما يجالس ربه فما حقه أن يقول إلا خيراً » .

وليتنا ننتهز الفرصة لنعلم هؤلاء الشباب أن للمساجد آداباً وأوضاعاً ، فهى ليست منازل كمنازلنا ، ولا طرقاً كطرقنا ، ولا أسواقاً للبيع والشراء ، ولا مطاعم للأكل والشرب ، ولا فنادق للنوم والراحة ، بل هى بيوت الله ،

يسعى إليها الساعى وهو فى طهارة من جسمه وأطرافه وثوبه وقلبه ، ويدخلها بالسكينة والوقار ، فلا يرفع فيها صوتاً كأصوات الحمير ، ولا يثير فيها جدلا من ألوان الجدل الدنيوى الصاخب ، فقد جاء فى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام : « يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد ، فيقعدون فيها حلقاً حلقاً ، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا ، لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة » وكان هذا الحديث قد قيل فى أناس من شأنهم أن يقتصروا وهم فى المساجد على الأحاديث الدنيوية المادية التافهة التى لا تكون وسيلة لغرض من الأغراض الشريفة التى تحقق للاسلام أو أهله عزاً أو مجداً فى حاضرهم أو قابلهم ، ليتنا نتذاكر ما روى عن أبى هريرة من أنه دخل السوق فوجد منهمكين فى أمور البيع والشراء ، فقال لهم : أراكم ها هنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد ؟ فذهب بعض الناس إلى المسجد ثم عادوا يقولون لأبى هريرة : ما رأينا ميراثاً يقسم فى المسجد . فقال لهم : فماذا رأيتم ؟ قالوا : رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل ويقرآون القرآن . فقال أبو هريرة : فذلك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويؤيد هذا ما روى عن سيد الخلق حين قال : ما اجتمع قوم فى بيت بيوت الله عز وجل ، يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده .

وقد يكون من حقنا أن نتساءل : ولماذا تقتصر هذه الصحبة بين الطلاب والمسجد على هذا الشهر من العام ؟ ولماذا لا نعمل على توثيق هذه العلاقة خلال السنة كلها حتى يكسب الشباب من ربانية المسجد ما يخفف عليهم سعار الحياة وجفاف ماديتها ؟ . وإلى متى تمتد هذه الصحبة الموقوتة ؟ . إلى نهاية الامتحان بطبيعة الحال ، ثم ينصرف الجميع ويولون الدبر وتعود المساجد سيرتها الأولى ويردد مردد :

صلى وصام لأمر كان يطلبه   فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

إن من واجبنا أن نعمل كل ما نستطيع ، وأن نبذل كل ما نطيق لعقد الصلة الطيبة الدائمة بين شبابنا ومساجدنا ، حتى تتألق أضواء الإيمان فى صدور هؤلاء الشباب ، وحتى تزدان المساجد بتلك الجموع الشابة المتوثبة ، بدل أن تظل خاوية على عروشها لا يرتادها فى الحين والحين إلا هذه الطائفة القليلة العدد التى بقيت مستمسكة بدينها وكأنها قابضة على الجمر ، ومن واجبنا أن لا نقتصر على فتح أبواب المساجد لتستقبل جموع الطلاب ثم ندعهم وشأنهم وإلا كانت التجربة عرضة للانحراف أو سوء الاستعمال ، بل لابد لهؤلاء من إشراف ورقابة وتوجيه ، حتى نحسن استغلال الفرصة لإيقاظ الإيمان والخير عند هؤلاء ، وحتى يصدق عليهم ما صدق على أسلاف سابقين : « إنهمْ فتيةٌ آمنوُا بربهمْ وزدناهمْ هدىً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

لقد أخبرنا الصادق المصدوق أن هناك سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، منهم شاب نشأ وقلبه معلق بالمساجد ، والأولاد أمانة بين أيدى الآباء ، فلو أحسنوا القدوة والتوجيه لهؤلاء الناشئين لعلموهم كيف يألفون المساجد ، ويرعون آدابها وبذلك تحيي نزعات الخير ، وتوأد نزعات للشيطان : « اللهُ ولىُّ الذينَ آمنوُا يخرجهمْ منَ الظلماتِ إلىَ النورِ ، والذينَ كفرُوا أولياؤُهمُ الطاغوتُ يخرجونهم منَ النورِ إلىَ الظلماتِ ، أولئكَ أصحابُ النارِ همْ فيهاخالدون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إنّ اللهَ معَ الذينَ اتقوْا والذينَ همْ محسنونَ .

المتدينون من منازلهم [١]

الحمد لله عزوجل، هوَ الرحمنُ ، علمَ القرآنَ ، خلقَ الإنسانَ ، علمهُ البيانَ » ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أوضح للانسان الطريق ، ووهبه التمييز ، وكلفه العمل : «إنا هديناهُ السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ترك الناس على المحجة البيضاء : ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أغصان دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأتباع دعوته : « الذينَ آمنوُا وتطمئنُ قلوبهمْ بذكرِ الله ألا بذكرِ الله تطمئنُ القلوبُ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

هناك فئة من الناس نستطيع أن نصفهم فنقول إنهم « المتدينون من منازلهم » وهم أناس يريدون تعطيل الشعائر الدينية والمظاهر الإسلامية والسنن المحمدية ، ويريدون أن يحيلوا فرائض الدين إلى رسوم وآثار ، وتعاليمه إلى دمن وأطلال فإذا كانت الصلاة قد فرضت كل يوم خمس مرات ، وكان لكل صلاة وقت محدد ، وقال القرآن : «إنّ الصلاةَ كانتْ علىَ المؤمنينَ كتاباً موقوُتاً » فهؤلاء يقولون : ولماذا لا نصليها كلها دفعة واحدة فى آخر اليوم إذا عدنا إلى منازلنا ، والذى يقبلها تفاريق يقبلها مجتمعة ؟ وإذا قيل لهم إن صلاة الجماعة لها شأنها ومكانتها ، وخاصة إذا صحبها سعى إلى المسجد قالوا : وهل لدينا من الوقت متسع لكى نسعى ونتجمع كلما جاءت صلاة ؟ ولماذا لا يصلى كل واحد منا فى منزله ؟ وحينما بدأت الإذاعة تذيع خطبة الجمعة وصلاتها قالوا : لماذا لا يصلى الإنسان خلف المذياع وهو جالس فى بيته ؟ ومنذ حين دعيت من التلفزيون لإلقاء أول خطبة للجمعة تذاع من مسجده ، وعقب ذلك وجدت من يقولون : ولماذا لا يصلى الإنسان أمام جهاز التلفزيون فى منزله ؟

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٧ أغسطس سنة ١٩٦٤ م .

وهكذا يريد هؤلاء أن يصدق عليهم الوصف الذى وصفتهم به هو « المتدينون من منازلهم » .

ونتناول الآن آخر ما تساء لواعنه وهو مدى صحة الصلاة خلف جهاز التلفزيون ، فنقول إن الفقهاء قد اشترطوا فى صلاة الجماعة والجمعة اجتماع الإمام والمأموم فى مكان الصلاة ، بحيث لا يفصل بينهما طريق تمر فيه العربة ولا نهر يمر فيه الزورق ، ولا حائل مانع يصعب مع وجوده أن نقول إنهما مجتمعان فى مكان ، واشترطوا فى صحة صلاة الجمعة حينئذ أن يعلم المأموم بانتقالات الإمام فى الصلاة ، وقالوا إن هذا يتحقق بسماع المأموم صوت الإمام . أو سماعه صوت من خلفه ، أو مشاهدته للامام ، أو مشاهدته من خلفه ؛ وقالوا إن المصلين ينبغى أن يصطفوا صفوفاً خلف الإمام ، ولا تضر كثرتها ، حتى ولو بلغ طولها ميلا أو أكثر ، لأن من فيها مجتمعون فى مكان وإن كان فسيحاً واسعاً ، وينبغى ألا تزيد المسافة بين كل صف وآخر عن ثلاثة أذرع ؛ وفى حالة صلاة الإنسان من منزله على صلاة جهاز التلفزيون تكون صلاته آلية مقطوعة الصلة الفعلية بالإمام والمأمومين ، ولا تصح الصلاة ، والاتصال الموهوم بين الإمام والمأموم اتصال ظاهرى لا حقيقى ، وقد ينقطع تيار الكهرباء فيقف الجهاز ويزول الاتصال ، فماذا يفعل الإنسان إذا حدث هذا وهو فى أثناء الصلاة ؟ وقد يعرض الخلل للجهاز أو تتوالى فيه الصور بسرعة فلا تظهر ولا تبين شيئاً ، وقد تتعطل الأجهزة من جهة إدارة التلفزيون فيتعطل الإرسال فينقطع الاتصال ، والفقهاء ينصون على أن المأموم يكون خلف الإمام غير متقدم عليه ، وفى حالة الصلاة خلف جهاز التلفزيون قد يكون المأموم مقيما فى مكان أقرب إلى جهة مكة وجهة الكعبة من مسجد التلفزيون الذى تذاع منه الصلاة ، فيكون المأموم حينئذ قد تقدم على إمامة ، فكيف يستقيم أمر الصلاة على هذه الأوضاع .

ثم تعالوا بنا إلى كتاب ربنا عز وجل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فإننا سنجده يقرع أسماعنا بقوله : «يَا أيهاُ الذينَ آمنوُا إذاَ نودى للصلاةِ من يوم الجمعةِ فاسعوْا إلىَ ذكرِ اللهِ وذرُوا البيعَ ذلكم خيرٌ لكمْ إنْ كنتمْ تعلمونَ ، فإذاَ قضيتُ الصلاةُ فانتشروُا فى الأرضِ وابتغوُا منْ فضلِ اللهِ واذكروُا اللهَ كثيراً لعلكمْ تفلحونَ » ، فالله جل جلاله هنا يأمر عباده عند صلاة الجمعة بالسعى إليها والمشى نحوها ، وأن يتركوا من أجلها كل عمل من الأعمال ، لأن حق الله تعالى أولى بالأداء والتقديم ، وإذا كانت الآية قد ذكرت البيع وحده ، فإنما ذكرته كرمز للعمل ويقاس على البيع غيره من الأعمال ، ولأن البيع كان أهم عمل عند العرب فترك غيره واجب من باب أولى ، وإنما أوجب الله ذلك ليتحقق الهدف المقصود من وراء صلاة الجمعة ، لأن الله تعالى قد شرعها لتكون عيداً أسبوعياً للمسلمين ، واجتماعاً دورياً لهم ، يلتقون فيه فيزدادون تعارفاً وتآلفاً ، ويتشاورون فيما بينهم ، ويتعاونون على البر والتقوى ، ويتراءون فيشاهد كل منهم حال أخيه فيشاركه فرحته ويشاطره شدته ، ويسمعون خطبة إمامهم سماعاً مباشراً فيكون له تأثير أكبر من تأثير السماع غير المباشر . وماذا يحدث لو أن رئيس دولة أو قائد أمة دعا إلى اجتماع مشهود ليخطب فيه ، واكتفى كل فرد بأن يسمع خطبته من المذياع أو التلفزيون وذهب الرئيس أو القائد إلى مكان الاجتماع فوجده خالياً ؟ وما ذا يحدث أيضاً ان فكر كل مسلم فى أن يسمع الخطبة فى المنزل ، وذهب الأئمة إلى المساجد ليخطبوا فلم يجدوا فيها أحداً ؟ . ألا يذكرنا هذا بقول الله تعالى لرسوله فى شأن خطبة الجمعة منددا بالمعرضين عنها والمفرطين فيها : «وإذَا رأوْا تجارةً أوْ لهواً انفضُوا إليهاَ وتركوكَ قائماً ، قلْ ماَ عندَ اللهِ خيرٌ منَ اللهوِ ومنَ التجارةِ واللهُ خيرُ الرازقينَ » . وهذا رسول الإسلام يحث على السعى إلى المسجد لمطلق الصلاة ، فضلا عن صلاة الجماعة فضلا عن صلاة الجمعة ، فيقول : « من تطهر فى بيته ثم مشى إلى بيت من

بيوت الله ليقضى فريضة من فرائض الله كانت خطواته إحداها تحط خطيئته ، والأخرى ترفع درجة » ، ويقول : «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط » وذكر السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، فجعل منهم الرجل المعلق قلبه بالمساجد .

قد يقال : إن الذى يصلى خلف جهاز التليفزيون ولا يذهب إلى المسجد عنده عذر كمرض أو نحوه . والجواب أن هذا لا تجب عليه الجمعة ، ويستطيع وهو فى المنزل أن يستمع إلى الخطبة من الراديو أو التلفزيون ، ولكنه لا يصلى الجمعة ، بل يصلى الظهر بدلها ، لأنه هو الواجب عليه فى هذه الحالة ما دام صاحب عذر ، وكذلك تستطيع المرأة المسلمة أن تستمع إلى الخطبة من الراديو أو التلفزيون ، ثم تصلى الظهر ، لأن الجمعة غير مفروضة عليها ، أما أن يصلى المسلم وراء الراديو أو التلفزيون فهذه بداية خبيثة لشر مستطير ، لأن الأخوة الإسلامية ضعيفة وروح الجماعة بين المسلمين هزيلة ، والمساجد مهجورة ، ولو فعل المسلمون ذلك لتعطلت الجمعات وذهبت روعة ذلك اللقاء الأسبوعى الإسلامى الباهر ، وتفرق المسلمون فى منازلهم أيدى سبا ، مع أن القرآن يقول : «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » والرسول يقول : « يد الله مع الجماعة » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : أظن أنه لن يحاول واحد منكم أن يكون من حزب هؤلاء المتدينين من منازلهم ، فأنتم بقية الخير فى حنايا المجتمع ، وما تزال طائفة من أمة محمد على الحق ظاهرين حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

طريق المؤمن (١)

الحمد لله عز وجل ، هو الذى نرجو رحمته وثوابه ، ونخشى بأسه وعقابه : « إنَّ الذينَ يخشونَ ربهمْ بالغيبْ لهمْ مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جمع بين الوعد والوعيد ، والتبشير والتحذير : « لينذرَ الذينَ ظلموُا وبشرَى للمحسنينَ » . وأشهد أن محمداً رسول الله ، هدى إلى النعمة ، وحذر من النقمة : « وما أرسلناكَ إلاّ مبشراً وَنذيراً » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى فروع دوحته الزاكية ، وأهل صحبته الغالية ، وأنصار شريعته الباقية : « وبشرْ المؤمنينَ » ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الحكمة ضالة المؤمن ، والله جل جلاله يصف عباده الأخيار بأنهم « الذينَ يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنهُ أولئكَ الذينَ هداهمُ اللهُ وأولئكَ همُ أولوُ الألبابِ » ؛ وللامام على رضى الله عنه كلمة جليلة فيها عظة وبلاغ لقوم يعقلون ، يقول : « أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلا : لا يرجونّ أحد منكم إلا ربه ، ولا يخافن إلا ذنبه ، ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشىء أن يتعلمه ، وعليكم بالصبر ، فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولا خير فى جسد لا رأس معه ، ولا فى إيمان لا صبر معه (٢) » ! ! . . .

---

(١) القيت فى يوم الجمعة ٣ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .

(٢) انظر نهج البلاغة ، ج ٣ ص ١٦٨ . وآباط الابل جمع ابط ، وذلك كناية عن سرعة السير اليها . وكذلك ذكر هذه الوصية فى حلية الأولياء ، ج ١ ص ٧٥ بهذه الرواية « احفظوا عنى خمسا فلو ركبتم الابل فى طلبهن لانضيتموهن قبل أن تدركوهن : لا يرجو عبد الا ربه ، ولا يخاف الا ذنبه ، ولا يستحى جاهل أن يسأل عما لا يعلم ، ولا يستحى عالم اذا سئل عما لا يعلم أن يقول : الله أعلم ، والصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا ايمان لمن لا صبر له » .

إنها حقاً خمس خصال تستحق شد الرحال ، وبذل الجهد من الرجال . . .
الخصلة الأولى : « لا يرجون أحد منكم آلا ربه » . لأن قصر الرجاء على الله وحده تربية لقوة النفس وعلو الهمة وسمو العزيمة ، ومن قصر رجاءه على الله صرف وجهه عن سواه ، ومن صرف وجهه عن الخلق فقد استغنى عنهم ، ومن استغنى عنهم فقد مهد لنفسه طريق العزة والكرامة والاستعلاء . والرجاء من الله تعالى لابد أن يكون نتيجة للايمان به والثقة فيه والاعتماد عليه ، واليقين بأنه مالك الأسباب ورب الأرباب ؛ وإذا كان الله المرجو قادراً على الإجابة متمكناً من التحقيق ، فإن الراجي يلزمه أن يكون صالحاً لتلقى النعمة ، أهلا لنيل التكرمة ، وذلك بأن يكون من الذين يستجيبون لربهم ويخضعون لأوامره حتى يكون الله لهم ومعهم ، يجيبهم ويلبيهم ، مصداقاً لقوله عز من قائل : « وإذَا سألكَ عبادِي عنّي فإنِّي قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعي إذاَ دعانِ ، فليستجيبوُا لي ، وليؤمنوُا بِي ، لعلهمْ يرشدونَ » .

ونكاد نفهم من معنى الرجاء أن الإنسان إذا رغب فى مطالب الحياة ، أو أراد الحصول على شيء من دنياه ، توجه فى رغبته وإرادته إلى رحاب مولاه ؛ يستعين بقدرته أولا ، ويثق فى نواله ثانياً ، ويسلك لبلوغ ذلك شريف الطرق وكريم الوسائل ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، ولأن من سلك صراط الله — وهو صراط الحق والعدل والعمل — فقد رجا ربه الرجاء المستجاب ، وسعى نحوه السعى المثمر واستعان به الاستعانة المقرونة بالنصر والتأييد ، ومهد لنفسه السبيل كى يحيا فى الدنيا حياة نظيفة شريفة ، وكى يفوز فى الآخرة بالرضا والرضوان والنعيم المقيم فى جنات النعيم : « فى مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ » .

وأما المستعين على قضاء مآربه ونيل مطالبه بالغش والتدليس ، أو بالسحت والحرام ، أو بخبث الاستغلال وسوء الاحتيال ، فإنه لا يكون راجياً لله ، ولا موصول الأسباب بحماه ، بل يكون راجياً للشيطان أو تابعاً له ، وقد

ينال شيئاً أو أشياء ، ويخيل إليه أنه قد وصل واطمأن ، ولكن عين الله لا تغفل ولا تنام ، فسرعان ما تأتى يد العلى القدير لتضع الأمور فى مواضعها ، فتحق الحق وتبطل الباطل : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

وما أقرب اليوم الذى يتطلع فيه المبطلون والمخادعون فإذا الذى بين أيديهم « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » .

الخصلة الثانية : « ولا يخافن إلا ذنبه » . والذنب هو الخطأ والانحراف عن السبيل السوى ، والمرء لا يعيبه ضعف حسى ، ولا بطء فى الحركة طبيعى ،ولا قلةفى الإنتاج استلزمتها ضرورة،ولكن يعيبه الزلل والخطيئة ، ولذلك يخاف المؤمن كل الخوف من الذنب والخطأ ، لأن قلة المبالاة بالذنب توجد فى الإنسان جرأة على الانعتاق من الواجب ، والتحلل من الفضيلة ، والتخلص من الحياء ، ومتى خلع المرء ثوب الحياء فقد توقح وبلغ من الرذيلة والإثم الغاية والنهاية ، ولذلك قال محمد معلم الإنسانية ومصلح البشرية : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » . وكثير من الناس يحسبون أن الخوف من الذنب يتحقق بتمتمة ندم عاجلة أو همهمة استغفار عارضة ، وهذا كله مظهر شكلى للخوف ، ويبقى بعد ذلك لبه وجوهره وهو ترك الذنب والحذر منه ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه ، بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وخوف الذنب نوعان : أولها وأولاهما بالتقديم والرعاية أن يخاف الإنسان ذنبه بمعنى يتحاشاه ويتحاماه،ويتباعد عنه فلا يقربه ولا يدنو منه ، وثانيهما أنه إذا زل العبد أو أخطأ خاف من تبعة هذا الذنب ، وظل هذا الذنب يخيف قلبه ويزعج خاطره ، ويقلق باله ويزلزل كيانه ، حتى يخرج من قيده الرهيب باستغفار صادق وتوبة نصوح . ولقد كان المؤمن من

السابقين تبتليه الأيام بزلة يزلها ، فإذا هى عنده كالسبع الجائع يطارده فى كل مكان ، يريد افتراسه وابتلاعه ، فهو من خطيئته فى هم مقعد مقيم . . .

وإذا أحسن العبد المستقيم الجمع بين الرجاء من ربه والخوف منه ، فوثق بوعده ، وطمع فى ثوابه ، وخشى وعيده وخاف من عقابه ، فقد أفلح وفاز لأن اجتماع الخوف مع الرجاء فى صدر الإنسان يجعله سائراً على صراط قويم لا يحيد عنه ولا يميل ، فهو يعمل عمل الأقوياء الأشداء لوجود الطمع والرجاء وهو يخشى خشية القانتين الصديقين لسيطرة الخوف على حسه ونفسه ؛ ولقد دخل الرسول على رجل وهو فى النزع فقال له : كيف تجدك ؟ فقال الرجل : أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى . . . فقال النبى : ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما يخاف . والله يقول: « إنَّ الذينَ قالوُا ربناَ اللهُ ثمَّ استقاموُا فلا خوفٌ عليهمْ ولاَ همْ يحزنونَ » .

الخصلة الثالثة : « ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم » فالعلم بحر لا ساحل له ، والعالم يجب أن يكون متواضعاً وأميناً ، فلا يضلل ولايدجل ، ولا يدعى أو يزدهى ، فقد علم شيئاً وغابت عنه أشياء ، ومن قال لا أدرى فقد أفتى ، ولقد سئل الرسول عن خير البقاع فأجاب : لا أدرى ، حتى أعلمه الله بأنها المساجد ، وسئل عن أشياء أخرى فقال : لا أدرى . وما كان هذا عن عجز أو تقصير ، ولكنه للتعليم والإرشاد حتى يقتدى به العباد . ولقد قال الإمام على : « من ترك قول (لا أدرى) أصيبت مقاتله » وقال ابن مسعود : « إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتونه لمجنون » وقال : « جنة العالم لا أدرى . فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله » .

والخصلة الرابعة : « ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشىء أن يتعلمه » . وهذا تحريض بليغ على مواصلة البحث والنظر والدراسة ، فباب العلم واسع ،

وبحره فسيح ، والعلم يطلب من المهد إلى اللحد ، وطالب العلم لا يقنع أبداً : « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » . وحينما قال الله تعالى : « وما أوتيتمْ منَ العلم إلاَّ قليلاً » لم يرد تثبيط هممنا عن طلب العلم ، بل أراد تحريضنا على أن نزيد هذا القليل بفضله وتوفيقه ، ولذلك قال : « وقلْ ربِّ زدني علماً » .

والخصلة الخامسة : « وعليكم بالصبر فإن الصبر كالرأس من الجسد » . والإيمان أمان واطمئنان ، والصبر ثبات ودوام ، فمن لم يثبت على مبدأ ، ولم يدم على خطة فهو ليس بمؤمن ، لأن التردد ليس من صفات المؤمنين بل هو من صفات المنافقين «مذبذبينَ بينَ ذلكَ لاَ إلىَ هؤلاءِ ولاَ إلىَ هؤلاءِ » . وهل تمهدت الطرق بغير الصبر ؟ وهل بنيت الأمم بغير الصبر ؟ وهل تحررت الأوطان بغير الصبر ؟ وهل فاز الفائزون بغير الصبر ؟« إنَّ اللهَ معَ الصابرين»!

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . أين نحن اليوم من هذه الخصال ؟ لقد أصبح كثير من الناس يؤمنون بالمادة ولا يؤمنون بالغيب ، ويرجون الناس ولا يرجون الله ، ويعتمدون على ما فى أيديهم وهو عرض زائل ولا يعتمدون على القوى القدير ، ويغترون بما يعلمون وإنه لضئيل ، ويتهجمون على ما لا يفقهون فيضلون ويضلون ، فهل لنا أن نستعين ربنا جل جلاله أن يأخذ بنواصينا إلى الثقة به ، والخوف منه ، والرجوع إلى حكمه وعلمه ، والثبات على دينه ، والصبر على أمره ! « يا أيهاَ الذين آمنوُا اصبرُوا وصابروا ورابطوُا واتقوُا اللهَ لعلكمْ تفلحونَ » .

بين القوة والعقيدة (١)

الحمد لله ، هو أهل التكبير والتمجيد ، وهو مصدر العون والتأييد ، « يخلقُ ما يشاءُ وهوَ العليمُ القديرُ ». نشهد أن لا إله إلا أنت ، أعززت دينك بالقرآن والسلطان ، ونصرت كتائبك بالعزائم والإيمان : « يثبتُ اللهُ الذينَ آمنوُا بالقول الثابتِ في الحياةِ الدنيا َوفي الآخرةِ ،ويضلُّ اللهُ الظالمينَ،ويفعلُ اللهُ ما يشاءُ » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك، أدب قومه فأحسن تأديبهم ، ودربهم على المكارم فأتقن تدريبهم ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله ذوى المفاخر ، وأصحابه أهل المحامد والمآثر ، وأتباعه الموقنين باليوم الآخر : « فمنْ كانَ يرجوُ لقاءَ ربهِ فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشركْ بعبادةِ ربهأحداً » .

يا أتباع محمد عليه السلام

تنهض الثورات الإصلاحية عادة على أحد عاملين : القوة المقتدرة أو العقيدة المسيطرة ، أو عليهما معاً ، تسبق إحداهما ثم تقبل إليها الأخرى فتشد أزرها وتسند بناءها ، وقد بدأت ثورتنا الميمونة المباركة بهيبة القـــوة ورهبة الاقتدار ، وقام بها رجال تجردوا من شهواتهم ، وأخلصوا لله نياتهم ، وحرصوا على إرضاء خالقهم وبلادهم ، ووضعوا أرواحهم على أيديهم ، وخرجوا يريدون الحياة العزيزة أو الميتة الكريمة ، فقد كفاهم ما ذاقوه وذاقه إخوانهم من بلاء وشقاء ، وما اصطبروا عليه كارهين من فساد وكبرياء ، فأراد الله لهم النجاح ، وكلل مسعاهم بالفلاح ، فحققوا فى لحظات ما كان يعد خيالا يستعصي على الدهور . . . ولا شك أن سلطان القوة كان العامل الفعال فى ذلك الإقدام ، لأن الحق الأعزل لا يستطيع الوصول أو السيادة إلا بقوة . . . ثم إن النفوس كانت قد تحللت وتعفنت ، وتهدمت قواعـــد

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٩ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ الموافق ١٩ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

العقيدة فيها ، وزلزت أركان الإيمان فى نواحيها ، حتى نسوا الله فأنساهم أنفسهم وكانوا قوماً بورا ، فلم يكن هناك مجال للبدء بالثورة عن طريق الإسماع والإقناع ، والله إذا أراد شيئاً قضاه ، وقد أراد ولا معقب لحكمه أن يكتب النصر لعباده على أيدى كتيبة قل عددها ولكن كثرت عدتها ، ففعلت باقتدارها ما لا تفعله آلاف المقالات والخطب . . .

واليوم لابد لهذه الثورة الكريمة العظيمة من تسويغ وترسيخ وتمكين ؛ لابد لها من ارتكاز على أسس عريضة عميقة متينة ، من الفهم والهضم ، والاعتقاد والاقتناع ؛ لابد لها من رابط وثيق يربطها بجذور الإيمان فى القلوب والأرواح ، حتى يدرك كل فرد أن هذه الحركة المباركة لازمة له ولعقيدته لزوم الماء والهواء ؛ وإذن فتحتاج الثورة إلى مبشرين وحواريين ، وإلى كتاب وخطباء ، وإلى دعاة ومرشدين ، يفهمون الشعب أولا ماذا كان فيه ، ثم ماذا صار إليه ، ثم مدى الفروق بين هذا وذاك ، ثم يوجهون القادة إلى ما يجب أن يكون ليرضى الله ويسعد الوطن ، ثم يرسمون الأهداف المقبلة للناهضين العاملين ، حتى يبصروهم بوسائل الغلب ، ويحذروهم من مهاوى العطب ، ثم يحكمون الاتصال أو الامتزاج بين القوة والعقيدة ، أو بين الإصلاح والدين ، حتى يكون الدين مهيمناً على النهضة فتباركها يد الله ، وحتى يكون الإصلاح مستجيباً لهدى الدين القويم ، فيأخذ إلى النفوس أعدل طريق بلا تردد أو تعويق . وحينئذ يكون الصبر الجميل ، والثبات الواثق ، والنصر المبين : «ربنا أفرغْ علينا صبراً وثبتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين» ، وكلاً نقصُّ عليكَ منْ أنباءِ الرسلِ ما نثبتُ به فؤادكَ وجاءكَ فى هذهِ الحقُّ وموْعظةٌ وذكرى للمؤمنينَ » ، « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » .

ولابد أن تسند القوة العاقلة هؤلاء الدعاة ، وأن تمكن لهم بعد اختيارهم والإطمئنان إليهم ، حتى يكون لهم كيانهم واعتبارهم ، وحتى يلقى الناس

بيانهم وتوجيههم بالتوقير والمسارعة ؛ فإنه من المؤسف أن يكون الداعى دعيا فيتكلم وكأنه طبل أجوف ، أو يتكلم وهو مرغم على ما يقول ، أو يتكلم حيث لا يجد المستجيب أوالسميع . . .ولقد مرت أيام كنا ندعو فيهافوق المنابر لمن لا نؤمن به ، ولكننا مرغمون ، ومرت أيام حرمت فيها آيات من القرآن لا تتلى لأن فيها تعريضاً بالمجرمين الظالمين وهم الحاكمون المستبدون ، ومرت أيام حولت فيه مهمة الإفتاء إلى « مصنع » ينتج ما يشاؤه الجبارون بين العباد . . .

وقد آن الأوان لإصلاح هذه العيوب ، ولتمكين رجال الدعوة الإسلامية من أداء واجبهم ورسالتهم بقوة وعزة وانفساح ، حتى يخدموا هذه الثورة أكبر خدمة ، وهى صبغها بصبغة الإسلام الحنيف الذى جاء ليسعد لا ليشقى ، وليجمع لا ليفرق . ولينشر السلام لا ليثير البغضاء ، وليحفظ للجميع جميع الحقوق ، لا ليوجد الشحناء والعقوق : « قدْ جاءكم منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدِي به اللهُ من اتبعَ رضوانهُ سبلَ السلامِ ويخرجهمْ منَ الظلماتِ إلىَ النورِ بإذنهِ ويهديهمْ إلى صراطٍ مستقيمٍ » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

قد يستطيع المصلح أن يطعم الشعب سنة وسنتين ، وقد يستطيع أن يبهر عينيه بإصلاحات تتناول حياته المادية والاجتماعية . . . ولكن الشعب لن يقنع بها وإن كان يقدرها ويشكرها ويمجدها ، لأنه يرجو هذا غذاء لروحه وقلبه ، وضياء لعقله ونفسه ، ونبراساً يشعل جذوة العقيدة والإيمان فى صدره ، ويومئذ يقول لمصلحه لقد اكتفيت واشتفيت ، فقدنى حيث شئت فى ميادين العمل والجهاد . . . فلنؤيد قوتنا بتثبيت عقيدتنا ، ولنسند عقيدتنا بسلطان قوتنا ، ومتى اجتمع الإيمان والسلطان فقد تمت نعمة الرحمن . . . واتقوُا اللهَ الذى أنتمْ به مؤمنونَ ، إنّ اللهَ معَ الذينَ اتقواْ والذين هم محسنون . . .

الله جل جلاله [1]

الحمد لله ، يعطى ويمنع ، ويرفع ويضع ، ويهدى ويضل ، ويعز ويذل : « والذين تدعونَ من دونه ما يملكونَ من قطمير ». نشهد أن لا إله إلا أنت ، تمهل ولا تهمل ، « وإلى الله ترجعُ الأمور » « يومَ لاَ تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذ لله ». ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك لجأ إليك فنال الكرامة ، واستعاذ بك فرزق السلامة ، وفاز فوزاً عظيما ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وذريته ، وأصحابه وجماعته ، والقائمين بأمر شريعته « الذينَ آمنوُا ولمْ يلبسوُا إيمانهمْ بظلمٍ أولئكَ لهمْ الأمنُ وهم مهتدونَ ».

يا أتباع محمد عليه السلام . .

مما يسعد الخاطر ويوحى بالبشائر أن رئيس الحكومة البطل الذى أنقذ الوطن وأخمد الفتن قد أمر أن تنزع صورة الملك المخلوع ، وأن توضع بدلها لوحة كتب عليها « الله جل جلاله » ؛ وهذا صنيع بديع يوحى بأن الثورة المباركة ليست للبطون والأجساد فحسب ، ولكنها أيضاً للأرواح وتثبيت دعائم الاعتقاد ؛ وما دام اسم الله يعلو رءوسنا ، وما دامت رقابته تسيطر علينا ، وما دام جلاله يملأُ صدورنا ، فقد سلم الطريق وتحقق التوفيق : « إنَّ الذينَ يبايعونكَ إنما يبايعونَ اللهَ يدُ اللهِ فوقَ أيديهمْ فمنْ نكثَ فإنمَا ينكثُ على نفسهِ ومنْ أوفىَ بماَ عاهدَ عليه الله فسيؤتيهِ أجراً عظيماً » . . ؟

نعم هذا إصلاح جميل واتجاه حميد تكسب به الثورة بركة ربها ، وتبعد به عن مخالبها ، وذلك لأن حب الذات مع طغيان الهوى يدفعان صاحب السلطان إلى الإسراف فى التنويه بشخصه والإعلان عن نفسه ، والمبالغة فى فرض اسمه وطابعه ما يستحق وما لا يستحق ، وقد يغره ذلك البريق ويخدعه ،

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٢ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ الموافق ١٢ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

وقد يستبد به الزهو والخيلاء حينما يبتدى له كأن الدنيا كلها طوع يديه ، فهى منه وإليه ، ولكنه من غفلته لا يدرك أن ذلك الإسراف يكون سبباً فى نكبته وزوال اسمه ودولته ؛ وأمامكم شاهد قريب ، فهناك طاغيه مستبد ، فرض اسمه على كل شىء ، واحتال لذلك بكل شىء ، وخيل إليه أنه قد صار كل شىء، وتوهم أكثر الناس أنه حقاً كل شىء ، وفى إطراقة جفن ذهب منه كل شىء ، وزال اسمه عن كل شىء ، ولم يبق اسمه الطويل العريض على شىء «فسبحانَ الذي بيدهِ ملكوتُ كل شيءٍ وإليهِ ترجعونَ».

ولا تظنوا أن سفاهة الطاغين من الحاكمين فى ذلك الباب حديثة الميلاد ، فتلك ضلة قديمة فى البلاد وبين العباد ، إذ كان الملوك القدماء تستبد بهم الأنانية والشهرة الكاذبة وحب الذات ، فينحتون أسماءهم وأوصافهم ومحامدهم على الصخور وأحجار الهياكل والمعابد وغيرها ، ويخيل إليهم أن ذلك تخليد ليس وراءه نسيان ، ولكن هؤلاء الملوك يصيبهم هوان الافتقار أو الإنكسار أو يعدو عليهم الموت هاصر الأعمار ، فيخلفهم ملوك آخرون ، فيمحون أسماء السابقين ، ويضعون أسماءهم هم مكانها وينسبون الصفات المنحوتة إلى أشخاصهم ؛ ثم تدور عليهم الدائرة كما دارت على سابقيهم ، ويخلفهم من يمثل نفس الدور معهم ، وهكذا . . . ثم تستقر الأمور أخيراً بأن يصبح الجميع فى وادى النسيان والعدم ، وتطفح من حين لحين رائحة ما أتوا من مظالم وما ارتكبوا من قبائح ومآثم ، فتذكر قول الجليل فى محكم التنزيل : « إنَّ الملوكَ إذاَ دخلوُا قريةً أفسدوهاَ وجعلوُا أعزةَ أهلهــاَ أذلةَ وكذلكَ يفعلونَ » .

ذلك شأن سلاطين البشر الذين يهبهم ربهم أجزاء من ملكه لحكم يعلمها وهو اللطيف الخبير ، وقد دلتنا التجارب والحوادث على أن سلطانهم مهما امتد لا يدوم ، وأن جشعهم مذموم ، وأن أسماءهم مهما لمعت فهى إلى ظلمات وغيوم ، وأما اسم العلى الأعلى فإنه دائم لا يزول ، باق لا يحول ، له وحده

الملك والسلطان ، وبيده وحده الأمر والشأن : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملكَ منْ تشاءُ ، وتنزعُ الملكَ ممنْ تشاء ، وتعزُّ من تشاءُ ، وتذلُ منْ تشاءُ ، بيدكِ الخيرُ ، إنكَ علىَ كلِّ شيءٍ قديرٌ » . وما دام الله هو ملك الملوك ، وهو صاحب العزة والجبروت حقاً وصدقاً ، وما دام سلطان غيره عارية مستردة ، ومقصوراً على الظاهر والعنوان ، فاسم الله أولى بالتكريم ، ووصفه أجدر بالتعظيم ، ونعته أحق بالتعميم ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ؛ وفوق ما فى هذا من عدل فى التصرف وإنصاف فى الحكم ، سيؤدى بنا ذلك التعلق باسم الله والتطلع الدائم نحوه إلى مراقبته وخشيته والخوف منه ، وإذا حلت الخشية قلوب الجماهير فقد استغنت عن التطهير ؛ إن الله لطيف خبير .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لقد مرت على بلادكم الغالية فترات حالكة الظلام ، سعت فيها ثعابين الإثم والمنكر بكل فسوق وكفران ، حتى عبدَ المجرمون من دون الله أصناماً وأوثاناً ، وهدموا بذلك للدين والإيمان أركاناً ، وكان اسم الله جل جلاله أحياناً محرماً على الشفاه ، حتى قيل متى نصر الله ، بل قيل أين الله . . . والله معكم أينما كنتم ؛ وخيل للضعفاء وللسفهاء ما خيل إليهم من شبه فى الدين وأهليه ؛ ولكن هأنتم هؤلاء تشهدون النور يقبل بعد تطاول الديجور ، وهذه رجعة إلى الله فانتهزوها ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، فطهروا قلوبكم من سواه ، وطهروا دياركم من أسماء ما عداه ؛ واجعلوا اسمه نبراسكم فى هـذه الحياة : «وإذاَ سألكَ عبادي عنيِّ فإنيّ قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعي إذاَ دعانِ فليستجيبوُا لي وليؤمنوُا بيِ لعلهمْ يرشدونَ». واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إنّ اللهَ معَ الذين اتقوُا والذينَ همْ محسنونَ . . . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ايمان الفريق (١)

الحمد لله، يكرم بالنعمة ، ويؤدب بالنقمة «ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون» . نشهد أن لا إله إلا أنت ، وسعت رحمتك كل شيء ، واتسع فضلك لكل حي ، وتقبلت الدعاء ، واستجبت للرجاء وكنت الكريم الحليم : «وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور» . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، عرفك في السراء والضراء واعتمد عليك في البأساء والنعماء ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وشيعته ، وأقطاب صحبته ، وأتباع دعوته : «الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أما أن الله عز وجل هو الرب المستحق للعبادة دون سواه ، الجدير بالتقديس دون غيره ، فذلك أمر أصبح واضحاً مفروغاً من تقريره عند جميع العقلاء ، ولله في كل شيء آية تدل على أنه الواحد ، وما ينكر جلال الله اليوم إلا عتل حيوان أو خبيث أفعوان ؛ ولكن الناس في عبادتهم لله أصناف وألوان ؛ فمنهم من يخضع له خضوع العبيد الأذلاء الذين لا تسيرهم إلا الرهبة، ولا يسيطر عليهم إلا الخوف ،ومنهم من يتقرب إليه تقرب التجار المحترفين الذين تستحوذ عليهم الرغبة وحدها ، ويستبد بهم الطمع فحسب، ومنهم من يعبده لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة ، لأنه لا معبود بحق سواه ، فهو يقدسه تقديس الصديقين المحبين ويعبده عبادة المؤمنين الموقنين وإن كان في الوقت نفسه يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ، فأين موقفنا نحن من هذه الأصناف ؟! . . .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة في يوم الجمعة ٢ من ذي القعدة سنة ١٣٧٦هـ الموافق ٣١ من مايو سنة ١٩٥٧ م .

ومهما كان هناك من فرق أو فروق بين هذه الأصناف وكان الصنف الأخير أفضلها وأعلاها وأغلاها فإنها على أى حال طوائف عابدة لربها ، موصولة به ، ولكل طائفة منها أجرها المقسوم وحظها المعلوم ، سواء أكان حادى العبادة عندها هو الخوف ، أم الطمع ، أم صادق الحب والإيمان !. .

يخيل إلى أن الكثيرين منا يعاملون ربهم معاملة النفاق والمخاتلة ، وكأنهم لا يعلمون أن الله جل جلاله أعز من أن يغلبه غالب ، أو تصح عنده مراوغة مراوغ : «ومكرُوا ومكرَ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرينَ » ؛ «إنهمْ يكيدونَ كيداً ، وأكيدُ كيداً ، فمهلِ الكافرينَ أمهلهمْ رويداً » !! . . .

ألسنا — يا بنى آدم — نظل مسرفين فى اللهو والغفلة ، راتعين فى الإثم والخطيئة ، لا نعرف الله حق معرفته ، ولا نعبده حق عبادته ، ولا نذكره كما ينبغى لجلال وجهه وسلطانه ، حتى إذا ألمت بنا ملمة ، أو نزلت بساحتنا كارثة ، لجأنا إليه داعين راجين ، وذكرناه خائفين خاشعين ، وبدونا كأننا من خيار الصديقين ، حتى إذا انقشعت الظلمات ، أو تكشفت الملمات ، عدنا من جديد إلى اللهو والعبث كأنه لم تصبنا ضراء ، ولم نلهج بتوبة أو رجاء ، فنكون كالذين تحدث عنهم القرآن الكريم أكثر من موضع ، وهم أولئك الذين يركبون السفينة فرحين آمنين ، متمتعين غافلين ، حتى إذا اضطرب الموج ، وعصفت الريح ، وتمايلت السفينة ، ذكروا ربهم عند الغرق ، واستغاثوا به ، ولجأوا إليه ، وعاهدوه فى ضراعة وذلة ، أن يكونوا أخياراً أبراراً إذا خلصهم ونجاهم . . . فلما انكشف السوء ، وأمنوا الغرق ، كفروا بربهم ، وعادوا مجرمين !! ..

خذوا مثلا من الأمثلة . . . منذ حين طاف بالبلاد طائف من العدوان والطغيان ، ورأى الناس الموت بأعينهم فى كل مكان ، فأخذوا يفزعون

إلى ربهم ، ويحاولون مرضاته ، فهم يدعون ويصلون ، وهم يرتلون القرآن ويبتهلون ، ووقف الكثير من المساخر ، واستتر العديد من المنكرات ، وحبذت الصحافة والإذاعة أغلب الجهود للتعبئة الروحية ، ولبث آيات الجهاد ، وأحاديث الكفاح ، وتوجيهات القوة ، وخشعت أصوات الرذيلة والتحلل والتميع والإلحاد ، ووصل ذلك الإصلاح إلى الموسيقى والغناء ، فاختفت أغانى الرقاعة والوقاحة ، وظهرت أغانى الإيمان والقوة ، فأخذنا نسمع مثل قول القائل :

الله أكبر فوق كيد المعتدى　　　الله للمظلوم خـــير مؤيد

أنا باليقين وبالسلاح سأفتدى　　　بلدى ونور الحق يسطع فى يدى

وأخذنا نسمع قول الآخر : «دع سمائى فسمائى محرقة» . بل وأخذنا نسمع فى الغناء بالعامية : «والله يا زمان يا سلاحى . . .» ! . . . وقال أصحاب الغيرة والإصلاح : الحمد لله على تلك الهداية أو على تلك البداية . . .

وانتهت ساعة العسرة ، وأقبل نور من السلام على الوادى ، وكان المظنون بأهل العقل والمصابين بالفزعة القريبة أن يظلوا على تماسكهم الخلقى ، وعلى قربهم من إلههم ، وصلتهم به ، ولكن سرعان ما عادوا سيرتهم الأولى ، ففتحت المواخير ، وظهرت المناكير ، وخفتت أصوات الحق ، وقلت ألسنة التوجيه والهداية ، وخفتت أناشيد القوة والفتوة ، وسال طوفان الرقاعة والتحلل فى الغناء من جديد ، فأخذنا نسمع فى الصباح والمساء تلك الأغانى التى تتحدث عن الهوى والغرام ، وعن شهوات النفس ورغبات الجسد ، والتى تحرض الشباب أعنف تحريض على التعرض لتجارب خطيرة أثيمة لا يعرف عواقبها إلا الله ، وإذا بالنساء والفتيات والعقائل والمخدرات والفتيان والشبان يسمعون فى الصباح والمساء مثل تلك الأغنية الذائعة : «يا أمه

القمر ع الباب » ، حيث يشهدون عن طريق التصوير الواضح والتعبير الفاضح محاورة لفتاة تريد أن تجعل من أمها شبه وسيطة بينها وبين فتاها الذى أقبل نحوها متستراً تحت الزعم بأنه من « الخطاب » ، ولو كان خاطباً حقاً لعرف طريقه إلى والد الفتاة لا إلى أمها المنفردة بها ؛ والأغنية تصور بعبارتها الجارحة كيف تحرض الفتاة أمها على عدم الحياد أو الكسوف ، وتدعوها إلى فتح الباب لهذا العطشان الذى يطلب الماء ، والجائع الذى يطلب الطعام ، والسهران الذى يطلب الراحة والمنام ، والبقية معروفة . . .

قد يقول قائل : إن الأغنية حلوة ! . . ولكنها كحلاوة الطعام المحرم . وقد يقول قائل : إنها لذيذة ! . . ولكنها كلذة الخطيئة والإثم ؛ وقد يقول قائل: إنها مرغوبة ومشتهاة ؛ ولكن ليس كل مشتهى مرغوب يجوز تقديمه بلا قيود ، وشتان بين ما يشتهى وما يليق ! . . أتحتاج فتيات اليوم البارعات المائلات المميلات إلى تحريض على شهوة ، أم إلى تحريض على شرف وعفاف ؟ . . أما نتقى الله فى هذه اللحوم الفائرة التى نوقد عليها بالنار ، ثم نقربها من أنوف القطط الهائجة والسنانير الجائعة ؟ ! . .

وفتحنا الباب على مصراعيه لرقصة « روك أندرول » ، وهيأنا لعرضها على الناس مكاناً كان بالأمس ماخوراً خاصاً ، فأصبح اليوم ماخوراً عاماً ، وعرفت الرقصة الخطيرة طريقها إلى البيوت والأندية والمجتمعات ، وأقل ما يقال فيها إنها ثائرة مثيرة ، خليعة ماجنة ، بشهادة الكثيرين من رجال الفن والحضارة العصرية ، لا من رجال الدين ، حتى طالب بمحاربتها وزير دولة لا تعترف بالدين ، بل تحارب كل دين ؛ ولكننا بتساهلنا وتحللنا جعلنا هذه الرقصة ديناً لكثير من الشباب اليوم . ونسمع من يحتج فى تسويغ ذلك بأنه جائز شائع عند الغربيين ، ومع أن الكثيرين من الغربيين قد ضجوا بالشكوى من هذا البلاء ، فقد نسينا أو تناسينا أن القوم فى الغرب يحتاجون بحسب جوهم

وطبيعتهم إلى مثيرات ومهيجات ومحرضات ، وأما نحن فى الشرق فنحتاج بحسب جونا وطبيعتنا إلى مسكنات وملطفات ومهدئات ؛ فماذا تكون النتيجة إذا وضعنا على النار مزيداً من النفط « البنزين » ؟ ! . . ولمصلحة من يكون هذا الهدم العنيف لمقومات الأخلاق وأركان التماسك الروحى فى صدور الشباب ؟. . ألمصلحة الإسلام ، والإسلام براء من كل خطوة يهيئها الشيطان للاثم والرذيلة ؟ . . . أم لمصلحة الوطن ، والوطن فى معركة عنيفة من معارك الجهاد لتثبيت دعائمه على أسس من القوة والفضيلة ؟ أم لمصلحة هذه الأفلاذ الغالية من الأكباد وهم الأبناء الذين إذا لم نحسن تربيتهم اليوم فسيكونون شجاً فى حلوقنا غداً ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .. يا رواد المساجد ويا أبناء الإسلام. أنتم البقية الباقية المستمسكة بدينها ، الحريصة على أخلاقها ، والمستمسك بدينه اليوم كالقابض على الجمر ، فعاهدوا أنفسكم وربكم على أن تجاهدوا فى الله حق جهاده ، وأن تعملوا ما فى وسعكم لرد هذا البلاء ، وأن تثبتوا على دعوة الخير والفضيلة والأخلاق : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

وان ليس للانسان الا ما سعى [١]

الحمد لله ، لا يؤاخذ النفس إلا بما كسبت ، ولا يعاقبها يوم الحساب إلا بما اجترحت ، ثم توفى كلُّ نفسٍ ما عملتْ وهمْ لا يظلمونَ ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، قاهر الظالمين وناصر المظلومين ، وما الله بغافل عما تعملون ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أصلح ولكنه لم يظلم ، وعدل ولكنه لم يفسد ، وكان بالمؤمنين رءوفاً رحيما ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه المخلصين الصادقين ، وأتباعه الصابرين الثابتين ، أولئك الذين سعدوا ، وأولئك لهم عند ربهم نعيم مقيم .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا انحطت النفس البشرية ، وحادت عن الطريق الذى رسمه ربها لها ، بلغت من اللؤم مبلغاً يحير الألباب ، ويثير غضب الحليم ؛ وكأن الله سبحانه قد وضع فى هذه النفس من أسباب الرقى والعظمة ما تسمو به حتى تشبه الملائكة الأطهار ، وجعل فيها من الاستعداد للشر والسوء ما لو انحدرت إليه وبالغت فيه لأصبحت من الشياطين ، وصدق العلى العظيم : « قد أفلحَ منْ زكاهاَ وقدْ خابَ منْ دساهاَ » « وهديناهُ النجدينِ » ، « إنا هديناهُ السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً » .

وواجب الدعاة والمرشدين أن يوقظوا فى النفس البشرية عوامل الخير ويقودها ، وأن يجاهدوا نوازع السوء ويقهروها ، وبذلك تسود الفضيلة وتنطوى الرذائل فى منحدرها السحيق . . .

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٣٠ من شوال سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ٣ من اغسطس سنة ١٩٥١ م .

اندفع شاب ثائر فاعتدى على حياة ملك عربى ، والجريمة هى الجريمة حيثما كانت ، لا يرضى عنها عاقل ولا يتم بها إصلاح ، وقد أسرع الحرس فسفكوا دم القاتل برصاصهم ، وعلى الرغم من التسرع فى الاقتصاص قبل البحث والاستقصاء ، فقد قتل القاتل ، وبذلك ذهبت نفس بنفس ، وردد مردد : « ولكمْ فى القصاص حياةٌ يا أولى الألبابِ لعلكمْ تتقونَ ». وليس من غرضنا ولا من غايتنا أن نتعرض للحادث وأسبابه ونتائجه ، فالحديث عن ذلك كله مستفيض مشهور ، ولكن الذى يغيظ ويسوء نرى لؤم البشرية يتجسد ويتمثل فى هجوم بعض المتهورين على شقيق القاتل فيضربونه ويعذبونه حتى يسلم روحه ويلحق بأخيه . . . يا للحماقة والسفاهة . . . لقد قتل القاتل ثم قتل ، فما بال شقيقه البرىء الهادىء يصيبه هذا الظلم والعدوان ، والله يقول : « وأنْ ليسَ للانسانِ إلاَّ ما سعىَ » ويقول : « كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينةٌ » ؟.

ألا يذكرنا هذا أيها السادة بفضائح ومهازل ومخاز يأتيها مجرمون فى المشارق والمغارب ، فيأخذون البرىء بذنب المجرم ، والقاعد بجرم القائم ، دون تذكر أو تبصر أو اعتبار بأن الله وهو أقوى من كل قوى ، وأعلى من كل على ، لو جاءه شخص بجرائم وفظائع كالجبال ، لما سأل عنها سواه ، ولا عذب معه بسببها أحداً من أهله أو أقاربه ، فما بال رعاة القطعان يضلون فيسرفون فى الطغيان والعدوان ؟ . .

ما بال القاتل يقتل فتؤخذ أمه ليهتك عرضها على مرأى من الأبصار ومسمع من الأشهاد ؟ وما بال الأثيم يفعل فعلته ثم يقع فى أيدى الأشداء فلا يكتفون بالقصاص منه ، بل يفتكون معه بأهله وذوى قرباه ؟ . . وما بال الهارب من وجه المسيطرين يهرب فلا يكتفون بالجد فى البحث عنه بل يقبضون على والديه وإخوته ، ليكونوا ثمناً لهروب من عجز العمالقة عن الإتيان به ؟ ! . .

هرب أحد المعتقلين من قبضة زياد الطاغية فى العهد الأموى ، فأخذ زياد شقيق ذلك الهارب وسجنه وقال له : لن أطلق سراحك حتى يأتينى أخوك . فقال له الرجل : لو جئتك بكتاب من أمير المؤمنين يأمرك بإطلاق سراحى أكنت تطلق سراحى؟ . قال زياد : نعم ، فأنى عبد أمير المؤمنين وخادمه . قال الرجل : فأنا آتيك بكتاب من العزيز المجيد ، وهو أكرم منى ومنك ومن أمير المؤمنين ، وأقيم لك عليه شاهدين من الأنبياء هما موسى وابراهيم عليهما السلام ، يقول الله تعالى : «أمْ لمْ ينبأ بما فِى صحفِ موسى ، وابراهيمَ الذى وفَّى ، ألاَّ تزرُ وازرةٌ وزر أخرىَ ، وأنْ ليسَ للانسانِ إلاَّ ما سعىَ ، وأن سعيهَ سوفَ يرىَ ، ثم يجزاه الجزاءَ الأوفىَ » فارتدعَ زياد طاغية زمانه وقال : أطلقوا سراحه ، فإن هذا رجل قد لقنه الله حجته ! . . .

وهذا عزيز مصر وهو يوسف عليه السلام لما جاءه إخوته وهم لا يعرفونه راجين أن يطلق سراح أخيهم المتهم بالسرقة وأن يأخذ أحدهم مكانه أبى ورفض ، لأن هذا ظلم وطغيان: « قالوُا يا أيهاُ العزيزُ إنَّ لهُ أباً شيخاً كبيراً فخذْ أحدناَ مكانهَ إنا نراكَ منَ المحسنينَ ، قالَ معاذَ اللهِ أنْ نأخذَ إلاَّ منْ وجدناَ متاعناَ عنده إناَّ إذاً لظالمونَ » . . .

فما بال جبارين فى الأرض يأبون إلا أن يكونوا شياطين تتفرْعنُ فتعبث فى الكون فساداً بلا اقتصاد أو ارعواء ، يجرح الجرح بتفريطهم أو إيحاءهم ، فلا يسلكون معه سبيل القصاص ، بل يجرحون به عشرات الجراح ، ويزهقون به عشرات الأنفس البريئة بلا جناح ، مع أنهم يعلمون أن سيد البشرية محمداً غضب يوم صرع المشركون عمه حمزة سيد الشهداء فقال : لئن ظفرت

بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانه . . فجاءه تأديب الأله وتهذيبه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » وروى الترمذى بسند حسن عن أبي ابن كعب رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة ، فمثلا بهم ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم (لنزيدنن) فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » فقال رجل : لا قريش بعد اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفوا عن القوم إلا أربعة . ومع أنهم يعلمون أن الله يقول : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناًفلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً » . . . هم يعلمون هذا ويعلمون أضعافه وأضعافه ، ولكن النفس البشرية إذا ولجت باب اللؤم ولجت صارت تلميذة فى مدرسة الشيطان : « ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

عودوا أنفسكم العدل فى الأحكام والإنصاف فى التصرفات ، فحددوا المسئولية وأدركوا أين تقع ، واعرفوا التبعة ومن يؤاخذ بها ، ثم خذوا طريقكم فى الحياة على نور من ربكم وهدى من دينكم ، وجاهدوا الذين يريدونكم على البغى جهاداً كبيراً ، فإن أفضل الجهاد كما قال رسولكم صلوات الله عليه كلمة حق عند سلطان جائر . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلو ربكم التوفيق يستجب لكم .

عزة المؤمن [1]

الحمد لله ، له الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحميد « فتعالىَ اللهُ الملكُ الحقُّ لاَ إلهَ إلاّ هوَ ربُّ العرشِ الكريمِ »سبحانك سبحانك، تعطى وتمنع ، وترفع وتضع ، وإلى الله تصير الأمور . نشهد أن لا إله إلا أنت ، تعز من تشاء وتذل من تشاء : « منْ كانَ يريدُ العزةَ فللهّ العزةُ جميعاً ، إليهْ يصعدُ الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعهُ ، والذين يمكرونَ السيئاتِ لهمْ عذابٌ شديدُ ، ومكرُ أولئكَ هوَ يبورُ » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، جاءته الدنيا بلذاتها فأباها ، وتعلقت عينه بالمكارم فاجتباها ، فكان إمام الثابتين وقدوة المترفعين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وذريته ، وحوارييه وصحابته ، وأتباعه وجماعته ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لعل أعجوبة العجائب وأحدوثة الغرائب أن ينزل الحق تبارك وتعالى دينه الإسلام ليكون شرعة العزة والسيادة فى الوجود ، وليفتح أمام المسلم طريق الرفعة والعلاء ، فلا يذل لغير الله ، ولا يخضع جبهته إلا لله ، ولا يستعبد نفسه إلا لله ، ثم نتطلع فى الوجود يميناً وشمالا فنرى المسلمين هم الأمة التى تضرب كل يوم مثلا فى الذلة والخضوع ؛ وكأنما يريدون أن يقولوا : إننا نحن المسلمين نريد بتصرفاتنا فى الحياة أن نفهم العالمين أننا أول الذين يسيئون إلى الإسلام ويناقضونه ، وإن سمينا أنفسنا بالمسلمين . . . وإلا فما بالنا نرى شعوب الأرض تتعثر ثم تنهض ، وتفتقر ثم تغنى ، ويفرض عليها العسف أحياناً ثم تتحرر . وحضرات « العبيد » المسلمين فى عثرات موصولة ، وافتقار دائم ، وذل لا ينتقل ولا يريم ؟ ! . . .

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ١٨ من رمضان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٢ من يونيه سنة ١٩٥١ م .

ولكن إذا عرف السبب بطل العجب كما يقولون . . . لقد حيل بين المسلمين وبين الإسلام ، فما يعرفون منه إلا العنوان وفضول الكلام ، وذل المسلم فى نفسه حين أعرض عن ربه ، واتخذ له فى دنياه معبودات من المــال والشهوة ، والطواغيت والشياطين ، وقديماً قيل : أذل الحرص أعناق الرجال وذلت الأمة المسلمة لأنها تفككت بعد اجتماع ، وتحللت بعد اعتصام ، واستبد بأمورها من لا يعرف ربها ، ولا يؤمن بدينها ، ولا يخشى سلطانها ، ولا يخاف عقابها ، وإذا أصيبت الأمة فى أجرائها حين جعلتهم ولاتها فصاروا أعداءها ؛ فقد ذل العزيز ، وتضاعف ذل الذليل ، ولن تجدى كثرة العدد ، ولا سعة الرقعة ، ولا ضخامة المتاع ، وصدق الرسول : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ . قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن ؛ قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » . .

أين نحن من الإسلام أيها الناس ؟ . . . فلنعرف جواب هذا السؤال أولا ، ولنحدد من الإسلام موقفنا ، فإما أن نؤمن به فنقبل عليه ونعمل له ، وإما أن نكفر به فنهجره ونصد عنه ... إن الإسلام دين لا يجتمع مع الذلة فى مكان ، وما جاء به محمد إلا ليغرس فى نفس كل مسلم شجرة الترفع على كل خسة ودناءة ، ويشيع فيه الاعتزاز بالله وحده : «ومَنْ يتوكلْ علىَ اللهِ فهوُ حسبهُ ، إنّ اللهَ بالغُ أمرِه ، قدْ جعلَ اللهُ لكلِّ شىءٍ قدراً » . . والله سبحانه وتعالى يعلمنا الثبات فى الأمر ، والعزيمة فى الرشد ، والتسامى عن الهوان والحزن فيقول فى كتابه: «ولا تهنوا ولاَ تحزنوُا وأنتمْ الأعلونَ إنْ كنتمْ مؤمنينَ» . ويصفُ لنا محمداً وصحبه بأنهم أعزاء فى نفوسهم ، أقوياء على أعدائهم ، وإن كانوا رحماء فيما بينهم ، يتعاطفون برحم الله الذى جمعهم ، فيقول :

« محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معهُ أشداءُ على الكفار رحماءُ بينهمْ ، تراهم ركعاً سجداً ، يبتغونَ فضلاً منَ اللهِ ورضوَاناً » وفى آية أخرى يقول : « يا أيها الذينَ آمنوا ، منَ يرتدَّ منكمْ عنْ دينه فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحبهمْ ويحبونهُ ، أذلة علىَ المؤمنينَ أعزة علىَ الكافرينَ ، يجاهدونَ في سبيلِ اللهِ ، ولاَ يخافونَ لومةَ لائمٍ ، ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ ، واللهُ واسعٌ عليمٌ » . ثم يقرر أن العزة فى الأرض والسيادة فى الكون ميراث خالص يهبه الله لعباد الله فيقول : « وللهِ العزةُ ولرسولهِ وللمؤمنينَ ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمون» . وهذا معلم البشرية محمد صلوات الله عليه يعلم المسلم كيف يكون أمة وحده ، وكيف يتنزه عن التقليد الأعمى والمتابعة الخرقاء ، وكيف يكون عزيزاً فى رأيه وفكره ومنهاجه فيقول : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

وقديماً كان المسلمون فى مختلف العصور الزاهرة أمثلة رائعة للعزة وكرامة النفس وسمو الهمة ، يفضلون المنية على الدنية ، ويطلبون الصدر أو القبر ، ولا يذلون أعناقهم إلا لخالقها ، ولا يقدمون أنفسهم إلا لبارئها ، وكل منهم يهتف مؤمناً بما يقول : « وجهت وجهيَ للذي فطرَ السمواتِ والأرضَ حنيفاً وما أنا منَ المشركينَ ، إنَّ صلاتي ونسكي ومحياى ومماتي لله رب العالمين ، لا شريكَ لهوبذلك أمرتُ وأنا أولُ المسلمينَ » . وهذا هو الإمام الشافعى رضى الله عنه كان يترجم عن عزة المؤمن وكرامة المسلم حين ينشد :

أمطرى لؤلؤ اسماء سرنديب ... وفيضى جبال تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً ... وإذا مت لست أعدم قبراً
همتى همة الملوك ، ونفسى ... نفس حر ترى المذلة كفراً

ولقد أراد أحد الحكماء فى تقشفه وزهده أن يبين عن عزة نفسه وعلو همته وقناعة قلبه ، فقال : بينى وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فلا يجدون لذته ولا أجد شدته ، وأما الغد فإنى وإياهم منه على خطر ، فما هو إلا اليوم ، فما عسى أن يكون ؟ . . وقال رجل للحسن بن على وقد كان عزيزاً : إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً . فقال : ليس ذلك بتيه ، ولكنها عزة ؛ وتلا قوله تعالى : : « ولله العزةُ ولرسولهِ وللمؤمنينَ ، ولكنّ المنافقينَ لاَ يعلمونَ » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

العزة ميراث المسلم أينما كان وكيفما عاش ، لا يفرط فيها لأنها جزء من إيمانه وثقته برحمانه ، فحاربوا الترف والبطنة فى أجسامكم ومعدكم ، لتصبحوا أعزة فى نفوسكم وأخلاقكم ، واكفروا بطواغيت الأرض ولا ترجوهم لتصبحوا أعز منهم ، وثقوا بالله ربكم أكثر مما تثقون بما فى أيدى الناس لتصبحوا أغنياء شرفاء ، وابنوا حياتكم ومجدكم بأيديكم ونضالكم وعملكم الصالح ، لتتحرروا من عبودية الاسترقاق لكذبة السادة ، وذل الاصطناع لسفله الباغين بغير الحق ، والله ربى وربكم ، له الحكم وإليه ترجعون . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إنّ الله معَ الذينَ اتقوْا والذينَ هم محسنونَ . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ايمان واستقامة [1]

الحمد لله عز وجل ، هو الباقى الذى لا يزول ، والدائم الذى لا يتحول : « ويبقىَ وجهُ ربكَ ذو الجلالِ والإكرَامِ ». أشهد أن لا إله إلا الله القائم على كل نفس بما كسبت ، المراقب لها فى كل ما عملت : « عالمُ الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الحكيمُ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، استقام لديان العالمين ، وقيوم السموات والأرض ، فمكن له بقدرته ، وأعزه بعزته التى لا تضام ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين صبرُوا وعلىَ ربهمْ يتوكلونَ » :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

أوجب الله تعالى على الإنسان العاقل أن يتبصر ما حوله ، وأن ينظر فيما أمامه ، وأن يختار له فى الحياة طريقاً يسير عليه ، وأن يتأكد من سلامة هذا الطريق وتوصيله واستقامته ، وأن يستمسك به بعد ذلك ويدوم عليه ، لا يعوج معه ولا يميل عنه ، ما دام مؤمناً بأنه طريق الحق : « فماذا بعدَ الحقِ إلاَّ الضَّلاَل ؟ فأنى تصرفون » ؟ . ولذلك جعل الله هذه الاستقامة أول أمر نسأل الله تحقيقه لنا فى صلواتنا ودعواتنا ، فبعد أن نقول فى صلاتنا : « الحمدُ للهِ ربّ العالمينَ ، الرحمن الرحيم ، مالكِ يومِ الدين » وبعد أن نخصه بالعبادة ونقصر عليه الاستعانة قائلين : « إياك نعبد وإياك نستعين » نقول عقيب ذلك : « أهدناَ الصراطَ المستقيمَ » أى دلنا على الطريق المعتدل الموصل ، وأعنا على اتباعه ، والتمسك به ، وعدم الخروج عنه .

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٣ من رمضان سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ١٤ من يناير سنة ١٩٦٦ م .

ويأمر الله نبيه بالحرص على الهدى ، والدوام مع الحق ، والاستمساك بمبدأ اليقين ، فيقول له: «فاستمسكْ بالذي أوحيَ إليكَ إنكَ علىَ صراط مستقيم » ويقول له : فلذلكَ فادعُ واستقمْ كماَ أمرتَ ولاَ تتبعْ أهواءهمْ » .
ويعم الله بعد التخصيص ، فيطالب المؤمنين بالإقامة الدائمة مع الحق ، والاستقامة الموصولة على الهدى ، فيقول لهم : « وأنّ هذاَ صراطى مستقيما فاتبعوُه ، ولا تتبعوُا السبلَ فتفرقَ بكمْ عنْ سبيله ذلكمْ وصاكمْ به لعلكمْ تتقون » . ويعود القرآن فيطالب النبي وأتباعه بالثبات والدوام والاستقرار على الاعتقاد ، وعدم مجاوزة الحق فى قليل أو كثير ، وإلا عاقبهم العزيز المقتدر المطلع على جميع شئونهم فيقول : « فاستقمْ كما أمرتَ ومنْ تابَ معكَ ولا تطغوْا إنهُ بماَ تعملونَ بصيرٌ » . وليس المهم فى نظر الإسلام أن يغلو المسلم فى دينه ، أو يسرف فى اعتقاده ، أو يتعصب له تعصباً عنيفاً فترة من الفترات ، فقد علمتنا التجارب أن الإسراف يؤدى إلى الاعتساف ، وأن الإفراط يعقبه التفريط ؛ بل المهم هو أن يداوم المؤمن ويثبت ، ويستقر ويواصل ، فيقوم بعمله ، ويؤدى واجبه ، فى إتقان من جهة ، واعتدال من جهة ثانية ، واستمرار من جهة ثالثة ، ولذلك روى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . ولقد جاء رجل إلى النبي وسأله قائلا : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك . فأجابه : قل آمنت بالله ثم استقم . فلم يطالبه بكلمة الإيمان وحدها ، بل طالبه بما هو أهم وأعظم ، وهو الاستقامة مع الحق والدوام فى العمل .

وهذا هو الصبر الذى احتفل بأمره القرآن المجيد احتفالا عظيما ، وذكره فى نحو ثمانين موضعاً ، وقال لنا فيما قال عنه : « إنماَ يوفىّ الصابرونَ أجرهمْ بغيرِ حسابِ » . . . ما حقيقة هذا الصبر وما معناه ؟ . . إن الصبر هو حبس

النفس وحملها على ما يقتضيه العقل والشرع ، وهو أيضاً صدها ومنعها عما لا يليق بها فى العقل والشرع ، وإذن فالصبر هو ثبات العقيدة ، وهو ثبات الأخلاق ، وهو الدوام على المبدأ الحق ، وهو الاستقامة على الطريق القويم ، ومن هنا خاطب الله رسوله فقال: « واتلُ ما أوحيَ إليكَ منْ كتابِ ربكَ لا مبدلَ لكلماتهِ ولنْ تجدَ منْ دونهِ ملتحداً (أى ملجأ) واصبرْ نفسكَ (أى احبسها وثبتها) مع الذين يدعونَ ربهمْ بالغداةِ والعشىِّ يريدونَ وجههَ ، ولاَ تعدُ عيناكَ عنهمْ تريدُ زينةَ الحياةِ الدنياَ ، ولا تطعْ منْ أغفلناَ قلبهُ عنْ ذكرناَ واتبعَ هواه ، وكانَ أمرُه فرطاً » .

وإنما اعتز الإسلام ، وتحقق المجتمع الإسلامى الكريم برجال درسوا فعرفوا فآمنوا فاستقاموا ، وما انحرفوا بعد استقامتهم هنا أو هناك . ولم يستطع المال أن يفتنهم عن إيمانهم ، ولم يستطع الجاه أن يلفتهم عن دينهم ، ولم يتمكن الجبروت أن يذل من رقابهم ، بل ظلوا كما أرادوا لأنفسهم : مؤمنين بدينهم ، عابدين لربهم ، مستمسكين بمبادئهم ، صابرين معها ، باذلين لها النفس والنفيس ، حتى صدق فيهم قول ربهم : «من المؤمنينَ رجالٌ صدقوُا ما عاهدوُا اللهَ عليهِ ، فنهمْ من قضى نحبهُ ، ومنهمْ من ينتظرُ ، وما بدلوُا تبديلا » .

هكذا كان المسلمون الأولون ، وهكذا سادوا وقادوا ، ثم خلف من بعدهم خلف بل أخلاف ، فى فترات الضعف والهوان ، فأجادوا التلون وأتقنوا التذبذب ،وبرعوا فى الإنتقال من مبدأ ، إلى مبدأ ، ومن اتجاه إلى اتجاه ، فضاعت بينهم القيم والمثل والأخلاق ، وأساءوا إلى الإسلام أيما إساءة ، لأنهم محسوبون عليه ، ومنسوبون إليه .

والرجل الذى ينتقل من مبدأ إلى مبدأ ، ويتأرجح بين لون ولون ، لا يخرج عن واحد من شخصين : إما أن يكون جاهلا ضالا ، فهو ينخدع بأسرع بريق ، ويسارع إلى التأثر بلا تفكر أو تدبر ، وإما أن يكون منافقاً خبيثاً يخادع ويصانع ، ويتخذ هذا التنقل تجارة ومغنماً ، وسلماً يصل به إلى مآرب أخرى . . . والمسلم الحق لا يكون واحداً من هذين . لا يكون المسلم الصحيح جاهلا ، لأن الله تعالى جعل العلم أول مواريث المسلم ؛ ولا يكون ضالا ، لأن الله قد بث بين يديه الأشعة والأضواء : « قدْ جاءكم منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدِي بهِ اللهُ منِ اتبعَ رضوانهُ سبلَ السلامِ ويخرجهمْ منَ الظلماتِ إلىَ النورِ بإذنهِ ويهديهمْ إلىَ صراطٍ مستقيمٍ » « قدْ جاءكم بصائرُ منْ ربكمْ فمنْ أبصرَ فلنفسهِ ، ومنْ عميَ فعليهاَ ، وما أنا عليكمْ بحفيظ » . والمسلم لا يكون منافقاً ، لأن النفاق أشد خطراً من الكفر الصريح ، ولأن المنافق لا يكون وجيهاً عند الله ، لأن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن إلهنا يطالبنا بدوام العمل ، وإن ربنا منظم كونه يطلب منا أن نكون منظمين فى اعتقادنا وأقوالنا وأعمالنا ، وإن خالقنا ورازقنا يطالبنا بواجبنا نحوه ، وهو الخضوع له وعبادته على الدوام حيث يقول : « واعبدْ ربكَ حتىّ يأتيكَ اليقينُ » واليقين هنا يراد به الموت ، أى أعبد ربك ما دمت حياً ، إلى أن يأتيك الموت وأنت على ذلك ، فتلقاه وأنت مسلم عابد : « يا أيها الذينَ آمنوُا اتقوُا اللهَ حقّ تقاتهِ ولاَ تموتنّ إلا وأنتمْ مسلمونَ » . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم سلو ربكم التوفيق يستجب لكم .

الطريق الى الله (١)

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، أحمده سبحانه وأشهدأن لا إله إلا الله هو ولى النعمة ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريبٌ منَ المحسنينَ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي المرحمة ، وقائد الملحمة: « وما أرسلناكَ إلاّ رحمةً للعالمينَ » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين ، وأستفتح بالذى هو خير : « ربَّنا عليكَ توكلنا ، وإليكَ أنبنا ، وإليك المصيرُ » .

أما بعد

فإن الطريق إلى الله تبارك وتعالى عماده العلم والمعرفة ، مع الإيمان واليقين ، مع تحديد الغاية والهدف ، مع سلوك الطريق باعتدال واستقامة حال ، ومحاذرة الانحراف والضلال ، ولذلك نرى الحق جل جلاله يقول لرسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم : « فاستقمْ كما أمرتَ ومنْ تابَ معكَ ولاَ تطغوا إنه بما تعملون بصير » . أى الزم الطريق المستقيم المعتدل الذى لا عوج فيه ، المتوسط بين طرفى الإفراط والتفريط ، أنت ومن آمن معك ، كما أمرك الله ودعاك، ولا تتجاوزوا طريق ربكم فهو مطلع على كل أحوالكم « إنهُ بماَ تعملونَ بصيرٌ » .

وللامام السيد أحمد الرفاعى رضى الله عنه عبارة موجزة مركزة ، كأنها تستضىء وتستمد من هدى هذا النور الإلهى الساطع يقول فيها : « المتلفت لا يصل » . وهى كلمة عميقة المدلول دقيقة المفهوم . لو جعلها المؤمن البصير جزءاً من شعاره ، واستجاب لها على هدى وبصيرة ، لدفعت به إلى مراحل فى سبيل الاستقامة والاعتدال . ولو أخذنا بطريقة الصوفية وأسلوبهم فى

---

(١) ألقيت بمسجد الامام الرفاعى بالقلعة يوم الجمعة ١٨ من اغسطس سنة ١٩٧٢ م .

تفهم هذه العبارة ، لقلنا : إن من يشغل نفسه أو حسه عن ذكر ربه وطاعته ، يظل محروماً من دخول حماه ، فعليه أن يلزم طاعة مولاه ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، حتى يبلغ رضا الله عنه وقبوله له ، فيفوز لديه بالأمان والإطمئنان يا أيتها النفس المطمئنة ، إرجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

ونحن نستطيع أن نفهم عبارة : « المتلفت لا يصل » بأسلوب عصرنا ، فندرك أنها دعوة إلى وضع منهج ، وتحديد خطة ، ومواصلة مسيرة ، ودوام عمل ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويحقق المناضل عمله ، وهذا لا يكون إلا بدعامتين ، العقيدة القائمة على العلم الصحيح الثابت ، ثم العمل المستقيم المستمر الدائم ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » . فقولهم : ربنا الله » عقيدة وعلم ، واستقامة تطبيق والتزام ولهذا قال الله تعالى لرسوله : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » . وقال له : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

وحينما سأل بعض الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول فى الإسلام لا يسأل عنه أحداً بعده أجابه بقوله : « قل آمنت بالله ثم استقم » . والقرآن الكريم يجمع بين الدعوة إلى الدوام على العمل ، والاستمرار فى بذل الجهد حتى النهاية ، والتحذير من التلفت أو الإنحراف ، فيقول « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » أى داوم على طريق الطاعة والعمل الصالح حتى الموت ، ويقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ويقول : « ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » .

والمتلفت إنسان قلق مبعثر ، لا منهج له ولا خطة ، فهو كل حين بمبدأ ، وكل يوم بسلوك ، إذ لا عقيدة عنده يخضع لها فتسيطر عليه فى وجدانه وإيمانه ، ولا خطة بين يديه يلتزم بها ، أو يثابر على تنفيذها وتحقيقها ، فلا استقرار عنده ولا ثبات ؛ والمتلفت أيضاً يتطلع إلى هؤلاء من الناس فينخدع ببريقهم وتزويقهم فيميل نحوهم على غير رشاد أو اعتقاد ، ثم يتطلع إلى أولئك من الناس ، فيغتر بظواهرهم ومناظرهم ، فيرتد إليهم بلا تفكر أو تدبر ، وهكذا يظل كرة تتلاعب بها الأقدام : « مذبذبينَ بينَ ذلكَ . لاَ إلىَ هؤلاءِ ولا إلىَ هؤلاءِ ، ومنْ يضلل اللهَ فلنْ تجدَ لهُ سبيلاً » . ومع الحيرة والاضطراب لا يتم إصلاح ولا يكمل بناء : « « أفمنْ يمشي مكباً علىَ وجههِ أهدىَ أم منْ يمشي سوياً علىَ صراطٍ مستقيمٍ » ؟ .

والعامل أو الصانع إذا تلفت فى عمله أو صنعته ، فلم يجمع شتات ذهنه وهو يعمل ، ولم يركز جهده وطاقته فى إنتاجه وهو يصنع ، وشغل نفسه بتضييع الوقت تارة ، ومخادعة صاحب العمل أو غشه تارة أخرى ، فإنه لا يصل إلى جد الإتقان والإجادة ، ومن هنا لا يستحق توفية أجر ولا تكريم ذكر ، فقد نسى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه » وقوله : « إن الله كتب الإحسان على كل شئ » وقوله : « من غشنا فليس منا » . والتلميذ إذا تلفت ذات اليمين وذات الشمال ، وشغله عن دروسه وتحصيله لعب يستبد به ، أو لهو يسيطر عليه ، لا يمكن أن يصل إلى مقدمة الصفوف أو يفوز بالنجاح ، وهكذا كل إنسان فى الحياة لا يمكن أن يتم عملا ، أو يحقق أملا ، إلا إذا عرف الهدف ، ثم سلك الطريق ثم بذل الجهد ، ثم واصل العزم . بلا تردد أو اضطراب ، ولعل هذا هو بعض ما نفهمه من قول الله تعالى : « وأنّ هذاَ صراطي مستقيماً فاتبعوُه . ولاَ تتبعوُا السبلَ فتفرقَ بكمْ عنْ سبيلهِ ، ذلكمْ وصّاكم بهِ لعلكمْ تتقونَ ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : الغاية الكريمة أمامكم ، وطريق الله مفتوح لكم ، والطاقة موفورة بفضل الله لديكم ، فأقدموا ، وتطلعوا إلى الأمام ، وواصلوا المسير ، ولا يشغلكم عن رسالتكم صارف أو لافت ، فإن المتلفت لا يصل ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو ولى الصابرين . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الهداية والتوفيق وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق فصلوات الله وسلام عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين . وبعد ، فإن خير ما يحرزه الإنسان فى حياته من توفيق هو أن يعمق علمه . وأن يستقيم اعتقاده ، وأن تدوم على طريق الحق خطواته ، حتى يحقق فى دنياه ما أراده له خالقه من حرية وعزة وكرامة ، وأن يفوز بما عنده من نعيم فى دار الخلود والبقاء ، ولذلك قال الحق جل جلاله لنبيه : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك » . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « قل آمنت بالله ثم استقم » . وقال الإمام الرفاعى : « المتلفت لا يصل » . فليت كل واحد منا يعرف واجبه ، ويلزم طريقه ، ويمضى فى أداء ما عليه لينال أسباب الرضى والتوفيق .

اللهم أغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات . . . إلى آخر الدعاء.

المتلفت لا يصل [١]

الحمد لله عز وجل ، أنار الطريق ويسر التوفيق : « وننزلُ منَ القرآنِ ماهوُ شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، فاز من اعتصم بحماه ، وخسر من لجأ إلى سواه : « أأربابٌ متفرقونَ خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهارُ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله،جاء بالحكمة وفصل الخطاب : «وانكَ لتهدي إلىَ صراطٍ مستقيمٍ » . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « لهمْ ماَ يشاءونَ عندَ ربهمْ ذلكَ هوَ الفضلُ الكبيرُ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

مرت الأيام ، واستدار العام ، وأقبلت ذكرى الإمام أحمد الرفاعى ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وترشد المتدبرين ، وتفيد المعتبرين : « إن فى ذلكَ لذكرىَ لمنْ كانَ لهُ قلبٌ أو ألقىْ السمعَ وهوَ شهيدٌ »،والإمامالرفاعى علم من أعلام التوجيه الدينى والروحى فى تاريخ هذه الأمة ، وله كلمات سواطع فى التربية والتعليم ، منها قوله : « المتلفت لا يصل » وهى عبارة موجزة ولكنها مركزة ، ولو جعلها المؤمن جزءاً من شعاره واستجاب لمعناها على هدى وبصيرة ، لدفعت به إلى مراحل ومراحل فى سبيل الاستقامة ، والاعتدال . ولو أخذنا بأسلوب الصوفية فى تفهم هذه العبارة لقلنا : إن من يشغل نفسه أو حسه عن ذكر ربه وطاعته يظل محروماً من دخول حماه ، فعليه أن يلزم كلمة الله ومحبته ، لا يلتفت يمنة ولايسرة ، حتى يبلغ رضا الله عنه وقبوله ،فيفوزبكلخير « يا أيتها النفسُ المطمئنةُ إرجعي إلىَ ربكِ راضيةً مرضيةٍ ، فادخلِى فى عبادىِ وأدخلِى جنتىِ» .ولذلك قال ابن القيم : « وكل

---

(١) ألقيت بمسجد الامام الرفاعى فى يوم الجمعة ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٦٧ م بمناسبة مولده .

واصل إلى الله فهو طالب له ، وسالك طريق مرضاته » . وقال بعض الصوفية : « الواصل من اتصل بمحبوبه ، دون كل شيء سواه ». والمحبوب هنا هو الله : « قلِ الله ثم ذرهمْ في خوضهمْ يلعبونَ » .

ولكنا نستطيع أن نفهم عبارة « المتلفت لا يصل » بأسلوب عصرنا فنقول إنها دعوة إلى وضع منهج ، وتحديد خطة ، ومواصلة مسير ، ودوام عمل ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، ويحقق المناضل أمله ، وهذا لا يكون إلا بدعامتين هما العقيدة القائمة على العلم الصحيح الثابت، ثم العمل المستقيم المستمر الدائم . ومن هنا قال القرآن الكريم : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزلُ عليهمُ الملائكةُ ألاّ تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنةِ التي كنتمْ توعدونَ » فقولهم : « ربنا الله» عقيدة وعلم ، واستقامتهم تطبيق والتزام ، ولهذا قال الله تعالى لرسوله: «فاستقمْ كمَا أمرتَ ومنْ تابَ معكَ ولاَ تطغوْا إنهُ بماَ تعملونَ بصيرٌ»، وقال له: «قلْ هذهِ سبيلي أدعوُ إلى اللهِ على بصيرةٍ أناَ ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . وحينما سأل بعض الصحابة رسول الله عن قول فى الإسلام لا يسأل عنه أحداً بعده أجابه بقوله : « قل آمنت بالله ثم استقم » . والقرآن الكريم يجمع بين الدعوة إلى الدوام على العمل والاستمرار فى بذل الجهد حتى النهاية ، والتحذير من التلفت أو الانحراف ، فيقول : « وأعبدْ ربكَ حتىّ يأتيكَ اليقينُ »، أى وداوم على طريق الطاعة والعمل الصالح حتى الموت ، ويقول : « يا أيها الذينَ آمنوُا اتقوُا اللهَ حقّ تقاتهِ ولاَ تموتنّ إلاّ وأنتمْ مسلمونَ » ، ويقول : « ولا ترتدوُّا علىَ أدباركمْ فتنقلبوُا خاسرينَ » كما يقول : « ولا يلتفتْ منكمْ أحدٌ وامضوُا حيثُ تؤمرونَ » .

والمتلفت إنسان قلق مبعثر ، لا منهج له ولا خطة ، فهو كل يوم بمبدأ ، وكل يوم بسلوك ، إذ لا عقيدة عنده يخضع لها فتسيطر عليه فى وجدانه أو إيمانه ، ولا خطة بين يديه يلتزم بها أو يثابر فى تنفيذها وتحقيقها ، فلا استقرار عنده ولا ثبات ، والمتلفت أيضاً يتطلع إلى هؤلاء من الناس فينخدع ببريقهم وتزويقهم ، فيميل نحوهم على غير رشاد أو اعتقاد ، ثم يتطلع إلى أولئك من الناس فيغتر بظواهرهم ومناظرهم ، فيرتد إليهم بلا تفكر أو تدبر ، وهكذا يظل كرة تتلاعب بها الأقدام : « مذبذبينَ بينَ ذلكَ لاَ إلىَ هؤلاءِ ولاَ إلىَ هؤلاءِ ومنْ يضللِ اللهَ فلنْ تجدَ لهُ سبيلا » ، والمتلفت فى ميدان الإصلاح لا ينجح ولا يفلح ، لأنه قد يأخذ منهاجاً عن طريق التقليد والمتابعة العمياء ، وينوه به ويثنى عليه ويتعصب له ، وما يكاد يمضى فى تنفيذه حتى يغير فيه ويبدل منه ، وقد ينتقل إلى منهاج سواه ، وينوه به ويثنى عليه ويتعصب له ، وهكذا يظل متردداً متأرجحاً ، يقدم ويحجم ، ويبنى ويهدم ، ومع الحيرة والاضطراب والتردد لا يتم إصلاح ولا يكمل بناء : « أفمنْ يمشِي مكباً علىَ وجههِ أهدىَ أمنْ يمشِي سوياً علىَ صراطٍ مستقيمٍ » : والمتلفت رجل يشغل نفسه بغيره ، وقد كان الواجب ذاته بذاته ، فهو يتلفت إلى هذا وذاك وذلك ، ويظل يحصى عليهم عيوبهم ، ويتحدث عنها هنا وهناك وهنالك ، ويجسمها ويبالغ فيها ويندد بأهلها فيهدم بذلك غيره ويمحق فى الوقت نفسه جهده ويضيع عمره ، فلا هو أصلح فى نفسه عيباً ، ولا هو ترك غيره يمضى فى سبيله ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » وهو فى هذا يهتدى بقول ربه : « عليكمْ أنفسكمْ لا يضركمْ منْ ضلَّ إذا اهتديتمْ » .

والعامل أو الصانع إذا تلفت فى عمله أو صنعته ، فلم يجمع شتات ذهنه وهو يعمل ، ولم يركز جهده وطاقته فى إنتاجه وهو يصنع ، وشغل نفسه

بتضييع الوقت تارة ، وبمخادعة صاحب العمل أو غشه تارة أخرى ، فإنه لا يصل إلى حد الإتقان والإجادة ، ومن ثم لا يستحق توفية أجر ولا تكريم ذكر ، فقد نسى قول رسول الله : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه » وقوله : « من غشنا فليس منا » . والتلميذ إذا تلفت ذات اليمين وذات الشمال ، وشغله عن دروسه وتحصيله لعب يستبد به ، أو لهو يسيطر عليه ، أو تردد يدمنه على دور السينما ، أو تسكع فى الشوارع والحارات ، لا يمكن أن يصل إلى مقدمة الصفوف ، أو يتألق بين الناجحين فإن المتلفت لا يصل ، وهكذا كل إنسان فى هذه الحياة لا يمكن أن يتم عملا ، أو يحقق أملا ، إلا إذا عرف الهدف ثم سلك الطريق ، ثم واصل العزم ، بلا تردد ولا اضطراب ، ولعل هذا هو بعض ما يفهم من مثل قول الله جل جلاله : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » وقوله : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : المتلفت لا يصل ، والله قد أنار الطريق ، ويسر أسباب التوفيق ، فحدد المعالم ، ورسم المنهاج ، « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، ومن أنا عليكم بحفيظ » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

بين المطلوب والطالب [١]

الحمد لله ، يصطفى لآلائه الأكرمين الأخيار ، ويركس فى نقمته الأشقياء الفجار ، وما ربك بظلام للعبيد ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، ترفع بفضلك أقواماً كراماً إلى أعلى عليين ، وتخفض بعدلك آخرين لئاماً إلى أسفل سافلين ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، عاش لدعوته ، واعتز بعقيدته ، فكان خير المصلحين ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى فروع دوحته ، وأقطاب صحبته ، وجنود دعوته ، أولئك لهم عز الدنيا ونعيم العقبى بإيمانهم وعملهم وتقواهم «وإنّى لغفارٌ لمنْ تابَ وآمنَ وعملَ صالحاً ثمّ اهتدىَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

الحكمة ضالة المؤمن ، وإن من البيان لسحرا ؛ وقد أرادت إحدى الأمهات أن تحسن الدعاء لابنها العزيز عليها الحبيب إليها ، فقالت له : « جعلك الله يا بنى مطلوباً لا طالباً » . وفى هذه العبارة الوجيزة التى لا تزيد على خمس كلمات صورت تلك الأم الحكيمة طريق العزة والمجد فى هذه الحياة ؛ فما أكثر الذين يأتون إلى الدنيا ويعيشون فيها جاهلين خاملين وكأنهم ليسوا بأحياء ، وما أكثر الذين يقبلون عليها ثم يرحلون عنها دون أن يحس بهم أحد ، وما أكثر الذين يعتلون فيها اعتلاء كاذباً غير مشروع ، فإذا جاء وعد ربك تهدم لهم كل شيء : «وقدمناَ إلىَ ما عملوُا منْ عملٍ فجعلناهُ هباءً منثوُراً »... وصدق الشاعر الحكيم حين صور ذلك الغثاء المتطاير والزبد المتناثر الذى لا يبقى ، وإن بقى لا ينفع ،فقال عن دهماء الناس ورعاعهم الذين لايعاونون ولا ينفعون

ما أكثر الناسَ ، لا بلْ ما أقلهم ... اللهُ يعلمُ أنى لمْ أقل فنـــدا
إنى لأفتحَ عينى حينَ أفتحهـــا ... على كثيرٍ ،ولكنْ لا أرىَ أحداً

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعـــة ٦ من المحرم ســـنة ١٣٧٢ هـ الموافق ٢٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

والقرآن المجيد من قبل ذلك يقول وما أدق ما يقول : « فأمّاَ الزبدُ فيذهبُ جفاءً وأمّاَ ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ ، كذلك يضربُ اللهُ الأمثال».

وهناك من الناس قلة قليلة ، هم ملح الكون ، وصلاح الفساد ، وزينة الدنيا ، أولئك هم الأعزة الكملة ، والغر الميامين ، الذين يوزن كل منهم بألف ، ويعيش الواحد منهم أمة وحده وهو فرد ، وقليل ما هم : « ثلة من الأولينَ وقليلٌ منَ الآخرين ». وكل واحد من هؤلاء يكون فى قومه محبوباً مطلوباً ، يبحثون عنه كما يبحثون عن الكبريت الأحمر ، لأن الرجل المحبوب المطلوب يكون رجلا عزيز النفس ، كريم الطبع ، رفيع الهمة ، لا يتسفل ولا يتنزل ، بل يصون عرضه ، ويحفظ وجهه ، ولو لقى فى سبيل ذلك العنت والعناء ، ويردد مع الإمام الشافعى رضوان الله عليه ما كان يردده كثيراً ، وهو قوله :

أمطرى لؤلؤاً سماء سرنديب وفيضى جبال تكرور تبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ، ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا

والمطلوب رجل مصلح نافع ، إذ لو لم يكن كذلك لما حرص الناس على طلبه ، ولما لجئوا إليه ينشدون عنده الإنقاذ والإصلاح ، والمنفعة والمعونة ، وخير الناس أنفعهم للناس ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه ، ولن يكون المرء معيناً نافعاً إلا إذا كان بارعاً فى الجد والاجتهاد . سباقاً فى العمل والإنتاج .

وأما الرجل الحريص الطالب الراغب فهو نكبة على نفسه وعالة على الناس ، يريد ويطمع ، ومتى أراد الإنسان وطمع فقد ذل وهان ؛ وصدق الأولون يوم قالوا : أذل الحرص أعناق الرجال . . . وهو يطلب ما يهوى وما يشتهى بجشع وتكالب وفى سبيل هذا الطلب يريق ماء وجهه ، ويمحق صحة دينه ، ويزهق جمال خلقه ، ويصبح عبداً لحاجته . . .

قد يطلب زينة الدنيا الكاذبة وحدها فتفر منه ، فيجرى وراءها ، ويظل يجرى وهى مسرعة فى فرارها ، حتى تنقطع أنفاسه دون أن يصل إليها ، وإن وصل إليها بعد أن ارتكب فى سبيلها ما ارتكب من مآثم وعظائم ، وجدها بسوء سعيه وخبث وسائله جيفة منتنة ، وقد يغالط نفسه فيزعمها جميلة حلوة ، ولكنها تذيقه الصاب والعلقم ، وقد احترس الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه من مثل هذا الاستعباد الدنيوى اللئيم فقال : « يا دنيا غرى غيرى ، إلى تعرضت أم إلى تشوقت هيهات ؟ قد فارقتك ثلاثا لا رجعة فيهن ، آه من طول الطريق وقلة الزاد ووحشة السفر » .

وقد يطلب المال بإسراف فى المطلوب أو اعتساف فى الطريقة ، فيذله المال ويستعبده ، ويظل يلم ويكنز ، ويحصى ويحرس ويجمع ولا يقسم ، ويأخذ ولا يعطى حتى يفجأه الموت أو الدمار وهو على ذلك فيبوء بالخسران والبوار ، وينتهى إلى النار وبئس القرار : « والذين يكنزون . . . وصدق محمد يوم قال : « لكل أمة فتنة وفتنة أمتى فى المال » ويوم قال : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار » .

وقد يطلب الجاه الكاذب فى الحياة ؛ يطلبه عن طريق الشهرة الكاذبة التى تغره وتخدعه أول الأمر ، فيظل يطلبها ويحرص عليها ويحتال لها ، حتى إذا جاءته أضنته وأتعبته ، وكلفته الكثير من ماله وصحته ، وربما محق فى سبيل ذلك بقية عقيدته ، ولعله لو عاش جندياً عاملا مجهولا مستوراً لسعد وفاز ، وصدق الرسول : « ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » .

وقد يطلب ذلك الجاه عن طريق رغبته الجشعة فى المنصب ، فلا يفوز فيه ولا يفلح ، لأن من أراد المنصب بجشع حرص عليه ، ومن حرص عليه ذل له ، ومن ذل له لم يصلح فيه ؛ ولذلك روى عن عبد الرحمن بن سمرة أنه قال : قال لى النبى (ص) : يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها .

ودخل رجلان على الرسول وطلبا منه أن يوليهما على بعض الولايات ، فقال : إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله ، ولا أحداً حرص عليه .

والرجل الطالب للمتاع الزائل ، الراغب فى الجاه الكاذب ، تراه عبداً ذليلا لأشياء كثيرة فى هذه الحياة ، تراه عبداً لشهوته ، وتراه عبداً لشيطانه ، وتراه عبداً لماله ، وتراه عبداً لمن يذل عندهم ويخنع أمامهم ، وهو يرتضى لنفسه الحقيرة أن تحمل من قيود المهانة وأغلال الحقارة وأطواق التسخير الشيء الكثير ، وليته إذا خضع لكل هذه القيود لم يطلق هواه الأثيم من كل قيد ولم يجعله كالسائمة العشواء ترتع بلا بصر أو بصيرة .

وأما الرجل الكريم الحر المطلوب فإنه لا يرتضى فى حياته عبودية لغير خالقه ومولاه ، ولا يفرط قيد أنملة فى حريته التى وهبها له الله ،وكيف يرضى العبودية وقد خلقه البارىء المصور حراً ؟ . . . ولكن هــذا الحر الكريم يقيد نفسه طائعاً مختاراً بقيود العدالة والاستقامة ومكارم الأخلاق :

قيــد الحر نفسه برضاه ... وأبى فى الحيــاة قيد سواه
وترى العبــد راضياً كل قيد ... غير تقييد نفسه عن هواه

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الطريق إلى الحقارة والشر مفتحة الأبواب ، وأما المصاعد إلى الفضيلة والخير فشاقة متعبة ورسولكم يصور هذا حين يقول : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » ويقول الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز : « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس » .

ومن الميسور لكل إنسان أن يمد يده ليكون طالباً ملحاً ملحفاً ، ولكنه من العسير أن يعد المرء نفسه بحيث يكون كريماً مطلوباً نافعاً ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، فليرفع كل منا وجهه وقلبه نحو السماء قبلة الدعاء ، وليسأل ربه فى السر والعلن ، قائلا : « اللهم اجعلنى مطلوباً لا طالباً » .
واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

بين الخالق والمخلوق (١)

الحمد لله عز وجل، هو بديع السموات والأرض «ألاَ لهُ الخلقُ والأمرُ تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ». أشهد أن لا إله إلا الله، كل ما عداه خاضع لجلاله ناقص أمام كماله: «أفمنْ يخلقُ كمنْ لاَ يخلقُ؟ أفلاَ تذكرونَ»؟. وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، رأى كمال شرفه فى أن يكون عبداً لخالقه ومولاه، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، وجنوده وحزبه: «الذينَ آمنوُا ولمْ يلبسوُا إيمانهمْ بظلمٍ أولئكَ لهمُ الأمنُ وهمْ مهتدونَ».

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

كأن الإنسان الذى أعرض عن نداء قلبه، وكفر بوحدانية ربه، لا يريد أن يقف فى بهتانه عند حد، ولا أن يرعوى عن التطاول على حق خالقه، فهو فى كل حين يتقحم فى مداخل وبيلة عليلة، وكأنه سيظل هكذا حتى تصيبه من الله قارعة: «وكذلكَ أخذُ ربكَ إذاَ أخذَ القرىَ وهىَ ظالمةٌ، إنَّ أخذهُ أليمٌ شديدٌ». منذ حين نشرت بعض الصحف أن عالماً إيطالياً قام بعملية تلقيح صناعى بين مادتى تناسل من ذكر وأنثى، ونشأ عنهما جنين عاش فترة من الزمان ثم مات، وقد أساء استغلال هذا الخبر بعض المضلين، فسلكوا به مسلكاً وبيلا، وقالوا: لقد استطاع الإنسان أن يخلق الإنسان، وهم بذلك يريدون أن يقضوا على الإيمان بالألوهية، لأن أهم صفات الله تعالى أنه الخالق البارىء المصور، ولا يختلف عاقلان فى أن خلق الحياة هو عمل الإله، لا يشاركه فيه سواه، وهذا العالم الإيطالى لم يوجد حياة ولا شبه حياة، وكل ما فعله أنه أخذ مادة حية هى المادة التناسلية فى الرجل، ومادة حية هى المادة التناسلية فى المرأة، ومزجهما وهيأ لها جواً يعيشان فيه يشبه إلى حد ما الجو

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٣٠ من رجب سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٤ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ م.

الموجود فى رحم المرأة ، وبهذا ظهرت آثار الحياة المستورة فى هاتين المادتين فقط . وهذه الحياة لا نعرف أسرارها ، وإن كنا نشاهد مظاهرها وآثارها ، وغاية ما يقوله العلم البشرى عن الحياة هى أنها طاقة أوجدها الله سبحانه فى أجسام الكائنات الحية ، ونحن ندرك معناها بأفكارنا ، ولكنا لا نرى حقيقتها بأبصارنا ، ولا نعرف كنهها الذى اختص به علام الغيوب .

وهذا العالم الإيطالى لم يبدأ فى الواقع من أول الطريق ، وإنما استخدم أشياء قد أوجد الله فيها خواص الحياة ، وكل ما فعله أنه حاول أن يقلد غيره أن يعمل وبأدوات سواه ، وهو لم يستطع أن يواصل خطواته إلى نهاية الشوط لأن الجنين الذى نشأ عن التقاء المادتين الحيتين فسد بعد حين ، وتردد فى الآفاق قول الخلاق : « يا أيها الإنسانُ ما غركَ بربكِ الكريمِ الذى خلقكَ فسواكَ فعدلكَ ، فى أىِّ صورةٍ ما شاءَ ركبكَ ».ويمكن أن نتساءل عن الدافع الذى دفع هذا العالم إلى هذه المحاولة الشوهاء : أهو الطموح إلى معرفة النتائج للتجارب العلمية ، أم هو الجموح الذى يدفع الرجل المادى إلى التطاول على مقام الله جل جلاله ، محاولا أن يتدخل فى جانب مما اختص الله به ذاته . ومهما يكن من أمر فالذى لا ريب فيه أن إبداع الحياة هو شأن الإله ، وأن الناس لو اجتمعوا لما استطاعوا أن يوجدوا سر الحياة ولو فى أصغر الأحياء : « يا أيها الناسُ ضرِب مثلٌ فاستمعوُا لهَ ، إنّ الذينَ تدعونَ منْ دونِ اللهِ لنْ يخلقوُا ذباباً ولو اجتمعوُا لهُ ، وإنْ يسلبهمُ الذبابُ شيئاً لاَ يستنقذوُهمنهُ ضعفَ الطالبُ والمطلوُب ، ما قدرُوا اللهَ حقّ قدرهِ ، إنّ اللهَ لقوىٌّ عزيزٌ » .

ثم ما هى الثمرة المرجوة من وراء هذه المحاولة الشوهاء ؟ هل رأى صاحبها أن الأرحام قليلة الإنتاج ، فذهب يعاونها فى تكثير النسل وتوسيع نطاق الذرية ؟ وكيف والعالم فى شرقه وغربه يردد صيحات النذير والتحذير من

تضخم السكان وتناقص الإمكانيات ؟ وليت هذا العالم استهدف خير الإنسان مثلا فوجه نشاطه وجهوده إلى استنباط علاج للأمراض الحديثة المستعصية التى أظهرتها المدنية المادية والمعيشة المعقدة ، مثل السرطان وانفجار الشريان وسكتة القلب . ولكن الذى يبدو أن الإنسان الملحد يريد أن يضاعف اعتزازه بنفسه حتى يغير بذاته ، ويخيل إليه أنه قد أصبح قادراً على كل شيء ، وحينئذ سيقبل قدر الله المقدور إلى الأرض التى بغت وطغت ، فيصف بها وبمن فيها : « حتىّ إذاَ أخذتِ الأرضُ زخرفهاَ وأزينتْ ، وظنّ أهلهاَ أنهمْ قادرونَ عليهاَ أتاهاَ أمرناَ ليلاً ونهاراً ، فجعلناهاَ حصيداً كأنْ لمْ تغنَ بالأمس » . وصدق العلى الكبير إذ يقول : « كلاَّ ، إنّ الإنسانَ ليطغىَ ، أنْ رآه استغنىَ إنّ إلىَ ربكَ الرجعىَ » .

ثم هناك التلقيح الصناعى بدعة العصر ومصيبة الدهر ، وفيه يلجأ بعض الناس إلى طريقة بشعة خطيرة تسمى طريقة « الصوفة » حيث تصنع المرأة فى رحمها حين تريد أن تحمل قطعة من الصوف أو القطن قد مزجت بسائل منوى لأحد الرجال ، فتحمل المرأة من ذلك السائل ، وإذا كان هذا الرجل غير زوجها صارت العملية كالزنى ، لأن هذا يؤدى إلى خلط الإنسان وضياع حدود القرابات والعلاقات ، والصلة بين الزوجين صلة نسب وتعارف وتشارك فى السراء والضراء ، وينبنى على هذه الصلة حقوق وواجبات وارتباطات ، كما ينشأ عنها ذرية يجب أن تكون نسابها معروفة مفهومة ، فكيف يستقيم فى النفوس أو العقول أن يتكون الجنين من نطفة رجل ثم ننسبه إلى رجل آخر ؟ . نعم قد يباح التلقيح بين الزوجين عند وجود دواعيه ، كأن يكون الزوج عاجزاً عن إيصال مائه التناسلى إلى رحم المرأة لضعف فيه ، وأن تكون الزوجة غير صالحة لمعاشرة زوجها . وينبغى أن نتذكر أن التلقيح الصناعى شاع فى أمريكا منذ سنين ، وكان الأطباء هناك ينقلون المادة التناسلية

من رجل أجنبي إلى إمرأة متزوجة بزوج لا يستطيع معها الإنسال ، فأحدث هذا التلقيح من بين عيوبه مشكلة هي أن المرأة تحب الشخص الذى تلقحت بمادته ، وتعرض عن زوجها ، ولما حاول الأطباء أن يخفوا عن المرأة الشخص الذى أخذت منه المادة التناسلية لحملها أصيبت باضطراب نفسى وعصبي ، وحق لها أن تصاب بذلك ، لأنها تشعر بانحراف عن الطريق الطبيعى المستقيم الذى يجب أن تسير فيه الحياة الزوجية هادئة مطمئنة ، يتحقق بها قول الله تعالى : «ومنْ آياته أنْ خلقَ لكمْ منْ أنفسكمْ أزواجاً لتسكنوُا إليهاَ وجعلَ بينكمْ مودةً ورحمةً ، إنَّ فِي ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكرونَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

إن نظرة يلقيها الإنسان على الكون من حوله تريه ما أبدعته يد الخلاق العظيم من أرض وسماء ، وهواء وماء ، وأنهار وبحار ، وأشجار وأزهار ، وشموس وأقمار ، وجماد ونبات وحيوان وإنسان : « هذا خلقُ اللهِ ، فأرونِي ماذاَ خلقَ الذينَ من دونهِ » .

وإذا كان دعاة الإلحادوالكفران يحاولون بشق الأنفس أن يضلوا الناس عن سواء السبيل ، فإن فى صدر كل مؤمن هاتفاً يذكره على الدوام بأن لهذا الكون خالقاً سبحانه ، وأنه وحده بديع السموات والأرض ، وهو على كل شيء قدير ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الاسلام رائدنا الأول [1]

الحمد لله عز وجل ، يسر الخير لمن هداه واجتباه ، وكتب الشقاء على من أضله وأغواه : «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، الرشد فى كتابه ، والسعد عند بابه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف الغمة وهدى الأمة ، وجمع الكلمة ، فكان خير المصلحين فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى جلسة من جلسات اللجنة التحضيرية قلت وأنا أتحدث عن ناحية إسلامية : « إن الإسلام هو الرائد الأول على الطريق » . وهذا قول لا نرسله على عواهنه ، إنما هو الحقيقة الكبرى والواقع المبين : «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . فالإسلام قد نظم حياة الفرد والجماعة ، بصورة مثالية ، لا يرتقى إلى مستواها إصلاح دين من الأديان ، ولا دقة نظام من النظم ، ولا روعة دعوة من الدعوات ؛ وقد أقام الإسلام حياة الفرد على المواءمة بين الروح والجسد ، وعلى طهارة الحس والنفس ، وعلى صفاء القلب ، وذكاء العقل ، وسمو الخلق ، ومراقبة الله ، وعزة الحياة ؛ وأقام حياة المجتمع على العدالة والتكافل والتضامن ، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . . .

---

(١) ألقيت بمسجد الرفاعى يوم الجمعة ٣٠ من جمادى الثانية سنة ١٩٨١ هـ الموافق ٨ من ديسمبر سنة ١٩٦١ م .

وما من مبدأ كريم ندعو إليه أو نحرص عليه ، أو نتمنى أن يكون ، إلا وجدنا الإسلام قد سبق إلى تقريره ، وحرضنا على التمسك به ، فنحن مثلا ندعو إلى الديمقراطية ، ونتمنى تحقيقها سليمة قويمة ، فيها مساواة وفيها عدالة ، وفيها تنسيق بين الأخوة وبين حق الذات ، والإسلام يقرر مبدأ الديمقراطية السليمة ، ويرسخ قاعدتها ، ويصون خطتها ، فيقول أولا عن ديمقراطية الأمة المؤمنة : « إنما المؤمنون إخوة » ، والأخوة تقتضى المساواة والديمقراطية فى الحقوق والواجبات ، ويقول الرسول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . وليس هناك صورة أكرم للديمقراطية من هذه الصورة ، ويقول القرآن عن الديمقراطية البشرية العامة : «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير». فقرر وحدة الأصل . وذكر رابطة التعارف ، ثم أشار إلى الثمرة المرجوة وهى التنافس فى التقوى والعمل الصالح.

ونحن ندعو إلى مجتمع تعاونى ، ونريد أن نثبت دعائم التعاون فى بلادنا ، حتى يصبح مبدأ وطريقة تغنينا عن التعامل الربوى وتحفظنا من الاستغلال المادى ، والإسلام يحدد الإطار الجميل الجليل للتعاون ، ويثبت صورته الكريمة الباهرة حيث يقول القرآن : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ويقول الرسول : « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » . ويلفتنا القرآن إلى أثر التعاون حين يتحدث على لسان ذى القرنين فيقول : « فأعينونى بقوة » . وذو القرنين هو الفتى القوى المكين الذى يقول عنه القرآن : « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً». ومعنى هذا أن شرعة التعاون فى نظر القرآن لا يستفيد منها الضعفاء وحدهم ، بل إن القوى الشديد ينتفع بها أيضاً ، لأن التعاون تبادل منافع ، ولا يستطيع إنسان مهما كان أن يستغنى فى كل شىء عن غيره ، وصدق القائل :

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم !

ونحن ندعو إلى مجتمع اشتراكى ، وفى الإسلام اشتراكية إنسانية أخلاقية عادلة ، تحسن التوفيق بين احترام الملكية الفردية وبين التكافل الاجتماعى ، فالقرآن يلفت أبصارنا وبصائرنا إلى الاشتراكية الطبيعية الأصلية فى الطاقات ومنابع الثروات ومطالب الحياة الأساسية ، حيث يقول : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » ويقول عن الأرض : « وجعلنا لكم فيها معايش » والرسول يقول : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » وعمر يطمح إلى نطاق من الإشتراكية ، ويعبر عن هذا الطموح فيقول : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لرددت فضول الأغنياء على الفقراء » ومع هذه الاشتراكية الرحبة السمحة الكريمة يصون الإسلام مال الفرد فيقول الرسول : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وهكذا يوائم بين حق الفرد كمالك ، وبين واجب المجتمع ، وهو الاشتراك فى الطاقات والمنافع العامة .

ونحن نعمل للوحدة والتكتل فى سبيل أهدافنا الحسية والمعنوية ، ونبذل كل ما نستطيع لتجنب الحزبية والتفرق والتمزق ، والإسلام يحرضنا على ذلك فى أكثر من موقف ، فيقول القرآن : وإنّ هـــذه أمتكم أمةً واحدةً وأناَ ربكمْ فاتقونَ » ويقول : « واعتصموُا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرقوُا » ويقول: « ولاَ تنازعوُا فتفشلوُا وتذهبَ ريحكم » . والقرآن يندد بالحزبية والتفرق فيقول عن الضالين : « فتقطعوُا أمرهم بينهم زبراً (أى قطعاً) كلُ حزب بما لديهمْ فرحونَ ، فذرهمْ فى غمرتهمْ حتىّ حينٍ » .

ونحن نحارب الترف والإسراف فى التنعم ، ونعتبر الترفَ هادماً للأمم ، والقرآنقدسبقفقال : «وإذاَ أردناَ أنْ نهلكَ قريةً أمرناَ مترفيهاَ ففسقوُا فيهاَ فحقّ عليهاَ القولُ فدمرُناهاَ تدميراً » . ونحن نحارب تكديس الأموال الضخمة وتجميدها بلا نفع للناس منها وانتفاع القرآن قد سبقنا فقال : « والذينَ يكنزونَ الذهبَ والفضةَ ولاَ ينفقونهاَ فِى سبيلِ اللهِ فبشرهم بعذاب أليم ، يومَ يحمىَ عليهاَ فِى نارِجهنمَ فتكوىِ بها جباههمْ وجنوبهمْ وظهورهمْ هذا ما كنزتم لأنفسكمْ فذوقوُا ما كنتمْ تكنزونَ » . ونحن نحارب أولئك المنافقين

الذين يريدون أن يطعموا من كل مائدة بغير حق ، والذين يعطون بألسنتهم أجمل الألفاظ ويخفون فى صدورهم الحقد والكيد والخيانة ، والقرآن يحذرنا من أمثال هؤلاء فيقول أولا عن المنافقين: « إذاَ جاءكَ المنافقونَ قالوُا نشهدُ إنكَ لرسولُ اللهِ والله يعلمُ إنكَ لرسوله والله يشهدُ إنّ المنافقينَ لكاذبونَ ». ويذكرنا بعض صفاتهم فيقول : « وإذا رأيتهمْ تعجبكَ أجسامهم ، وإن يقولوُا تسمعْ لقولهمْ ، كأنهمْ خشبٌ مسندةٌ ، يحسبونَ كلَّ صيحةٍ عليهمْ ، همُ العدوُ فاحذرهمْ ، قاتلهمُ الله أنى يؤفكونَ » .

وتتردد بيننا الدعوة إلى إبعاد المجرمين الآثمين الذين عوقوا ركب الصلاح وموكب الإصلاح ، والقرآن يحدثنا عن الخونة الكذبة ، المثبطين الآثمين الذين يحرصون على المكاسب لذواتهم ، ويعوقون المجاهدين عن جهادهم ، فهم لا يصلحون ويسوؤهم أن يصلح غيرهم ، فيقول عنهم فيما يقول : « ولو أرادوُا الخروجَ لأعدوُا له عدةً ، ولكن كره اللهُ انبعاثهمْ فثبطهمْ ، وقيلَ اقعدوُا معَ القاعدينَ ، لوْ خرجوُا فيكمْ ما زادوكمْ إلاَّ خبالا ، ولأوضعوا خلالكمْ يبغونكمُ الفتنةَ ، وفيكمْ سماعونَ لهمْ ، واللهُ عليمٌ بالظالمينَ

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . لو درسنا الإسلام دراسة الواعين البصراء ، واستلهمناه استلهام المؤمنين المخلصين ، لوجدنا فيه دواء لكل داء ، وتقويماً لكل عوج ، وإصلاحاً لكل فساد ، ولوجدناه يرسم لنا صورة متكاملة النواحى والأجزاء للمجتمع الفاضل السعيد الذى يعز أبناؤه بالحق حتى يكونوا عمالقة ، ويرقون بالرحمة حتى يكونوا كالملائكة ، ويحسنون الجمع بين دينهم ودنياهم ، فيعملون للآخرة كأنهم يموتون غداً ، ويعملون للدنيا كأنهم يعيشون أبدا ؛ وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل « واتقوُا اللهَ الذى أنتمْ بهِ مؤمنونَ . إنّ اللهَ معَ الذينَ اتقوا والذين همْ محسنون أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الاسلام دين المقاومة [1]

الحمد لله عز وجل ، جعل الباقيات الصالحات شعار المؤمنين ، وجعل الدوام على المجاهدة دستور أهل اليقين . أشهد أن لا إله إلا الله جعل الثقة به نوراً رائداً دائماً على طريق المتقين « والذينَ همْ لأماناتِهمْ وعهدِهمْ راعونَ » . وأشهدأن سيدنا محمداً رسول الله ، لازم طريقته وصان عقيدته ، فكان خير الموفين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ،وأتباعه وأحبابه ، « أولئكَ الذينَ صدقوُا وأولئكَ همُ المتقونَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

فى حاضرنا الملىء بالهموم والغيوم ، انعقد فى الأسبوع الماضى مؤتمر أدباء العرب ، وكان الموضوع الرئيسى للبحث فى هذا المؤتمر هو « أدب المقاومة » ، وهذا يذكرنا بقيمة الكلمة وأثرها ، فإن الكلمة الصادقة الصادعة بالحق سلاح قوى زكى ، ولذلك مجد الإسلام منزلة الكلمة حين قال : « ألم تر كيف ضربَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرة طيبة أصلها ثابتٌ وفرُعهاَ فى السماءِ » وحين قال : « إليه يصعدُ الكلمُ الطّيبُ والعملُ الصالحُ يرفعهُ » وحين قال : « وهدوُا إلى الطيبِ منَ القولِ وهدوُا إلىَ صراطِ الحميد » كما قال سيدنا رسول الله : « المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه » .

ومع التقدير المنصف لبعض ما قيل فى هذا المؤتمر عجبت حين وجدت أحد الأعضاء فيه يزعم أن فرنسا هى أول من اتجهت إلى « أدب المقاومة » ووضعت قواعده وأصوله ، وهذا افتراء على التاريخ وتشويه للحقائق ، لأن الأمة العربية المؤمنة كانت بفضل الإسلام أسبق من فرنسا وغير فرنسا فى هذا المضمار ، فقد اهتدت بتوفيق ربها إلى روح المقاومة منذ أكرمها

---

(١) القيت فى يوم الجمعة ٢٣ من ذى الحجة سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٢ من مارس سنة ١٩٦٨ م .

بقائدها ورائدها وهاديها إلى خير طريق وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومرت العصور والقرون والإسلام العظيم يلقن أبناءه يوماً بعد يوم دروس المقاومة ومبادىء المغالبة ، فكان جهاد المؤمنين فى عهد النبوة الناضر مقاومة للشرك والكفران ، وتطهيراً للانسان والمكان والزمان من جهالات الوثنية وسفاهات الطغيان ، وكان عهد الخلفاء الراشدين امتداداً لهذه المقاومة الصادقة حيث انساحت الجيوش المؤمنة تطهر الأرض العربية من النتن والعفن ، وتطهر ما جاورها من استبداد المستبدين وتطاول المعتدين ، ثم كان عصر الأمويين وعصر العباسيين امتداداً لروح المقاومة عند هؤلاء المؤمنين الذين باعوا الله أرواحهم ، وصدقوا معه وعودهم ، وآثروا ما عنده على ما عند الناس ، فحملوا كلمة الله إلى المشارق والمغارب ، مرحبين فى سبيلها بكل تعب ، محتملين من أجلها كل نصب ، لينيروا بها المسالك أمام الحيارى ، ويؤيدوا بها المستضعفين حتى يتحرروا ، ويقاوموا بها الجبارين حتى يرتدعوا أو يندحروا ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وحينما أقبلت على أمتنا فترات الابتلاء ، وتعرضت لعوامل التمزق والتفرق لم تمت فيها روح المقاومة المستنيرة بهدى الله ، بل استطاعت أن تقاوم وباء التتار حتى قضت عليه ، وصهرت بعض أهليه فجعلتهم بفضل الله يتحولون من الكفر إلى الإيمان ، ثم استطاعت بعد ذلك أن تسحق طواغيت الحروب الصليبية وتردهم على أعقابهم ، وتحرر أرض العروبة والإسلام ومن بينها فلسطين ، بعد أن ظل كابوس الاحتلال الصليبي الاستعمارى الغشوم يجثم على صدرها ما يقرب من مئة عام ، ولقد حورب الإسلام بشتى أنواع المحاربة ، وابتلى المسلمون بكل ألوان الابتلاء ، ومع ذلك بقى الإسلام ولم يفن المسلمون ، وهذا سر من أسرار الله العجيبة التى غرسها فى شخصية هذه الأمة المؤمنة المناضلة التى علمها قرآنها المجيد أن تظل دائماً مستمسكة

بشرعة الجهاد وروح المقاومة ، فملأ أسماعها وقلوبها وعقولها بمثل قوله : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وقوله : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » ، وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » ، وقوله : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

وهذا هو الصبر الذى احتفل به القرآن الكريم كل هذا الاحتفال ، وذكره منوهاً به حاثاً عليه فى أكثر من ثمانين موضعاً ، وطالب الأمة المؤمنة كشعار لها ودثار ، هل كان هذا الصبر إلا أكرم أنواع المقاومة ؟ وهل الصبر كما يريده القرآن المجيد إلا حسن الإستقبال للمتاعب والشدائد ، وحسن الاحتمال لها ، وحسن التصرف معها والتحكم فيها حتى التغلب عليها والتخلص منها ، وحسن حملها بقوة واقتدار لقذفها بعيداً بعيداً عن طريق المسير ، وحسن العودة إلى مواصلة الخطوات الرشيدة السديدة على الصراط المستقيم ، وبذلك يستحق المؤمنون الصابرون المثابرون خير الجزاء ، كما قرر الحق جل جلاله فى قوله : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ، وما كان ذلك الأجر المفتوح بلا مدى ، والموكول إلى فضل الله الذى لا يحد ونعمته التى لا تعد ، إلا لأن هؤلاء الصابرين جعلوا شعارهم الوفاء لله مهما كان الثمن ، والوفاء للمبدأ متى كانت التضحية ، والوفاء لروح المقاومة مهما

امتد النفس ، فكان جزاء الوفاء توفية العطاء بلا حساب : « ولمّا رأى المؤمنونَ الأحزابَ قالوُا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ، وما زادهمْ إلاّ إيماناً وتسليماً ، منَ المؤمنينَ رجالٌ صدقوُا ما عاهدوُا اللهَ عليهِ ، فمنهمْ منْ قضى نحبهَ ، ومنهمْ منْ ينتظرُ وما بدلوُا تبديلاً » .

وحق بارىء السموات والأرض لقد آن ثم آن ثم آن أن نعرف شخصيتنا المؤمنة ، وذاتيتنا المتحررة ، وأن نطعم من مائدتنا الكبرى التى هيأها لنا ربنا ورسولنا وقرآننا وإسلامنا ، ولم يعد هناك أى مجال أبداً لنبقى عالة على موائد غيرنا من الشعوب والأمم ، حتى نستشهد بأقوالهم ونظن أنهم سبقونا إلى مبادىء الحق والخير والقوة ونحن الذين تلقينا من الملأ الأعلى نداء العزة ودعاء القوة ، وطالبنا رب العزة والقوة بأن نستمسك بالذى أوحى إلينا : « وقل للذين لا يؤمنونَ أعملوُا علىَ مكانتكمْ إنا عاملونَ ، وانتظروُا إناّ منتظرونَ ولله غيبُ السمواتِ والأرضِ ، وإليهِ يرجعُ الأمرُ كلهُ ، فاعبدهُ وتوكل عليهِ ، وماَ ربكَ بغافلٍ عماَ تعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : بالأمس هتف شاعر مؤمن فقال :

أقسمت بالله الذى ... فوق البرايا قد قهر
بالبيت بيت الله ... حج له الموحد واعتمر
سيقال حزب الله من ... حزب الضلالة قد ثأر

ومن تعاليم الأسلام أن يبر المؤمن قسم أخيه ، فلنستلهم الله جل جلاله أن يدفعنا إلى تزكية القسم . حتى لا نضيع بين الأمم ، والله ولى المجاهدين الصابرين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

ما هو الاسلام (١)

لله الحمد كل الحمد ، وهو أهل الثناء والمجد ، خلق الخلق وأجرى الرزق ، وقدر الأمر وحدد العمر ، سبحانك سبحانك ، أحاط علمك بكل شيء ، فما يغرب عنك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، وأشهد أن لا إله إلا أنت تتجلى رحمتك فتحيل الجماد حياً ، وتكسب الوجود بهجة و جمالا ، وتغضب فتتفجر الصخور من خشيتك ، وترتجف الراسيات من غضبتك ، « وإنّ ربكَ لذوُ مغفرة للناس علىَ ظلمهمْ وإنّ ربكَ لشديدُ العقابِ » ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانًا محمداً عبدك ورسولك ، بعثته على حين فترة من الرسل ، فصلح به الفساد ، واستقر بهديه أمر العباد ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحبابه ، وجنده وأصحابه ، ومن دعا بدعوة كتابه : « والذينَ جاهدوُا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أسائلكم : ما هو الإسلام ؟ . وقد يكون فيكم من يعجب أو يغضب لتوجيه هذا السؤال ، فيقول : أبعد ألف سنة من نزول القرآن ، وبعد ألف كتاب فى شرح الإسلام ، وبعد آلاف من الخطب فى توضيح شرعة محمد عليه الصلاة والسلام تسائلنا عن معنى الإسلام ؟ . . ولكن الحقيقة المرة أيها الناس أننا لم نتفق بعد على الإسلام ، وتحديد معناه ومغزاه ؛ فمنا قوم سيقت إليهم الدنيا فهم يتمتعون ويسرفون ، ويطغون فى شهواتهم ولايتذكرون ويتوسعون فى فهم الإسلام توسعاً خاطئاً فيرونه دين تساهل وسماحة وتناس وغفران فحسب ويرددون : إن الله غفور رحيم ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، ورحمتى وسعت كل شيء ؛ ويستشهدون مثلا بأن سليمان عليه السلام سأل ربه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، فلم إذن لا تكون دنيا هؤلاء مليئة بالرغبات

(١) القيت هذه الخطبة فى يوم الجمعة ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٠ م .

واللذات ؛ وهكذا يسرفون فى التأويل والتحريف حتى يحتفظوا بما فى أيديهم من القوة والمتاع والمال . . .

وفى مقابل هؤلاء قوم حرموا من الدنيا ولذتها ، والحياة وبهجتها ، فزهدوا زهد ضعف وافتقار ، وتقشفوا عن عجز لا عن اقتدار ، فتراهم أيضاً يفهمون الإسلام فهماً خاطئاً إذ يعتبرونه دين ذلة ومسكنة ، وفقر وبطالة ، وكسل وخمول ، وتراهم يرددون فى ذلك قوله تعالى : « اعلمُوا أنمَا الحياةُ الدنيا لهوٌ ولعبٌ » وقول الرسول : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » وقوله « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ، وهكذا تراهم حين فقدوا الحياة العاملة الكاملة يضيقون على الناس مسالكهم ، ويشوهون أمامهم دنياهم ، وكأنهم يأبون إلا أن يتساوى جميع الخلق معهم فى العجز والافتقار .

وبين هؤلاء وهؤلاء قوم حيارى مذبذبون لا يستقرون على حال ، ولا ينتهون إلى مآل ، هم لا يجدون كل شيء ، ولا يحرمون من كل شيء ، فإذا وجدوا ما أرادوا تمتعوا ورتعوا ، وعربدوا وأفسدوا ، وضلوا فرددوا : « قلْ منْ حرم زينةَ اللهِ التِي أخرجَ لعبادهِ والطيباتِ منِ الرزقِ » وإذا جرت عليهم الأقدار يوماً بحرمان ، فحالت بينهم وبين ما يشتهون ، تظاهروا بالتقشف وتحدثوا عن الزهد ، ورددوا قول الرسول : « لو كانت الدنيا تساوى عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء » ؛ وهكذا يظل ذلك الفريق مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ فهل يقال مع ذلك الاختلاف إننا قد اتفقنا على معنى الإسلام وفهم مغزاه ؟ ! .

وهناك اختلاف كبير آخر حول الإسلام الغريب فى بلاده ، فقوم ذوو بصيرة يؤمنون بالإسلام ديناً ودولة ، وعبادة وقيادة ، ويجاهدون فى سبيل ذلك بما يملكون ، ويذوقون من أجله ما يذوقون ، وينفسح أمامهم الطريق فيسيرون ، وتحوطهم ظلمات البغى فيصبرون ، وبجوارهم قوم آخرون أقل منهم قدراً وأضعف شأناً ، فهم يؤمنون بأن الإسلام صمام الأمان ومضخة

الإطفاء وزورق النجاة، ولكنهم خانعون خاشعون ، يخافون الناس والله أحق أن يخافوه ، فتراهم يتابعون ويسالمون وإن انطوت نفوسهم على غير ما يظهرون وفى مقابل هؤلاء وهؤلاء قوم ارتفعوا وامتلأوا وسادوا ، وهم يرون فى سيادة الإسلام الصحيح عليهم وعلى سواهم حداً لشهواتهم ، ومقاسمة منه فى بعض أموالهم ، وتسوية لهم بغيرهم ، وخطراً على جبروتهم وطغيانهم ، وهم قوم استلذوا ما هم فيه سادرون ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة ، وإذن فليكونوا حرباً على الإسلام ، وعلى كل من يدعو إلى الإسلام ، وتراهم من خبثهم يعملون جاهدين لكى يقتصر الإسلام على ركيعات تؤدى أو خطبة تقال أو احتفال يقام ، وكأن الإسلام عندهم كهنوتية بالية أو رهبانية فانية ، مع أنه جاء ليكون مصباح الظلام ومصدر الأحكام ومعقد الزمام : « قدْ جاءكُمْ منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ يهدى به اللهُ مَن اتبعَ رضوانهُ سبلَ السلامِ ويخرجهمْ منَ الظلماتِ إلى النورِ بإذنهِ ويهديهمْ إلىَ صراطٍ مستقيمٍ » .

أفيقال بعد ذلك الاختلاف المبين إننا متفقون على معنى الإسلام ؟ . . . يجب أولا وقبل كل شىء أن نتفق على كلمة جامعة مانعة فى الإسلام ، بعد أن ننفى عنه ما ليس منه ، وبذلك نستبين طريق الرشاد . . . يجب أن نتفق على أن الإسلام عبادة وعمل ، وجسم وروح ، وتهذيب وحكم ، وقيادة وسيادة ؛ جاء ليصلح النفس ويقوم الفرد ويربى الأسرة ويسوس الأمة ويخفف آلام العالم ؛ جاء ديناً وسطاً عدلا ، لا يفرط ولا يفرِّط ، فأباح لك أن تجمع ولا تكنز ، وأن تأكل ولا تتخم ، وأن تنفق ولا تسرف ، وأن تتجمل ولا تتخنث ، وأن تكسب وتزكى ، وأن تثرى ولا تتفحش ، وأن تسمو إلى العلا وتعدل ، وهكذا يدعوك إلى كل ما ينفعك ، ويصدك عن كل ما يرديك ، « إنّ اللهَ بالناسِ لرءوفٌ رحيمٌ » .

جاء ليعلمك أن تكون على خير فى سائر أحوالك التى تتقلب عليك فى دنياك ، فغنى مع شكر وإحسان ، وفقر مع صبر وإيمان ، وصحة مع تواضع واجتهاد ، ومرض مع احتمال وعلاج ، لأن الذى خلق الدواء ، ورضا بالقضاء والقدر مع السعى والاكتساب ، واتكال على الله مع أخذ بالوسائل والأسباب ؛ وأنت فى كل هذه الأحوال مأجور مشكور ، مؤيد بحفظ الله ورعايته ، موعود بفضله ونعمته ، قد سخر لك ما فى الأرض والسماء ، وأعانك فى السراء والضراء ، ما دمت تخلص النية وتريد وجه الله : « إنّ الذينَ قالوُا ربناَ الله ثمّ استقاموُا تتنزلُ عليهمْ الملائكةُ أنْ لاَ تخافوُا ولاَ تحزنوُا ، وأبشروُا بالجنة التى كنتمْ توعدونَ ، نحنْ أولياؤكمْ فى الحياةِ الدنياَ وفى الآخرةِ ، ولكمْ فيها ماتشتهى أنفسكمْ ، ولكمْ فيهاَ ماتدعونَ ، نزلاً منْ غفورٍ رحيمٍ ».

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا والله هو الإسلام ، وأقسم لكم بالذى خلقكم لو أن كل إنسان منا أعطى الإسلام الربع من حياته ، ففكر فى أموره بربع عقله ، وضحى من أجله بربع كسبه ، وشارك المكلومين من دعاته بربع عواطفه ، وجاهد المنكر وأمر المعروف بربع مقدرته ، لأصبح للاسلام فينا شأن غير الشأن ، وسلطان غير السلطان ، ولعز المسلمون بين الأنام كما عز لهم أسلاف وأجداد ، يوم كان القرآن أول صوت يسمع ويطاع ، فإذا أمر الله فقد ذلت الأعناق ، وخضعت الرقاب ، وانتهى الجدال ! . .

وأقسم لكم بالذى خلقكم إنه لن يستقيم لهذه الأمة أمرها إلا بهدى الله وكتاب الله وحكم الله ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ؛ وسنظل نجدد ونرفع ونستعير ونتابع ، ونحن فى أودية الحياة تائهون ، ولن نهتدى إلى سواء السبيل إلا إذا أبصرنا نور السماء ، فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

منهج الاسلام (١)

الحمد لله عز وجل ، أزال عن عباده النقمة ، وأتم عليهم النعمة ، «اليومَ أكملتُ لكمْ دينكمْ وأتممتُ عليكمْ نعمتي ورضيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً» أشهد أن لا إله إلا الله ، أعز بالإسلام قوماً وخفض بالكفر آخرين « أفنجعل المسلمينَ كالمجرمين ؟ ما لكمْ كيفَ تحكمونَ ». وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، شرح الله بالإسلام صدره ، فشرح به صدور المؤمنين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وذوى صحبته ، والقائمين بأمر دعوته : « أولئكَ همْ خيرُ البريةِ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

ما زال الإسلام عند بعض أهله غريباً يحتاج إلى تعريف ، حتى يقبلوا عليه ويعتزوا به ، بأنه طريق الخلاص وسبيل الأمان ومفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة ، فهو دين ينظم شئون الحس والنفس ، ويوائم بين مطالب الروح والجسد ، وينسق علاقةالفرد والجماعة ، ويضبط الإنسان فى كل حالاته بضوابط حكيمة رشيدة ، تشعره بأن له مكانة ، ورسالة وأن له مرجعاً إلى ربه ليحاسبه ويجازيه ، ولذلك يقول القرآن : « أفحسبتمْ أنما خلقناكمْ عبثاً وأنكمْ إلينا لاَ ترجعونَ »؟. وقد أقام الإسلام نظام الحياة للانسان على مراعاة حقوق أربعة أساسية هى حقوق الله ، وحقوق النفس ، وحقوق العباد ، وحقوق الأشياء .

أما حقوق الله تبارك وتعالى فهى أن تؤمن به رباً خالقاً قادراً رازقاً ، ولا تشرك به أحداً ، وتعبر عن إيمانك بلسانك قائلا « لا إله إلا الله » ، وأن تخضع لما جاءك من عنده من الحق والهدى ، وهذا الخضوع يستلزم الإيمان

(١) القيت يوم الجمعة ١٢ ربيع الثانى سنة ١٣٨١ هـ الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦١ م .

بمحمد رسولا ، لأنه هو الذى بلغك ونقل إليك عن ربك ، فتنزل على حكمه وتقتدى بنهجه ، وأن تعبر عن شكرانك لبارئك وتعظيمك لشأنه ، بذكره وعبادته ، والخوف منه ومراقبته . والله تعالى حينما أوجب لذاته العلية حقوقاً أو واجبات أو عبادات لم يجعلها مرهقة أو متعبة ، بل قال : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وقال : « يريدُ اللهُ بكمُ اليسرَ ولاَ يريدُ بكمُ العسرَ » . وإذا كان فى العبادات عزائم ففيها أيضاً رخص ، والله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه . والصلاة مثلا تؤدى كما يتيسر للانسان ، إن وجد الماء توضأ به ، وإن عجز عنه تيمم ؛ وهو يصلى قائماً إن كان سليما ، وقاعداً أو مضطجعاً إن كان مريضاً ، وهو يقصر الصلاة إن كان على سفر ، وهو يقرأ فى الصلاة ما تيسر من القرآن ؛ والصوم جعله الله أياماً معدودات ، ولم يجعله طويل المدة ولا موصولا ، بل هو سحابة النهار ؛ وفى الليل متسع للأكل والتمتع . « فكلوُا واشربوُا حتىّ يتبينَ لكمُ الخيطُ الأبيضُ منَ الخيطِ الأسودِ من الفجر » . والزكاة نسبة قليلة ضئيلة من المال ، يدفعها من قدر واكتسب وملك النصاب ، والحج لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلا ، ووجد الصحة والقدرة والزاد وأمن الطريق ، وهو واجب مرة واحدة فى العمر ، فما زاد فهو تطوع .

وحقوق النفس يدعو إليها الإسلام ويذكر بها وينظم طريقها ، فيقول القرآن : « ولاَ تنسَ نصيبكَ منَ الدنياَ » ويقول الحديث : « إن لبدنك عليك حقاً » ويقول : « ابدأ بنفسك » . وحقوق نفسك عليك فى الإسلام هى أن تمنعها وتعطيها حظها المعتدل من الطيبات : « قلْ منْ حرمَ زينةَ اللهِ التى أخرجَ لعبادهِ والطيباتِ منَ الرزقَ » وأن تحصنها من المهلكات والآفات كالمسكرات والمخدرات وخبيث الشهوات ومراتع الفساد : « ولا تلقوا بأيديكمْ إلىَ التهلكةِ » وأن تزكيها بالطهارة الحسية والنفسية عن طريق النظافة

والتعبد والتفكر فى ملكوت السموات والأرض ، وأن تجملها بمكارم الأخلاق ومحامد الصفات ، حتى تكون قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى جاء ليتمم مكارم الأخلاق ، والذى يقول : « أقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الذين يألفون ويؤلفون » . وقد وهب الله للانسان فى نفسه طاقات ومواهب ، وهى نعم تثمر أطيب الثمرات إذا أحسن الإنسان استعمالها واستخدامها . وتنتج أوخم العواقب إذا أساء توجيهها أو استخدامها ، ولذلك يقول القرآن : « ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قدْ أفلحَ منْ زكاها ، وقدْ خابَ منْ دساها » ومن فضل الله علينا فى الإسلام أنه أباح لنا استخدام هذه الطاقات فى منافعنا ومصالحنا ولذاتنا الطيبة المشروعة . بحيث لا يضر ذلك أحداً غيرنا ، وبحيث نشكر الله ونمجده على فضله ونعمته ، لنكون منصفين من جهة ومستحقين للنعمة والزيادة فيها من جهة أخرى : « لئنْ شكرتمْ لأزيدنكمْ ولئنْ كفرتمْ إنّ عذابِي لشديدٌ » . وصلوات الله وسلامه على خيرة أنبيائه وصفوة أوليائه محمد حينما سهر الليل عابداً ساجداً ، فسألته زوجته عائشة : لم كل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ . فقال لها : أفلا أكون عبداً شكوراً يا عائشة ؟ ! . .

وأما حقوق العباد فتقوم فى الإسلام على أساس أن الناس كلهم عباد الله ، وأن الكل مخلوقون من نفس واحدة ، فبينهم صلة رحم إنسانية ، يجب عليهم أن يرعوها حق رعايتها ، فلا بغى ولا عدوان على الآخرين ، بل تعاون معهم وحسن معاملة لهم وإحسان إليهم عند الاستطاعة ، يقول القرآن الكريم : « ولاَ تعتدوُا إنهّ لا يحبُّ المعتدينَ » ويقول : « ولاَ تبغِ الفسادَ فِي الأرضِ » ويقول : « وقولوُا للناسِ حسناً » ويقول الحديث : « خيرُ الناسِ أنفعهمْ للناسِ » .

ويتدرج الإسلام تدرجاً رائعاً فى تحديد ما على الإنسان من حقوق للعباد ، وذلك لأن منهم القريب القريب ، ومنهم البعيد أو الغريب ، فيبدأ الإسلام بالأهم ثم المهم كثيراً ثم المهم قليلا ، ثم العام الواسع أو الشائع بعد ذلك ، فيجعل الإسلام رعاية الأبوين والإحسان إليهما مرتبة أولى بعد عبادة الله : وقضَى ربكَ ألاّ تعبدوُا إلاّ إياهُ وبالوالدينِ إحساناً » ، ثم ينتقل إلى الأسرة فيقول الحديث : « ابدأ بمنْ تعوُل » ثم ينتقل إلى القرابة والرحم فيقول القرآن : « وأولوُ الأرحامِ بعضهم أولىَ ببعضٍ فِى كتابِ اللهِ » ثم ينتقل إلى أفراد الأمة المسلمة فيقول الحديث : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ثم ينتقل إلى الناس كافة فيقول الحديث : « تصدقوا على أهل الأديان كلها » ويقول : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

ثم تأتى حقوق الأشياء ، وهذه الأشياء إما حيوان أو نبات أو جماد ، والإسلام يأمر المسلم بأن يحسن استعمال كل نوع من هذه الأنواع ، يأمره بالرحمة والرفق بالحيوان فلا يعذبه ولا يرهقه ولا يمثل به ، ولا يجيعه ولا يحمله ما لا يطيق ، بل يحسن إليه حتى فى حالة الذبح ، وكذلك أمر الإسلام الإنسان بأن يقدر نعمة النبات فلا يفسدها لغير حاجة ، ولا يقطع شجراً لغير مصلحة ، بل يحسن استخدام ذلك كله فى حدود المنفعة والاستقامة ، كما يجب عليه أن يحسن استخدام كل شىء من الجمادات فى حدود الأصول الدينية والقواعد الشرعية ؛ وهذا هو الإسلام مثلا ينهى الإنسان عن الإسراف فى استعمال الماء ولو فى حالة الوضوء ولو كان يتوضأ من البحر الكبير أو المحيط الواسع ، حتى لا يتعود الإخلال بسنة الإحسان فى استعمال الأشياء .

وما دام الإسلام قد حدد للانسان حقوق ربه وحقوق نفسه وحقوق العباد وحقوق الأشياء ، وجعل الإسلام بابه مفتوحاً لكل من يؤمن به ويردد

شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . ولا يعوقه عن الدخول فيه لون أو جنس أو وطن أو نسب ، فهو إذن الدين الإلهى العام الخالد الذى يبقى ويدوم ليكون صالحاً لكل زمان ومكان ، لأنه لم يقم على أساس عنصرى أو إقليمى أو زمنى أو مكانى ، بل قام على الفطرة الإلهية الدائمة ، ولذلك قال القرآن : « فأقمْ وجهكَ للدينِ حنيفاً فطرةَ اللهِ التى فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلقِ اللهِ ذلكَ الدينُ القيمُ ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا هو الإسلام . . ترونه نوراً فى الدنيا ونوراً فى الآخرة ، وتقويماً للحس والنفس ، وتكريماً للانسان والإنسانية فمن ذا يجد بديلا سواه يوازيه أو يدانيه ؟ وإذا كنا نؤمن بأنه الحق والصدق ، وأنه طريق الهدى والعلا ، فلم نصد عنه ؟ ولم نعرض عن حماه ؟ ولم نتقيد بقيوده وحدوده ؟ ولم لا نخضع لنظمه وتعاليمه ؟ . « أفحكمُ الجاهليةّ يبغونَ ؟ ومنْ أحسنُ منَ اللهِ حكماً لقومٍ يوقنونَ » ؟ . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عبادة وقيادة [1]

الحمد لله عز وجل ، أنعم على العباد بدينه ودعوته ، وأكرمهم بتوضيح الطريق إلى مرضاته : « اليومَ أكملتُ لكمْ دينكمْ ،وأتممتُ عليكمْ نعمتيَ ورضيتُ لكمُ الإسلامَ ديناً ». أشهد أن لا إله إلا الله، له دعوة الحق ، « ومنْ يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناًفلنْ يقبلَ منهُ وهوَ في الآخرةِ منَ الخاسرينَ » ،وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله قائد المجاهدين وإمام المتقين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وعشيرته والفائزين بشرف صحبته ، والسائرين على هديه وطريقته « أولئك علىَ هدىً منْ ربهمْ وأولئكَ همُ المفلحوُن » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

كان هذا الإسلام سيظل فى حاجة إلى من يدافع عنه ، ومن يبين تعاليمه وأحكامه ، ومن يصحح أخطاء الناس فيه وتقولاتهم عليه ، وكأن هـذا الإسلام سيظل بسبب التحوير فيه أو الجهل به غريباً يحتاج إلى التقديم والتعريف حتى يهيء الله له أهلا يفقهونه ويقيمونه ، ويستمسكون به قولا وعملا ، وعبادة وهداية : « ومنْ أحسنُ قولاً ممنْ دعاَ إلى اللهِ وعملَ صالحاً وقالَ إنني منَ المسلمينَ » .

لقد قيل ونشر على الناس منذ حين إن الدين ليس إلا صلة بين العبد وربه ، وهذا قول إن صح على دين غير دين الإسلام فإنه لا يصح على الإسلام بحال من الأحوال ، لأنه يكون تعريفاً ناقصاً مبتوراً للهدى الذى أراد الله به للناس خيرى الدنيا والآخرة ، فإن الإسلام مجموعة من المبادىء والتعاليم التى يراد بها تنظيم السلوك الإنسانى فى هذه الحياة من ناحية التفكير والاعتقاد ومطالب الروح والجسد وحقوق الفرد والجماعة ، وعلاقات الأفراد والجماعات والشعوب ؛ وهو من أجل ذلك دين ودولة ، وعبادة وقيادة ، وعقيدة

---

(١) ألقيت يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول سـنة ١٣٨١ هـ المـوافق ٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ م .

وشريعة ، ولا يمكن تصور دولة إسلامية بغير دين ، كما أنه لا يمكن أن نتصور الإسلام خالياً من توجيه للمجتمع وسياسة الأمة ، وعلى هذا يجب أن يقال إن الإسلام صلة بين العبد وربه ونفسه وبيئته والناس والحيوان والأشياء كلها ، لأن الإسلام قد وضع للانسان مبادىء وتعاليم ، تنظم علاقته بكل ناحية من نواحى هذه الحياة ، فهو صلة بين العبد وربه تقوم على الإيمان بعبودية الإنسان وربوبية الواحد الديان . وتعتمد على كلمة التوحيد الوطيدة الماجدة :لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتقول للعبد : « ومن يسلمْ وجههُ للهِ وهوُ محسنٌ فقداستمسكَ بالعروةِ الوثقىَ وإلىَ اللهِ عاقبةُ الأمورِ»ويجعله يردد قوله : « وجهتُ وجهىَ للذىِ فطرَ السمواتِ والأرضِ حنيفاً وما أناَ منَ المشركينَ ، قل إنّ صلاتىِ ونسكيِ ومحيايَ ومماتيِ لله ربِّ العالمينَ ، لا شريكَ لهُ وبذلكَ أمرتُ وأناَ أول المسلمينَ » .

والإسلام صلة بين الإنسان ونفسه ، لأنه يعلمه كيف يطهرها ويزكيها ، وبذلك يصونها ويهديها فيقول له : «ونفس وما سواها ، فألهمها فجورهاَ وتقواهاَ ،قدْ أفلحَ منْ زكاهاَ ،وقدْ خابَ منْ دساهاَ»ويقول له : «فأمامنْ طغىَ وآثرَ الحياة الدنياَ فإنّ الجحيمَ هيَ المأوىَ ،وأماً منْ خافَ مقامَ ربهِ ونهىَ النفسَ عن الهوىَ فإنّ الجنةَ هى المأوىَ».والإسلام صلة بين الإنسان وأسرته وقرابته . ألم يقل القرآن:« وقضَى ربكَ ألاّ تعبدوا إلاّ إياهُ وبالوالدينِ إحساناً » ، وآت ذا القربى حقه »،« إنّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذى القربىَ » . والإسلام صلة بين الإنسان والناس ، أليس من مبادىء الإسلام وتعاليمه هذه النصوص الكريمة : « وقولوُا للناسِ حسناً » ، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، الناس شركاء فى ثلاثة « خير الناس أنفعهم للناس » ، « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ، « الدين المعاملة » ، « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » . والإسلام صلة

بين الإنسان والحيوان . ألم يقل الرسول : « اتقوا الله فى هذه العجماوات » ، « إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » ، « دخلت إمرأة النار فى هرة حبستها فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » . والإسلام صلة بين الإنسان والأرض والسموات . ألم يقل القرآن : « وفى الأرض آيات للموقنين »، « وهوَ الذى جعلَ لكمُ الأرضَ ذلولاً فامشوُا فى مناكبهاَ وكلوُا منْ رزقه »، «قل انظرُوا ماذا فى السمواتِ والأرضِ » ألم يقل الرسول « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض » ؟ .

فكيف يقال بعد هذا كله إن الإسلام صلة بين العبد وربه فقط ؟ إنه لو كان كذلك لصار ديناً سلبياً كهنوتياً مقصوراً على طائفة من الأدعية والطقوس الدينية الفردية ، ولفقد أهم صفة له وهى أن يكون زماماً وإماماً يقود البشرية إلى الخير ويعصمها من الضلال ، والعجيب المعجب فى الإسلام أنه يجمع بين العبادة والعمل الدنيوى فى وقت واحد ، فى الصلاة مثلا عبادة عن طريق المناجاة ، وقيادة عن طريق الإمامة ، ووحدة عن طريق الجماعة ، ونظام عن طريق التوقيت والاصطفاف ، وفيها طهارة للحس عن طريق الاغتسال والوضوء ، وطهارة للنفس عن طريق الدعاء والرجاء ، والقرآن نفسه يربط بين الصلاة وأمور الحياة فيقول : «فإذا قضيتِ الصلاةُ فانتشروُا فى الأرضِ وابتغوُا منْ فضلِ الله ». بل فى أثناء الصلاة يوثق الإسلام الصلة بين محراب الصلاة ورحاب الحياة ، فالمسلم يقف حين الصلاة بين يدى ربه يدعوه ويناجيه ، ويرتل قرآناً يتعبد به . ولكنه فى الوقت نفسه يلقنه دروساً فى صميم الحياة والمجتمع والعلاقات الدولية ، مثل قوله تعالى : « وأحلَّ اللهُ البيعَ وحرمَ الرباَ » ، وقوله : «وإنْ عاقبتمْ فعاقبوُا بمثلِ ما عوقبتمْ به» وقوله : «يا أيها الذينَ آمنوُا إذاَ تداينتمْ بدينْ إلىَ أجلٍ مسمىً فاكتبوُه» وقوله : « وإنْ جنحوُا للسلمْ فاجنحْ لهاَ وتوكلّ علىَ الله » ، « وأعدوُا لهمْ ما استطعتمْ منْ قوةٍ » ، « وأقيموُا الوزنَ بالقسطِ ولا تخسرُوا الميزانَ » .

وهذه الحدود التى ذكرها القرآن وتحدث عنها فقه الإسلام كالقصاص من القتلة وقطاع الطرق والمحاربين ، وكجلد الزانى والقاذف وشارب الخمر ، وكقطع يد السارق ، وغير ذلك من العقوبات والحدود . . . أتكون هذه أيضاً من صلة الإنسان بربه فقط ، أم أن لها دخلا كبيراً فى أمور الحياة ونظام المجتمع وسياسة الأمة ؟ ! . . ثم هذه النصوص القرآنية الصريحة الهاتفة بأن الإسلام دين للحياة وللمجتمع والدولة ، ماذا نصنع فيها ؟ أنحذفها من المصحف أم نلغيها ؟ ماذا نصنع بقول الله عز من قائل : « ومنْ لمْ يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ همُ الكافرونَ » وبقوله تبارك وتعالى : « فلاَ وربكَ لا يؤمنونَ حتىّ يحكموكَ فيماَ شجرَ بينهمْ ثم لا يجدوُا فِي أنفسهمْ حرجاً مما قضيتَ ويسلموُا تسليماً » ؟ .

إنه من الخطورة بمكان أن يقال هذا القول أو ينشر على الناس فى هذه الأمة المؤمنة التى لا تستطيع بحال من الأحوال أن تجحد ربها ، أو تنسى دينها ، أو تفصل بين عقيدتّها وحياتّها ، والتى تحرص على أن تكون الأسرة — وهى عماد المجتمع كله — ناهضة على الدين والأخلاق والفضيلة والوطنية : « صبغةَ اللهِ ومنْ أحسنُ منَ اللهِ صبغةً ونحنُ لهُ عابدونَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . لا يجوز بحال من الأحوال فى المجتمع الإسلامى أن يتحدث متحدثون عن فصل الدين عن الدولة ، لأن هذا الفصل قد يجوز فى مجتمع غير إسلامى لا نحب أن نتعرض له هنا بقليل أو كثير ، وأما مجتمع الإسلام فهو مجتمع ينهض على الإيمان والاهتداء بهدى الرحمن ، والاتباع لسنة خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إنّ اللهَ معَ الذينَ اتقوْا والذينَ همْ محسنونَ .

منهاج الحياة الفاضلة [1]

الحمد لله عز وجل: « يؤتِي الحكمةَ منْ يشاءُ، ومنْ يؤتَ الحكمةَ فقدْ أوتي خيراً كثيراً وما يذكرُ إلا أولوُ الألبابِ » ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، كرم الإنسان بالعقل والجنان « وجعلَ لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدة قليلاً ما تشكرون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، زكى النفوس وهداها ، وكرم العقول وقواها ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : «الذينَ آمنوُا وتطمئنُ قلوبهمْ بذكرِ اللهِ ، ألا بذكرِ اللهِ تطمئنُ القلوبُ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

هذه الحياة التي نحياها يلزمها أن يكون لها مستوى رفيع لائق بأصحاب المواريث الإلهية والروحية وأهل الدعوات الإنسانية الكريمة التي تعلو بالبشرية في مدارج السمو المادى والأدبي ، حتى يكون الإنسان بهذا التسامى أهلا لخلافة ربه في أرضه ، ولتسخير ما في الدنيا من أجله ، وحتى يحيا حياة فاضلة تليق بإنسانيته وتمييزه ، ولكى نبلغ هذا المرتقى لابد لنا من أن نعيش في هذه الحياة بعقول الرجال وهمم الأبطال وقلوب الأطفال .

لابد للأخيار من أن يعيشوا بعقول الرجال ، لأن الصفة الأساسية المميزة للانسان الفاضل هى العقل ، والعقل هو ما نعقل به الأشياء ، ونفرق به بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ونستضيء به في مشكلات الأمور وظلمات الحياة ، وكلما كان العقل عقل رجال درسوا وخبروا ، وعرفوا وجربوا ، كان رائداً لمواطن من النجاح والتوفيق . وقد بدت عناية القرآن الكريم بشأن العقل حين ذكره في نحو خمسين موضعاً ، وحين كرر قوله المحرض الحافز : « أفلا تعقلون » ؟ وفي الحديث : « لكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله »

(١) ألقيت يوم الجمعة ٢٥ أبريل سنة ١٩٥٨ م .

فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الفجار فى النار : « لوْ كنا نسمعُ أوْ نعقلُ ما كنا فِى أصحابِ السعيرِ » . وقالت عائشة : يا رسول الله ، بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ قال : بالعقل . قالت : وفى الآخرة ؟ فقال : بالعقل . قالت : أليسوا يجزون بأعمالهم ؟ فقال : يا عائشة ، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ، فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون . وأثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا ، فقال النبى : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ! فقال : إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ، وإنما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم .

وكل من الفرد والجماعة فى حاجة إلى هذا العقل وتنميته بالدرس والبحث والتجربة ، فالفرد محتاج إليه لتقويم ذاته وإصلاح شأنه وإعداده لبنة سليمة كريمة فى بناء المجتمع ، والجماعة لا غنى لها عن رءوس تفكر وعقول تدبر ، وقد تبلغ الجماعة من العزة والمجد بعقل فرد بعيد النظر عميق البصر ، أو بعقول أفراد معدودين موهوبين ما لا تبلغه بالألوف الذين لا يمتازون بعقل أو تفكير ، وتاريخ هذه الأمة المؤمنة يفيض بشواهد استعانتها بعقول الفحول من أبنائها ، وقد ضرب الرسول لنا المثل فى حسن الانتفاع بعقول الرجال واستغلالها الاستغلال الواسع ، فنفع المسلمين بعقل الحباب بن المنذر يوم بدر ، وبعقل سلمان الفارسى يوم الخندق ، وبعقل أم سلمة يوم صلح الحديبية ، واستنفد طاقة العقول من حوله لخير أمته ، فوضع كل أمرىء فى مكانه الملائم له ، وأسند لكل موهوب ما يجيده ويحسنه .

ولابد للأخيار من أن يعيشوا بهمم الأبطال ، لأن العقل يرسم خططاً تحتاج إلى التنفيذ ، ويؤمن بمبادىء تتطلب النصر والتأييد ، وعيب الأمم

الضعيفة أن أبناءها قد يفكرون ثم لا يعملون أو لا يعملون إلا قليلا ، ولو أنهم فكروا ثم حققوا ما آمنوا به لسعدوا وفازوا :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة   فإن فساد الـرأى أن تترددا

وكلما اتسعت همة الإنسان وانفسحت عزيمته علت رتبته وارتفعت مكانته وقديماً قال الصوفية : « قيمة كل امرىء بقدر همته » . وكلما حقق الإنسان جانباً من مبادئه سمت همته إلى أفق أعلى وأوسع ، وهذا مثلا علم من أعلام هذه الأمة الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز تتطلع همته فى فتوته إلى العلم بالدين والعربية فينال منهما قدراً كبيراً ، ثم تتطلع همته إلى ولاية المدينة ليصلح فيها ويعمر فينال ذلك ، ثم تتطلع همته إلى خلافة المسلمين فيلى أمورهم بالحق والعدل ، فلما ولى الخلافة وهى أسمى ما تطمح إليه النفس فى الدنيا تطلعت همته إلى ما هو أسمى وأبقى . تطلعت إلى الآخرة .

ونحن نريد أمام أبصارنا وبصائرنا مثلا عليا للهمم العازمة التى لا تتردد فى الحق ، ولا تتراجع ساعة الإقدام ، ولا تتزلزل حين الهول . فلنذكر همة محمد سيد الإنسانية يوم تحدى بهمته الفريدة قوى الشرك والبغى فقال : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » . ولنذكر همة أبى بكر يوم صمم على وقفته الخالدة فى وجوه المتمردين من المرتدين وقال : والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » . ولنذكر همة عقبة بن نافع حين فتح باسم الله المغرب العربى كله ، ووقف على شاطىء المحيط فوق جواده وقال : « اللهم رب محمد ، لو أنى أعلم وراء هذا البحر أرضاً يابسة لاقتحمت بفرسى هذا الموج الهائج لأنشر اسمك العظيم فى أقصى بقاع الأرض » . ولنذكر همة العمالقة من أجدادنا أيام كانوا يهتفون فى الشدائد والملمات : « الغمرات ثم ينجلينا » أى تقبل الأحداث القاسية على الرجال

فيحسنون لقاءها وعلاجها ، حتى تنجلى وترحل ويبقى الرجال كما هم ، ولا عجب فهم يذكرون جيداً قول رسولهم : « إن النصر مع الصبر » وقوله : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » .

ولا بد للأخيار من أن يعيشوا بقلوب الأطفال ، ولا نقصد القلوب الهشة الضعيفة ، بل نقصد القلوب الصافية النظيفة ، فطالما ضرب الناس المثل فى البراءة بقلوب الأطفال ، والصلة وثيقة بين العقل والقلب ، لأن العقل الذى يفكر دون صفاء القلب معه يشتط ويعتسف ، والقلب الصافى إذا لم يسنده عقل مدبر يهديه سواء السبيل ويمنعه المعاطب يكون طريقاً للغفلة والجهالة ، وما أحوج أصحاب العقول العبقرية إلى القلوب الرقيقة الصافية ، التى لا تحمل غلا ولا حقداً ، ولا تضمر غيظاً أو حسداً ، بل تفيض رحمة وحناناً ، وتتألق يقيناً وإيماناً ، ومن هنا جعل القرآن سلامة القلب وصفاءه من صفة شيخ الأنبياء إبراهيم : « وإنَّ منْ شيعته لإبراهيم ، إذ جاء ربهُ بقلب سليم » وجعل سلامة القلب خير ما يحمله المرء يوم لقاء ربه : « يومَ لا ينفعُ مالٌ ولاَ بنونَ ، إلاَّ منْ أتىَ اللهَ بقلب سليم » وذكر من دعاء السابقين قولهم : «ولاَ تجعلْ فى قلوبنا غلاًّ للذينَ آمنوا ربناَ إنكَ رءوفٌ رحيمٌ » . والرسول يقول : « قلب المؤمن أجرد (أى مصقول) فيه سراج يزهر » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الملهمين الأخيار من بناة الأمم الحية المؤمنة يحاولون دائماً أن يحققوا للأفراد والجماعات تلك الدعامات الثلاث التى تنهض بها حياة الفضلاء الأقوياء ، وهى عقول الرجال ، وهمم الأطفال ، وقلوب الأطفال ، وفى هدى الله الذى أنعم به على عباده مفاتيح الطرق وأعلام السبل التى تؤدى إلى تحقيق هذه الدعامات ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

ملامح المجتمع الاسلامى (١)

الحمد لله عز وجل ، جعل عباد الرحمن خير أمة أخرجت للناس « وكذلكَ جعلناكُمْ أمةً وسطاً لتكونوُا شهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكمْ شهيداً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، حث أمته على الصلاح والإصلاح فقال : « ولتكنْ منكمْ أمةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ، ويأمرونَ بالمعروفِ ، وينهونَ عنِ المنكرِ ، وأولئكَ همُ المفلحونَ » . وأشهدأنسيدنا محمداً رسول الله ، كان الإنسان الكامل ، وأقام المجتمع الفاضل ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجالهِ : « الذينَ همْ لأماناتِهمْ وعهدهمْ راعونَ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن المجتمع الإسلامى ينهض على ثلاث قواعد هى : ضمان الضروريات ، وتوفير الحاجات ، وتهيئة التحسينات ، ففى باب الضروريات نرى الإسلام يصون النفس والمال والعرض ، فيقول الحديث : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ، وفى باب الحاجيات نرى الحق تبارك وتعالى يحدث عباده بأنه خلق لهم ما فى الأرض جميعاً ، ويأمرهم بالإنتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله : «هوَ الذِى جعلَ لكمْ الأرضَ ذلولاً فامشوُا فى مناكبها وكلوُا من رزقهِ وإليهِ النشوُر » . وفى باب التحسينات نرى الإسلام يبيح كل طيب ، ويمكن أهله من ملذاتهم بطرقها المشروعة وحدودها الحافظة : « قلْ منْ حرَّمَ زينةَ اللهَ التىَ أخرجَ لعبادهِ والطيباتِ منَ الرزقِ قلْ هىَ للذينَ آمنوُا فى الحياةِ الدنياَ خالصةً يومَ القيامةِ ، كذلكَ نفصلُ الآياتِ لقومٍ يعلمونَ » وتقول عائشة رضى الله عنها : « ما تمتع الأشرار بشىء إلا تمتع به الأخيار وزادوا عليه رضى الله » .

---

(١) ألقيت يوم الجمعة ٢٠ رمضان سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢٢ يناير سنة ١٩٦٥ م .

وقد بدأ الإسلام فى مجتمعه بإصلاح الفرد ، فأرشده إلى تطهير داخله وتزكية نفسه ، وحفظ مصدر الإشعاع والتوجيه فى أعماقه وهو القلب ، فسمعنا القرآن يقول : «يومَ لاينفعُ مالٌ ولابنونَ إلاَّ منْ أتىَ اللهَ بقلبٍ سليمٍ » ويقول الرسول : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسدُ كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » . وما دام القلب سليما صالحاً ذاكراً لربه ، ثابتاً على دين خالقه ، فإنه سيحرك صاحبه إلى الخير ، وسيحول بينه وبين الإثم والبهتان . ثم انتقل الإسلام من الفرد إلى المجموعة الأولى فى المجتمع وهى الأسرة ، فبناها على السكينة والمودة والرحمة ، وعلى الخلق الكريم فى المعاملة ، فقال القرآن : «ومنْ آياته أنْ خلقَ لكمْ منْ أنفسكمْ أزواجاً لتسكنوُا إليها وجعل بينكمْ مودةً ورحمةً إنَّ فى ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يتفكرونَ ». وقال الرسول : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » . ثم انتقل الإسلام من الأسرة إلى المجتمع ، فجعله مجتمعاً يقوم على التكافل والتساوى بين الأفراد فى حقوقهم الطبيعية وواجباتهم الأساسية ، فقال الرسول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ». وهـذا المجتمع يتكون من جماعة راشدة تحكم نفسها بنفسها على أساس كتابها وهدى نبيها : « وأمرهمْ شورَى بينهمْ » « وشاورهمْ فى الأمرِ » ، والفرد فى هذا المجتمع له حرمته وكرامته وشخصيته ، ولكن هذه الشخصية الفردية تتعارض مع الشخصية الجماعية ولا تبغى عليها ، فهذا الفرد مطالب بالسمع والطاعة فى الرضا والغضب ، والمنشط والمكره ، ولذلك يقول الحديث : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » ولكن هذه الطاعة مشروطة بأن تكون فى حدود ما أمر الله به أو رضى عنه ، أما إذا انتقل الأمر إلى حيز المعصية كان باطلا ، ومن هنا جاء الحديث : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وجاء الحديث الآخر : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما

أحب أو كره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » وهذا هو سبيل التعادل بين سلطة الجماعة الراشدة وكرامة الفرد المسلم .

وهو مجتمع يقوم على العدالة فى الجزاء ، والحساب الدقيق فى العمل ، والمراجعة المضبوطة فى التصرف ؛ «فمنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يره ، ومنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يره» ، ويقوم على المماثلة فى مقابلة السيئة للردع والتأديب ولكنه فى مجال الخير والإحسان يقوم على إثابة المحسن أوسع إثابة ، ومقابلته بأضعاف حسنته ، وذلك للترغيب والتحبيب والتشجيع ، فيقول القرآن : « منْ جاء بالحسنةِ فله عشرُ أمثالها» ويقول : «مثلُ الذينَ ينفقونَ أموالهمْ كمثلِ حبةٍ أنبتتْ سبعَ سنابلَ فى كلِّ سنبلةٍ مئةُ حبةٍ واللهُ يضاعفُ لمن يشاءُ واللهُ واسعٌ عليمٌ » ، وهو مجتمع ربانى إلهى موصول الأسباب بالسماء ، فكل فرد من أفراده يجب أن يريد بعمله الخاص أو العام وجه الله تعالى ورضاه ، ولا يريد به المفاخرة أو المراءة ، وهو إذا أراد وجه الله فى أعماله كان له الأجر فى جميع هذه الأعمال ، سواء أكانت مادية أم روحية ؛ فيكون له الأمر فى السعى على أولاده كما يكون له الأجر فى الجهاد من أجل دينه ، بل يكون له الأجر على اللقمة يأكلها ، وعلى مضاحكة أولاده ، وعلى إعفاف زوجته وإعفاف نفسه عن طريق المعاشرة الجنسية المشروعة ، وهذا المجتمع أخيراً مجتمع طهور متحنث ، يتذكر دائماً أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وهو يريد أن يكون المسلم طيباً فى كل شىء ، يريد منه أن يكون طيباً فى قلبه : «الذينَ آمنوا وتطمئنُّ قلوبهمْ بذكرِ اللهِ ، ألاَ بذكرِ اللهِ تطمئنُّ القلوبُ» ويريد أن يكون طيباً فى رزقه « كلوا منَ الطيباتِ» «قلْ منْ حرمَ زينةَ اللهِ التى أخرجَ لعبادهِ والطيباتِ منَ الرزقِ » وأن يكون طيباً فى قوله : « وهدوا إلىَ الطيبِ من القولِ وهدوا إلىَ صراطِ الحميد » وأن يكون طيباً فى جميع الأعمال : «ومنْ عملَ صالحاً فلنفسهِ ومنْ أساءَ فعليهاَ » وأن يكون طيباً حتى

فى بيته : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

ثم انتقل الإسلام بعد ذلك إلى المجتمع الإنسانى كله . إلى عالم البشرية الواسع ، فأقام هذا المجتمع على دعائم ثابتة واضحة من اتحاد الأصل ، وشرعة التمايز للتعارف ، وأساس الأفضلية للتقوى ، وقاعدة الاصطفاء والتكريم بوجود النفع للغير ، والإسهام فى الخير والبر ، فقال القرآن : « يا أيها الناسُ اتقوُا ربكمْ الذى خلقكمْ من نفسٍ واحدة ،وخلقَ منها زوجها ،وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ،واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً » وقال : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوُا إنّ أكرمكمْ عندَ الله أتقاكم، إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ »وقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « خير الناس أنفعهم للناس » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن العالم يعانى ما يعانى بسبب حيرته وهو فى مفترق الطرق بين المذاهب والاتجاهات والمعتقدات ، وهو يخرج من تجربة إلى تجربة دون أن يستقر أو يهدأ أو يسعد ، وبين يدى العالم دواء السماء ، وفيه الشفاء والغذاء والهناء ، ولكنه يصد نفسه عنه ، أو تبعده عن ساحة يد الشيطان ، ولو تناوله واستعمله لسعد وفاز : « ومنْ أحسنُ منَ اللهِ حكماً لقومٍ يوقنونَ » ؟ .

ومن العجائب ، والعجائب جمة   قرب الدواء وما إليه وصول

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

نزهوا الاسلام عن صغائركم [1]

الحمد لله يا عزيزا يريد لعباده العزة بلا طغيان ، وقديراً يريد لأهل دينه اقتداراً لا يبغون به على إنسان، «وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها ، فمنْ عفا وأصلحَ فأجرهُ علىَ الله ، إنهّ لاَ يحبُّ الظالمين». نشّهد أن لا إله إلا أنت ، تكره سفساف الأشياء وتحب معالى الأمور ، والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك، كان سيد قومه بلا استبداد ، ورأس جماعته بلا فخر أو اعتداد ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وحزبه ، وجماعته وصحبه ، الذين لانوا فى غير ضعف ، واشتدوا فى غير عسف ، فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كان المسلمون فى أيام العزة والسيادة ، لا يشغلون أنفسهم إلا بما يتناسب مع عالى هممهم ، وكبير عزائمهم ، فهم يفتحون عقول الناس بالحكمة والنور ، ويقتحمون أرجاء العالم بالهداية والتبشير ، ويحررون العبيد من أغلال الإهانة والتحقير ، ويبطشون صادقين بالجبارين ، فإما هداية من غواية ، وإما تطهير للدنيا ممن يريدون أن يكونوا فى الأرض آلهـة من دون الله يعبدون ؛ ولكن الذين يسمون أنفسهم بالمسلمين فى عصور الضعة والضعف والهوان ، لا يفكرون فى شىء من هذا النضال ، ولا يهمون بقليل أو كثير من جليل الأعمال ، بل حسبهم أن يتكلوا على ميراث الأجداد ، وأن يتباهوا بكثرة الأعداد ، وأن يطيلوا الجدال بألسنة حداد ،وحسبهم أن يقيموا الدنيا ويقعدوها من البكاء والأنين ، والنشيج الحزين ، كلما ضاعت من الوطن الإسلامى رقعة ، أو هتكت للدين المحمدى حرمة ، أو عطلت من شريعة السماء فريضة ؛

---

[1] القيت يوم الجمعة ٨ ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٩ م .

وتراهم يقبلون على تفاهات وصغائر يحسبونها من الدين والدين عنها بعيد ، ويظنونها من الخير للاسلام وهى لو علموا طعنات توجه إليه منهم وهم لا يشعرون ، وأقرب الأمثلة على ذلك ، ما قرأناه من أن بعض الجهلة الأغرار ، الذين يحسبون كلا ووبالا على المسلمين ، ولا يحسبون منهم ولا يعدون لهم ، قد تطاولوا على جنازة رجل مسيحى ، فعبثوا بجلال الموت ، وتفوهوا بألفاظ نابية ، ثم عادوا وهم يتوهمون أنهم قد جاهدوا فأحسنوا الجهاد فى سبيل الله ! . .

الإسلام برىء من هذه الصغائر ، والمسلمون أبرياء ممن يستحلون العدوان على غيرهم ، ولو كانوا لا يدينون بدينهم ، والمسلم الدارس لدينه المتفهم لسنة نبيه ، يدرك لأول وهلة ، أن مثل هذا التصرف الصغير الحقير ، الذى ارتكبه بعض الجهلة الأغرار لا تقره الإنسانية ، فهو إذن لا يقره الإسلام لأن الإسلام قد جاء ليحقق فى المرء معنى إنسانيته الكاملة ، التى تتعالى عن شهوات الأجساد ونزوات النفوس ، وضلالات العصبية وترهات العقول ؛ ولقد روى عن جابر بن عبد الله قال : مرت جنازة فقام لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقمنا معه ، فقلنا يا رسول الله ، إنها يهودية ، فقال : إن الموت فزع ، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا (أى إن الموت له رهبته وزلزلته التى تخشع لها القلوب ، وتعتبر لديها الألباب ، فيجب أن يقوم المرء له مذكرا موقرا ، دون التفات إلى شخص من مات) . وفى رواية أخرى أن سهل بن حنيف وقيس بن سعد ، كانا قاعدين بالقادسية ، فمرت بهم جنازة فقاما لها ، فقيل لها : إنما هو من أهل الذمة (أى ليس مسلما) فقالا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا عليه بجنازة فقام لها ، فقيل له : إنه يهودى فقال : أليست نفساً ؟ ! . . نعم يا سيدى رسول الله ، إنها نفس لها حرمتها الإنسانية ، وإنه

الموت له جلاله وعظته ، فإذا مر علينا مثل هذا الحادث ، دون أن نتعظ به أو نلتفت إليه ، فكيف نكون من الناس ، أو ندعى أننا من أصحاب القلوب.

والنصوص الدينية والوقائع التاريخية الإسلامية ، التى تدلنا على سماحة الإسلام ، وعدالته مع غير المسلمين ، كثيرة مشهورة ، قد صافحت الأسماع وطالعت العيون مرات ومرات ؛ وها هو ذا نبى الملة وإمام الأمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو المثل الأعلى فى التمسك بالدين ، والحرص على رضاء رب العالمين ، كان نبيلا كريماً ، يعاشر جيرانه من اليهود والنصارى معاشرة كلها سماحة ورجاحة فهو يعينهم وينصحهم ، ويعودهم ويزورهم ، ويحدثهم ويسمع منهم ، ويهدى إليهم من طعامه ومتاعه ، وما فكر صلوات الله عليه وسلامه يوماً أن يتخذ من اختلاف العقيدة أو تغاير الدين ، سبباً للتطاول السفيه ، أو الاعتداء الظالم ، بل لقد كان منه ما هو أسمى من ذلك وأكرم . قدمت إليه يهودية شاة مسمومة تريد بذلك قتله ، ثم أعلمه الله بأمرها ، واعترفت المرأة بفظيع جرمها ، ومع ذلك عفا عنها مع أنها يهودية مجرمة ، لأنه يريد أن يوضح للعالمين كيف بعثه ربه متمماً لمكارم الأخلاق ، وكثرت جراحه عليه السلام فى غزوة أحد جرحه المشركون الذين لا يدينون إلا بالأصنام وشق ذلك على أصحابه فقالوا له : لو دعوت عليهم ؟ . فقال : إنى لم أبعث لعاناً ، ولكنى بعثت داعياً ورحمة ، اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون » . فانظر كيف ترفع صلوات الله عليه عن طلب العقاب والنقمة لهم ، فضلا عن الاعتداء عليهم ، أو الإساءة إليهم ، مع أنهم هم البادئون ! .

قد يضل ضال فى التفكير فيقول : إن هذا التصرف من باب الغيرة على الملة ، والغضب من مخالفيها والخارجين عليها ، فنقول : بئست الغيرة ، إنها لغيرة مجنونة حمقاء عمياء . لا تحسن تصرفاً ، ولا تعرف كيف تدعو إلى دينها ، لأن الغيور على الدين يفعل ما ينفعه ويرفعه ، لا ما يشينه ويضعه ،

ومثل هذه الحماقات الصغيرة ، التى يرتكبها أولئك الأغرار باسم الإسلام ، وهم يعدون من المسلمين ، تصور الإسلام للجاهلين به ديناً همجياً وحشياً ، لا يحترم حقوق الناس ، ولا يرعى حرمة حرياتهم ، مع أنه الدين الذى يوصى بالإحسان إلى أهل الأديان كلها ، وأن نعامل المخالفين لنا فى الدين ، من مواطنين وذميين ، معاملة المساواة والقسطاس ، لهم مالنا وعليهم ما علينا ، وإن المسلم الصحيح ليستطيع أن يكون أفضل داعية إلى دينه بمعاملاته الشريفة ، وأخلاقه الجميلة وآدابه العالية ، وحسن سلوكه مع جيرانه ومعاشرته ، لأن المسلم إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ، وأقرب الناس من رسول الله فى الجنة يوم القيامة أحاسن الناس أخلاقاً ، الموطئون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ! . . .

ليت الذين يدعون بأن الغيرة تأكل قلوبهم على الدين ، فتضلهم عن الصراط المستقيم ، ليت هؤلاء يوجهون طاقة جهودهم وجهادهم إلى ما يستحق المجاهدة والكفاح ، من كبائر الأثم وعظائم السيئات . . . ليتهم يؤدبون الذين يحاربون الله جهاراً نهاراً ، ويناهضون شريعته ، ويعطلون تعاليم كتابه ، ثم يقولون بلا خجل نحن من المسلمين ! . . ليتهم يؤدبون أولئك الذين سادوا فى غفلة الزمن ، ، فاتخذوا من الناس عبيداً ومطايا ، يركبونها ويسيمونها الخسف والهوان ، ثم لا يتفضلون عليها بالقوت ! ليتهم يؤدبون الذين يمتصون دماءهم وأموالهم ، ثم ينفقونها جهاراً نهاراً على أجسام البغايا ، وموائد الخمور ، وحلقات القمار ! . . ليتهم يؤدبون أولئك الذين يظنون أن الأرض قد ألقيت عليهم من السماء ، مختومة بأسمائهم وألقابهم ، فذهبوا يتحكمون وينكلون ، ويشردون ويتعسفون ، ويعطون ويمنعون ، ويرتكبون كبريات المخازى والمآسى ، لا فى سبيل غرض شريف أو قصد نبيل ، بل فى سبيل المطامع والشهوات ، والأهواء الضالة ضلال الشيطان اللعين ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هناك نوع من البطولات يسمى البطولات الرخيصة ، وهو أن يعجز الإنسان عن بلوغ غاية أو وصول نهاية ، أو التغلب على مشكلة ، فيحاول أن يسترضعه ، ويرضي مركب النقص فيه بالتردى فى هذه أعمال صغيرة حقيرة ، لا تقدم ولا تؤخر ، ثم يفتح فمه كالبركان قاذفاً منه عريض الإدعاءات وطويل الافتخارات ، فحاشاكم أن تكونوا من هؤلاء ، فإنما أعددتم لعمل موصول وسعى مقبول ، فترفعوا بأنفسكم عن سفاسف الأمور ، وعلقوا هممكم بعظائم الأعمال ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ! . . .

قال عليه الصلاة والسلام . ما من شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذىء وقال عليه الصلاة والسلام : اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن !

من ملامح الشخصية المسلمة[1]

الحمد لله عز وجل ، خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وكرمه بفضله أعظم تكريم : « ولقدْ كرمنا بني آدمَ ، وحملناهمْ في البرِّ والبحرِ ، ورزقناهمْ منَ الطيباتِ ، وفضلناهمْ علىَ كثيرٍ ممنْ خلقنا تفضيلاً ». أشهد أن لا إله إلا الله ، أنعَم على الإنسان بما أنعمَ ، فجعله خليفة فى أرضه ، والمقدم بين خلقه ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، مزكى الإنسانية ومطهر البشرية ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وأنصاره وصحابته ، ومن استقام على طريقته : « ومنْ يعتصمْ باللهِ فقدْ هدىَ إلىَ صراطٍ مستقيمٍ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

شخصية الإنسان مجموعة من الصفات تميزه عن غيره ، وتحدد ملامح ذاته ، وتعطيه الطابع الخاص به ؛ وللمسلم شخصية مثالية يمكن أن نجتلى مكوناتها فى هدى القرآن الكريم ، وأدب السنة المطهرة ، وعمل الصالحين من سلف المؤمنين ، ومن هذه المكونات ما يتصل بالبدن ومنها ما يتصل بالعقل ، ومنها ما يتصل بالروح . فالمسلم الحق رجل صحيح البدن قوى العضل ، صالح بقوته وفتوته للعمل والنضال ، والاحتمال وهدوء البال ، لأن الجسم الضعيف أو العليل قد ينال تفكير صاحبه بالخلل ، وقد يدخل على نفسه بالسأم والملل ، وجسم الإنسان بناية ربه الذى خلقه فسواه فعدله ، فى أى صورة ما شاء ركبه ، وبناية الرحمن يجب أن تحفظ وتصان ، ولذلك قال سيد الخلق : « الإنسان بنيان الله ملعون من هدم بنيانه » . والمسلم الصادق رجل معرفة وفقه ، يطلب العلم من المهد إلى اللحد ، وكلما نال مزيداً من العلم أقنعه ذلك المزيد بأنه ما زال بحاجة إلى ازدياد ، لأن العلم لا نهاية له ، والقرآن يقول : « وماَ أوتيتمْ منَ العلمْ إلاّ قليلاً » :

---

[1] ألقيت يوم الجمعة ١٦ رجب سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٤ م .

كلما أدبنى الدهر أرانى نقص عقلى
وإذا ما إزددت علماً زدت إيماناً بجهلى

والمسلم الحق رجل أخلاق فاضلة كريمة ، لأن مكارم الأخلاق هى دعامة الإسلام وأس بنائه . وهذا التكامل الجسمى العقلى النفسى قد تلحظه فى الهدف العام لقول الله عز من قائل : «لقدْ خلقنَا الإنسانَ فِى أحسنِ تقويمٍ » أى فى أحسن تعديل من جهة الشكل والصورة ، ومن جهة العقل والفهم ، ومن جهة الاستعداد ليكون خليفة الله تبارك وتعالى فى هذا الكون العريض ؛ وخير الناس من استغل هذا التقويم المثالى الكريم ليؤتى أكله وثمرة ما فضل الوسائل وفى أنظف الميادين ، وشر الناس من تنكر لهذا التقويم الحسن ، فاستحق الانتكاس إلى حمأة الأرجاس ، ولذلك قال الحق جل جلاله : « ثم رددناهُ أسفلَ سافلينَ . إلاَّ الذين آمنوُا وعملوُا الصالحاتِ فلهمْ أجرٌ غيرُ ممنونٍ » .

ومن مقومات شخصية المسلم أنه سيد نفسه بامتلاكه زمامها ، وسيد العالم بصلاحه ، وقوامته على الناس ، وشهادته على العالمين ، ولكنه أيضاً عبد الله وحده ، وليس عبداً لسواه ، لا تذل جبهته لغير الله ، ولا تنخفض هامته إلا لبارئه ومولاه ، إذ خضوع المخلوق للبارىء عز ، ورضا المسلم بالمذلة أمام سوء الله كفر : «ولا تهنوُا ولاَ تحزنوُا وأنتمُ الأعلونَ إنْ كنتمْ مؤمنينَ ».

وسيادة المسلم فى العالم تقتضيه أن يكون أهلا لهذه السيادة ، بعلمه وفضله ، وهدايته وعدله ، وأن يكون قدوة عليا للناس ، يحملهم على حقه ، ولا يحملونه على باطلهم ، والرسول الأعظم يقول فى هذا : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ، إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

والمسلم الصادق موصول بيمين الحق عز وجل ، وهذه الصلة ترفعه عن ترابية الأرض إلى نورانية السماء ، ومن حضيض الضعف والاستكانة إلى

معاقل الاعتزاز والصيانة ، وتجعله موقناً بحقه ، مستمسكاً برأيه ، قوياً على بهتان الناس ، نفوراً من أهوائهم الضالة . «فمَنْ يكفرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ باللهِ فقد استمسكَ بالعروةِ الوثقى لا انفصامَ لها واللهُ سميعٌ عليمٌ ». وما دام المسلم قد وصل حبله بحبل الله ، وقد أسلم وجهه لله ، وقد استمسك بالعروة الوثقى فلن يكون للشيطان عليه سبيل ، بل سيراه المسلم دائماً عدواً مبيناً له ، فلا يقبل عليه ، ولا يميل إليه ، بل يقيم من نفسه على نفسه حسيباً رقيباً ، لأنه يتذكر دائماً أن ساعة ستأتى يلقى الإنسان فيها سجل أعماله ، ويقال له : « اقرأ كتابكَ ، كفى بنفسكَ اليومَ عليكَ حسيباً » ، وسيجد هذا الكتاب دقيقاً فى التسجيل والتدوين ، وسيجد الجزاء هناك إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر : « وأنْ ليسَ للانسانِ إلاَّ ما سعىَ ، وأنَّ سعيهَ سوفَ يرَى ، ثمَّ يجزاهُ الجزاءَ الأوفىَ ، وأنَّ إلى ربكَ المنتهىَ » .

ومن مقومات شخصية المسلم الصادق أنه رجل جماعى وليس بأنانى ، يغرس فى نفسه معانى الأخوة والمحبة والتآلف والتعاون ، لأن مولاه جل جلاله يقول له : « وتعاونوا علىَ البرِّ والتقوىَ ولاَ تعاونوُا علىَ الإثمِ والعدوانِ » ورسوله يقول له : « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

والمسلم الصحيح الشخصية يقول كلمة « أنا » فى مواطن البذل والتضحية والإيثار ، فحينما دعا الله نبيه إلى أن يتمسك بالحق ، أمره أن يذكر نفسه أولا ، لأن المقام مقام تبعة وجهاد وتطبيق ، فقال الحق جل جلاله : « قلْ هذهِ سبيلي ، أدعوُ إلى اللهِ علىَ بصيرةٍ ، أنا ومنِ اتبعنيِ ، وسبحانَ اللهِ وماَ أنا منَ المشركينَ » . ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يصور فى الأنصار هذه الروح التى تجعل صاحبها ينسى نفسه فى مواطن الشهوة والرغبة ، ويقدمها فى مواطن النضال والبذل ، فيقول لهم : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع » وهذه صفة تجعل صاحبها فى أعلى مراتب السمو الأخلاقى

فهو يعطى ولا ينتظر الأخذ ، وهو يبذل ولا يطالب بالأجر ، بل يكافح كفاح الجندى المجهول الذى يريد وجه الله وحده ، والرسول يصور هــذا بقوله فيما ينسب إليه : أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها ، أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب ، وأن أعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون نطقى ذكراً ، وصمتى فكراً ، ونظرى عبرا » .

ومن تمام شخصية المسلم الحق أن يتجلى فيه الاطمئنان والثبات ، لأن النفس المطمئنة هى الراضية المرضية عند الله فى الدنيا والآخرة ، وثبات المسلم على دينه وخلقه ومبادئه هو عنوان إيمانه ويقينه ، وهو الذى يجعله لا يبغى عند النعمة . ولا يتزلزل لدى المحنة ، والداء العياء الذى تشكو منه المجتمعات هو ذبذبة الأخلاق واضطراب النفوس ، ولو آتى الله عبده ثباتاً على ما يرتئيه ، وصبراً على ما يلاقيه ، وثقة بالذى يرتجيه ، لوجدت مكارم الأخلاق حراسها وحماتها ورجالها ، ولصان الله المجتمعات من مآثم الثعالب الماكرة التى تتلون بطباعها وأخلاقها تلون الحرباء كل يوم ، ولقد صور القرآن ثبات النفوس عند خيار المؤمنين فقال: « منَ المؤمنينَ رجالٌ صدقوُا ما عاهدوُا اللهَ عليهِ ، فمنهمْ منْ قضَى نحبهُ ، ومنهمْ منْ ينتظرُ ، وما بدلوُا تبديلا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . هذا جانب من ملامح الشخصية المسلمة ، ولو تابعنا بقية الملامح لأسلمنا هذا الجانب إلى جوانب ، فإن شأن المسلم الكامل أن يظل دائماً مترقياً فى مدارج الفضل والنبل ، ومراتب السمو والعلو ، حتى يكون فى الدنيا ربانياً ، وحتى يكون نعم الخليقة لبارئه فى هذا الوجود ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الدخول فى الاسلام (١)

الحمد لله، هو أقوى الأقوياء وأغنى الأغنياء ، «يا أيها الناسُ أنتمُ الفقراءُ إلى اللهِ ، واللهُ هوَ الغنيُّ الحميدُ» ، نشهد أن لا إله إلا أنت سبحانك ، لا ينفعك إيمان من أقبل عليك ، ولا يضرك كفران من أعرض عنك ، اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، اعتز بالقلة المؤمنة الشاكرة فقهر بها الكثرة المغترة المنكرة ، كَمْ منْ فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ معَ الصابرينَ» ؛ فصلواتك اللهم وسلامكَ عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وجنوده وأحبابه «لهمْ دارُ السلامِ عندَ ربهمْ وهوَ وليهمْ بما كانوُا يعملونَ» . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لا يختلف إثنان يدرسان الإسلام بنزاهة وإنصاف فى أنه دين رب السماء ، أنزله إلى عباده ليخرجهم من ظلمات الحيرة والشقاء ، إلى نور الهداية والهناء ، ولعل أقرب الشواهد على ذلك أن كل من اهتدى إلى صراط الإسلام تمسك به وحرص عليه ولم يرجع عنه ، حتى ولو فرط فى بعض واجباته وتعاليمه ؛ وإنك لترى الرجل المسلم يهمل ، ويلهو ما يلهو ، فإذا مست عقيدته الإسلامية بسوء غضب وثار ، وهاج ومار ، لأن قواعد العقيدة راسخة فى أعماق فؤاده ، وإن يكن قد علاها الصدأ بالتفريط والإهمال ؛ وقد كثر عدد المسلمين فى الأرض حتى صاروا يعدون بمئات الملايين ، ولا يفيدهم أن يزيدوا مليوناً آخر ، ولا يضعفهم أن ينقصوا مليوناً من ملايينهم ، ولكن الأهم من ذلك كله هو أن يطبق المسلمون تعاليم دينهم ، وأن يتمسكوا بمبادىء ملتهم ، وأن يترجموا عن أقوالهم بأعمالهم ، وقد لفت القرآن المجيد أبصار رجاله إلى تلك

---

(١) ألقيت يوم الجمعة ١٥ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ الموافق ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٢ م .

الحقيقة حين هتف : « يا أيها الذينَ آمنوُا لِمَ تقولونَ ماَ لا تفعلونَ كبرَ مقتاً عندَ اللهِ أن تقولوُا ما لا تفعلونَ » .

وقد شاعت فى الأيام الأخيرة ظاهرة تثير الاهتمام ، هى أن كثيراً من غير المسلمين يظهرون رغبتهم فى اعتناق الإسلام ، ويشهرون هذا بلسانهم وبإشهاد شرعى خاص بهم ؛ والعامة من المسلمين يظهرون الفرح كلما سمعوا بشىء من ذلك ، مع أن أغلب الذين يعلنون إسلامهم عن هذا الطـــريق المعروف يفعلون ذلك خاضعين لمؤثرات خارجة عن دراسة الملة المحمدية والاقتناع بها بحق وصدق ، فهذا أعلن إسلامه لأنه يريد فراق زوجته ، وذاك أعلنه لأنه هام بحب فتاة مسلمة ، وذلك أعلنه للخروج من مشكلة ميراث أو عقار ، وهكذا . . . وكثيراً ما يرتد هؤلاء عما أعلنوه وأشهروه إذا زالت الدواعى والأسباب ، فنتذكر قول الأول :

صلى وصام لأمر كان يطلبـــه   فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

إن ملة محمد صلى الله عليه وسلم لا تعتز كثيراً بأمثال هؤلاء ، فهى لا تريد ولا تقبل أبداً أن تكون قنطرة أو معبراً يعبر عليه ذوو الأغراض والأهواء إلى شهواتهم ومآربهم ، والله سبحانه لا يريد من عبده أن يدخل دينه إلا عن بينة وبصيرة ، يدرس ويبحث ، فتلوح له الشواهد والبراهين ، فتسطع أنوار الإيمان فى صدره ، فيقبل على ربه إقبال العازم الواثق الموقن . لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يخشى فى سبيل دينه المتاعب أو المغارم « منَ المؤمنينَ رجالٌ صدقوُا ما عاهدوُا اللهَ عليهِ فمنهمْ منْ قضى نحبهُ ومنهمْ منْ ينتظرُ وماَ بدلوُا تبديلاً ». ومن واجب المسلمين ألا يطيلوا فرحهم إذا سمعوا بمثل هذا ، ومنْ واجبهم أنْ لاَ يجعلوُا دينهمْ تكأة يستند عليها المبطل والمغرض ، بل عليهم أن يشرحوا فضائله ما استطاعوا ، ويدعو إليه بالحكمة

والموعظة الحسنة ، ويراجعوا من يريد الدخول فيه ليتبينوا أنه طاهر النيـــة صافى المقصد ، وأنه قد درس من أصول الإسلام ومبادئه ما يكفى لاقتناعه بأنه دين الحق وملة الصدق ، ويومئذ نؤمن بأن الذين يقبلون علينا ويدخلون فينا سيكونون قوة لنا وإخوة معنا ، وفى هذا التحقيق وذلك التدقيق إجلال لحرمة الإسلام ، وتأمين الجماعة المسلمين ، وسد للطريق على المفسدين المستغلين الذين يتخذون التظاهر بالإسلام ستاراً يسعون من خلفه إلى ما يشاءون من خبيث الأغراض ودنىء المقاصد ؛ ولنتذكر فى هذا المقام أن أناساً فى سالف التاريخ الإسلامى دخلوا الإسلام كذباً وزورا ، ثم دسوا للمسلمين الدسائس ، وكادوا للاسلام المكائد ، وكانوا مع شد يد الأسف سوساً نخر فى هيكل الأمة الإسلامية ، فصبوا عليها البلايا والنكبات . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن المسلمين فى العالم اليوم أربعمائة مليون[1] ، ولو كان هذا العدد الهائل نحلا يثبت وجوده بطنينه لأصموا أسماع أعدائهم وأثخنوهم بالجراح ، ولكن تطاول عليهم الأمد فقست قلوبهم وتبلدت عزائمهم ، واليوم يتأذن رب السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ببشائر نصر وطلائع خير ، فليتبصر المسلمون مواقفهم ، وليسووا صفوفهم ، وليطهروا كتائبهم من الدخلاء ، فهم ليسوا بحاجة إلى الكثرة ، لكنهم بحاجة إلى الإخلاص والقوة ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ؛ أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

---

(١) زادوا الآن عن الألف مليون .

من آداب الاسلام (١)

لك الحمد يا مصدر الكمال وواهب الجمال ، أنت الذى تقسم المعايش والعطايا بين عبادك ، فمنهم شقى وسعيد ، وفيهم قريب وبعيد ، والآخرة عند ربك للمتقين نشهد أن لا إله إلاأنت تحصى القليل والكثير ، وتحاسب على الفتيل والقطمير ، « وكفى بنا حاسبين » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من تأدب وأدب ، وقوم وهذب ، فصدق فيه قولك : « وإنكَ لعلىَ خلقٍ عظيمٍ » . فصلواتك اللهم وتحياتك ، ورحماتك وبركاتك ، عليه وعلى آله وصحبه ، وجماعته وحزبه ، أولئك الذين أشرقت أرواحهم بنور ربهم ، فهدوا به فى أحلك الظلمات وأحرج الشبهات ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شىء عليم ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

سأتعمد اليوم أن أترك خلفى ما تعارفتم على أنه من جلائل الأمور ومشاغل الصدور ؛ فلن أتحدث عن هذه المشكلة ، ولا عن تلك المعضلة ، مما يقلق المضاجع ، وتهتم له المجامع ؛ ولكنى سأتحدث إليكم عن أمر تحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ؛ ذلكم هو استخفاف الكثير منا بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية ، حين يسخر من صاحب العاهة ، أو يهزأ بمن نالته آفة ، فيبدو فى صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ؛ وذلك داء يصيب الساخر فيجعله محطاً لنقمة العزيز الجبار مستحقاً للعنة وسوء القرار ؛ وخذوا مثلا من بين مئات الأمثال :

شاهدت رجلا متعالياً على خلق الله ، يؤنب رجلا مكفوف البصر على خطأ ارتكبه ، فسمعته يقول له ساثراً ساخراً : لا لوم عليك فإنك أعمى ! ..

---

(١) ألقيت يوم الجمعة ٢٣ من ذى القعدة سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤٩ م .

وكأنما جمع الرجل فى كلمة «أعمى» هذه كل صفات الإهانة والتحقير ، فنزلت على كاهل الرجل الكفيف صخرة حاطمة ؛ وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم يقولون لمثل هذا الكفيف ساخرين . حقاً إن كل ذى عاهة جبار ! . . إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاحتقار ! . . .

إن هذا أولا سوء أدب مع الخالق والمخلوق ، فلو أراد الله سبحانه لجعل الساخر المبصر مكان المسخور منه الأعمى ، فكان الواجب حينئذ على المرء أن يتذكر نعمة الله عليه ومقدار عطائه له ، وأن يأسى ويأسف لحرمان المحروم مما تمتع به هو ، وأن يسأل له من فضل الله وعوضه ما يجزيه خير الجزاء ، عما أصيب به من نقص فى جانب خلقته ، بدل أن يهزأ به ويسخر منه ، فيستوجب لنفسه المقت والغضب ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن البلاء موكل بالمنطق ، ولو سخرت من كلب لخشيت أن أصير كلباً مثله ! . وليس وراء هذا التحفظ والتحرز من عبد الله غاية لمتباعد عن رذيلة الاستهزاء ! . .

ولست أدرى والله لم يسخر الساحر مثلا من الأعمى؟ . . . لئن كان الأعمى قد ولد مكفوف البصر فذلك سابق القضاء وحكم القدر ، والسخرية مما سبق فى علم الله ، بحكمته وهداه ، محاربة له وتطاول عليه ، ومن يفعل ذلك فقد باء بسخط من الله وعذاب شديد ؛ وإن كان المكفوف قد فقد بصره فى حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة عليا تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه برؤية جلاله ، والاقتباس من نوره الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولذلك روى عن أنس رضى الله عنه ، عن النبى صلوات الله عليه ، عن جبريل عن رب العزة والجبروت قال : يا جبريل ، ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمتيه

(أى عينيه) إلا النظر إلى وجهى ، والجوار فى دارى . . . قال أنس : فلقد رأيت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يبكون حوله ، يريدون أن تذهب أبصارهم (وذلك اشتياقاً منهم إلى التمتع برؤية ربهم ، وهى نهاية النعيم فى جنات الخلود (. . . وحتى لو فقد الكفيف بصره فى معصيته لكان مستحقاً للرحمة والرثاء ، بدل التطاول والاستهزاء ، فرب معصية أورثت ذلا وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزا واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجبر ويستقيم . وأما سخريتك منه فتحريض له على العناد ، والإبعاد فى مهاوى الفساد ، ولقد شرب رجل الخمر على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فضربوه حدا وتأديباً ، فقال له بعض الصحابة : أخزاك الله ! . فغضب النبى من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ، لا تعينوا الشيطان عليه ! . . .

وقد يكون الرجل الكفيف البصر ، المزدرى فى أعين الناس ، كريماً عند الله ، رفيع المكانة لديه ، قريب المنزلة إليه ، لتفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ؛ فها هو ذا الصحابى الجليل عمرو بن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد من قريش وهدايتهم إلى الله ، فلا يجد الرسول فرصة عاجلة لينفرد بهذا الكفيف الساعى ، فينزل الله سورة فى كتابه ، يعاتب بها نبيه على إهمال ذلك الكفيف ، فيقول عز من قائل معاتباً معرضاً مواريا : « عبسَ وتولىّ ، أنْ جاءهُ الأعمىَ ، وما يدريكَ لعلهّ يزكىّ ، أو يذكرُ فتنفعهُ الذكرىِ ، أما منِ استغنىٰ فأنتَ لهُ تصدى ، وما عليكَ أنْ لا يزكىّ وأما منْ جاءكَ يسعىٰ وهوَ يخشىٰ ، فأنتَ عنه تلهىٰ ، كلاّ ، إنها تذكرةٌ » . ولا يصف القرآن الكريم ابن مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » فى صراحة وجهر ، كأنه يريد أن يقول إن هذا لوصف الذى قوبل صاحبه بالإهمال أو الإمهال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرحمة والرأفة والاحتفال وصلوات الله وسلامه

على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، ولذلك كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ، هل لك من حاجة ؟ . وجعله خليفة وراءه على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف ، لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول ، ولذلك كف بصر عبد الله بن عباس فكان يقول :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ... فنى لسانى وقلبى منهما نور

قلبى ذكى ، وعقلى غير ذى دخل ... وفى فمى صارم كالسيف مشهور

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان ، وبقاءه فى الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عينيه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من المخازى ، ومشاهدة عديد من المآسى ، ويعف نفسه عن معاينة تلك المفاسد المكشوفة والمحارم المثوفة ، فقد أصبحنا فى زمن وبيل عليل ، تترامى صوره وحوادثه أقذاء فى عيون الناظرين فتعشيها وتدميها ؛ وتاريخ المسلمين الطويل العريض يفيض بمفاخر العظماء الأبطال من المكفوفين الذين لم تحل هذه العاهة بينهم وبين أن يكونوا فى طليعة الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء ، وها هو ذا شوقى يخاطب ملكاً مصرياً فى شأن من يضمهم الأزهر المعمور من مكفوفى الشيوخ والشباب فيقول له مشيداً بهم مفاخراً بشأنهم :

نظراً وإحساناً إلى عميانه ... وكن المسيح مداوياً ومجبراً

والله ما تدرى لعل كفيفهم ... يوماً يكون أبا العلا المبصرا

لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد ... غبنا ، وجل المشترى والمشترى

وحتى لو قصر الكفيف أو تقاصر عما يسبق إليه غيره من أعمال ومهام ، لما كان ذلك مجوزا لنا أن نشتط معه فى الحساب ، أو نغلظ له فى الخطاب ، لأن الحق تبارك وتعالى قد جعل عاهته ومثلها مسوغاً للمعذرة وسبباً لعدم الحرج حينما يجب أن لا يعتذر غيرهم من الناس ، فقال القرآن الكريم « ليس علىَ الأعمىَ حرجٌ ،ولاَ علىَ الأعرجِ حرجٌ ، ولاَ علىَ المريضِ حرجٌ » . . . ومن ثم كان واجباً على ذى الخلق الشريف أن يحسن التصرف والخطاب مع الكفيف ، وأن يتجنب معه ما يثير فى نفسه ألم الحسرة على فقدان ما فقد من نعمة يتمتع بها سواه ، لقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة يصف فيها صاحبها مدينة خربتها إغارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف حساس ، وكان فى وسط القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطا ينقل فى كل بيت قدم !

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده فيها ، فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظناً كريماً جال بخاطرى عن تصرفه ، فقال : لقد لمحت كلمة « ضرير » فى البيت قبل أن أنطق به ، فخشيت أن تجرح إحساس فلان ، فتخطيته ! . . فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق يسرى فى صفوف الجميع ! ! . .

ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من يستحق التأمل فيه أو الاعتمادعليه ، ولذلك جعل يقول :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم الله يعلم أنى لم أقل فندا

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

فكيف لو تأخر الزمن بهذا الشاعر حتى أدرك زماناً نعيش فيه بأبصارنا ، ونحن نتمنى أن نفقدها لنستريح من خزى ما نرى ونشاهد ؟ ماذا كان يقول لو أدرك زماناً كهذا الزمان ، أهون ما يوصف به أهلوه قول القائل :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم   والمنكرون لكل فعل منكر
وبقيت فى خلف يزكى بعضهم   بعضاً ليدفع معور عن معور !

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

سخرية القوى بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ، والتذكير بالعورات أو التندر بالعاهات ليس من طبع المسلم النبيل ، والمرء يفقد إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمارة بالسوء ، أن تستطيل بالاستهزاء أو الاستخفاف ، على رجل امتحنه الله وابتلاه لحكمة يعلمها ولا نعلمها ، بعلة مزمنة أو عاهة دائمة ، وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوماً بالأجسام أو الأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال ، فطهروا ألسنتكم من خنا القول وفحش التعبير ، وانطلقوا تحت لواء الله إلى دنيا عريضة من مكارم الطباع ومحاسن الشيم وفضائل الآداب ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .

قال عليه الصلاة والسلام : بحسب أمرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه : إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة .

الاسلام اصلاح لا ثورة [1]

الحمد لله ، هو ولى الرشاد والتوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق : « صبغةَ اللهِ ومنْ أحسنُ منَ اللهِ صبغةً ونحنُ لهُ عابدونَ ». نشهد أن لا إله إلا أنت ، لا خير إلا منك ، ولا نصر إلا بك ، ولا اعتماد إلا عليك ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، أصلح الفساد ، وأنقذ البلاد ، وهذب العباد ، « وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمينَ ». فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، «أولئكَ همُ المتقونَ ، لهمْ مايشاءونَ عندَ ربهمْ ذلكَ جزاءُ المحسنينَ».

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

فى الأمة الإسلامية قوم تربوا على غير مبادئها السامية وأهدافها القويمة ، تروتهم يحسبون منها وينتسبون إليها ، ومع ذلك لا يعتزون بها ولا يثقون فيها ، وإنما تتجه ثقتهم إلى كل شىء يأتى من الخارج ، حتى فيما يتعلق بالعقول والقلوب ، أو يتصل بالوقائع والتاريخ ؛ وخذوا إن شئتم على سبيل المثال تمدحهم الدائم المتكرر بالثورة الفرنسية ، فهم يتغنون بها فى حفلاتهم وكتاباتهم ، ويعتبرونها أكبر حادث قرر حقوق الإنسان ، وأعظم ناشر لمبادىء الإخاء والحرية والمساواة ؛ وكذبوا والله ثم ضلوا ضلالا مبيناً . . . إن الشمس عند أمتهم فكيف تركوها إلى المصباح الضئيل ، وإن السبق لدينهم العظيم الذى ينتسبون إليه ، فكيف يقدمون عليه لاحقاً لا يسمو عن مرتبة الذيول ؟ . .

لقد سبق الإسلام ثورة فرنسا هذه بأكثر من ألف عام فى تقرير حقوق الإنسان ، ، والدفاع عنها بقوة وإيمان ، والحرص عليها مع حياطتها بعوامل السلام والأمان ، ولم يكتف الإسلام بالنصوص يرددها ويلقيها ، أو يسجلها

---

(١) ألقيت يوم الجمعة ١٢ شعبان سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٨ مايو سنة ١٩٥١ م .

ويبقيها ، بل جعلها جزءاً من العقيدة لا تكمل صلة المرء بربه إلا إذا أقامها ورعاها ، ثم طالب أتباعه بأن يجاهدوا من أجلها ، ولا يلقوا أسلحتهم إلا إذا اطمأنوا إلى تنفيذها وسيادتها ، كما وضعها أمام أبصارهم فى كتابه المجيد يتلونه صباح مساء ، ويتدبرونه فى كل آن ، ويعبدون ربهم بترتيله مع نطبيق ما فيه ، وليس بعد هذا تركيز أو إعزاز . . . وحسبنا فى مبدأ الإخاء قوله تعالى : « إنما المؤمنونَ إخوة » . وقوله : « واعتصموُا بحبلِ اللهِ جميعاً ولاَ تفرقوُا » . وقوله : « يا أيها الناسُ اتقوُا ربكمْ الذى خلقكم من نفس واحدة وخلقَ منهاَ زوجها وبثّ منهماَ رجالاً كثيراً ونساءً » وقول رسوله عليه صلَوات ربه : « وكونوُا عبادَ اللهِ إخواناً » . وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . وحسبنا فى الحرية قول الرسول : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » وقول عمر وهو يترجم عن روح الإسلام الصحيح : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وحسبنا فى المساواة قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » وقول رسوله : « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وهناك بعد هذا فرق جوهرى كبير جداً بين الوثبة الإسلامية والثورة الفرنسية ، يبين لكم مدى الاختلاف بين عمل الإنسان وهدى الديان ، فقد كان عمل الفرنسيين ثورة ، والثورة مؤامرة يدعو إليها الخبثاء وينفذها الجهلاء ويجنى ثمرتها الجبناء ، وكانت حركتهم حركة تمردية غاضبة صاخبة ، لا تدرى كيف تخطو ولا إلى أين تتجه ، ، فليس هناك منهاج معلوم ولا طريق مرسوم ، بل ضاق الشعب الفرنسى من ظلم حكامه وبغى طواغيته وترف رؤسائه وفجور كبريائه ، وجاع حتى اشتد به الألم من المسغبة والحرمان ، فظن أنه

ليس هناك أسوأ مما هو كائن ، فقام يهدم ويحطم ، ويقتل ويتخلص من الظالمين بلا تأن أو هواده ، وأسرف فى ذلك إسرافاً مشيناً بلا قانون أو معدلة ؛ وشاءت الأقدار أن تنجح الثورة ، لا عن بصر من أصحابها بالعواقب ، ولا عن طريق التدرج فى الخطأ والمراتب ، بل لأن الحظ كان مواتياً ؛ وانتهت الثورة بمبادئها الثلاثة التى أذاعتها فرنسا وتغنت بها ، ولكنها خرقتها ألف مرة ، ومآسيها فى التاريخ الحديث مستفيضة ، وحديث الأفاعى طويل المدى . . .

وأما الإسلام فقد كان على العكس من ذلك ، لم يكن ثورة عمياء بل كان إصلاحاً مبصراً ، ولم يكن حركة تمردية تهدم وتحطم بل كان إحياء للمشاعر وبناء للمجتمع ، ولم يكن ضربة طائش غير محددة الهدف ، بل كان صراطاً مستقيما نزل به الروح الأمين من رب العالمين على قلب الرسول الأمين ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وما أوضح الرسول وما أصرحه ، حين يهتف فى قومه أول الدعوة قائلا : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذى لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً ، أو لنار أبداً .

جاء الرسول قومه بهدى ربه وقد بلغوا ما بلغوه من انحطاط وبوار ، فأبان لهم ما هم فيه من ضلال ، وما يجب أن يعملوا له من نجاة وخلاص ، ورسم لهم الوسائل والسبل ، وحدد أمامهم الأغراض والمقاصد من التوحيد والفضيلة والإخاء والعزة والعبودية لله وحده ، إلى آخر ما فى الإسلام من مبادىء مقررة مصورة ، وغرس الرسول بنور نبوته وتأييد دعوته وربانى كلمته هـــذه المبادىء فى نفوس أتباعه ، حتى آمنوا بها وعاشوا لها وحرصوا عليها ،

وأيقنوا أنه لابد للعالم منها حتى يرقى ويسعد ، فقاموا عن رشاد وسداد يجاهدون من أجلها ، ويبذلون دماءهم الزكية رخيصة فى سبيلها ، حتى حققوها فى ديارهم وفى الديار التى فتحوها باسم الإسلام على صورة لم نشهد لها مثيلا فى التاريخ ؛ ومن هنا يظهر الفرق الجلى الكبير بين الإسلام والثورة ؛ فالثورات الهائجة الصاخبة قد تنجح وقد تفشل ، وقد تؤدى إلى عكس المراد منها ، وأما الإصلاح المرسوم المحدد ، المؤيد بالأدلة والشواهد ، الموثوق من حقه وصدقه فهو يمشى على نور ويصل إلى بلاغ ؛ ولقد جاء الإسلام إصلاحاً يقنع العقول ويجذب القلوب ويفحم الخصوم ويرسم الطريق ، ويصنع لكل مشكلة علاجاً ، ولكل مرض دواء ، حتى ما خف من الأعراض والنوازل ، ولذلك كان من تأديب الله لرسوله فى القرآن : « قلْ هذهِ سبيلى أدعوُ إلى اللهِ على بَصيرةٍ أناَ ومنِ اتبعنىِ وسبحانَ اللهِ وما أنا منَ المشركينَ ».

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الإسلام القيم الذى آمنت به الملايين لا يزال هو الإسلام : « لاَ تبديلَ لخلقِ اللهِ ذلكَ الدينُ القيمُ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمونَ ». وإن الإسلام الذى اهتدت به الملايين لا يزال صالحاً لتهتدى به ملايين أخرى ، وهو لا يأتيكم بالمشاكل مناقشاً ، ولا يدعوكم إرغاماً بل طوعاً وإكراماً ، « لا إكراه فى الدين ، قدْ تبينَ الرشدُ منَ الغى ، فمنْ يكفرْ بالطاغوتِ ويؤمنْ باللهِ فقدْ استمسكَ بالعروةِ الوثقىَ لاانفصامَ لها واللهُ سميعٌ عليمٌ » وإن لكم فى هديه لغنى عن دعوات تنهض ثم تتعثر ، وشجيرات تنبت ثم تتكسر ، وإن لكم فى صلاحه وإصلاحه لوقاية من نزوات تنشط وتنحرف ، أو شطحات تجرف ثم تنجرف إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الاسلام دين السلام [١]

الحمد لله عز وجل ، هو صاحب الفضل ، والآمر بالعدل ، « إن الله يأمركمْ أنْ تؤدوُّا الأمانات إلى أهلها َ، وإذا َحكمتم ْبينَ الناس َ أن تحكمُوا بالعدلِ ، إنّ اللهَ نعماً يعظكم ْبه ، إنّ اللهَ كانَ َسميعاً بصيراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الأمر ومصدر الخير : « وإنْ منْ شيء إلاّ عندنا َخزائنهُ ، وما ننزله إلاّ بقدرٍ معلوم » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نبي الرحمة ومنقذ الأمة ، وقائد الغر المحجلين يوم الدين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آل بيته ، وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته : « أولئكَ همْ خيرُ البريةّ » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن العالم الآن على حافة بركان ، وهو يحيا فيا يشبه الحمى من القلق والكرب فى الشرق والغرب ، فأجواء الدنيا وآفاقها تتلبد بغيوم كثيفة خطيرة ، تنذر بالويل والثبور ، وتهدد بالخراب والدمار ؛ منذ حين سقطت قنبلة ذرية خطأ ولم تنفجر ، فتلفتت الدنيا فزعاً ، وأمسكت بفؤادها خيفة وخشية ؛ وفى مثل هذا الجو الملبد بالغيوم ، والعالم المهدد بويلات الحروب وكوارث المعارك ، يجب أن تنبعث أصوات الهدى والحكمة ، انبعاث النور فى الظلمات ، وأن تنبثق كلمات الدعوة إلى السلام والأمان انبثاق الماء النمير يلين الصخر ويروى الجدب ويقوى الرجاء . . . والإسلام — وهو العقيدة التى نؤمن بها ونعبد الله عليها — هو أحق الأديان والدعوات بأن يسمى دين السلام ودعوة الأمان وطريق الاطمئنان ، وإن نور السلام ليشع فى دين الإسلام حيثما وليت وأينما اتجهت ؛ يشع فى مظهره ومخبره ، وفى عباداته ومعاملاته ، وفى أقواله وأعماله ، وأول ما تطالعنا من ذلك أن لفظ « الإسلام » نفسه مشتق من السلام

---

(١) القيت يوم الجمعة ٤ من ذى القعدة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٣ مايو سنة ١٩٥٨ م .

« إنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإسلامُ »، وأن الله الذى نزل هذا الدين وشرعه لعباده يسمى بالسلام « هو اللهُ الذى لاَ إلهَ إلاَّ هوَ الملكُ القدوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ » ، وأن الذين يؤمنون به يسمون بالمسلمين « هوَ سماكمُ المسلمينَ منْ قبل » ، والإسلامُ يدعو حين يدعو إلى تثبيت الأمن وتحقيق السلام : « يا أيها الذينَ آمنوُا ادخلوُا فِي السلمْ كافةً ولاَ تتبعوا خطواتِ الشيطانِ إنه لكمْ عدوٌّ مبين » ، ويجعل العاقبة هى الإنتهاء إلى مقر السلام دار النعيم : « واللهُ يدعوُ إلى دارِ السلامِ ويهدِي منْ يشاءُ إلىَ صراطٍ مستقيمٍ » . وقد شرع الإسلام لأبنائه تحية متبادلة متكررة ، مألوفة معروفةً ، فكانت هذه التحية هى : « السلام عليكم ورحمة الله » ، ولم يجعل تحية السلام مقصورة على الحياة الدنيا ، بل انتقل بها إلى الآخرة ، فجعل التحية التى تقال لأهل الجنة هى : « سلام عليكمْ بما صبرتمْ فنعمَ عقبيَ الدارِ » وتحية الله لعباده المكرمين يوم القيامة هى السلام « تحيتهمْ يومَ يلقونهُ سلامٌ » . .

ويقول القرآن : « دعواهمْ فيهاَ سبحانكَ اللهمَّ وتحيتهمْ فيها سلامٌ »
ويقول : « خالدينَ فيها بإذنِ ربهمْ تحيتهمْ فيها سلامٌ »
ويقول : « يقولونَ سلامٌ عليكمْ ادخلوُا الجنةَ بما كنتمْ تعملون »
ويقول : « وقالَ لهم خزنتهاَ سلامٌ عليكمْ طبتمْ فادخلوهاَ خالدينَ »
ويقول : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » .

وحينما علم الإسلام أبناءه أن يعطوا نبيهم حقه قال لهم القرآن : « إنَّ اللهَ وملائكتهُ يصلونَ علىَ النبيِ . يا أيها الذينَ آمنوُا صلوُّا عليهِ وسلموُا تسليماً » أى أظهروا شرفه وعظموا شأنه ، وقولوا « السلام عليك أيها النبى » . ونحن المسلمين نقول فى التشهد من كل صلاة : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » . ونجد أن السلام كان لوناً من ألوان التكريم الإلهى ، فنجد فى سورة الصافات هذه الآيات :

«سلامٌ علىَ نوحٍ فى العالمين»، «سلامٌ علىَ ابراهيم»، «سلامٌ علىَ موسى وهارُون»، «سلام على إلياسين» وتختم السورة بهذه الخاتمة العامة فى شأن السلام على جميع الرسل: «وسلامٌ علىَ المرسلين، والحمدُ لله ربِّ العالمين».

وفى سورة مريم نجد القرآن يقول فى شأن يحيى بن زكريا: «سلامٌ عليهِ يومَ ولدَ ويوم يموتُ ويومَ يبعثُ حيا». وفى نفس السورة يقول القرآن على لسان عيسى بن مريم: «والسلامُ علىّ يومَ ولدتُ، ويومَ أموتُ، ويومَ أبعثُ حياً».

والإسلام يعلم المسلم ألا يدخل بيتاً إلا بعد أن يؤذن فيهم بالسلام: «يا أيها الذينَ آمنوُا لاتدخلوُا بيوتاً غيرَ بيوتكمْ حتى تستأنسوُا وتسلموُا على أهلها ذلكمْ خيرٌ لكمْ لعلكم تذكرون» وهذا السلام مطلوب من المسلم حتى ولو دخل بيوته أو بيوت أقربائه وأحبائه، فالقرآن يقول: ليسَ علىَ الأعمىَ حرجٌ ولا على الأعرجِ حرجٌ ولا على المريضِ حرجٌ، ولا على أنفسكم أن تأكلوُا منْ بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوتِ أمهاتكم أو بيوتِ إخوانكم أو بيوتِ أخواتكمْ أو بيوتِ أعمامكمْ أو بيوتِ عماتكمْ أو بيوتِ أخوالكمْ أو بيوتِ خالاتكمْ أو ما ملكتم مفاتحهَ أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلموُا على أنفسكمْ تحيةً منْ عندِ اللهِ مباركةً طيبةَ كذلكَ يبينُ اللهُ لكمْ الآياتِ لعلكمْ تعقلونَ».

بل علم الإسلام أبناءه أن يلقوا السلام إلقاء متاركة ودعاء بالهداية على اللاغين الجاهلين: «وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكمْ سلامٌ عليكمٌ لا نبتغى الجاهلينَ». وفى سورة الفرقان: «وعباد الرحمن الذينَ يمشونَ على الأرض هوناً، وإذاَ خاطبهمُ الجاهلونَ قالوُا سلاماً».

بل وعلم الإسلام أبناءه أن يتلقوا تحية السلام ممن يلقيها ويعاملوه على أساسه دون إثارة الشك فى أمره، يقول القرآن: «يا أيها الذين آمنوُا إذاَ ضربتمْ فِى

سبيل الله فتبينوا ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيافعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً» ويحدثنا القرآن — أن ابراهيم ودع أباه الكافر بسلام التوديع والمتاركة فقال: «قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً » .

وحدثنا الإسلام حديث الإجلال والإكبار عن أفضل ليلة فى الحيـــاة ، وهى الليلة التى نزل فيها القرآن تحفة الرحمة وتزفه الملائكة ، وهى ليلة القدر ، فإذا من الصفات البارزة لتلك الليلة العظمى أنها « سلام هى حتى مطلع الفجر»

وفى الإسلام عبادات وقواعد ؛ منها الصلاة والزكاة والصوم الخ ، وأكثر هذه العبادات وقوعاً وتكراراً فى حياة المسلم هى الصلاة ، لأنها تتكرر بفروضها وسننها المؤكدة نحو اثنتى عشرة مرة فى كل يوم ، ويختمها المسلم فى كل مرة بتسليمتين ، أى أنه يكرر عبارة : « السلام عليكم ورحمة الله » أربعاً وعشرين مرة فى كل يوم ، والصلاة رحلة إلى الله ، يرتفع فيها المسلم إلى حماه ، وينقطع أثناءها عن شهواته ودنياه ، ثم يعود إلى هذه الحياة ، ويقبل على الدنيا من جديد ، فإذا أول شعار يلقى به الحياة والأحياء هو : « السلام عليكم ورحمة الله » ، ولا يقول هذا عن يمينه ، بل ويقوله عن شماله ليشمل بسلامه من كان هنا ومن كان هناك ؛ والمسلم أثناء صلاته يدعو ربه ويناجيه ، ويخلص خواطره لبارئه وهاديه ، ثم يقبل بعد التطهر الحسى بالنظافة والوضوء والنقاء بطهارته فى جسمه وثوبه ومكانه ، وبعد التطهر الحسى أثناء الصلاة ، يقبل ليبدأ أهل الدنيا من كل نواحيها بالسلام ، كأن السلام هو ثمرة ذلك التطهير المتكرر فى كل يوم مرات ومرات ، أو كأن السلام هو الهدية التى يحملها المصلى إلى الناس من لدن قيوم السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ، وبارىء الخلق أجمعين . . .

وكثير من الناس يتعارفون اليوم على اتخاذ « الحمام » شعاراً للسلام ، وقد يظن ظان أن هذا التعارف لون من الابتكار الجديد أو الابتداع الحديث مع أن أمتنا المؤمنة أسبق إلى هذا التعارف وأدنى إليه وأولى به ، فأجدادنا منذ القدم يصفون الحمام بأنه من « الطير الميامين » ، ويتخذونه شعاراً للمودة والتآلف وهذا هو حمام الكعبة والبلد الحرام مكة ، إنه ذو قدم راسخة فى تاريخ الأمن والسلام ، فحمام الحرم وادع آمن ،لا يصاد ولا يهان ولا يعتدى عليه ، حتى يضرب الناس به المثل فى الأمن والسلامة فيقولون : آمن من حمام مكة ومن غزلان مكة . ويقول أسلافنا القدامى : إن هذا شائع على جميع الألسنة ، لا يرد ذلك أحد ممن يعرف الأمثال والشواهد . وهذا الحمام نفسه كأنه يحس قيمة السلام فلا يعتدى ولا يجوز ولذلك روى الجاحظ أنه يبلغ من تعظيم الحمام لحرمة البيت الحــرام أن أهل مكة يشهدون عن آخرهم أنهم لم يروا حماماً قط سقط على ظهر الكعبة إلا من علة عرضت له ! . وهو بأمنه وسلامه يعلم الناس كيف يكون السلام ، ويوحى إليهم بنسيان البغضاء والخصام ، ويحرضهم على السهولة والوداعة والصفاء . . . وهناك بعض المصادر فى قصص السيرة النبوية تحدثنا أن الحمام كان رمز الأمان والسلام فى ساعة الهول ، والفضل فهذا هو رسول الإنسانية محمد مع صاحبه الأول أبى بكر يقضيان هذه الساعة « إذ هما فى الغارِ إذْ يقولُ لصاحبهِ لا تحزن إن الله معنا ». وجاء الحمام أو اليمام واليمام نوع من الحمام كما قالت اللغة ونص عليه السابقون ، فباض وأقام على واجهة الغار ، فكانت الحمامة الضعيفة الأليفة من أسباب الوقاية الربانية ومن جنود الله التى لا تعد ولا تحصى . . . بل روى بعض المؤرخين أن حمام مكة أظل رسول الله عليه صلوات الله عليه يوم فتح مكة ، فدعا له النبى بالخير والبركة ، فإن صحت الرواية كان هذا دليلا على أن الله تعالى أراد أن يكون يوم الفتح المبين يوم أمان وسلام تظلله أجنحة الحمام

وهو رمز السلام . . . وهل نسينا حمامة « الفسطاط » الذى اشتهر به عمرو بن العاص فاتح مصر باسم الله وباسم الإسلام ، فقد جاءت أثناء الفتح حمامة فاتخذت من أعلى فسطاطه — وهو الخيمة — عشالها ، فلم يقبل عمرو فيما بعد أن يقوض فسطاطه حتى لا يزعج الحمامة ، بل تركه وتتابع العمران من حوله حتى تكونت مدينة الفسطاط بسبب هذه الحمامة ؛ فكأن الإسلام يبتدىء تاريخه فى مصر بحمامة ، ويفتتح حصونها بهذه الحمامة الوادعة ، ويرسل قصتها مع الفسطاط وصاحبه مثلا يرويه الجيل بعد الجيل ليدل على سماحة الإسلام ، ورفق أبناء الإسلام ، وانبثاق السلام أينما سار دعاه الإسلام

وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه — كما يذكر الجاحظ فى الحيوان — أنه أراد أن يذبح الحمام ، ثم قال : « لولا أنها أمة من الأمم لأمرت بذبحها ، ولكن قصوها » ونهى عثمان عن اللعب بالحمام .

وفى قصصنا الدينى القديم أن الحمامة كانت رائداً لسيدنا نوح عليه السلام أرسلها لتكشف موضعاً فى الأرض يصلح مرفأً للسفينة عقب الطوفان ، وأعطاها الله طوقها الذى فى عنقها حلية لها وثواباً على إرشادها ! ! . .

وكان يرتفع ثمن الحمامة الواحدة فى هذه الأمة حتى يبلغ خمسمائة دينار (الحيوان ج ٣ ص ٢١٢) واستعمل أسلافنا الحمام من قديم الزمان فى حمل رسائل الود والمحبة ، لأنهم أدركوا وقرروا أنه أسرع الطيور فى التودد والتآلف ، إذ تخرج الحمامة من عشها فتلتقى بجماعة من الحمام ، فتنسى عشها وولدها ، وتصاحب رفقتها ، وقد تلقى الهلاك فى سبيل إرضاء المودة فى نفسها .

ويقول الجاحظ المتوفى فى وسط القرن الثالث الهجرى ، أى منذ أكثر من ألف ومئة عام : « ومن مناقب الحمام حبه للناس ، وأنس الناس به »

ويقول : « الحمام طائر ألوف مألوف ومحبب وموصوف بالنظافة» ووصفه بالثبات على العهد ، وحفظ ما ينبغي أن يحفظ ، وصون ما ينبغي أن يصان.

وفى حديث مرفوع — كما يروى ابن الأثير فى النهاية — أن النبي صلوات الله عليه كان يعجبه النظر إلى الأترج (التفاح (والحمام الأحمر ! . . .

وقد كرر الإسلام الأمر بالعدل والدعوة إليه ، وهو بهذا يكرر الأمر بالسلام والدعوة إليه لأن العدل هو أقوى حوافز السلام ، ولأنه لو أنصف الناس استراح القاضى ، فقال القرآن : « إن الله يأمر بالعد » وقال : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . وقال : وأمرت لأعدل بينكم » وقال : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » . ومن أجدادنا أيها الناس عشرات وعشرات من الحاكمين العادلين الشرفاء الذين زانوا صفحات التـــاريخ بإنصافهم وعدالتهم ، وما نسينا بعد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز الذى حكم الديار ووحد الأقطار وأشاع العدالة ونشر الإخاء والسلام ، حتى توسع محبوه فى تصوير عدله وسلام عهده فقالوا إن الذئب كان يلقى الشاة فى أيامه فلا يمسها بأذى أو سوء ! . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إننا نريد السلام لأنفسنا وللناس ، نريد السلام العام الشامل ، ، نريد هذا السلام صادراً من أعماق نفوسنا ومن صميم عقائدنا ، نابعاً من تاريخنا ومبادئنا ، منبثقاً من هدى قرآننا وسنة نبينا ، مشعراً كل الناس أنه أصل من أصولنا وقاعدة من قواعدنا ، نحن فيه أئمة أصلاء ولسنا فيه بالتابعين أو المقلدين أو الذيول ، ففى ديارنا نحن ظهر عيسى وبشر بدعوته التى كانت تحيتها « السلام لكم » ، وفى ديارنا ظهر محمد وبشر بدعوته التى كانت تحيتها « السلام عليكم » فنحن أولى الناس بدعوة السلام ، ونحن بمكانة الصدارة والأصالة حين ندعو إلى السلام ونعمل للسلام ، نعم نحن

بعقائدنا أصلاء ، فمن ذا الذى يزعم أننا دخلاء ؟ ونحن بعون الله فى الخير أقوياء فمن ذا يريد نا على أن نكون ضعفاء ؟ نحن بديننا وإيماننا شرفاء فمن ذا يحاول أن نكون أدنياء «ولله العزةُ ولرسولهِ وللمؤمنينَ» إننا نريد السلام لأنفسنا ولإخواننا وجيراننا ، ونريده للناس جميعاً ، نريده لأصدقائنا ولغير أصدقائنا ما داموا له مستجيبين ، ولكنا . . . لا نريد السلام الذليل المهين ، بل نريد السلام الإيجابى ، السلام العادل القوى ، السلام الذى لا يبغى ولا يظلم ومع ذلك يحرس ويصون ، لأن الله يقول : «وأعدوُا لهم ما استطعتم منْ قوةٍ ومنْ رباطِ الخيلِ ترهبونَ بهعدوَّاللهِ وعدوكم» .وإذا كنا نهتف ونقول : « نصادق من يصادقنا ونعادى من يعادينا » فمن الميسور لنا أن نزكى هـــذا المنهاج من هدى قرآننا .. نصادق من يصادقنا لأن خالقنا يقول : «وإنْ جنحوُا للسلمْ فاجنحْ لها وتوكلْ على اللهِ »ونعادى من يعادينا لأن خالقنا يقول : « فمنَ اعتدىَ عليكم فاعتدوُا عليهِ بمثلِ ما اعتدىَ عليكم».فلنعد إلى السلام ولنلجأ إلى رب الإسلام نجد عنده الأمان والسلام ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

الاسلام محرر الانسان [1]

الحمد لله عز وجل ، هو ولى المؤمنين ، وقاهر الفاسقين : « فمنْ أسلمَ فأولئكَ تحروْا رشداً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو مصدر النعمة ، وواهب الرحمة : « إن رحمةَ الله قريبٌ منَ المحسنينَ » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ومحرر الإنسان ، وموطد الإيمان ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : «الذينَ آمنوُا وتطمئنُ قلوبهمْ بذكرِ اللهِ ، ألاَ بذكرِ اللهِ تطمئنُ القلوبُ » .) .

يقص علينا التاريخ أن بعض الملل المحرفة كانت تقول للانسان : « اعتقد ثم اجتهد » أى استسلم ثم استعلم » وأن بعضها كانت تقول : « الجهالة أم التقوى » ولكن الإسلام العظيم جاء فقرر أن أساسه هو : « اجتهد ثم اعتقد » ، وأن عماد التقوى هو العلم والنظر ، فقال القرآن الكريم : « إنما يخشىَ اللهَ منْ عباده العلماءُ » وقال : « وما يعقلها إلا العالموُن » وقال : « قلْ هلْ يستوِى الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمونَ » .

وجعل الإسلام العقل عماد الاعتقاد وحارس الدعوة ، حتى يتحرر المرء من الإرغام والتبعية والتقليد ، وحتى لا يكون من أهل الضلال والخبال لأن القرآن يقول : « ويجعل الرجس على الذينَ لا يعقلونَ » ويقول عن الذين لا يستخدمون عقولهم وقلوبهم وحواسهم فى البحث والتفكير : « أولئك كالأنعام ، بلْ همْ أضل أولئك هم الغافلون » . وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ، ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله » وقال : « لكل شىء دعامة ، ودعامة المؤمن عقله ، فبقدر عقله تكون عبادته : أما سمعتم قول الفجار فى النار : « لو كنا نسمعُ أو نعقل ما كناَّ فى أصحاب السعير »؟ .

---

(١) ألقيت بمسجد الرفاعى يوم الجمعة ٢٠ من ذى القعدة سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٣ أبريل سنة ١٩٦٤ م .

والإسلام — فى سبيل تحريره للعقول والقلوب — طالب الناس بأن يستمعوا لما يقال ، وأن ينظروا فيه يميزوا بين طيبه وخبيثه ، ولذلك قال القرآن : « فبشرْ عبادىَ الذين يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنهَ أولئك الذين هداهمُ الله وأولئك همْ أولوُ الألبابِ ». والحديث يقول : « الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها فهو أحق بها » ويقول : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وحين قال هذا لم تكن هناك بين المسلمين والصين علاقات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، ولكنه الهدى النبوى الرائع فى التحريض على طلب العلم والهدى والحق فى أى مكان مهما كان نائياً بعيداً .

لقد قام الإسلام على أصل جوهرى ثابت هو عقيدة التوحيد التى تعبر عنها كلمة : « لا إله إلا الله » ، وهذه الوحدانية تحرير من الخضوع لغير الله ، ومن الذل أمام أحد سواه ، فالمسلم إذا آمن بربه الواحد الأحد ، اعتز به ولجأ إليه واعتمد عليه وأخلص العبادة له . ومن أجل هذا ألغى الله تبارك وتعالى الوساطة بينه وبين العباد ، فهم يتجهون إليه فى دعواتهم وابتهالاتهم واستعاناتهم ، فيستمع لنجواهم ويستجيب لدعواهم ، بلا وسيط أو شريك ، ولذلك قال لرسوله : « وإذاَ سألكَ عبادىِ عنىّ فإنىّ قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعيِ إذا دعانى ، فليستجيبوُا لىِ ، وليؤمنوا بىِ ، لعلهمْ يرشدونَ » .

وفى سبيل إخلاص العبادة لله وحده قوض الإسلام ما ادعاه بعض البشر من سلطة دينية على البعض الآخر ، فليس لهذه السلطة فى الإسلام رسم ولا اسم ، والرسول نفسه — وهو خير خلق الله ، وأمين وحيه — مبلغ ومذكر ، وليس بمهيمن ولا مسيطر : « فذكرْ إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » ، « إنماَ عليكَ البلاغُ وعليناَ الحسابُ » ، « إنا أرسلناكَ بالحقِ بشيراً ونذيراً ، ولا نسألُ عنْ أصحابِ الجحيم » ، « ليسَ عليكَ هداهمْ ولكنّ اللهَ يهدى منْ يشاءُ » .

وإذا راجعنا تاريخ الإسلام وجدناه سلسلة متصلة الحلقات من المقاومة للاستبداد والمحاربة لطغيان الجبارين على المستضعفين ، وإذا كنا نرى القرآن الكريم يشن الحملة القاسية على فرعون الذى استبد وطغى ، حتى قال الناس : أناَ ربكمُ الأعلىَ » فإننا نرى المسلمين عقب هذا ينساحون فى الأرض هداة محررين ، فيخلصون الناس من طغيان الأكاسرة وحملهم الناس على عبادة النار ، ومن طغيان القياصرة وحملهم الناس على عبادة الأبطال ، ولا عجب فمهمة الإسلام هى إحقاق الحق وإزهاق الباطل : « ليحقَ الحقّ ويبطلَ الباطلَ ولوْ كرهَ المجرمونَ » .

وإذا كان الإسلام قد حرر الإنسان فى تفكيره واعتقاده من كل قيد باطل أو متابعة هزيلة ، فقد ذكره فى الوقت نفسه بأن يستمسك بالحق ولو لم يجد معه كثرة تسانده ، فإن الحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، وإن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه ، والرسول يقول : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسات . ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم» !

ومن تقدير الإسلام للحرية أنه لم يرغم غير المسلمين على الدخول فيه ، ونهى عن اضطهاد الناس من أجل عقائدهم ، وسمى هذا الاضطهاد « فتنة » ، واعتبر ذلك أشد من القتل ، فقال القرآن : «والفتنةُ أشدُ منَ القتلِ » وقال : « أفأنتَ تكرهُ الناسَ حتىّ يكونوُا مؤمنينَ »؟ وقال : « لا إكراه فى الدين قد تبينَ الرشدُ منَ الغيّ». ولقد أراد رجل على عهد الرسول أن يكره ولديه على الدخول فى الإسلام ، فنهاه الرسول عن ذلك مع أن الرجل قال مشفقاً : « أيدخل بعض النار وأنا أنظر يا رسول الله » ؟ . وكذلك جاءت عجوز نصرانية إلى عمر الفاروق ، وسألته حاجة فقضاها لها ، ثم عرض عليها الإسلام فأبت ، فخاف عمر أن يقال إن ذلك إكراه لها ، فقال : اللهم إنى لم أكرهها ، وتلا قوله تعالى : « ولاَ إكراه فِى الدينِ قدْ تبينَ الرشد من الغى » .

ولقد ترك الإسلام غير المسلمين يعيشون فى مجتمعه وتحت ظل دعوته أحراراً يباشرون عبادتهم ، ويمارسون شعائرهم ، ويأتون أعمالهم الخاصة حتى ولو كانت مخالفة لتعاليم المسلمين ، ما لم يؤثر ذلك فى المجتمع ، أو يتخذ طابع البث للاثم أو الإشاعة للمنكر ، واعتبر الإسلام هؤلاء أهل ذمة وعهد وأمان ، ووضع القاعدة العادلة الفاضلة التى تقول : «لهمْ مالنَا وعليهم ما علينا » ، وأوجب الإسلام صيانتهم ، حتى قال بعض الفقهاء : « إن عظم الذمى محترم ، فلا يكسر إذا وجد فى قبره » . ونهى الإسلام عن أى لون من الألوان إلا نداء لهؤلاء حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » أى غلبته وكان مستحقاً للعقاب من الله تعالى بسبب ذلك ، ولما قال الحديث : « لا يبع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه » قال الفقهاء : يحرم بيع المسلم على بيع غير المسلم الداخل فى ذمة الإسلام ، كما تحرم خطبته على خطبته ؛ وهذا مثل رائع من أمثلة العدالة والإنصاف التى ضمنها الإسلام العظيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

الحقيقة الكبرى التى لا يمارس فيها إلا غافل أو مكابر أن الإسلام حرر الإنسان فى اعتقاده وتفكيره ، وفى حسه ونفسه ، وكرمه بمختلف أنواع التكريم ، ومن واجب الإنسان أن يقر لهذا الدين الإلهى الجليل بفضله ونبله ، ولو اهتدت البشرية بتعاليم هذا الدين ، واعتصمت بهديه . لسعدت بعد شقاء ، واستقامت بعد اعوجاج ، «صبغةَ اللهِ ومنْ أحسنُ منَ اللهِ صبغةً ونحنُ لهُ عابدونَ » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

(واتقوُا اللهَ الذىِ أنتمُ بهِ مؤمنونَ ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

اصلاح الاسلام للبشرية

الحمد لله عز وجل هو باريءُ الخلق، وواهب الرزق ، ومبدع الحياة « إن الله فالق الحب والنوى يخرجُ الحيَّ من الميت ، ومخرجُ الميت ، من الحي ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » ؟ نشهدَ أن لا إله إلا الله ، أمر بالعدل وهو خير العادلين ، وأنصف في الحكم وهو أحكم الحاكمين ، « ولله المثلُ الأعلى وهو العزيزُ الحكيم » . ونشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، لم تشغله دنياه عن أخراه ، ولم يناقض مسعاه تقواه ، فكان أطيب الكاسبين وأخلص العابدين ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه الكرام ، وأتباعه الهداة الأعلام : « أولئك لهم أجرهم عندَ ربهم ، إن اللهَ سريعُ الحسابِ » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ميزة الإسلام الكبرى أنه جاء فلم يقتل غريزة من غرائز الإنسان ، بل عرفها طريقها بعد أن هذبها وأعلاها ؛ ولم يصادم قوة من قوى البشرية ، بل أجراها في ميدانها بعد أن أصلح من شأنها ، ولم يرخ حبله حتى يوصف بالضعف والهوان ، ولم يعتسف حتى يوصف بالتعنت والتشدد ، بل ما من أمر فيه طرفان للافراط والتفريط إلا اختار الإسلام بينهما طريقاً عدلا قاصداً فيه خير الطرفين ، وليس فيه من شرهما قليل أو كثير ؛ والإسلام يسبق في هذا غيره من الشرائع والدعوات السابقة واللاحقة ؛ ولنذكر على سبيل المثال أنه لما فسدت النصرانية في روما قبل قبيل الإسلام ، واختلطت بالوثنية البادية والمادية الطاغية ، حاول بعض أدعياء الأديان أن يعالجوا ذلك بالرهبانية المسرفة في الزهد والعزلة والحرمان ، فدعوا إلى تعذيب الجسد ، وتجويع

---

*لقيت في يوم الجمعة ٢١ ذى القعدة سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢١ اغسطس سنة ١٩٥١ م

البطن ، وترك الزواج والفرار من النساء مع المبالغة فى احتقارهن ، وترك الجسم بلا نظافة ، حتى عدوا غسل البدن جرما ، وعاش بعض الرهبان دون أن يغسل رجليه طيلة عمره ؛ فكان من نتيجة ذلك أن فسد المجتمع وانتشرت الأمراض ، وتقطعت العلاقات وساءت الحال ؛ ولم تستطع الرهبانية المبتدعة التى لم يكتبها الله على الناس كما يقول القرآن أن تصلح ما انتشر من المادية ، بل بالعكس قتلت الهمم والعزائم ، لأنها أوجدت بتزمتها وتعنتها رد فعل كان شديداً جامحاً ، فترك الناس أشباحاً بلا أرواح ، وأجساداً لا تفقه للحياة معنى ، ولا تعرف للوجود قيمة ، ولم يكن هناك مفر من ذلك ، لأن كبت الطبيعة البشرية سفه وضلال ، كما أن الخضوع لها مع إطلاق العنان أمامها بلا حساب إسراف وفسوق ؛ وبجوار ذلك أدت هذه الرهبانية إلى تحلل شنيع فى الأخلاق والغرائز ، لأن الرهبان كانوا منعزلين فى الصحارى يرهفون أنفسهم وأتباعهم بهذه العزلة وذلك الجمود ، وكلما رآهم عامة الناس فى هذا الجمود الشديد المنفر عاندوهم وأسرفوا فى شهواتهم ، إذ لم يطيقوا أسلوبهم العنيف ، ومن هنا حدثنا التاريخ بأن الرهبانية سارت مع الخلاعة والفجور جنباً إلى جنب ؛ فلا صلاح ولا إصلاح . . .

ثم جاء الإسلام على أعقاب هذا الفساد المركب ، فلم يرض عن أى شطر من شطريه ، بل أصلح هذا وقوم ذاك ، واتخذ لنفسه صراطاً مستقيما بين الإفراط والتفريط ، وجعل أمته وسطا ، فلا تخمة ولا جوع ، ولا رهبانية ولا إباحية ، بل عبادة وعمل ، وجهاد ومتاع ، وصلاة يعقبها سعى فى سبيل المال والرزق : « فإذا قضيتُ الصلاةُ فانتشرُوا فى الأرضِ وابتغوُا من فضلِ اللهِ واذكرُوا اللهَ كثيراً لعلكم تفلحون » . . .

جاء الإسلام فوجد فى الغرب شجاعة يسيئون استعمالها فى حروب السلب والنهب والعدوان ، فلم يحارب الشجاعة ، بل امتدحها ، ثم أحسن توجيهها

إلى الجهاد فى سبيل الله ، وفتح الأمصار على كلمة الله ، حتى صار أحدهم يتحرق شوقاً وهو أعرج إلى الاستشهاد فى الجهاد قائلا : « إنى أريد أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة » . ونرى آخر يسمع أن الشهادة فى الجهاد هى أقصر طريق إلى الفردوس ، وفى يديه تمرات يريد أكلها ، فيرمى بالتمرات ويسارع إلى موطن الجهاد قائلا : « لئن صبرت حتى آكل هذه التمرات إنها إذن لحياة طويلة ثقيلة » .

وجاء الإسلام فوجد للعرب اجتماعات واحتفالات كانت تعقد للمفاخرة الكاذبة والاشعار العابثة ، فأبقى على الرغبة فى الاجتماع ، ولكنه حول هذه الاجتماعات إلى صفوف متراصة فى صلاة الجماعة والجمعة والعيدين والحج الأكبر ، وإلى حلقات متلائمة لطلب العلم أو الشورى ، وقرر أن « يد الله مع الجماعة » ، وأن أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه « لا تجتمع على ضلالة » . . .

وجاء الإسلام فوجد فى العرب ميلا فورياً إلى الكرم والإعطاء ، ولكنهم كانوا يريدون بذلك أن يمتدحهم الناس ، وأن يصنعوا فيهم القصائد والخطب ، وقد لا يحسنون فى هذا الإعطاء بسبب ذلك البلاء ، فحول الإسلام هـــذا الكرم فى الانفاق إلى سبيل الله والمستضعفين ، وذلك بتنظيم الزكاة والصدقة والإحسان ، حتى أعد الله جنة عرضها السموات والأرض « للمتقين الذين ينفقونَ فى السراءِ والضراءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناسِ والله يحبُ المحسنين » . . .

وجاء الإسلام فوجد غرائز منطلقة وشهوات مجنونة ، فلم يحاربها بالرهبانية لأنه « لا رهبانية فى الإسلام » ؛ بل نظمها وأعطى كل غريزة منها قسطها الذى تعبر به عن نفسها ، وفى الوقت عينه تؤدى وظيفة أخرى لها فائدتها ومكانتها فى إصلاح الفرد أو المجتمع ، فنظم شهوة الجنس بالزواج ، ونظم

شهوة البطن بالطعام الطيب والشراب الحلال وحينما شرع الصوم وهو تأديب بالجوع شرعه للقادر المستطيع وأباح لصاحب العذر كالمريض والمسافر والحامل والمرضع والشيخ الفانى أن يفطر ، ونظم شهوة الربح بالتجارة والزراعة والصناعة والاحتراف ، ونظم شهوة الاستطلاع بطلب العلم والاعتراف من أنهار المعرفة ، بل ونظم الإسلام شهوة الزهو والافتخار ، فلم يمنع المسلم من أن يفخر فى مواطن الحق والصدق ، وقد روى أن الرسول أمسك سيفاً وقال لصحابته : من يأخذ هذا بحقه ؟ . فقال صحابى : أنا يارسول الله ؛ فأعرض عنه ؛ ثم قام ثان فقال : أنا يارسول الله ؛ فأعرض عنه ، ثم قام ثالث فقال مثلما قال صاحباه فأعرض عنه ، ثم قام الصحابى الجليل أبو دجانة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ . حقه أن تقاتل به فى سبيل الله حتى تقتل أو يتكسر . فقال : أنا آخذه بحقه يا رسول الله . فأعطاه الرسول إياه ، فعلقه أبو دجانة فى وسطه ، ومشى به متبختراً مزهواً بين الصحابة ، فنظر إليه الرسول مبتسما وقال : إنها مشية يكرهها الله إلا فى مثل هذا الموطن يا أبا دجانة ! . . . وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن من الغيرة ما يحب الله ، ومن الغيرة ما يبغض الله ، وإن من الخيلاء ما يحب الله ، ومنها ما يبغض الله ، ، فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغض الله فالغيرة فى غير الريبة ، والخيلاء التى يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال ، واختياله عند الصدقة ، والخيلاء التى يبغض الله فاختيال الرجل فى الفخر والبغى » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

هذا هو الإسلام الذى أنعم الله به أولا على العرب ، فجمعهم بعد شتات ، ووحد صفوفهم بعد فرقة ، وصنع بهم الأعاجيب ، وخلق على أيديهم وهم الأقلاء الضعفاء عالماً جديداً يفيض بالخير والنور والجمال ، وجدد بهم شباب

الزمان فعاد ناضراً باهراً له قيمته ومعناه ، ولا يزال الإسلام العالمى الخالد صالحاً لكى يجمع ويوحد ويصنع بالحكمة والموعظة الحسنة ومحتاجا إلى قوم يدرسونه على بصيرة ، ثم يفهمونه عن تذوق ، ثم يعتقدونه بيقين ، ثم يلتزمونه فى أنفسهم على مكث ، ثم يحملون الناس عليه بالحكمة والموعظة ، وان يرد الله بنا خيراً اليوم أو غداً يجعلنا من طلائع هؤلاء ، ويدفعنا إلى ساحة هذا الميدان : وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبلَ فتفرقَ بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقونَ » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن اللهَ مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الاسلام والصدقة

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أبدع الكائنات بقدرته ، وسوى أمور الخلائق بحكمته ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، الحق كتابه ، والعدل بابه ، وهو أحكم الحاكمين ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، ربى فأحسن التربية ، وعلم فأتقن التعليم ، فكان إمام الأنبياء وقائد الحكماء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله : « فأولئك تحروا رشداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

« إن الرائد لا يكذب أهله » . هكذا حدثتنا السنة النبوية المطهرة ، ومن يخطب الناس كل جمعة لا بد له أن يكون صادقاً معهم ، لا يكذبهم ولا يخدعهم وجرياً على هذا السنن أذكر أن أحد الإخوة المصلين الفضلاء لقينى منذ أيام ، وقال لى : لقد أكثرت من أحاديث الفداء والوفاء ، والكلام عن الشهادة والشهداء ، وقد مل الناس هذا اللون من الكلام ، فهلا غيرت ونوعت ؟ . وقد شكرت له قوله ، ووعدته أن أفعل ، ومع ما أحسسته حينئذ وبعدئذ من دواعى الشجى ولواذع الأسى ، قلت فى نفسى : جرب ولو إلى حين ، وإذا لم يكن لك قومك كما تريد . فكن لهم كما يريدون ، وفوق تدبيرنا لله تدبير . ثم لا أدرى كيف خطر ببالى قول سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرة سوى » . فقلت لنفسى : فليكن هذا الحديث العظيم موضوعاً لخطبة .

القيت يوم الجمعة ٢٤ من شوال سنة ١٣٩٢ الموافق اول ديسمبر سنة ١٩٧٢

إن كلمة «لا تحل» فى الحديث تذكرنا بالحلال وهو ضد الحرام . وقد دعا القرآن أبناءه إلى إيثار الحلال وترك الحرام ، فذكر أن النبى (ص) قد جاء لكى «يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث» وقال التنزيل : «يا أيها الناسُ كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطواتِ الشيطانِ إنه لكمْ عدوٌ مبينٌ» وقال : «كلوُا من طيباتِ ما رزقناكمْ ولا تطغوُا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقدْ هوىَ» ، ولقد أصبح الحلال غريباً بين أدعياء الإسلام ، وكأنهم نسوا قول المصطفى : «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به» . وكلمة «الصدقة» يراد بها الزكاة ، سواء أكانت مفروضة واجبة ، أم كانت تطوعا مسنونة ، ولقد قال النبى لمعاذ : «أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم» . وكذلك قال القرآن المجيد : «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى» . ولقد انحرف معنى «الصدقة» فى تصور كثير من الناس ، فحسبوها مقصورة على تلك القروش القليلة أو المساعدات الضئيلة التى تقدم لمن يمدون أيديهم للسؤال والاستجداء ، مع أن كلمة «الصدقة» مشتقة من مادة «الصدق» فكان إخراج الزكاة تدليل على صدق الإنسان فى إيمانه وإحسانه ، ومن هنا جاءت كلمة «الصديق» ، فليس «الصديق» كما يفهم الكثير هو من يكثر ترديد التصديق بلسانه فحسب ، وانما هو من يقرن التصديق بالتطبيق ، والكلام بالالتزام ، والقول بالعمل ، فالصديق هو كثير الاستجابة الفعلية للخير ، وهو الذى تكثر منه الشواهد الواقعية والدلائل الملموسة على أنه صادق فى إيمانه وطاعته ، ولذلك قال البصراء من العلماء إن الصديق هو الذى يصدق قوله بالعمل .

وكلمة «لغنى» تذكرنا بالغنى ، وكثير من العامة يحسبون أن الإسلام ينظر بعين الكراهية والمقت إلى الغنى وأهله ، مع أن الغنى فى حد ذاته

قد صار حملا ، وأن الثائر الأحمر قد أصبح ملاكاً ، وأن الذى استبد بملايين كثيرة من المسلمين فاحتل ديارهم وسامهم الخسف والهوان قد أعطى هؤلاء حرياتهم وجعلهم يتقلبون فى جنات وفراديس ، ثم شاءت عناية الله ودقيق صنعه لدينه وعباده أن تلقى الشيوعية قناعها وتبدأ مع العروبة والإسلام صراعها فإذا الاحتلال الشيوعى يبدأ زحفه ، وإذا الإلحاد المادى يكشف عن حقيقته وإذا القرآن والدين والعلماء والأخلاق والحريات تتعرض لما تتعرض له على أيدى الشيوعية ودعاتها والمخدوعين بها ، وهنا أدركت الأمة أنه لا بد لها من التكتل ضد هذا الخطر القديم الجديد ؛ واستبان للناس أن هذا الخطر لا يقاومه ولا يقضى عليه سوى الدين والإيمان بالله والاعتصام بالعقيدة التى تصل أسباب الإنسان بقيوم السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . . .

ومن عجيب صنع الله لدينه وقرآنه أنه قد صرح بضرورة الرجوع إلى الدين الذين كانوا يؤمنون به والذين كانوا يعرضون عنه أو يسخرون منه ، ورأينا الجميع — إما بطريق الإيمان أو بطريق المتابعة والمداهنة ، أو بطريق الخوف والرهبة — ينادون بالرجوع إلى الله ، والاعتصام بالدين ، والمسارعة إلى التعبئة الروحية لتقف فى وجه هذا الطوفان الشيوعى الإلحادى المادى ، وأقيمت لذلك مؤتمرات وندوات وهذا رجل يذيع عنه الناس أنه معروف بجرأته على الدين ومناهضته لرجاله ، يقف بين الجموع فيمجد الدين ويطالب بالرجوع إليه ، ويرفع شأن العقيدة ، ويظهر ألمه البليغ من التطاول على القرآن ، ويقرر على مسمع من الناس أن الدين هو المقوم الأكبر للقومية ، وأن الإيمان بالله واليوم الآخر هو عماد الأمة وسنادها ، حتى عجب الكثيرون عندما سمعوه ، وقال البعض : إن كان هذا عن إيمان ويقين فلعلها رجعة أقبلت أو توبة جاءت . وإن كان يصانع ويداور فيالقسوة الحكم على الإنسان إذا الريح مالت مال حيث تميل ! . .

ثم جاءت فى ختام الحديث كلمة « سوى » ومعناها الشخص المستوى الخلقة الذى لم يعرض له نقص حسى ، ولا عاهة مستمرة ، كخلف البصر والعرج والمرض الدائم ونحو ذلك ، عند هذه الكلمة ينبغى أن نفهم أمرين : أولهما أن الإسلام يحبب الإنسان فى احتفاظه بصحته وأعضائه سليمة قويمة . حتى تكون أداة للعمل والكسب والإنتاج ، والآخر أن الإسلام يعنى برعاية أصحاب النقص الحسى والعاهات البدنية التى تحول بينهم وبين سهولة الحصول على مطالب العيش وحاجات الحياة ، ولذلك نظر القرآن إلى هؤلاء نظرة العطف والمعاونة ، فقال : « ليس على الأعمى حرجٌ ، ولا على الأعرجِ حرجٌ، ولا على المريضِ حرجٌ » ونظر إليهم كذلك نظرة التقدير والصيانة ، وحسبنا فى ذلك أن نسمع قول خالقنا جل جلاله : « عبسَ وتولىَ، أن جاءه الأعمى ، وما يدرك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدّى ، وما عليك الا يزكى ، وأما من جاءكَ يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهىّ ، كلا إنها تذكره » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، هكذا تحدث رسولكم حديثاً وجيزاً ومختصراً : « لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرة سوى » . ولكن التدبر فى هذا النص الوجيز يثير فى الأذهان كثيراً من الخواطر والعبر ، وإذا كان أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، فإن خير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم القائل : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً ، كتاب الله وسنتى » .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الاسلام وروابط المجتمع

الحمد لله عز وجــل ، هو رحمن الدنيا والآخــرة ، وقيوم ، السموات والأرض ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة ومصدر الرحمة : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، القائل له ربه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وأنصاره وأهل صحبته ، والقائمين بأمر دعوته ، «ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

لقد جاء الإسلام ليوثق علاقة المؤمن بالمؤمن على أكرم أساس ، وفى ضوء أطهر نبراس ، ومن أجل هذا أقام مجتمعه على أساس « الأسرة » باعتبار أنها اللبنة المتينة الحصينة التى تجعل روابط هذا المجتمع عميقة وثيقة، لأن الأسرة تتكون من شريكين يرتبطان بعقد توثقه كلمة الله ، ثم تكون للزوجين حياة مشتركة ، وعواطف متجاوبة ، ثم تكون لهما ذرية تزيد روابط الأسرة وثاقة وعمقاً ، ولم يجعل الإسلام معنى « الأسرة » مقصوراً على حياة هذين الشريكين وبيتهما ، ، بل علم أبناءه أن ينظروا إلى الحى أو القرية أو المدينة على أنها « أسرة » أكبر نوعاً ما من أسرة البيت ، وأن ينظروا إلى أمتهم المؤمنة على أنها الأسرة الكبيرة الواسعة النطاق إنما المؤمنون أخوة وأن الإنسانية أو البشرية هى الأسرة الكبرى التى تنتهى إليها غاية الإنسان وعزيمته بعد أن يكون قد أدى ما عليه من واجبات وتبعات نحو ما يسبق هذه الأسرة

القيت فى يوم الجمعة ٢ من ذى القعدة سنة ١٣٨٤ الموافق ٥ مارس سـنة ١٩٦٥ م

الكبرى من أسر أخرى أضيق منها نطاقاً ، وهى بحكم ضيق نطاقها ، وبحكم قربها من صاحبها أولى بالتقديم والعناية والاهتمام ، ولذلك قال رسول الإسلام : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ، ثم قرر أن الأقربين أولى بالمعروف ، ثم أوصى بالجار القريب والجار البعيد ، ثم قرر أن المؤمنين أخوة ثم قرر أخيراً أن خير الناس أنفعهم للناس .

ولتوثيق الروابط الإنسانية بين الأفراد شرع الإسلام نظام « الميراث » الذى يحفظ كيان الأسرة ويدعمه ، ويوثق الروابط بين الأقرباء وشرع نظام النفقة » بين الأصول والفروع أو بين الأقارب ليحقق التكافل بين هؤلاء وهؤلاء ، وشرع نظام « الحضانة » الذى يصون الطفولة من التشرد والضياع ، وشرع نظام « الوصاية » على القاصر ، لكى يتصرف الوصى الرشيد بدله تصرفاً سليماً حكيماً يؤدى إلى خير القاصر وحفظ ممتلكاته وتثمير أمواله ، فإذا كبر القاصر أدرك أن سابقيه قد صنعوا معه الجميل فيقابلهم بمثله « هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان » ، وشرع نظام الحجر على السفيه الذى لا يحسن التصرف حتى لا يبدد ماله ولا يضيع ثروته ، وهناك نظام « الكفالة لليتيم » و « الكفالة للقيط » و « الضيافة للغريب » و « الإرشاد للضال » ، وكل هذه نظم اراد الإسلام بها أن يعمق الصلات بين الفرد والفرد ، وأن يقيم العلاقات بين أبناء الأمة على أسس من الأخوة والمحبة والتعاون على البر والتقوى .

ولتوثيق هذه العلاقات شرع الإسلام آداباً وقواعد للمعاملة الاجتماعية الحميدة فى الأمور الكبيرة والأمور الصغيرة ، حتى شملت هذه الآداب النظرة واللفتة والكلمة والتحية وهيئة الحركة ، فالإسلام يحث المسلم مثلا على أن يحسن القول ويبذل التحية لمن يلقاه عرفه أم لم يعرفه حتى يشيع التعارف والتآلف ، فيقول سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » . ويحرضه على مصافحة معارفه

حتى يتأكد الود بينه وبينهم ، وتزول عنهم ما قد يكون غائماً فى أفق صلاتهم وروابطهم ، ولذلك يقول الحديث : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا » . ويحرضه على أن يتذكر دائماً أنه ليس وحده فى بيئته ومجاله ، بل هناك من قد يكون أحق بسبقه فى ركوب أو نزول أو مسير أو تناول شىء من الأشياء ، إلى غير ذلك من الأوضاع . وها هوذا القرآن يعلم أهله مثلا أن يوسعوا فى المجلس أو يخلوا مكاناً فيه لمن يستحق التوسعة أو النهوض ، فيقول : « يا أيها الذين آمنوُا إذا قيلَ لكم تفسحوا فى المجالس (أى توسعوا فيها) فافسحوا يفسح اللهُ لكم ، وإذا قيل لكم انشزوُا (أى انهضوا) فانشزوُا ، يرفع اللهُ الذينَ آمنوا منكم والذين أوتوا العلمَ درجاتٍ ، والله بما تعملون خبير » .

والحديث النبوى يعلمنا فى هذا المجال أن نكرم الشيخ الطاعن فى السن ، والمرأة العجوز أو الحامل ، والضعيف مهما يكن ، فيقول : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » أى عند شيخوخته ، وفى رواية : « من أكرم ذا شيبة سخر الله له من يكرمه عند شيبته » ويقول الحديث : « الضعيف أمير الركب » ويقول الحديث: « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر » . ويعمم الرسول الحث على الرحمة والرفق بالضعفاء وتقديم من يستحق التقديم فيقول : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ، ويوسع الإسلام باب الإحسان فى المعاملة وييسر أسبابه ، فنجد الرسول صلوات الله وسلامه عليه يخبرنا بأن الكلمة الطيبة صدقة ، وأن التبسم فى وجه الإنسان صدقة ، وأن الإرشاد إلى الطريق صدقة ، وأن إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، وأن إعطاء القليل من الماء صدقة ؛ وكأن الإسلام بهذا يريد

أن تتحلى كل ألوان المساعدات للناس بحلية إلهية ربانية تؤدى إلى جمالها وبهائها فى الدنيا ، وإلى حسن الثواب عليها فى الآخرة .

ومن حرص الإسلام العظيم على توثيق الروابط الكريمة بين الناس أنه دعا إلى معاونة الإنسان غيره للاستقامة فى السلوك والتحلى بالمكارم ، وذلك عن طريق النصح الرقيق والتوجيه الرفيق ، ومن هنا قال سيد البشرية محمد عليه الصلاة والسلام : « الدين النصيحة وقال : « المؤمن مرآة المؤمن » وقال : « إن أحدكم مرآة أخيه ، فإن رأى به أذى فليمطه عنه » . ومن ألوان التعاون على هذه الاستقامة أن يحسن المرء الإغضاء عما يقع فيه صاحبه من هفوة أو خطأ ، فالحديث يقول : « من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة » ويقول : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » ويقول : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تتبعوا عورات الناس ، فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ففضحه ولو فى عقر بيته » . ولا يكتفى المسلم فى هذا الباب بالإغضاء عن الزلة ، أو العفو عن الخطأ ، بل هو لا يتيح الفرصة للمفسدين كى ينالوا الناس بالتجريح أو الافتراء ، فما أوسع باب الشر فى هذا المجال ، والحديث يقول : « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فليكن الإنسان منا فى هذه الحياة بحسن معاملته للناس ، وجميل سلوكه معهم — وردة تنفح غيرها بالشذا الطيب والعبير اللطيف ، فإذا رآها النـــاس شغفوا بها وحرصوا عليها ، وإن غابت عنهم تطلبوها وسعوا إليها ، « وإن الله لمع المحسنين » واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مؤامرات ضد الاسلام

الحمد لله عزّ وجل ، هو يمهل ولا يهمل ، ويحلم ولا يغفل : « ومكرُوا ومكرَ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين » ، « والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » ... نشهد أن لا إله إلا أنت ، كتبت العاقبة للمتقين ، وجعلت الخسار للفاسقين : « سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، بعثته بنور الإيمان وشرعة الإحسان : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله مصابيح الخير والرحمة ، وأصحابه الأعلام الأئمة ، وأتباعه الهداة للأمة : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولا ، وبالقرآن هادياً وإماماً ؛ لم يحملنا على ذلك إرغام ولا إكراه ، ولم يخامرنا فى ذلك ريب ولا اشتباه ، بل آمنا بأن هذا هو الدين القيم الذى يجب أن نحيابه وأن نلقى الله عليه ؛ ولذلك كان من حقنا — بل من واجبنا — أن نغار على هـذا الدين ، وأن نذود عنه سهام المفترين ، وأن نحذر فيه تضليل المخادعين . ولكن يظهر أن كثيراً من المنتسبين إلى الإسلام يفرطون فى حقوقهم كما ينسون واجباتهم ، فهم يرون المكائد السافرة المنظمة المتلاحقة المنصبة على هذا الدين ، وهم فى غمرة ساهون ! . . .

ألقيت فى يوم الجمعة ٢٣ من ذى القعدة سنة ١٣٧٦ هـ الموافق ٢١ من يونيه سنة ١٩٥٧ م

إن أعداء الدين الكبار والصغار يعملون بجد ومكر على تحوير هذا الدين ، وتسخيره للأهواء والرغبات ، وإخضاعه وهو هدى الله العلى الأعلى للحياة الدنيا ، بدل إخضاع هذه الحياة لتعاليم هذا الدين السمح الكريم ، وكلما راجت عندهم بدعة أو بلوى ، وراقت لشهواتهم ولذاتهم ذهبوا يغتصبون لها الفتوى من الدين فى شطط وتكلف ، ويتأولون فى الرخص ويتوسعون فيها ، ويأخذون بالآراء الشاذة والأقوال الباطلة والفتاوى الكاذبة أو المتهالكة ضعفاً لا لضرورة ملحة ولا لمصلحة عامة لازمة ، بل لأن الهوى يريد ، ولأن الشهوة تتحكم ، ولأن الاجلال لحق الله تبارك وتعالى ينكمش فيهم ويتضاءل ، وهم يضحكون أهل الأرض حينما يستغلون نصوص الدين بعد تحريفها عن مواضعها استغلالا وقحاً دنيئاً فى تبرير وتسويغ منكراتهم ، وحينما يسخرون باقتدارهم المختلف الألوان بعض المنتسبين إلى الدين لكى يأتوهم — بالفتوى المصطنعة أو التسويغ الدينى المراد ، ومعنى هذا أنهم يريدون أن يجعلوا الدين تابعاً للهوى ، لا أن يجعلوا الهوى خاضعاً للدين ، مع أن الرسول صلوات الله عليه يقول : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » ؛ واتباع الهوى بهذه الصورة باب للكفران بالله « أرأيت من اتخذ إلهه هواه ؟ أفأنت تكون عليه وكيلا » ؟ « قل لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين » ! .

وترون أعداء الدين يقولون : « ليس فى الإسلام رجال دين » ، وهى كلمة حق فى ظاهرها يراد بها باطل خطير فى باطنها ، فهم يريدون من وراء ذلك أن يقولوا : « ليس هناك دين » ! . . نعم إن الإسلام لا يعرف طائفة خاصة لها سلطة روحية خاصة ، أو سيطرة دينية خاصة تعرف باسم « رجال الدين » على النحو المعروف فى بعض الديانات ، ولكن الدين بحاجة إلى رجال يدرسون مسائله ، ويفقهون تعاليمه ، ويبلغون للناس أحكامه ، وللاسلام علوم تحتاج إلى جهد وتفرغ ، فالتفسير والحديث والفقه والسيرة وآراء الدين فى

مشكلات الحياة ، كل هذه أمور عميقة واسعة تحتاج إلى صبر وعكوف ، والله سبحانه يوصينا بأن نسأل فى الدين من له خبرة به . « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، « الرحمن ، فاسأل به خبيراً » ، « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

ونحن نعيش فى عصر التخصص ، والناس ينادون بالتخصص فى كل نواحى الحياة ، ويحاربون اعتداء أى طائفة على اختصاص طائفة أخرى ، فالأطباء مثلا جماعة لا يزاول عملها من لم يتخصص فى الطب ، ولو باشر أحد من الناس عملا من أعمال الطبيب لتعرض للمحاكمة وناله العقاب ، وكذلك لا يجوز لغير المحامين أن يترافع فى القضايا ، ولا يغير الصيدليين أن يجهز دواء ، ولا لغير الضباط أن يلبس ملابس الضباط فضلا عن أن يباشر اختصاصهم ، فلماذا إذن لا يكون هناك متخصصون فى الفتيا والدراسات الدينية وإذا لم يكن فى الإسلام « رجال دين » بالمعنى الذى ذكرنا ، فلماذا لا يكون هناك فى الإسلام « علماء دين » ؟ ! . . هنا يقول لك الماكرون المخادعون من أعداء الله وأعداء ملته : لالا . . . إن الدين ليس احتكاراً لأحد ؛ ويبيحون لكل من هب ودب — من هب هبوب الذباب أو دب دبيب الخنفساء — أن يقول فى الدين بما يشاء ، وأن يكتب وينشر ويذيع أفكاراً وفتاوى دينية ما أنزل الله بها من سلطان ، وكلما حاول غيور أن يقف فى وجه هذا البلاء ثاروا ثورة الحمر الوحشية ، وتباكوا على حرية الرأى والفكر ، وهم فى الواقع يريدون ألا يكون هناك من يغار على حرمات الدين أو يدافع عنها ، حتى إذا لم توجد هذه الطائفة المناهضة لباطلهم المذكرة بحقوق ربهم ضاع الدين بين الجميع كما يحلمون ، ويقدرون فتضحك الأقدار : يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » ! ! . .

ومن أجل هذا الغرض الخطير الخبيث ترونهم يهاجمون الأزهر الشريف في كل مناسبة ، ويحملون على علمائه وأهله حملة شعواء بلا رفق أو استثناء ، ويهضمون حقوقهم ، ويفترون عليهم بالباطل ، ويعوقونهم عن أداء رسالتهم بشتى الوسائل ، ويسترون ذلك باسم الإصلاح والتجديد والتطور ، وهم فى الواقع يريدون أن يهدموا الحصن الأخير للاسلام ، وهو الأزهر الذى طاول القرون ، وعاش أكثر من ألف عام باسم الإسلام ، وانكمش فى فترات الظلمات والانحطاط على التراث الإسلامى والثقافة العربية فحفظ لنا هذا الميراث الروحى العلمى الضخم الجليل . . . الأزهر صاحب الفضل علينا وعلى الناس جميعاً ، والذى نعبى من ساحته مشاعر المسلمين وعواطفهم كلما ألمت بساحتنا ملمة ، والذى نعيش على حسابه وبفضل سمعته فى سائر بلاد الإسلام ، ومع ذلك يحاربه فينا محاربون ، ويحمل عليه حاملون ، ويزيد فى بلاياه وأسباب عجزه وتأخره عن أداء رسالته كثيرون ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ! ! . . .

وكأن هؤلاء لم يكفهم أن الطوفان المدنى الاجتماعى قد اكتسح فى طريقه كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم ، فتضاءلت وانكمشت وقاربت أن تودع ، وقد كان الطفل فى البيت المسلم يفتح أذنيه أول ما يفتحهما على القرآن ، ويحرك شفتيه أول ما يحركهما بحفظ سوره ، فالبيت المسلم حينئذ تتردد فيه الآيات كل صباح ، وكتاب الحى يتلقف الصبيان من أول الطريق ، فجاء أعداء الدين فلفتونا عن قرآن ربنا بقصصهم الداعرة وكتبهم الماجنة وصحفهم المتحللة ودعواتهم الإلحادية السافرة وثقافتهم الرقيعة المرقعة : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون» ؟! .

واستغل هؤلاء موضوع المرأة ، لعلمهم أن المرأة هى ذات الأثر والخطر . وأن المثل يقال عند كل حدث : فتش عن المرأة ؛ وتعللوا أولا بأنها مهضومة الحقوق مظلومة ، فقلنا : الإسلام يطالب بإنصافها ، وتعللوا بأن الرجل

يهينها ويحتقرها ، فقلنا : نبي الإسلام يكرمها ويقول النساء شقائق الرجال ، وتعللوا بأنها جاهلة ، فقلنا : الإسلام يوجب عليها العلم بما يجب العلم به . . . ثم استغل الشياطين الماكرون موضوعها بعد ذلك فى خبث عميق واسع ، فغرروا بالمرأة المسكينة ، ودفعوا بها إلى المعاطب والمهالك ؛ فلم تتعلم المرأة حقاً ولم تتهذب صدقا عن طريقهم إلا فى القليل النادر ، ولكنها فى الأعم الأغلب أطلقت ساقيها للريح — إلا من عصم الله وهن قليل — فتعرت المرأة باسم دعوة الحرية وتجردت ، ورقصت ودخنت ، وسكرت وعربدت ، وتناولت المخدرات وخادنت ، وتاجرت بجسمها وخانت ، وأسرفت فى تحررها وتبجحت ، فلم يثق بها الرجل ، ولم يسعد بها البيت ، ولم يصلح بها المجتمع ، ولم تسعد المرأة نفسها بذلك الانطلاق الجارف ، بل شقيت جزاء ما أسرفت ، ولم يكن هذا الاستغلال للمرأة من أعداء الدين إلا نوعاً خبيثاً من الهدم لتعاليم ذلك الدين ونظمه ، لأن المرأة المتهدمة الأخلاق والفضيلة هى ألعوبة الشيطان الخطيرة . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، يا أبناء الإسلام ، يا رواد المساجد وألاف المعابد ، يا بقايا الخير فى حنايا المجتمع الصاخب . . .

ماذا يراد بالإسلام من وراء هذه الفتن المتلاحقة التى تصب عليه صباً كأنها قطع الليل المظلم ؟ . . . وكيف تتفق هذه المحاربة السافرة الفاجرة للاسلام مع أن المجتمع مسلم يؤمن أبناؤه بدينهم ، ويقررون أن عقيدتهم أغلى شىء عندهم ، وأن من يحاربها يكون خارجاً على هذا المجتمع ، ومتمرداً فى وجه نظمه الأساسية ؟ . . اللهم إنه لم يبق إلا أن نتواصى بالصبر ، وأن نقف بجانب الخير ولو قل ، وأن نأخذ الطريق على الشر ولو كثر : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الاسلام والحركة الكشفية

الحمد لله عز وجل ، بديع السموات والأرض ، خلق الخلق وأجرى الرزق ، وهو خير الرازقين ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أمر بالحق والعدل والخير والاستقامة : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا إنه بما تعلمون بصير » . وأشهد أن سيدنا محمد رسول الله ، إمام المربين وقائد المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

تلقيت منذ أيام رسالة من نائب وزير التربية والتعليم يقول فيها إنه حضر معسكرا كشفياً جامعا ، وإن الحديث دار فيه عن نشأة نظام الكشافة ، وقد وجدت هناك فكرة شائعة عند الكثيرين وهى أن الأوربيين هم أصحاب الفضل فى ابتكار هذا النظام ، ودعانى إلى بحث هذا الموضوع لتبيان الحق فيه ؛ وإن أصدق عبارة تردد هنا هى قول القرآن : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .
فإذا كان نظام الكشافة يراد منه تعويد الناشئة مصادقة الطبيعة فإن أجدادنا قد عرفوا هذه الصداقة بعمقها واتصالها ، حيث عاشوا فى الجزيرة يسامرون مشاهد الكون من سماء وهواء ، ومن نجوم وسحب ، ومن أمطار ومياه ، ومن نبات وحيوان ؛ ولما أشرق الإسلام زكى هذه الصداقة ، فاعتبر الطبيعة كتاباً منظوراً لله تعالى بجوار كتابه المقروء وهو القرآن ، وقال حجة الإسلام الغزالى عن الطبيعة إنها « الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الموجودات »

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢٨ اغسطس سنة ١٩٦٤ م

وقال محيي الدين بن عربي إنها « المصحف الكبير الذى تلاه الحق علينا تلاوة حال كما أن القرآن تلاوة مقال » . واتسع صدر القرآن للحديث حديثاً واسعاً عن الأرض والسماء والليل والنهار ، والنجوم والكواكب ، والرياح والأمطار ، وغير ذلك من آيات الله فى الكون ، وأشار إلى أن هذه الآيات هى المفتاح الموصل إلى معرفة الإله المبدع ، لأن الخلق يدل على الخالق ، ولأن الصنعة تشير إلى الصانع :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد !

وينص قانون هذا النظام على أن الكشاف يجب أن يكون نافعاً للناس وأن يعين غيره ، وهذا توجيه منقول بنصه وفصه من مبادئنا الإسلامية ، فالقرآن الكريم يقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » ويقول : « وتعاونوا على البر والتقوى » وكرر القرآن كلمة « وعملوا الصالحات » أكثر من ستين مرة ، وهو يجعلها وصفاً للمؤمنين ، وليس العمل الصالح مقصوراً على الصلاة والصوم والزكاة والحج فقط ، بل يشمل العمل الصالح أيضاً كل سعى مشكور يقوم به الإنسان فى هذه الحياة بنية طاهرة وإرادة كريمة ، لينفع به فرداً أو جماعة ، أو ليحقق به خيراً فى وجه من وجوه الحياة ؛ ويقول النبى : « الناس بخير ما تعاونوا » . ويقول : « خير الناس أنفعهم للناس » .

وينص هذا النظام على أن متبعه ينبغى له أن يكون رفيقاً بالحيوان ، والإسلام قد أرشدنا منذ بزغ فجره إلى الحرص على الرفق بالحيوان ، وقد قص علينا رسول الله أن امرأة دخلت النار فى هرة حبستها ، فلا هى أطعمتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » كما أخبرنا أن الله تعالى قد غفر لرجل مذنب بسبب أنه كان فى الصحراء ، ورأى كلباً استبد به العطش ،

فنزل الرجل بئراً ، وملأ خفه بالماء وسقى الكلب . وقال الرسول : « اتقوا الله فى هذه البهائم ، فأركبوها صالحة ، وكلوها صالحة » . وأمرنا الإسلام بالرفق بالحيوان حتى فى وقت ذبحه ، فكان من أدبه أن الإنسان ينبغى له ألا يقسو على الحيوان حينئذ، بل يريحه فى ضجعته ، ولا يحد السكين على مرأى منه ، ولا يطيل فى عملية الذبح ، حتى لا يطيل الألم على الحيوان ، وقال الحديث الشريف : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم (قصاصاً) فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » . ولقد رأى عمر بن الخطاب رجلا يقسو على شاة وهو يقودها ليذبحها ، فنهره وقال له : « ويلك ، قدها قوداً جميلا » . وهذا خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان عنده غلام يشتغل على بغل له ، كان الغلام يأتيه كل يوم بدرهم ونصف درهم ، وذات يوم جاءه الغلام بثلاثة دراهم ، فقال عمر للغلام مستفسراً : ما بدا لك : ؟ قال الغلام : : لقد نفقت السوق (أى راجت) . فرد عمر قائلا : لا ، ولكنك أتعبت البغل ، أرحه ثلاثة أيام . كما أصدر عمر أمراً يحرم شد اللجام على الحيوان شداً يؤلمه . ويحرم استعمال المنخسة فى نخس الدواب ، ويحدد الوزن الذى يحمله الحيوان الذى يستخدم فى النقل فلا يزاد عليه .

وينص هذا النظام على أن الكشاف يطيع والديه ورئيسه ومعلمه ،والقرآن يقول : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » وقال للولد المختلف مع والده : « أنت ومالك لأبيك » ومن مبادىء الإسلام الواضحة أن طاعة الوالدين من طاعة الله . وفيما يتعلق بطاعة ولى الأمر نجد القرآن يقول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ويقول الرسول : « اسمعوا وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » . وأما طاعة المعلم فقد ورثنا منذ القدم ذلك القول المأثور الذى أراد أن يبالغ

فى التنويه بمكانة المعلم فقال : « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » . والقرآن يقول على لسان موسى حينما ذهب ليتعلم من العبد الصالح : « ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً » . وشاعرنا هو الذى قال :

قم للمعلم وفه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا

أرأيت أعظم أو أجل من الذى ... يبنى ، وينشىء أنفسا وعقولا

ويدعو هذا النظام أبناءه إلى الصبر والاحتمال وعدم الضيق بالشدائد ، والقرآن هو الذى يقول : « واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » ويقول : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . إن موقف التذكير لا يتسع للتفصيل أو التفسير ، ولكن حسبنا أن نؤمن بأن المبادىء والتعاليم التى ورثناها عن الإسلام وعن العروبة المؤمنة ، هى الرائد السابق على الطريق ، ومن واجبنا أن نتعرف إلى هذه المبادئ وأن نعود إليها ونستمد منها ، بدل أن نظل عالة على سوانا ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

حاجتنا الى الدين

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله عز وجل ، له الحكم وإليه ترجعون ، أشهد أن لا إله إلا الله ، منّ بالفضل ، وقضى بالعدل : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل نور ربه على الدوام ملاك أمره وعماد دهره ، فكان خير الهادين المهتدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وعترته ، وأصحابه وشيعته : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول الأثر الإسلامي الحكيم : إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، ومعنى هذا أن السلطان الحاكم يستطيع بما هيأ الله له من أسباب وقدرة يقول الكلمة الطيبة الهادية ، فيكون لها من الآثار النافعة ما ليس لغيرها من الكلمات تصدر عن سواه ، ويتصرف التصرف الموفق الجميل فيتابعه فيه الكثيرون هنا وهناك رغبة أو رهبة ، ولقد يظل بعض الناس يتكلم عن الخير والفضيلة والدين فيطيل الكلام ، ويتحدث فيشقق الحديث ، ثم يظل الأثر مع ذلك قليلا أو محدداً ، ولكن إذا تكلم السلطان أصغت الأسماع وتنبهت الأذهان ، وقالت الملايين : هذا هو الرجل الأول في الأمة يقول ، فلا يفوتنكم شيء مما يقول ، واحذروا أن تهملوا العمل بما يقول ، وإلا حملكم على طريق الخير حملا بما لديه من أسباب وطاقات ، ، وهكذا يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

القيت في يوم الجمعة ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٨ يوليه سنة ١٩٦٧ م

ونحن ينبغى لنا أو يجب علينا أن نتذكر هذا بمناسبة ما جاء خاصاً بالدين فى خطاب رئيس الجمهورية منذ أيام[1]، فقد تلألأت خلال هذا الخطاب التاريخى المشهود كلمات دينية ، فرحت الأمة بها وطربت لها ، وتمنت منها المزيد والمزيد ، وكأن القدر القادر أراد أن تأتى هذه الكلمات المشعة بترتيب ونظام ، فيأتى جزء منها فى الصدر ، وجزء فى الوسط ، وجزء عند الختام ، وأن يكون كل جزء منها تمهيداً لما بعده فجاء أولا فى الخطاب قوله : « لعل الله عز وجل أراد أن يضعنا موضع الامتحان ليرى : هل نستحق ما أنجزناه ، وهل نحن قادرون على حمايته ؟ وهل نملك شجاعة الصبر والثبات أمام المحنة ؟ . ولعل الله عز وجل أراده أيضاً درساً لنا ، يعلمنا ما لم نكن قد تعلمناه ، ويذكرنا ببعض ما يمكن أن نكون قد نسيناه ، ويطهر نفوسنا من شوائب لحقت بنا ، وعيوب يجب أن نتلافاها ونحن نبنى مجتمعنا الجديد ، ومهما تكن إرادته عز وجل ، فإننا نقبل امتحانه باعتباره قدرنا ، ونثق ثقة مطلقة فى أنه معنا يرعى جهادنا إذا خرجنا للجهاد ، وينصرنا إذا عقدنا العزم على النصر ، ويفتح طريق الحق أمامنا إذا استطعنا أن نضع أنفسنا على طريقه القويم » .

إن هذه نبرات دينية صوفية اجتماعية واعية لها دلالتها ولها قيمتها ، وفيها تفسير وتقليل لجانب مهم من جوانب ما نحن فيه ، وهذه النبرات يجب أن تذكرنا حق التذكير بالتمحيص الإلهى الذى ينال عباد الله من حين إلى حين لينبهوا أو يتذكروا ويحذروا ، والله جل جلاله يقول فى كتابه الكريم : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » ويقول : « ولنبلونكم بشىء

---

(١) يوم الأحد ٢٣ يوليه سنة ١٩٦٧ فى قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة للثورة ، وهو اول خطاب للرئيس يواجه به الجماهير بعد النكسة .

من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ، وما دام الدرس الصارم العصيب قد أقبل علينا فنبه حواسنا وأيقظ نفوسنا ، وذكرنا ما نسينا ، فيجب ألا يمر علينا دون أن نتدبره وأن ننتفع ونستفيد منه ، وفى طليعة ما يلزم أن نتعلمه من هذا الدرس المطهر الممحص هو أنه لابد لنا أولا وقبل كل شيء ومع كل شيء وبعد كل شيء أن نوثق علاقتنا الصافية الطاهرة الخالصة المخلصة بالله رب العالمين ، قيوم السموات والأرض ، رحمن الدنيا والآخرة . الذى بيده ملكوت كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، ولابد من أن تكون هذه العلاقة الوثيقة بيننا وبين الله جل جلاله علاقة تملأ القلب وتعمر العقل ، وتظهر عقيدة وقولا وعملا وخلقاً وتشريعاً فى حياة الفرد والأسرة والقرية والمدينة والمجتمع بكل قطاعاته ومستوياته ومنظماته وفئاته ، ولذلك عاد خطاب الرئيس فى وسطه يقول : « لابد من التمسك بقيم الدين والاعتصام بها » وهذه عبارة تفيد — مع وجازتها — معانى ضخمة لابد أن تتحول فى المجتمع إلى حقائق ثابتة ووقائع ماثلة ، لأننا بغير الدين لا نساوى شيئاً ، ولأننا بالدين والتدين الواعى البصير ، والإيمان العميق الوطيد ، واليقين الثابت العتيد ، نكون كل شيء : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وإذا كنا نحتاج إلى الدين فى أوقات السلام والهدوء ، ليكون رقيباً وحسيباً على الإنسان ، يذكره فى حركاته وسكناته وخطراته وجميع تصرفاته بأن من فوقه إلهاً سميعاً بصيراً قادراً قاهراً مسيطراً على عباده ، يعلم الجهر وما يخفى ، ويقول وهو أصدق القائلين : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ، وإذا كنا نحتاج إلى الدين فى سائر الأوقات ليعلم كل فرد مؤمن خشية الله فى اللقاء

والخلاء ، وفى الليل والنهار وليذكر كل فرد بقول الحق عز من قائل : « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » وقوله : « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير » . إذا كنا نحتاج إلى الدين فى الأوقات المعتادة ، فنحن أشد احتياجاً إلى الدين فى أوقات النضال والجهاد ، وفى فترات الشدائد والمصاعب ، لا ليكون لوناً من العزاء والسلوان فقط ، بل ليكون نوراً بين أيدينا يعصمنا من اليأس والقنوط : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ويدفعنا إلى البذل والتضحية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ويعلمنا الثبات فى الجهاد : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ويملؤنا رضى بما يساق إلينا من ابتلاء أو امتحان : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ويجعلنا نوقن بأن النهاية فى الجهاد الصادق المخلص كريمة مهما كانت العاقبة ، فإما نصر فيه عزة ، وإما شهادة من ورائها نعيم : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون » .

ومتى توافر لنا الإيمان والتمسك بالدين والاعتصام بمبادئه فقد حلت المشكلة واجتزنا العقبة ، وضمنا الفوز ، ولذلك حسن جداً أن يختم الرئيس خطابه بقوله : « أثق أننا بعون الله سوف نجتاز الطريق بصعابه ومشاقه ، وأثق أننا بعون الله سوف نتحرك على كل الطرق المفتوحة أمامنا » ، وسنصل نعم إننا سنصل ما دمنا نربط هذا بعون الله ، وما دمنا نعتصم بحبل الله ، وما دمنا نهتدى بهدى الله الذى يقودنا إلى طريق العزة والحرية والكرامة : « وإن جندنا لهم الغالبون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إنها كلمات استضاءت بنور الله عز وجل ، فكسبت من وراء ذلك قوة ومكانة ، وكلنا أمل ورجاء أن يكون من وراء هذا انطلاق عملي إيجابي ، تتحول فيه المبادىء والشعارات إلى حقائق وأعمال ، وأن يشارك كل فرد رجلا كان أو امرأة ، حاكماً كان أو محكوماً في التعاون على تمكين مبادىء الدين وتعاليمه في كل منحى من مناحي الحيـــاة : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

الدين والرحلة

الحمد لله عز وجل ، أمر بالسير والاعتبار ، ودعا إلى الكسب والإنتاج : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل دينه سبب الخير ومفتاح السعادة « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان نطقه ذكرا ، وصمته فكراً ، ونظره عبرا ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

انعقد فى الأسبوع الماضى مؤتمر للمعسكرات والرحلات ، ونحن أمة ذات تاريخ طويل فى الرحلة ، حتى نستطيع أن نقول إننا أمة من طبيعتها التنقل والارتحال ، وحين تقام المعسكرات والرحلات يجب أن نتخذها وسيلة من وسائل التربية والتقويم ، مع ما فيها من تسلية وترويح ، ولا شك أن التربية الدينية من أعمق ألوان التربية — إن لم تكن أعمقها كلها — فى التأثير والتوجيه ، ولذلك يلزم أن يكون للجانب الدينى نصيبه الملائم خلال هذه الرحلات والمعسكرات ، لأن الدين مهمل فيها ، أو هو على الأقل لا ينال حظه من الرعاية والاهتمام ، مع أن الفرد فى أثناء الرحلة أو المعسكر يكون أكثر استعداداً لتجدد المشاعر الدينية والروحية ، وذلك بسبب قربه حينئذ من مشاهد الطبيعة . لأن الرحلات والمعسكرات تكون عادة عند الشواطىء أو فى

ألقيت فى يوم الجمعة ٢١ شوال سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ٧ من أبريل سنة ١٩٦١ م

الحقول ، أو فى الصحراء وعند الجبال ، أو فى الأماكن الريفية والخلوية الأخرى ؛ والطبيعة هى كتاب الله المنظور ، الذى يؤدى القرب منه والتأمل فيه إلى تقوية عناصر الإيمان فى نفس الإنسان .

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدنا الحديث عن مشاهد الطبيعة يرد فى مواطن كثيرة متتابعة ، فقد تكرر حديثه عن السموات والأرض ، والنجوم والكواكب ، والبحار والأنهار ، والجبال والأودية ، والزروع والثمار ؛ والقرآن يربط غالباً بين الحديث عن مشاهد الطبيعة والحديث عن خلق الإنسان وتكوينه ، وبعثه بعد موته ، وواجبه نحو خالقه ، وتحذيره من الجمود والكفران ، وتحريضه على اليقين والإيمان ؛ ولذلك يجب انتهاز فرص القرب من مشاهد الطبيعة لتقوية النواحى الدينية والأخلاقية عن طريق التأمل والدراسة والتفكير .

والرحلة من جهة أخرى تثير فى الإنسان نزعة التحرر ، وبخاصة بين الشباب ، لأن الانتقال من البيئة المألوفة ، والابتعاد عن الأعين الملاحظة ، والشعور بالرغبة فى انتهاز الفرصة ، يغرى الكثيرين بالانطلاق أو الاندفاع ، وهذا التحرر إذا لم يكن له ضابط أو رابط يؤدى إلى لون من التحلل الموقوت أو الممدود ، ولذلك تجب الاستعانة بالعظات الدينية البصيرة ، والتوجيهات الأخلاقية الحكيمة ، والتحذير فى لباقة وبراعة من المزالق والمعاطب . ومن الواجب أن يقوم المشتركون فى المعسكرات والرحلات بشعائرهم الدينية وواجباتهم الإلهية ، لأن هذه الواجبات نظام وإيمان ، وقوة حسية ونفسية ، وسموللروح وتهذيب للانسان ، فيفتتحون يومهم بفريضة الصبح ، ثم يرتلون طائفة من الآيات القرآنية ، ثم يستمعون إلى حديث توجيهى ، ثم ينطلقون إلى أعمالهم الأخرى . وكثير من المرتحلين يضيقون بأداء الصلوات لأنها كما يقولون تتكرر خمس مرات كل يوم ، وتشغل الإنسان فى أثناء النهار ، ولكن هـــذا

الضيق يزول حين ننتفع خلال السفر بطريقة القصر والجمع فى الصلاة متى صلحت الرحلة للأخذ بهذه الطريقة من الناحية الشرعية .

وهناك أعمال فى الرحلة لها فائدتها الثقافية فى تكوين المعلومات عن الكون والطبيعة ، ولها صلتها بالناحية الدينية ، فهناك مثلا تحديد الجهات الأصلية لمعرفة القبلة ، ومراقبة الشروق والغروب لمعرفة وقتى الصبح والمغرب ، ومراقبة الشفق عند الفجر وعند العشاء لمعرفة وقتهما ، ومراقبة استواء الشمس لمعرفةوقت الظهر ، ومراقبة طول الظل لمعرفة وقت العصر ، فيجدر بنا فى هذه الأعمال أن نحسن الجمع بين أهدافها الثقافية وأهدافها الدينية ، ليزيد الارتباط بين الاهتداء فى مجالات الدنيا والاهتداء فى رحاب الدين ؛ ومن الواجب أن تكون هنـــاك بجوار ذلك دراسات لها اتصالها المزدوج بالدين والدنيا ، ومن أمثلة ذلك أن الرحلة سفر فيمكن أن ندرس عندها آداب السفر فى الإسلام ، والرحلة فيها اجتماع فيمكن دراسة هدى الدين فى الدعوة إلى الجماعة والوحدة ، والرحلة تحتاج إلى التعاون ، فلندرس عندها مبادىء التعاون فى الإسلام ، والرحلة صحبة فتناسبها دراسة آداب الصحبة فى الإسلام ، وهكذا .

والرحلة لابد لها من هدف ، ومن الخير أن نربط بين الهدف المادى والهدف الروحى ، ولو رجعنا إلى الدين لوجدناه يحرض على الرحلة تحريضاً قوياً ، ولكنه يجعل لها هدفاً نبيلا يفيد الإنسان فى عقله أو خلقه أو دينه ، فهناك الرحلة المشروعة لطلب العلم ، وهناك الرحلة للعبادة كالحج والجهاد والمرابطة على الثغور ، وهناك الرحلة لزيارة الأماكن المباركة ، ، وهنـــاك الرحلة لتأكيد روابط الأخوة والمحبة ، وهناك الرحلة لطلب التجارة والكسب فيجب التذكير الموصول بما للرحلة من أهداف مادية وروحية عالية ،

ويجب أن يكون لكل معسكر أو رحلة رائد دينى باعثاً للاشعاع الروحى والأخلاقى ، ويؤم المرتحلين فى الصلوات ، ويلقى عليهم أحاديث الصباح ،

ويخطبهم فى الجمع والمناسبات ، ويفتيهم فيما يعرض لهم من مشكلات ، ويحدثهم عن الآثار والأماكن والأشخاص الذين لهم تاريخ إسلامى أو صلات بالنواحى الروحية ؛ كما يجب أن يعنى المسئولون بتنظيم الرحلات والمعسكرات للشباب فى موسم الحج بصفة مستمرة ، لأن الحج رحلة ، وهو فى الوقت نفسه عبادة ؛ وفى رحلة الحج دراسة لجزء كبير من وطننا الإسلامى الكبير وهو منزل الوحى ، وفيها التقاء بين جموع ضخمة من أبناء العروبة والإسلام ، وفيها يستفيد الفرد فوائد متنوعة من التقائه بهذه الجموع الضخمة التى تمثل بيئات وثقافات متعددة ، وهى فى الوقت نفسه تخضع لإله فرد ، وتتجمع تحت لواء دعوة واحدة ، ونبى واحد ، وقبلة واحدة ، وكتاب واحد ، فهى أجدر الناس بتحقيق معانى الأخوة والترابط : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الشباب أمانة فى أيدينا ، فيجب أن نتقى الله فيها . ونحسن رعايتها وتخريجها ، حتى يكون الجيل الصاعد خيراً فى دينه وعقله وخلقه من الجيل النازل ، وإن لكم أبناء يشتركون فى المعسكرات والرحلات ، فلتحرصوا بكل أسلوب ممكن على المطالبة بتحقيق الأهداف الدينية والروحية فى هذه المعسكرات والرحلات ولقد وضعت هذه المقترحات الإصلاحية بين أيدى المسئولين فى المؤتمر ، ولكنها تكتسب قوة وتنال تطبيقاً يوم يشعر المسئولون أنكم حريصون على هذه الاتجاه ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الاسلام والمجتمع التعاونى

الحمد لله عز وجل ، خلق الخلق وأجرى الرزق : « وما بكم من نعمة فمن الله ، ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون » أشهد أن لا إله إلا الله ، علم عباده أنهم مستخلفون فيما يملكون ، وأنهم فائزون حين يتعاونون ويحسنون : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، عاش لأمته لا لذاته ، فلم تشغله فى دنياه رغبة ، ولم تخفه فى دعوته رهبة ، بل أخلص لله العمل والجهاد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطاهرين من آله وذريته ، والمخلصين من أنصاره وصحابته ، والأوفياء لدينه وسنته : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ») .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

من طبيعة هذه الحياة أن يتفاوت الناس فى المواهب والملكات ، والجهود والطاقات ، فمنهم قوى وضعيف ، وغنى وفقير ، وصحيح ومريض ،ومستطيع وعاجز ، ولكن هذه الفروق إذا تركت وشأنها فاتسعت وانفسحت ، ولم تحاول الأيدى المخلصة أن تخفف من حدتها أصبحت عوامل للهدم ووسائل للتحطيم ، فالواجب هو التقريب جهد الطاقة بين هؤلاء المتفاوتين عن طريق التفاهم والتراحم ، وبأسلوب التكافل والتعاون ، لأن الإنسان لا يمكنه أن يعيش منفرداً ، وهو مهما أوتى من قوة وميسرة ، سيحتاج فى أحيان كثيرة إلى غيره ، يعاونه فى حياته ، ويواسيه ، ويؤنسه فى وحشته ، ويشاركه سعادة الحياة ليكون لها طعم ومذاق . . . والإسلام يسعى لإقامة مجتمع تعاونى

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة أول جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ١٢ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

متكافل ، تسوده الأخوة والتضامن والمساواة ، ويعمل للتخلص من سيئات الاحتكار ، ورواسب الإقطاع ، وسيطرة رأس المال، وجشع الاستغلال ، حتى تتحقق لنا العدالة الاجتماعية التى يرتجيها لأمة مؤمنة بربها ، معتزة بحقها ، مسالمة لمن سالمها ، معادية لمن عاداها ، قائمة بين الناس بالعدل والقسطاس ، والباحث فى عالم الأحياء يجد أن التعاون غريزة فى أنواع مختلفة فيها ، فأسراب النمل تتعاون فى دأب وصبر على أعمالها المتعددة ومحاولاتها المتكررة ، وجماعات النحل تتعاون فى دقة وتنسيق على القيام بواجباتها وتنظيم بيوتها وتعمير خلاياها والطيور والحيوانات الأخرى نراها تسير جماعات جماعات ، وإذا عرض لها خطر تكتلت وواجهته مجتمعة ، لإدراكها بالغريزة أنها إذا تقسمت إلى أفراد هانت وذلت، وأصابها الخسار والبوار ، والإنسان هو سيد هذه الأحياء ، وأزكاها وأقواها . فيجب أن يكون تعاونه أوثق وأعمق ، لأنه خير من يدرك عقلياً وعملياً أن الجماعة خير من الفرقة ، وأن التعاون أجدى من النزعات الفردية والانعزالية الناشئة عن الأثرة وحب الذات ، وأنه :

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا ... وإذا افترقن تكسرت أحـــادا

وبهذا التعاون يتحقق التحرر الاقتصادى الذى هو أقوى الدعائم والحوافظ للتحرر السياسى ، وبالتعاون يكون الفرد للجماعة والجماعة للفرد، فيخدم الفرد جماعته بجهده وطاقته ، فيؤيدها ويمجدها ، وتخدم الجماعة فردها بحمايتها وحصانتها ، فتؤازره وتعضده ، وتلتئم العلاقة بين الطرفين على وجه كريم ، وتشيع بين أبناء الأمة جميعها عواطف التساند والمحبة والوئام . . .

وليس التعاون نظاماً وارداً إلينا من خارج بيئتنا ومبادئنا ، بل هو دعامة من دعائم عقيدتنا وديننا ، فالله جل جلاله يقول لنا فى كتابه : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » . أى تعاونوا على التوسع فى فعل الخير ، وعلى تجنب كل ما يضركم

فى الدين والدنيا ، ولا تعاونوا على سيئة من السيئات ، ولا على لون من ألوان الجور أو الظلم ، وهذا النص القرآنى شعار كريم رفيع للمجتمع التعاونى الفاضل الموصول الأسباب بأعظم معين وأكرم مستعان ، وهو الخالق الوهاب ، فإن الله جل جلاله قد أمرنا بالتعاون على الخير ومحاربة الشر ، وأوجب على الناس أن يعين بعضهم بعضاً فى ميادين الحق والخير والبر ، حتى يعيشوا فى هذه الحياة سعداء ، ويحققوا لأنفسهم معنى التقوى فيفوزوا برضا الله ولا يتعرضوا لغضبه ، فإنه شديد العقاب . . .

وقد زكى النبي عليه الصلاة والسلام منهاج التعاون بين العباد ، وتبادل المنافع بين الناس ، فقال من حديث له : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » . وقال : « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربه من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامه ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » . ومعنى هذا أن الإنسان إذا شارك بمجهوده فى تحقيق التعاون وتهيئة فرص الانتفاع للمحتاج إلى المساعدة ، فقد وعده ربه بأن يتكفل له بحاجته ومطالبه ، ويا له من تحريض على التعاون ، ومن تكريم للذين يعاونون الناس ، وقد أخبرنا النبي أن من شأن أمته وأتباعه أن يكونوا على أكمل صورة من صور التعاون وهى صورة الاتحاد المتين والتآلف الوثيق ، والتكتل الذى ينتظم الأفراد فى المظهر والمخبر ، والنفوس والحواس ، فكأنهم شيء واحد فيقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . ويقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وحينما تحدث الرسول عن سلسلة النبوات والرسالات اعتبرها حلقات من تاريخ التعاون السامى النبيل ، وحينما صور إخوته من المرسلين عرضهم فى صورة التعاون الصادق والتكافل الوثيق ، فكلهم قد جاءوا ليبينوا فى الحيـــاة

بناءاً مشتركاً هو بناء اليقين والإيمان ، ومحمد ليس إلا جزءاً متمماً لهذا البناء ، يقول : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله ، إلا موضع لبنة (أى طوبة) من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

فهل هذا إلا التعاون فى أجمل معانيه وأروع نواحيه ؟ ؟ وهل كان الإسلام الحنيف إلا دين التعاون الواسع النطاق بين العباد ، حتى وصف الحديث النبوى الشخص المعاون لغيره بأنه أفضل العباد فقال : « خير الناس أنفعهم للناس » .

وهذا هو ذو القرنين الذى يحدثنا عنه القرآن الكريم ، والذى مكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شىء سبباً ، نراه برغم قوته وعظمته لم يستغن عن التعاون ، فحينما سأله القوم أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا هتف فيهم بهتاف التعاون الذى تتم به جلائل الأعمال ومكارم الفعال فقال لهم : « فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . ما أشد بلاء المجتمعات البشرية بالأنانيين الانعزاليين أصحاب النزعات الفردية ، الذين يجمعون ولا يوزعون ، ويكنزون ولا يشبعون ، ويمتصون ولا يعملون ، وينتهزون الشدائد والضوائق فيتحكمون ولا يستحون ، (ويحتكرون أو يرابون) ، فهؤلاء ليسوا من الإيمان ولا من الإحسان فى شىء ولو شاء الله تعجل لهم العقاب ، فصنع بهم أضعاف ما يصنعونه بالناس من إعراض وإغفال ، وكأنهم ينسون أن أمامهم عقبة كؤدا يلاقونها بسبب ما تقترف أيديهم من استغلال واحتكار ، والرسول يقول : « أكثر الناس شبعاً فى الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة » . وما أسعدنا يوم يعمر دنيانا نظام التعاون الرحيم القويم ، الذى يدفعنا جميعاً إلى العمل والكسب والإنتاج ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

لا سلبية فى الاسلام

الحمد لله عز وجل ، هو القوى الذى يحب الأقوياء ، العزيز الذى يؤيد الشرفاء : « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يثيب على الطيبات والقربات ، ويعاقب على الخبائث والسيئات ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، كان المثل الأعلى فى الإيثار وحب الخير للناس ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « من يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

من الكلمات التى شاعت فى مجتمعنا المعاصر كلمتا « السلبية والإيجابية » ، وفى السلبية معنى السلب والانتهاب مع الانسحاب والانعزال ، وفى الإيجابية معنى الوجوب والالتزام و حمل النفس على أداء ما يجب أن يؤدى ، ففى السلبية أخذ وعجز ، وفى الإيجابية إعطاء وقوة . ويدور مفهوم السلبية الآن على عدم الاهتمام بشأن الغير ، وعلى التخلص من التبعات ، وإلقاء الأحمال بعيداً عن الذات على أكتاف هذا وذاك وذلك ، دون أن يفكر صاحب النزعة السلبية فى أن يتجاوب أو يشارك أو يعاون ، وهى صفة إن دلت على شىء فإنما تدل على ضعف النفس وخور العزيمة ، مع الأنانية وحب الذات ، وهذه الصفة إذا تمكنت من قوم تركتهم كأعجاز نخل منقعر ، إذ يغدون أشباحاً بلا أرواح ، وظلالا بلاعزائم ، ولن تنهض لمجتمع فاضل دعامة إن كان

القيت فى يوم الجمعة ١٨ من ربيع الآخر سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٦ من سبتمبر سنة ١٩٦٣ م

أبناؤه على هذا الخلق الذميم ، والإسلام العظيم قد علم أبناءه أن يحققوا ذواتهم ، وأن يعبروا عن هممهم ، وأن يشاركوا بعزائمهم ، وأن ينهضوا بكل ما يمكنهم النهوض به من تبعات وواجبات ، ضاقت بهم تلك التبعات أم اتسعت ، خصت هذه الواجبات أم عمت ؛ وحينما صور الحديث النبوى أتباع محمد عليه الصلاة والسلام بأنهم كالبنيان المرصوص ، وأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، أراد أن يعلمهم حقيقة الإيجابية ، وأن يبعد عن حماهم قتام السلبية ، فكل منهم راع ومرعى ، وكل منهم ناصح ومنصوح ، وكل منهم معين ومعان ، وكل منهم يسهم بما يستطيع ليكون الجميل من أهل النجاح والفلاح : فهم « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وهذا هو معلم الإنسانية وسيد البشرية محمد يعطى أتباعه الدرس البليغ فى مقاومة السلبية فيقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » ومن اهتم بأمر أمته بحث شئونها ، وعرف آمالها وآلامها ، وسعى فى جلب الخير لها ، ، وأسهم فى دفع الشر عنها ، ويعود الرسول إلى تدريب أتباعه على الإيجابية ومقاومة السلبية ، عن طريق تقديم الوجوه الكثيرة من الخير والنفع والمعاونة لكل محتاج ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » وهذا الهدى النبوى الكريم مستمدمن النبع القرآنى الصافى الذى يحرض على الإيجابية فى ميادين الخير ويدعو إلى مقاومة السلبية المؤذية المخربة ، وذلك حيث يقول القرآن الكريم : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

وإذا كانت الإيجابية العملية تتمثل فى فعل الطيبات والخيرات ، فإنها أيضاً تتمثل فى مقاومة الشر والآفات ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وحذر الرسول من ترك الشر يستفحل استفحال الداء العضال ، لئلا يؤدى ذلك إلى دمار الجميع ، فقال : « إذا رأى الناس الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » . وكما حارب الإسلام السلبية فى مجال العمل حاربها فى مجال القول ، فحث على الجهر بالكلمة الطيبة والقول النافع الذى يشارك به صاحبه فى التوجيه والإرشاد ، فقال القرآن : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقال النبي وما أبلغ ما قال : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » .

وهناك صنف من الناس لا عقل لهم ولا رشاد ، فهم يتبعون كل ناعق ، ويؤمنون على كلام كل ناطق ، ولا نجد لهم رأياً ولا فكراً ولا استقلال شخصية ، وهذه المتابعة العمياء لون صارخ من ألوان السلبية وضياع الشخصية وقد حارب الرسول هذا التميع أشد المحاربة ، فقال : « لا يكن أحدكم إمعة ، يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

وحتى السلبية فى التفكير حاربها الإسلام ، فالقاعدة الإسلامية تقول إن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ، وهذا تحريض على الاجتهاد أى تحريض ، والاجتهاد هو بذل الجهد فى سبيل الوصول إلى الحق ؛ وهذا هو معاذ بن جبل رضى الله عنه يعطينا مثلا للايجابية الصالحة فى التفكير والاجتهاد حينما يبعثه الرسول إلى اليمن ، ويسأله كيف يقضى بين الناس ، فيجيبه بأنه سيتبع القرآن والحديث ، فإذا لم يجد

الحكم منصوصاً عليه فيهما ، فإنه سيجتهد برأيه ، فيفرح النبي لذلك ويقول : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ، لما يحبه رسول رسول الله ولقد كان المثل الأعلى فى محاربة السلبية وتحقيق الإيجابية ، فهو لا يدخر وسعاً فى معاونة الناس ، وحل مشكلاتهم ، والنهوض بتبعاتهم ، وهو يحمل نفسه ما لا تحمله نفس أخرى فى هذا المجال ، ولقد جاءه رجل يسأله ، فقال له النبى : ما عندى شىء ، ولكن ابتع على (أى اشتر على حسابى) فإذا جاءنا شىء قضيناه ، وكان عمر بن الخطاب حاضراً فقال : يا رسـول الله ، ما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره النبى ، وهنا قال أحد الحاضرين : يا رسول الله ، أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا ، فظهر البشر فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : بهذا أمرت .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : فى ظلال هذه المبادىء الإسلامية الرائعة تربى رجال كلهم عزم وإقدام ، وحرص على الإيجابية ، ونفور من السلبية ، فليحاول كل منا أن يستجيب لنداء الإسلام فيكون محققاً لذاته مكرماً لشخصيته مقوياً لعزيمته مشاركاً بفكرته وكلمته ومعاونته حينما استطاع أن يصلح أو يعين ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل .

البيعة فى الاسلام

الحمد لله عز وجل ، خلق فأبدع الخلق ، ورزق فأوسع الرزق ، وحكم فجاء بالحق ، وهو أحكم الحاكمين ، أشهد أن لا إله إلا الله اتصف بالوفاء ودعا إليه : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون » وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ، خير من عاهد فصدق ، ووعد فأوفى ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : (١)

من مظاهر النظام وشواهد الأحكام فى شرعة الإسلام أنه جعل لكل جماعة من الأمة راعياً يرعاها ، فالأسرة جعل لها الرجل ينهض بتبعاتها ،ويقوم على شئونها ، والجند أقام لهم قائداً يوجههم ويسوسهم ، والأمة جعل لها والياً أو خليفة يسهر على راحتها ويستمسك بعزتها ولقد ذكر الرسول ألواناً من الرعاية ثم قال : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » ، ولما كانت الولاية على الأمة أخطر المناصب فى المجتمع شرع الإسلام لها نظام «الخلافة » القائمة على الاستخلاف والتوكيل ، والهادفة إلى الاهتداء بالدين الحنيف ، ورد القوى عن الضعيف ، ودفع العدوان عن الإسلام والمسلمين ورعاية الحقوق والواجبات بالأمانة والعدل وجعلها لا تنعقد إلا بإرادة الأمة ، ، ولا تجوز فيها الوراثة أو الإرغام ، بل هى بيعة تتم بالرضى والاختيار ، لأن أمر المؤمنين قائم على التشاور والتناصح ، لا على الاستبداد والتسلط ، والله

---

(١) القيت فى يوم الجمعة ٩ من ذى القعدة سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ١٢ من مارس سنة ١٩٦٥ م

تعالى يقول : « وشاورهم فى الأمر » ويقول : « وأمرهم شورى بينهم » ، وشاعر الإسلام شوقى يقول :

والدين يسر ، والخلافة بيعـــة   والأمر شورى والحقوق قضاء

وهذه البيعة اللازمة للولاية معناها إعطاء العهد الاختيارى على السمع والطاعة . لولى الأمر المهتدى بهدى الله القائم بأحكامه ، ومن ثم تصبح طاعته استجابة لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم حيث يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . ويلزم المؤمن حينئذ أن يكون صدوقاً فى بيعته ، وفياً فى معاهدته ، دائماً على طاعته ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بها فلا سمع ولا طاعة ، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والمثل الأعلى للبيعة فى الإسلام هى البيعة التى بايعها الصحابة رضوان الله عليهم لرسول الله صلوات الله عليه عند شجرة الرضوان فى غزوة الحديبية ، وهى التى عطر التنزيل المجيد ذكرها وخبرها حين قال : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » وحين قال : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .

وكما بايع المؤمنون رسولهم بايعوا خلفاءه الراشدين من بعده ، وقدّر هؤلاء الأعلام عظم التبعة التى ألقيت على عواتقهم حين أفضت إليهم الخلافة فقال أولهم وهو الصديق أبو بكر يوم تولى الخلافة . « أيها الناس ، إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، ألا وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ألا وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه » . ونحن نرى الفاروق عمر يسأل وقد تولى

الخلافة : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه ، فأنت ملك غير خليفة . فبكى عمر ، والتزم العدل قدر طاقته ، وأخذ يقول : من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومه » فيقول له قائل المسلمين : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا يا عمر . فلا يبتئس الخليفة العظيم بذلك ولا يحزن، بل يقول : الحمد لله الذى جعل فى الأمة من يقوم اعوجاج عمر بالسيف ! . ولقد ذكر أهل البصر بالإسلام أن من شأن الوالى أو الخليفة أو الإمام أن يكون من أهل النجدة ويراد بها القوة وإعداد العدة لرد العدوان وصد البغى ، وأن يتصف بالكفاية ، ويراد بها الاهتداء إلى وجوه الإصلاح والاقتدار على التصرف فى معضلات الأمور ، وأن يتصف بالتعفف عن الجشع واستغلال المنصب لبناء الدور والقصور ، أو جمع الأموال والكنوز ، والانطلاق فى طوفان الشهوات والملذات ، وأن يتصف بالخبرة والبصر بما يجوز وما لا يجوز ، والدراية بما يحل وما يحرم ، وبهذه الصفات وما تستتبعه كفاية وعدل يصبح الإمام أهلا للقيادة ومستحقاً للسمع والطاعة وجديراً بالمحبة والإخلاص ، لأنه حينئذ يدخل فى مفهوم قول الرسول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم (أى تدعون لهم) ويصلون عليكم » . فمتى بايعته الأمة ، وأسلمته زمامها ، وارتضته قواماً على أمورها ، كان واجباً عليها أن تصدق فى معاونته ، وأن تخلص فى طاعته ، فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اسمعوا وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » . وعن عبادة قال : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة ، فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا ، وعلى ألا ننازع الأمر أهله ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » : بل لقد أشار القرآن الكريم من طرف دقيق عميق إلى أن البيعة الصحيحة التامة المخلصة التى يعطيها المؤمن بوحى من دينه ودافع من يقينه ، تقتضيه أن يكون على استعداد

لبذل نفسه وماله فى سبيل عقيدته ، لأن البيعة مأخوذة من مادة « البيع » جريا على عادة العرب ، والبيع فيه مشتر وبائع ، فانظر إلى القرآن وتدبر إشارته حين يقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

ويحذر الإسلام العظيم تحذيراً شديداً من نقض البيعة بعد انعقادها ، ومن الخروج عليها بعد إعطائها بصدق وإيمان وطواعية ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « من خلع يداً من طاعة الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » . وفى الوقت نفسه يحذر الإسلام العظيم الوالى أن يخون الأمانة ، أو يفرط فى التبعة ، أو يخرج عن سواء الطريق ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » . وكان النبي يدعو ربه جل وعلا ، فيقول : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن أرسخ أساس للمجتمع المؤمن الفاضل هو أن يتوافر فيه ولى الأمر الصالح المصلح المخلص كما تتوافر فيه الأمة الواعية المطيعة عن إيمان وبصيرة ، ومن بين صلاح الراعى وإخلاص الرعية تنبثق أضواء الخير والسعادة للجميع ، ويتردد قول الحق سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

العمل فى الاسلام

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، المجازى لها بما عملت ، « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله « الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى » ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من حمل لواء العلم والعمل وفتح أبواب الرجاء والأمل ، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

جرت عاة مجتمعنا منذ حين على أن يجعل أول يوم فى شهر مايو عيداً للعمل والعمال ، وهى عادة طارئة علينا ، وليست نابعة من صميمنا أو تراثنا ، فنحن فيها مقلدون أو متابعون ، وليتنا نرجع فى تقاليدنا وعاداتنا إلى ديننا وشريعتنا وتاريخنا . ومع ذلك ننتهز الفرصة لنأخذ من مناسبة عيد العمل ذكرى فالذكرى تنفع المؤمنين ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها ، أو حيثما وجدها فهو أحق الناس بها ، كما أرشدنا الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه . وليس فى الدنيا كلها عقيدة أو شريعة كرمت العمل ودعت إليه وحثت عليه ونوهت به مثل الإسلام ، ويكفينا هنا دليلا إجمالياً أن دين الله أقام أساسه على دعامتين رئيسيتين هما الإيمان والعمل ، وقال القرآن فيما قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ، وقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٣ من ربيع الآخر سنة ١٣٩٤ هـ الموافق ٢٦ من ابريل سنة ١٩٧٤ م

وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ». ولم يطلب الإسلام مطلق عمل ، بل حدد نوعية العمل ، وشرط أن يكون عملا صالحاً طيباً ، وأخبر أن العمل الصالح سيكون خيرا للانسان ، وأن العمل السيء سيكون وبالا عليه ، فقال القرآن الكريم : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » ، ولا يكاد الإيمان يذكر فى القرآن حتى يقترن به العمل الصالح ، حتى تكررت فيه عبارة « الذين آمنوا وعملوا الصالحات أكثر من خمسين مرة ، ووعد الله جل جلاله بوفاء الأجر وإكمال الجزاء والثواب لهؤلاء العاملين الصالحين فقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » أى غير مقطوع .

وإذا كان العمل يحتاج إلى رقابة ومتابعة وتقويم ، فإن الله عز شأنه قد أقام من ذاته القدسية رقيباً على هؤلاء العاملين ، يحصى عليهم أنفاسهم وأقوالهم وأعمالهم ، ولذلك يقول القرآن : « وما الله بغافل عما تعملون » ، ويقول : « إن الله بما تعملون بصير » ويقول : « إن ربى بما تعملون محيط » ويقول : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » ولقد جعل الإسلام أى عمل يقوم به الإنسان أمانة بين يديه يسأله عنها فيدقق السؤال يوم لقائه ، ولذلك يقول سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » والراعى هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما أؤتمن على حفظه فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه . بل لقد قال العلماء إن الرجل المنفرد

الذى لا زوجة له ولا خادم يصدق عليه أيضاً أنه راع ، لأنه مطالب شرعاً بأن يكون راعياً على نفسه وجوارحه ، حتى يعمل المأمورات ، ويتجنب المنهيات فعلا ونطقاً واعتقاداً ، فجوارحه وحواسه وقواه هى رعيته التى وكل الله إليه رعايتها وصيانتها ، والحساب بين يدى الإنسان دقيق عميق « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . والرسول يقول : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم أضاعه . » وهو ينذر كل مفرط فى رعيته كثرت أم صغرت ، عمت أم انفردت ، فيقول : « ما من وال يلى رعيته من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » .

وأرشد الإسلام إلى أن الله جل جلاله لا يحب العمل المتقطع ، أو المبتور أو الناقص ، بل يحب العمل الحسن المتقن ، الكامل الموصول ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه » ويقول : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » . وتقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يدوم عليه صاحبه » . وكذلك روى الإمام البخارى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه « كان يعجبه الدائم من العمل » . وليس فى الإسلام أى ظل للمحاباة أو الاستثناء من شرعية العمل ، والحديث الشريف يخاطب الجميع قائلا : « اعملوا فكل ميسر : وكل فرد فى الأمة يمكن أن يسهم بأداء عمل مهما كان قليلا أو محدودا ، وتنوع الأعمال يناسب تنوع الملكات والطاقات ، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطى القدوة فى الحرص على العمل ، وهو لا يكتفى مع أنه سيد الأمة وخير الناس – بالاشتراك فى العمل ، بل يسبق إليه ويجتهد فيه حتى يكون مثلا وقدوة ، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يخجلون كلما رأوا نبيهم يسبقهم فى العمل وبذل الجهد فيرددون قولهم :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكان يدفع بأهل بيته دفعاً — وهو أشرف البيوت وأعلاها وأزكاها إلى العمل ، نساء ورجالا ، فكان يقول لفلذة كبده وحشاشة قلبه فاطمة الزهراء « يا فاطمة ، اعملي فانى لا أغنى عنك من الله شيئاً » ويقول لآل بيته « يا آل بيت محمد، لا يأتيني الناس ، بالأعمال وتأتونى بالأنساب ، أعملوا فانى لا أغنى عنكم من الله شيئاً » . وكأن الله تعالى قد أراد حكمة بليغة حين كتب على نبيه رعى الغنم وهو فى شبابه . حتى قال الرسول : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم » فإن رعى الغنم يحتاج إلى يقظة وانتباه ، وإلى صبر وأناة ، وإلى فعالية واحتمال ، ورعى الغنم يعلم الإنسان التواضع ، فإذا أدب نفسه يرعى الغنم لم يجد أى غضاضة فى أن يقوم بعمل آخر من الأعمال .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام يحذر الولاة من الاعتساف والانحراف ، فيقول الرسول : « إن شر الرعاة الحطمة » ويأمر الرعية بالطاعة فى الحق والعدل ، ولذلك يقول الحديث : « إنما الطاعة فى المعـــروف » . وعلى الجميع أن يستجيبوا لأمر الله وتوجيهه ، فإن الامام عليا يقول : « اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

النظام فى الاسلام

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أبدع الكائنات بقدرته ، وسوى أمور الخلائق بحكمته : « وخلق كل شىء فقدره تقديراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، الحق كتابه ، والعدل بابه : « وكل شىء عنده بمقدار » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ربى قومه فأحسن تربيتهم ، وعلم أتباعه فأجاد تعليمهم ، فكان إمام الأنبياء وقائد الحكماء ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، « فأولئك تحروا رشدا » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

النظام هو أساس الكون الرحيب الواسع ، ولو فسد النظام لفسد أمر السموات والأرض ومن فيهن ، وقد أبدع الخالق البارىء المصور ملكه على أدق نظام وأعمق إحسان ، وقال سبحانه : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . وقال : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » . وقد أوجد الله الإنسان والزمان والمكان ، وألهمنا أن لكل إنسان فى الحياة عملا محدداً يقوم به ، وينبغى له أن يحسنه ، وأن لكل مكان أشياء تناسبه وتلائمه ، وأن الزمان يجب أن يكون فرصة للعمل والسعى ، وإلا انقلب غصة مهلكة ، ولا يمكن الانتفاع بهذا الزمن على وجهه إلا إذا عرف الإنسان له حدوداً ، وأخضعه للنظام والترتيب ، ولاءم بين زمانه وأعماله ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى مثل هذا الضبط والتنظيم فى قوله : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات

---

(١) ألقيت بمسجد الرفاعى فى يوم الجمعة ١٣ من مايو سنة ١٩٦٦م

لقوم يعلمون » . وقال : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .

والمشاهد بين الناس أن كثيرين منهم لا يحسنون العمل أو التصرف فى الحياة بسبب إهمالهم مبادئ النظام وقواعد الترتيب ، فهم يخلطون عملا بعمل ، وقد يقبلون على العمل فى غير إبانة ، فلا يأتى على وجهه الحسن ، وقد يؤخرون العمل عن أوانه ، فيجور على وقت غيره من الأعمال ، وقد يسرفون فى العمل بلا ضرورة حيناً ، فيؤدى بهم هذا الإسراف بعد قليل إلى إسراف فى الركود والكسل ، إلى غير ذلك من مظاهر الفوضى والاضطراب

والإسلام الحكيم القويم قد أعطى النظام حقه الموفور من العناية والاهتمام ، ليلفت الأبصار والبصائر إليه ، ويحمل أتباعه عليه ، فلا يقولون ولا يعملون ولا يسعون فى حياتهم إلا بنظام وإحكام ؛ وإذا نظرنا إلى القواعد التى بنى عليها الإسلام وجدناها تنهض بالنظام وعلى النظام ، فكلمة التوحيد : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » نظام فى الاعتقاد ، إذ هى إقرار بالعبودية لإله واحد لا يشاركه فى تدبيره أو ملكه سواه ، وإذا توافر الإخلاص فى هـذا الاعتقاد ، اعتدل العبد على طريق واحد مستقيم ، ولم تتفرق به السبل عن سبيل ربه ، ولا شك أن توحيد الطريق حتى يكون معروف الغاية والنهاية نظام وأى نظام : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

وهذه هى الصلاة اليومية المتكررة خمس مرات فى اليوم والليلة ، قد أقامها الله عز وجل على النظام والتحديد ، ولم يتركها مبهمة غامضة ، لهوى المرء الذى قد يضل وقد ينسى ، بل قال تعالى : « إن الصلاة كانت على

المؤمنين كتاباً موقوتاً » أى فرضاً ثابتاً ثبوت الكتابة على الورق ، وموقوتاً أى منجماً موزعاً فى أوقات معلومة محددة ، لابد من أدائها فيها بقدر الإمكان ، والله يطالب بها فى مواعيدها ، حتى فى موطن عدم الاستقرار ، فهو يقبل الصلاة مقصورة فى السفر ، ومقسومة فى الحرب ، وغير كاملة الهيئات والحركات فى المرض المانع من الإتيان بكل حركاتها ، فذلك الأداء المحدد فى الموعد المحدد خير من تأخيرها عن ميقاتها لتأديتها فيما بعد ، وهذا تنظيم بليغ وربط حكيم بين الوقت والعمل المخصص له .

وهذا هو الصيام ، لم يكتب الله علينا فيه مطلق صوم ، ولم يكلفنا بمدة صوم مجهولة أو متروكة لتقدير كل إنسان ، بل نظم ذلك وحدده ، فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات » أى محدودات معينات بالعدد ، وهى أيام رمضان الذى ذكره عقب ذلك بقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » . وزاد الإسلام الصوم تنظيما وتحديداً ، فجعل لبدايته حداً معلوماً هو الفجر ، ولنهايته حداً معلوماً هو غروب الشمس ، وتلت السنة القرآن فى تحديد مدة الصيام فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام عن الهلال : « صوموا لرؤيته ، وافطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً » .

والزكاة وهى نصيب الفقراء فى مال الأغنياء ، وهى المعلوم للسائل — لم يتركها الله سبحانه غامضة مبهمة ، ولم يكلها فى مقاديرها أو مواعيدها إلى النفوس التى قد تشح وقد تبخس ، بل حدد الإسلام مواعيدها ومصارفها ، وأحصت السنة النبوية الأشياء التى تجب فيها ، وفصلت الكثير من أمورها ، وفى القرآن الكريم قوله عن الزرع : « وآتوا حقه يوم حصاده » فزكاة الزرع تجب يوم القطاف والجنى ، وزكاة المال تجب عندما يحول عليه الحول ، ويتم

على حيازته العام ، والمقدار معلوم ، فهو فى زكاة الزرع إما العشر ، وإما نصف العشر وهو فى زكاة المال ربع العشر ، والمستحقون للزكاة ثمانية أصناف حددتهم سورة التوبة ، وذلك هو عين النظام .

ثم يأتى الحج ، ذلك الفرض فى العمر مرة واحدة ، لم يدعه الله للهوى والاختيار ، بل حدد وقته ، ونظم عمله ، ورتب شئونه ، ودعا الناس إليه فى وقت واحد ومكان واحد ، والقرآن الكريم يقول : « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » . فيؤدى المسلم الحج فى أشهره المعلومات المحددة ، وهى شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والوقوف بعرفة يجب أن يكون فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، وبقية المناسك فى أيام العيد ، وبعد الآية السابقة بآيات يقول القرآن : « واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » والأيام المعدودات هى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة ، وهى الأيام المعينة المحددة لرمى الجمرات ونحر الضحايا والهدى ، وقد جمعت الآية بين التحديد وبين التوسعة الخفيفة ، فمن فعل ذلك فى اليومين الأولين جاز ، ومن تأخر إلى الثالث جاز ، ولكنه لا يخرج عن الثلاثة .

ولو استعرضنا أمور الزواج والطلاق والنفقة والعدة والرضاع والحضانة والمعاملات المختلفة فى الإسلام لوجدناها مقامة على التنظيم والتنسيق ، فلها شروطها وحدودها ومواقيتها وأوضاعها الخاصة والمتميزة ، وهذا كله يوحى إلى المسلم بأن يكون فى أمره كله على نظام ، لأن النظام يوفر المجهود ، ويضاعف الثمرة ، بينما تذهب الفوضى بالخيرات وتقضى على الثمرات : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : ما أحوجنا فى حياتنا الخاصة والعامة إلى النظام ، فالمعلم محتاج إلى النظام كى يحسن التعليم والتقويم ، والعامل محتاج إلى النظام كى يتقن أداء واجبه ومضاعفة إنتاجه ، والتاجر محتاج إلى النظام لينسق سلعه ويرتب بضائعه ، فيصونها ويجيد عرضها ، ولا يخلط العسل بالخل ، ولا السكر بالملح ، والتلميذ محتاج إلى النظام ليؤدى واجباته المدرسية فى مواقيتها ، ولا يؤخر عمل اليوم إلى غد ، والدولة ، لابد لها من النظام ليقوم كل موظف فيها بأداء واجبه فى موعده بلا تسويف أو تأخير ، فلنتواص بالنظام ، ولنحرص على النظام ليستقيم لها أمرها وتبلغ فيما ترجى الأمل المنشود ولنصبر عليه ولنداوم فيه فإنه طريق الحق والخير ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الاسلام ومكافحة الأمية

الشعب المصرى شعب متدين يؤمن برساله السماء ؛ وهذا الشعب يرحب لتدينه بكل فكرة يرى أنها تتفق مع تعاليم ما يؤمن به من دين ، فإذا خرج عليه المصلحون بمشروع جديد ، أو إصلاح ما فى ناحية من النواحى ، تساءل الشعب أولا ، ولو بينه وبين نفسه ، عن صلة هذا الإصلاح الجديد بالدين : أيتفق معه أم يختلف ؟ أيأمر به الدين أم ينهى عنه ؟ . . . وعلى مقدار المنزلة التى يحتلها هذا المشروع من الدين واحتفاله يكون مقدار الإقبال عليه من الشعب ! . . .

وبعد ؛ فإلى أى حد عنى الإسلام بالتعليم ؟ . .

يكفى أن يعلم القارئ أن أول آية نزلت من القرآن الحكيم على الرسول الكريم كانت أمراً بالقراءة ، وتذكيراً بنعمة التعليم التى منحها الله للنـــاس ، وفى ذلك ما فيه من التنبيه على الاعتناء باستثمار هذه النعمة حتى لا تضيع ، فقال عز من قائل : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ! » . . . وتعجبنى فى هذا المقام كلمة لكبير من أدبائنا يتحدث فيها عن مكانة التعلم والتعليم فى الإسلام ، وفيها يقول : « . . . وفى تاريخ الإسلام ما يحير القارئ من الحث على العلم والدأب على تحصيله والولوع به ، واحتمال المشقة فى سبيله ، والرحلة إلى الأقطار البعيدة من أجله ، والتنافس فيه ، فقد جاء الإسلام داعياً إلى العلم ، حاثاً على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وسمى دستوره الكتاب والقرآن ، وكانت أول كلمة نزلت من القرآن (اقرأ) . وحمل العرب أمانة الإسلام ورعوا سنن القرآن ، فاجتمعت الأمم فى رعايتهم على

حب العلم وطلبه ، والكد فيه والدأب عليه ، حتى صار العالم الإسلامى كله كمدرسة واحدة ، بجد معلموها ومتعلموها فى التعليم والتعلم ، ويقوم عليها خلفاء وأمراء وكبراء يبذلون من مالهم وجاههم لأولى العلم ؛ وقد بلغ الخلفاء بالعلم والعلماء منزلة التقديس ؛ وأثرت عنهم فى هذا سير لا يعرف الزمان نظائرها ، ولا يعى التاريخ أشباهها ، فهذا هرون الرشيد يصب الماء على يد عالم ضرير ، ويقول إنه يفعله إكراماً للعلم ، وولداه الأمين والمأمون يتنافسان فى تقديم النعلين لأستاذهما الكسائى ، والخليفة المعتضد بالله كان يطوف يوماً فى بستانه وهو آخذ بيد ثابت بن قرة الحرانى ، فجذبها دفعة وخلاها ، فقال ثابت : « ما بدا يا أمير المؤمنين ؟ . قال : كانت يدى فوق يدك والعلم يعلو ولا يعلى عليه ! » .

ومن الواضح الجلى أن القراءة هى الوسيلة الغالبة التى توصل إلى المعرفة والعلم ، وقد رفع الله من شأن العلم فى كتابه الحكيم ، ودعا إليه وحث عليه وأمر به ، فقال : وقل رب زدنى علما » . وقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » . وقال : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » . وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » ، إلى غير ذلك من الآيات التى تبين لك كيف احتفل القرآن بالعلم وشأن المتعلمين ! .

وجاءت السنة النبوية الكريمة من وراء القرآن الحكيم تحبب وترغب فى التعلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » . وخرج عليه الصلاة والسلام ذات يوم فرأى مجلسين ، أما الأول ففيه جماعة من الناس يدعون ربهم ويرغبون إليهم ، وأما الثانى ففيه جماعة يعلمون الناس ، فقال صلوات الله عليه : « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى ، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت

معلما ! » ثم عدل إليهم وجلس معهم ! . . وقال صلى الله عليه وسلم : على خلفائى رحمة الله . قيل : ومن هم خلفاؤك يا رسول الله ؟ . قال : الذين يحيون سنتى ويعلمونها عباد الله ! . .

وروى الإمام الغزالى عن معاذ بن جبل فى فضل العلم ما يأتى — قال : ورأيته مرفوعاً — : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير سادة قادة هداه يقتدى بهم ، أدلة فى الخير تقتفى آثارهم وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب ويابس يستغفر لهم ، حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، به يبلغ العبد منازل الأبرار والدرجات العلى ، والتفكير فيه يعدل بالصيام ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد وبه يوحد وبه يمجد وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء ! » .

ولقد كان لعناية المعلم الأول صلوات الله وسلامه عليه بالتعليم أثر كبير فى صحابته وأتباعه ، فتخرجوا فى مدرسته الكبرى وهو يؤمنون أعمق الإيمان بما للتعليم من آثار ، وما للعلم من فضائل ، فها هوذا أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : « العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، المال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق » . ويقول عبد الله بن المبارك : « عجبت لمن لم يطلب العلم كيف

تدعوه نفسه إلى مكرمة ! » . ويقول أبو الدرداء « : كن عالماً أو متعلما أو مستمعاً ، ولا تكن الرابع فتهلك ! » .

والمطالع للسيرة النبوية الكريمة لا ينسى ذلك الموقف الجليل والعمل الخالد الذى نصر به الرسول قضية التعليم ، ورفع به من شأن القراءة والكتابة ، وأرى الدنيا كلها أن تعلم القراءة والكتابة أجدى وأنفع من المال والسلاح والمتاع . . . ذلك أنه حدث أن أسر المسلمون جمعاً من المشركين فى غزوة بدر ، وكان المسلمون يومئذ لا يزالون قلة فى عددهم وعدتهم ، وهم أحوج ما يكونون إلى المال والطعام ، وجاء وقت الافتداء ، فنادى الرسول العالم فى هؤلاء الأسرى أن من كان منهم يجيد القراءة والكتابة ففداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين الأميين ؛ فعل ذلك بينما كان يستطيع أن يفرض عليهم الأموال الكثيرة ليغنى بها نفسه وقومه ودعوته ؛ لكنه صلوات الله عليه فضل تعليم القراءة والكتابة لأهله وصحابته على زينة الدنيا وأموالها وعتادها ؛ وما كان فى ذلك إلا حكيما بعيد النظر ، إذ هو يعرف أن انتشار القراءة والكتابة فى صفوف أتباعه سيقفهم على أسرار الحياة ، ويمكنهم من المعارف ، ويصلهم بما فى الكون من خفايا ، ويفتح أمامهم أبواب الثقافة والعلم التى تجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوارثين لقيادة الشعوب بنور العرفان .



أما وقد أبنا منزلة التعلم فى الإسلام بإيراد جانب من الآيات القرانية الشريفة والآثار النبوية الكريمة وأقوال الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، ومواقف السيرة المشهورة ، فلننتقل إلى الفوائد التى يراها العقل فى هذا المشروع الجليل ، ويرى أنها وسيلة فعالة إلى خدمة الإسلام ونشره ، وتصحيح فكرة الكثيرين عنه ، وهدايتهم إلى ما فيه من أسرار وتعاليم ! . .

لا ريب أن الرجل العامى الأمى الجاهل لا يستطيع أن يأخذ عن الدين المشتمل على عميق الأسرار ودقيق المعانى وسامى التشريع إلا فكرة مبهمة عامة قد تكون بعيدة عن الحقيقة فى بعض المواضع إن لم نقل فى أكثرها ، فهو لا يفهم من الدين إلا أنه فروض تؤدى فى صورة تقليدية لا روح فيها ، وكلمات يرددها دون أن يفهم لها معنى ، ولكنه لو تعلم القراءة والكتابة ، واستطاع أن يزيد فى ثقافته يوماً بعد يوم بالمطالعة والاستماع ، لأمكنه أن يقف على أسرار ذلك الدين العظيم ، وأن يتصل بروحانيته ، وأن يتأثر بجماله وجلاله ، فيتأصل إيمانه ، ويقوى يقينه وتصح عقيدته ، ويصبح مسلماً مؤمناً بمعنى الكلمة ! . . .

استحضر فى ذهنك الآن صورة ذلك الفلاح الأمى وهو يدخل الصلاة ، ويتلو الفاتحة كما حفظها تلقيناً من ذلك الواعظ أو الفقيه ، فهل تراه يفهم معنى ما يتلو ؟ وهل تظن أنه يتأثر بهذا الموقف الإسلامى الرهيب وهو يركع ويسجد ويسبح ويدعو ؟ وهل تراه يقيم كبير وزن من ناحية الإدراك والفهم لهذه الأعمال ؟ . . أنا لا أخالفك فى أن اخلاصه وإيمانه متوافران ، ولكنى أعتقد أنه لو تعلم ووقف على معنى ما يقول وما يفعل لأزداد تأثراً وازداد خشوعاً ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » كما يقول القرآن الكريم .

واستحضر فى ذهنك صورة ذلك المؤذن وهو فوق مئذنة المسجد العالية ، يدعو الناس ويهتف بهم : حى على الفلاح ! حى على الفلاح ! . . أتعتقد أن العامى يدرك إدراكاً صحيحاً تلك الهتافات الرائقة التى يرددها المؤذن مذكرا بكبرياء الله وعظمته ووحدانيته ، وداعياً الناس إلى الهدى والفلاح ؟ .

ثم لعلك تسلم معى أن الوقوف على تعاليم الدين وأحكامه ومسائله يحتاج إلى دراسة طويلة تستغرق من الزمن جانباً طويلا ، وهذه الدراسة تتمثل فى تفهم القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وكلها باللغة العربية الخالصة ،

وتفاسيرها وشروحها كذلك ، فلو أن ذلك الأمى تعلم القراءة والكتابة لاستطاع أن يستغنى عن غيره فى فهم دينه ، ولأمكنه أن يفىء إلى القرآن الكريم وتفاسيره ، وإلى الحديث النبوى وشروحه ، فيجد هناك الغذاء والدواء والشراب الطهور ؛ ولأصبح من السهل على ذلك العامى أن يقوم لسانه بكلمات القرآن ، فينطقها فى صحة وضبط ، بدل أن يرطن بها كما يرطن الإنسان بلغة غيره من الناس ، دون أن يدرك ما يؤدى إليه اللحن والتحريف من تغيير وتبديل فى المعنى لا نستطيع أن نحدد أخطارهما فى هذا المجال ! . .

وأذكر بهذه المناسبة أننى سمعت فلاحاً فى قريتنا « البجلات » يتلو فى الصلاة : « أهدنا الصراط المستكين » بدل أن يقول : « اهدنا الصراط المستقيم » فحاولت أن أصحح له قراءته ، فتأبى على قائلا : « وايه يعنى الفرق بين المستكين والمستقيم ؟ : آهى كلها من بعضها يا سيدى ! » . . فقلت له : إن الطريق المستكين هو الطريق الذليل ، وهو طريق الكافرين ، أما الطريق المستقيم فهو الطريق المعتدل طريق المؤمنين ! . . فتظاهر الرجل بأنه فهم ليرضينى ، ثم ولى مدبراً وأنا يغلب على ظنى أنه ما فهم ، وأنه سيقيم على قوله : « أهدنا الصراط المستكين » ! .

هذا وبعض علماء المسلمين يشترطون فى خطبة الجمعة التى تلقى كل أسبوع ، فى كل مسجد ، فى كل بقعة من بقاع الوطن الإسلامى ، ويسمعها كل مسلم ، أن تكون باللغة العربية الفصحى ، والأميون بيننا — وهم الأكثرية لا يستطيعون أن يتابعوا الخطيب فى موضوعه ، ولا أن يحيطوا بفكرته ، وكثيراً ما يفهمون كلام الخطيب على عكس ما يريد ، لأنهم أميون ، وما يلقى بلسان عربى مبين !.. فلو أن هؤلاء الأميين تعلموا القراءة والكتابة ، وأدركوا معنى اللغة الفصيحة ، لسهل عليهم أن يفهموا معانى الخطبة ، وبذلك

يقفون على كثير من أسرار دينهم وحوادث مجتمعهم ، فيزداد الدين فى نفوسهم وضوحاً ، ويكسب الوطن خيراً كثيراً .

وهناك الفضائل الدينية والأخلاق الإسلامية ، كالصدق والعفة والأمانة والوفاء والشجاعة والتضحية والاخلاص ، وغير ذلك ؛ كل هذه الأخلاق الفاضلة لا يستطيع الأمى الجاهل أن يدرك قيمتها ويعرف منفعتها إلا بدراستها وتفهم سمو غايتها ، وكذلك تراه يستثقلها ويفر منها . وكثيراً ما يحاول التبديل فيها والخروج بها عن دائرتها المرسومة لها ؛ وكذلك يقول بعض الباحثين فى الأخلاق : «من لم يتعلموا النظريات الخلقية لا يعرفون كيف يتصرفون فى المواقف المختلفة ، ولا كيف يواجهون المشكلات المتعددة ، فيخطئون ؛ ولا كيف يستفيدون من تجاربهم ، فلجهلهم بالشئون الخلقية يجيزون الكذب مثلا لمصلحة ، ولا يعتبرونه شراً ورذيلة ولا يتورعون عن ملابسته مستترين خلف تلك القولة الشائعة : « الكذب جائز لمصلحة » . أما أولئك الذين أتيح لهم الإلمام بمسائل الأخلاق فلا يسعهم إطلاق مثل هذا الحكم لما يعلمون من عدم إباحة الكذب فى حال من الأحوال حتى فى أتفه الأمور وأصغرها ، إلا فى الصلح بين المتخاصمين وفى سياسة الحروب . . . إلخ .

إن توجيه الإرادة نحو الخير يتحقق بمعرفة الخير ومزاياه والشر ومساوئه ، فجمال الفضيلة ومعرفة وسائلها وعواملها وطرائقها يغرى بابتغائها ، ويوحى للارادة بالعمل فى سبيلها ، وقبح الرذيلة ومعرفة آثارها الوخيمة وعواقبها المؤلمة يصدان النفس عن قربها ، والإرادة عن مباشرتها ؛ فمن عرف الفضيلة ووقف على جمالها وجلالها ، ودرس طرقها ووسائلها ونتائجها ، وكان مستعداً لها سعى لها سعيها وهو مؤمن بها موقن بخيرها ، وأبعد إرادته عن الشر جهده ، لأنه درس عقباه وعرف آثاره . . . وإذا ذكرنا أن الفضائل والأخلاق

الشريفة هى عماد الإسلام ، وأنها سر بقاء الأمم ، أدركنا ما لتثبيتها فى النفوس عن طريق العلم والمعرفة من تحتم ووجوب لازمين لزوم الهواء للأحياء ! .

وكذلك حينما نذكر قول الحق تبارك وتعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ونعرف أن الجهل هو الدابة العمياء التى تقود الإنسان إلى مهاوى الفساد والهلاك ، ندرك ما للتعليم من قيمة فى توجيه المرء إلى ما يعصمه من الانغماس فى الموبقات ، أو الانغمار فى الأوباء ، أو السير نحو الفناء ، دون شعور أو إحساس ، وليس كالجهل فهو يعمى ويردى ويهلك ، حتى لقد صدق أحد الكاتبين حينما تكلم عن مكافحة الأمية فى مصر فقال :

« وماذا يصنع التيفود والتيفوس والملاريا والرمد والانكلستوما والبلهارسيا أشد مما تصنعه الأمية بإخواننا المصريين المساكين من فلاحين وعمال وصناع وتجار وجنود وشرطة ؟ . . إن هذه الأوبئة التى ذكرنا ، وغيرها مما لم نذكر ليس مصدرها الميكروب كما يزعم الأطباء ، وإنما تلك الأمية التى تغشى عقول هذه النسبة العالية من اخواننا المصريين البائسين ! . . إن الفلاح الذى يشرب من البركة الراكدة ، والفلاحة التى تغتسل فى البركة ، إنما يصنعان ذلك بعامل الأمية التى حالت قسوة البلاد ونومها الطويل الذى نامته دون إنقاذ غالبية الشعب من براثنها ؛ وإن المرابى الذى يغتال أموال الفلاحين وغير الفلاحين من طبقات الشعب إنما يغتالهم من طريق أميتهم التى رانت على أبصارهم ، وناءت على عقولهم ، وحجبت عنها النور بتلك الطبقة الكثيفة من السذاجة والغفلة والجهل المبين ! » .

وإذن فتعليم الأميين القراءة والكتابة إنما هو حفظ لأغلبية الشعب من أن تلقى بأيديها إلى التهلكة ، وبذلك يكون هذا التعليم تنفيذاً لأمر إلهى أنزله الله فى صميم كتابه الحكيم ! . .

حرب على الاسلام

الحمد لله عز وجل ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أشهد أن لا إله إلا الله ، أتم النعمة وأكمل الملة : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وترك الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله المستجيبين لربهم ، وأصحابه المعتزين بيقينهم ، وأتباعه الثابتين على دينهم وإيمانهم : « الذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كم تود النفس المؤمنة أن تجد من حولها متنفساً تستريح فيه ولو إلى حين — من الشكوى والأنين ، وكم يتمنى المسلم الغيور أن لو استقام أمامه الطريق ، حتى يهدأ ويطمئن ، ويخلص للتحدث بنعم ربه ، والتأمل فى جمال كونه ، والاستمتاع بما شرع الحكيم العليم من أسباب الخير ووسائل النعيم ؛ ولكن ماذا يصنع المرء وهو لا يكاد يخلو من شجن حتى يصطدم بشجن ، فيظل مرغماً على مواصلة التوجع والبكاء ؟

يقضى على المرء فى أيام محنتـــه   حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

ماذا يصنع المرء والشواهد تتكاثر من حوله دالة على أن هناك حرباً واسعة منظمة ضد الإسلام وتعاليم الإسلام وأخلاق الإسلام ، وأن هذه الحرب

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٠ شوال سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٩ من مايو سنة ١٩٥٨ م

تسفر عن وجوهها الكالحة وأساليبها الخبيثة الفاضحة فى كل مناسبة وكل مقام، ويظهر لها جنود وأنصار وأتباع ، ويتسع نطاقها يوماً بعد يوم بما تعان به من ألسنة وأقلام ، وصحف ومجلات ، وكتب ونشرات ، وأعوان وأموال ، وبما تتفنن فيه تفنن الشياطين من مكائد ومفاسد ، ودعوات ومحاولات ، تتوسل بها جميعها لكى يصبح هذا الدين نسياً منسياً ، وبعدها يقترف هؤلاء ما يشاءون ! . . .

ليتكم تستمعون واعين إلى جانب من فصول هذه المأساة التى لم تتم بعد .. إن هؤلاء قد بدأوا محاولاتهم بالطعن فى علماء الدين والتندر عليهم والسخرية منهم ، ولم يكن قصدهم من وراء ذلك أن يشوهوا علماء الدين بذواتهم وأنفسهم ، فقط ولكنهم يقصدون تشويه الدين بتشويه حملته ونقلته ، حتى يصبح سلطانه فى النفوس ضعيفاً ضئيلا ، وقد يكون فى رجال الدين ما يؤاخذون عليه ولكنهم على كل حال يستطيعون أن يميزوا لنا بين الحلال والحرام ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . . . ثم انتقل أعداء الإسلام من الطعن فى العلماء إلى الطعن فى الفقهاء وأئمة المذاهب الأعلام ، فأخذوا يكتبون فى صحفهم ومجلاتهم ، ويقولون فى مجتمعاتهم وأنديتهم ما لا يصح أن يقال فى هؤلاء الأئمة الكرام والرواد العظام الذين مهدوا لنا الطريق وبينوا الشريعة ، وجعل هؤلاء المتطاولون يصفون الكثير من أقوال الأئمة ومذاهبهم بالجمود والرجعية وضيق الأفق ، ولو نصبت موازين الحق والعدل لما صلح أحـد هؤلاء المهاجمين أن يكون تلميذاً صغيراً لواحد من أولئك الأئمة الخالدين . . ثم انتقلوا إلى الطعن فى حديث الرسول صلوات الله عليه ، فأخذوا يكتبون فى صحفهم ومجلاتهم يشككون فى الأحاديث ويطعنون عليها . ويحكمون على أحاديث رواها الإمامان البخارى ومسلم بأنها موضوعة أو باطلة أو لم يقلها الرسول ، وهم يحاولون من وراء ذلك أن يبطلوا الاحتجاج بالسنة والاستدلال

بالأحاديث ، ليكون ذلك فصلا هاماً من فصول المأساة المبكية وهى محاولة القضاء على الدين . . . وأغلب الظن أنه إذا استمرت الحال على ذلك دون ردع لهؤلاء من ولاة الأمور أو احمرار من عين الدولة فإن الخطوة القـــادمة منهم ستكون هى نقد القرآن والطعن فيه بصراحة ، فيبلغون قمة الإجرام ويقولون مثلا عن آيات من القرآن لا تعجب فجورهم وتحللهم : هذه آيات مكذوبة ، أو هذه آيات غير سليمة ، أو هذه آيات استنفذت أغراضها ، أو هذه آيات شرعت لحياة الصحراء لا لحياة المدنية ، أو هذه آيات لأبناء القرن السابع لا لأبناء القرن العشرين ! . . وهكذا . . . وهكذا تتم المأساة وتقبل الطامة الكبرى ! . . .

أتظنون أنهم لا يفعلون ؟ . . . وكيف وقد فعلوا ذلك بطريق غير مباشر أو من وراء ستار ! . . أليست دعواتهم التحللية والإلحادية التى يرددونها الآن دليلا على إنكارهم لتشريع القرآن وهدى السماء ؟ . . إنهم مثلا يشككون الناشئة فى وجود الله عز وجل ، أفليس هذا إنكاراً منهم لقوله عز وجل : « فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » ؟ . . وهم ينادون بمنع تعدد الزوجات إطلاقاً ، ومعنى هذا فى زعمهم الأثيم أن نلغى قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » . . وهم يطالبون بإلغاء الطلاق ، ومعنى هذا فى باطلهم الأثيم أن نلغى قوله تعالى : « إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة » . . وهم ينادون بالتسوية المطلقة الشاملة بين الرجال والنساء ، مدعين أنه لا فرق بين النوعين فى أى شأن ، مع أن الله خلقهما نوعين : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » ، وليس الذكر كالأنثى » ، وأشار القرآن الكريم إلى الذكر والأنثى فى نحو سبعة عشر موضعاً منه . . . وإذن فالطبيعة البشرية قائمة على ذكر وأنثى ، وستبقى مكونة من ذكر وأنثى ، وكلما استأنث الرجال ،

أو استرجل النساء ، أو طغى أحد الفريقين على الآخر فى حق من حقوقه أو اختصاص من اختصاصه فسدت هذه الطبيعة ؛ فمن التبجح أن يقال إن الرجل والمرأة سواء فى كل شىء ، لأن الله تعالى لا يخلق نوعين متمايزين وهو يريد أن يكونا متساويين فى كل شىء ، وإلا لكان ذلك عبثاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . . وهم يطالبون بأن يكون نصيب النساء فى الميراث كنصيب الرجال فماذا نصنع فى قوله تعالى : « للذكر مثل حظ الأنثيين ؟ . . . وهم يطالبون بإلغاء رعاية الرجل للمرأة ، فماذا نصنع فى قوله تعالى : «الرجال قوامون على النساء » وقوله : « وللرجال عليهن درجة » . . . وهم يعملون لإشاعة التبرج وإظهار مفاتن النساء ، فهل نلغى قوله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن » ؟ . وهم يطالبون بإبقاء الخمر مباحة حلالا ، فهل نلغى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

أرأيتم ماذا يريدون وماذا يحاولون ؟ . . . إنهم يريدون ألا يبقى من الدين شىء . ولذلك أصبح الذين يتحدثون فى دين الله على صفحات الجرائد والمجلات المتحللة هم الذين لا يؤمنون بالدين ولا يؤمنون بوجود الله، أصبح الذين يفصلون فى أمر الحديث النبوى هم الذين لا يعرفون النبى ، أصبح الذين يتحدثون عن القرآن والأخلاق والأعراض هم الذين لا يغارون على الأعراض ولا يؤمنون بالقرآن ولا بالأخلاق والبقية تأتى ، فإن الرواية لم تتم فصولا ...

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن أعداء الله وأعداء دينه ورسوله يبذلون الجهود الجبارة للقضاء على الإسلام وإخراج المؤمنين من دينهم إلى ساحات الإلحاد ومواخير الفجور ، فابذلوا جهودكم المستطاعة فى

الإعراض عنهم والإقبال على ربكم ، ذاكرين دائماً أن ربكم يدعوكم إلى دار السلام ، ويهديكم إلى أكرم مقام ، وأن شياطين الفجور والإلحاد يدعونكم إلى الضلال والفساد : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » فاستمسكوا بدينكم ولو وجدتم فى ذلك لذع الجمر أو لفح الهجير ، فلأن تكونوا مؤمنين معتزين بعزة الله مع التعب والنصب والمجاهدة ، خير لكم ألف مرة من أن تكونوا ذيولا أو خيولا يركبها هؤلاء الفاسقون ليصلوا بها إلى ما يشاءون من إلحاد وافساد ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الاسلام ضد الارهاب

الحمد لله عز وجل ، وزن الأمور بتقديره ، وأضاء الصدور بنوره : « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ » . أشهد أن لا إله إلا الله ، العدل دينه ، والاستقامة طريقه : « وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام البشرية ، فى كل خير ، وهاديها إلى كل بر ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : الإسلام دين الفطرة : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وهذه الفطرة التى برأها الخالق جل جلاله وزكاها ، تهدى صاحبها بتوفيق الله وعنايته إلى سواء السبيل ، فتقوده إلى طرق الحق والعدل ، والخير والبر ، والإيمان والإحسان ، وهذه الفطرة الصافية الزاكية تعلم صاحبها أن التدين المستقيم ينشأ من النظر فى ملكوت السموات والأرض ، والتدبر فى آيات الله وآلائه ، وهذا يهدى إلى الشعور بوجود الخالق ، وجلال البارىء المبدع ، ويتساند القلب مع العقل فى التعرف إلى شواهد الإيمان ودلائل اليقين ، فإذا الإنسان عبد من عباد الله المخلصين بلا قسر ولا إكراه ولا إرغام . وإذا جاز لنا أن نتصور الإكراه موجوداً فى ناحية من نواحى الحياة ، فإن هذه الناحية ستكون بعيدة عن حقيقة التدين والإيمان ، لأن التدين شعور ووجدان ، ولأن الإيمان يقين ينبعث عن اقتناع وتصديق ، والقرآن

---

(١) ألقيت بمسجد الرفاعى فى يوم الجمعة ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٤ من سبتمبر سنة ١٩٦٥ م

الكريم يؤكد هذا بوضوح حيث يقول : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » ، وحيث يقول : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليفكر » وحيث يقول : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » .

وليس فى المسلمين أعلى شأنا أو أرفع مكاناً من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فهو رحمة الله للعالمين ، وهو البشير النذير ، وهو السراج المنير ، ومع ذلك يحدثنا القرآن بأن الله تبارك وتعالى طالب نبيه بأن يكون بعيداً عن معانى الإكراه والإرغام والتسلط ، لأنه داعية إلى عقيدة ، ورائد إلى الطريق ، فعمدته البيان والتذكير والإقناع ، فقال له : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، وقال له : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ . ورسم له طريق دعوته ، ومنهج تبشيره ، وأسلوب تبليغه ، فلم يجعل عماد ذلك الغلظة أو الفظاظة أو الإرهاب ، وكيف وهو الذى قال له : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . بل جعل طريقته متمثلة فى قوله : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » . وقد أمر الله عباده بأن يكونوا أمثلة للرقة والملاطفة حين الدعوة ، حتى مع المخالفين لهم فى الدين ، فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » . وأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقول لمخالفيه فى الاعتقاد ، متلطفاً فى الحوار : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » .

والإسلام فى دعوته الواضحة وطريقته الصريحة دين لا يعرف التخفى فى الظلام ، ولا يعرف الالتواء والإبهام ، إنه دين يمشى فى وضح النهار ، ويضىء طريقه بالعشى والإبكار ، وهذا هو القرآن يخاطب الرسول قائلا : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » فهو يدعو على بصيرة ،

ويدعو على نور ، ويدعو بلا استتار أو ائتمار ، ويدعو إلى طريق الاستقامة وحسن المعاملة وكريم المسالمة ، فالرسول يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمن الناس بوائقة » أى أمنوا من اعتدائه عليهم فى حواسهم أو نفوسهم . والإسلام يعادى المناجاة الباطلة الشريرة فيقول : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » . ويحمل القرآن على النجوى الظالمة الآثمة التى يكون فيها شر أو معصية أو عدوان ، فيقول : « ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » ؟ ويقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون ، إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

والميل إلى الإكراه والإرهاب يؤدى إلى العدوان على الغير فى حسه أو نفسه أو ماله أو أشيائه ، والإسلام يقف فى وجه الاعتداء على الغير بكل صرامة وقوة ، فهو يحرم تهديد الناس فى حياتهم أو أمنهم أو ممتلكاتهم أو معتقداتهم ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » . بل أخبر النبى أن حرمة الإنسان المؤمن عند الله أكبر من حرمة الكعبة الحرام التى جعلها الله تعالى قياماً للناس وقد كرر القرآن الكريم النهى عن الاعتداء على الغير بمثل قوله عز من قائل : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . والميل إلى الإكراه والإرهاب يدعو صاحبه إلى التحريف والتضليل حتى يتلمس لنفسه حسب زعمه وهواه مستنداً يعلل به عدوانه وبغيه ، فينحرف فى التأويل ، ويعتسف فى التعليل ، وقد

يفسر النصوص الدينية على غير وجهها ومرماها ، والقرآن الكريم يهدد ويتوعد من يحرف أو يضلل أو ينقل عن الله تعالى ما لم يأمر به ، أو يقول فى الدين ماليس منه ، وهذا هو كتاب الله عز وجل يقول فى طائفة لم تسلم وجهها لله ، ولم تؤمن الإيمان الحق ، وادعت أنها على الحق تسير : « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الدين الإلهى نعمة ورحمة ، وسلام ومحبة ، وإيمان وإحسان ، ومعاملة واستقامة ودعوة بالحكمة ، وإقناع بالحجة : « قد جاء كم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » . وإن المسلم الحق هين لين ، وإلف مألوف ، كما يقول الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه . والله تعالى يصور عباده الأبرار بصورة شفافة جميلة فيقول : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » وهو القائل لهم : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » . واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

السبق للاسلام

الحمد لله عز وجل ، هو ولى الرشاد والتوفيق ، وهو الهادى إلى أقوم طريق ، نشهد أن لا إله إلا الله ، لا نصر إلا به ، ولا اعتماد إلا عليه : « وعلى الله فليتوكل المتوكلون » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أصلح الفساد ، وهذب العباد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك هم المتقون ، لهم ما يشاءون عند ربهم ، وذلك جزاء المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى الأمة الإسلامية أفراد تربوا على غير مبادئها السليمة وأهدافها القويمة تروتهم يحسبون منها وينسبون إليها ، وهم لا يؤمنون ولا يثقون فيها ، بل تتجه ثقتهم إلى كل شىء يأتى من الخارج ، حتى فيما يتعلق بالقلوب والعقول ، أو يتصل بالوقائع والتاريخ ، وهم على سبيل المثال ما زالوا يتمدحون بالثورة الفرنسية ، ويعتبرونها أكبر حادث قرر حقوق الإنسان ، مع أن الشمس فى هذا المجال بيد أمتهم فكيف يتركونها إلى مصباح دخيل ضئيل ؛ فلقد سبق الإسلام ثورة فرنسا وغيرها بمئات من السنين فى تقرير حقوق الإنسان ، والدفاع عنها بقوة وإيمان ، ولم يكتف الإسلام بالنصوص يرددها ويلقيها ، أو يسجلها ويبقيها ، بل جعلها جزءاً من العقيدة لا تكمل صلة المرء بربه إلا إذا أقامها ورعاها ، ثم طالب أتباعه بأن يجاهدوا فى سبيل تطبيقها وسيادتها وحسبنا فى مبدأ الإخاء قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٩ من مايو سنة ١٩٦٤ م .

أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . وحسبنا فى الحرية قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » وقول عمر وهو يترجم عن روح الإسلام أصدق ترجمة : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وحسبنا فى المساواة قول الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وقول الرسول : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » وقول عمر لجبلة الغسانى حين أبى وهو ملك أن يقتص منه فرد عادى ضربه جبلة : إن الإسلام جمعك وإياه فلست تفضله بشىء إلا بالتقوى والعافية .

وهناك بعد هذا اختلاف جوهرى كبير بين الدعوة الإسلامية والثورة الفرنسية ، يبين مدى الفرق بين عمل الإنسان وهدى الرحمن ، فقد كانت ثورة فرنسا حركة تمردية غاضبة . ليس لها منهاج معلوم ولا طريق مرسوم ، بل ضاق الشعب الفرنسى بظلم حكامه وترف كبرائه ، وجاع حتى استبد به الألم من الجوع والحرمان ، فظن أنه ليس هناك أسوأ مما هو كائن ، فقام يهدم ويحطم ، ويقتل ويتخلص من الطغاة والحكام بلا تأن أو هوادة ، وشاءت الأقدار أن تنجح المحاولة ، لا عن بصر من أصحابها بالعواقب ، ولا عن طريق التدرج فى الخطأ والمراتب ، بل لأن الحظ كان مواتياً ، وانتهت ثورة فرنسا بمبادئها الثلاثة التى أذاعتها وتغنت بها ، وإن تكن فرنسا ذاتها قد خرقتها ألف مرة ، ومآسى فرنسا السود فى التاريخ كثيرة مريرة لا تنسى ، وحديث الأفاعى طويل المدى .

وأما الإسلام فكان على النقيض من ذلك . لم يكن ضربة عمياء ، بل كان إصلاحاً مبصراً ، ولم يكن حركة تمردية تهدم وتحطم ، بل كان إحياء للمشاعر وبناء للمجتمع ، ولم يكن خطوة طائشة غير محددة الهدف ، بل كان صراطاً

مستقيما نزل به الروح الإمين ، من رب العالمين ، على قلب سيد المرسلين ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وما أوضح الرسول وأصرحه ، بل ما أحكمه وأرحمه ، حين وقف بين قومه فى أول الدعوة يهتف قائلا : « إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله الذى لا إله إلا هو لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا .

لقد جاء الرسول قومه بهدى ربه ، وقد بلغوا ما بلغوا من انحطاط وبوار ، فأما بدلهم ما هم فيه من ضلال وخبال ، وما يجب أن يعملوا له من نجاة وخلاص ، ورسم لهم الوسائل والسبل ، وحدد أمامهم الأهداف والمقاصد : من التوحيد والإخاء والعزة والفضيلة والعبودية لله وحده ، إلى آخر ما فى الإسلام من مبادئ مقررة مصورة ؛ ثم غرس الرسول بنور نبوته وتأييد دعوته وربانى كلمته هذه المبادىء فى نفوس أتباعه ، حتى آمنوا بها وحرصوا عليها وعاشوا لها ، وأيقنوا أنه لابد للعالم منها حتى يرقى ويسعد . ثم قاموا عن رشاد وسداد يجاهدون من أجلها ، ويبذلون دماءهم الزكية رخيصة فى سبيلها، حتى حققوها فى ديارهم ، وفى الديار التى فتحوها باسم الإسلام على صورة لم نشهد لها مثيلا فى التاريخ ، وبهذا ظهر الفرق بين إصلاح الإسلام وبين حركة التمرد التى قد تنجح وقد تفشل ، وقد تؤدى إلى عكس المراد منها ، ولقد جاء الإسلام هدياً مرسوماً محدداً مؤيداً بالأدله والشواهد ، موثوقاً من حقه وصدقه ، فلابد من نجاحه لأنه يمشى على نور ، فهو إصلاح يقنع العقول ، ويجذب القلوب ، ويفحم الخصوم ، ويرسم الطريق ، ويضع لكل

مشكلة علاجاً ، ولذلك قال الله تعالى لرسوله فى القرآن : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ولعل هنا عظة كبرى يجب أن نأخذها عن الإسلام ، فالإسلام لا يريد من المصلحين أينما كانوا أن يسيروا فى طرقهم كيفما اتفق ، ولا أن يتصرفوا بلا قاعدة أو منهاج ، ولا أن يقتصروا على مسايرة الظروف والمناسبات ، بل لابدمن معرفة الطريق أولا : أين يبدأ ، وأين ينتهى ، ثم الإيمان باستقامته وتوصيله ، ثم الثبات عليه ، وبذل الجهد والطاقة لبلوغ نهايته ، ومن هنا قال القرآن : « يا أيها الذين آمنوا ، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقو الله لعلكم تفلحون ، وقال الرسول : قل آمنت بالله ثم استقم ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الإسلام العظيم الذى أضاء العالمين ما زال هو الإسلام : « لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وإن الإسلام العظيم الذى اهتدت به الملايين ما زال صالحاً لهداية ملايين أخرى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وهو لا يأتيكم باطشاً بل مناقشاً ، ولا يدعوكم إكراما أو إرغاما ، بل طوعاً وإكراماً : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » . وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

التفاضل بالعمل الصالح

الحمد لله عز وجل ، تفرد بالعظمة والكبرياء ، وتعالى عن الأشباه والنظراء : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يعز من اهتدى بهداه ، وينصر من لجأ إلى حماه : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، فضل أن يعيش عبداً من العباد ومسكيناً فى المساكين على أن يكون ملكاً من الملوك أو طاغية من الجبارين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الهادين المهتدين ، وأتباعه الصالحين المصلحين : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كنا نظن أن أضواء الدين والعلم والثقافة قد هذبت أخلاق الإنسان ومشاعره ، وعلمته حقاً وصدقاً أن التفاضل بين أقدار الناس ليس بالحسب أو النسب ، بل بالتقوى والعمل الصالح والخلق الفاضل ، وكنا نظن أن التباهى بارتفاع الدرجات المادية والتعيير بالوظائف الصغيرة مما مضى وانقضى إلى غير رجعة ، ولكن يظهر أن فريقاً من الناس لا زالت تعلو أبصارهم غشاوة الجهالة والجاهلية ، وتسامر عقولهم خواطر التكبر والعنجهية ، فهم يرون أنفسهم فى علو ورفعة ما داموا فى منصب أو مال أو جاه ، ويرون غيرهم من الناس أقل منهم منزلة ومكانة ، لأنهم أقل مالا أو وظيفة

فترى هؤلاء المتعالين الشامخين يحتقرون هذا أو ذاك أو ذلك من الناس لأنه كناس أو حمال أو حلاق أو دباغ ، أو غير ذلك من أصحاب الحرف التى

ألقيت فى يوم الجمعة ١٦ ربيع الثانى سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٨ من نوفمبر سنة ١٩٥٧ م

تواضع الناس على تسميتها خطأ بالحرف القليلة القيمة ، مع أنه قد يكون من أصحاب هذه الحرف من هو أشرف نفساً وأطهر ذمة وأنظف يداً من كثير من هؤلاء الذين طالت أعناقهم بغير حق ، أو غلظت أجسامهم عن طريق السحت ، أو كثرت أموالهم بوسائل الباطل . . . ولست أنا الذى أقول لكم هذا ، بل هو ربكم ومولاكم الذى يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » والذى يقول : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » . ولست أنا الذى أقول هذا ، بل هو نبيكم ورسولكم الذى يقول : « الناس سواسيه كأسنان المشط فى الاستواء ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى كلكم لآدم ، وآدم من تراب » .

ويقرب من ضلال هؤلاء أنهم قد يعيرون بعض الناس لأنهم خدم لغيرهم أو لفقر أسرهم ، أو لسواد ألوانهم ، مع أن الإسلام لا يفرق بين الأسود والأبيض ، ولا بين الخادم والمخدوم ولا بين الغنى والفقير فى القيمة البشرية والمكانة الإنسانية ، ومحمد نبي المساواة يقول : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » والإسلام لا يمنع أن يكون كبير القوم القائد لهم عبداً أسود ، فيقول الرسول : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى» ! .

وإذا رجعنا إلى تاريخ السلف الصالح وجدنا من اللامعين البارزين بين الصحابة طائفة كان أفرادها فى الأصل عبيداً ، أو كانوا يمتهنون مهنا ليست مرموقة المكانة أو ملحوظة الشأن ومع ذلك كانوا أئمة أعلاماً ، ومنهم زيد ابن حارثة وبلال الحبشى وسلمان الفارسى وصهيب الرومى . . زيد بن حارثة الذى كان عبداً وأسلم ومع ذلك يقول الرسول عنه إنه من أحب الناس إليه وبلال بن رباح الحبشى مؤذن الإسلام الذى يخبره الرسول بأنه قد سمع خفق نعليه بين

يدى الرسول فى الجنة[1] ويقول الفاروق عمر بن الخطاب عن بلال : «أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيدنا » يعنى بلال بن رباح ! . . ، وسلمان الفارسى الذى سئل عن نسبه فقال أنا ابن الإسلام والذى أخبره النبي بأن الجنة تشتاق إليه ، وصهيب الرومى الذى يقول فيه النبي : « نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » .

ومنهم أنس بن مالك الذى كان خادماً للرسول ودعا له النبي فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه » . ولما مات أنس قال مورق : « ذهب اليوم نصف العلم » قيل له : كيف ذلك ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا فى الحديث قلنا : تعال إلى من سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم (يعنى أنس بن مالك) . ولم يفرق الإسلام بين بلال وأبي بكر ، ولا بين صهيب وعمر ، ولا بين سلمان وعثمان ! . .

ثم مالنا نذهب بعيداً وأمامنا أفضل قدوة وأعظم أسوة ، وهو رسول الله عليه صلوات الله : « لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة . . . لقد كان محمد سيد الإنسانية وإمام البشرية راعياً للغنم ، ونشأ يتيما بلا أب ثم بلا أم ، وكان يصف أمه بأنها كانت امرأة تأكل القديد بمكة ، وكان وهو نبي مرسل لا يأنف أن يحلب الشاة ، وأن يخصف النعل ، وأن يرقع الثوب ، وأن يجمع الحطب ؛ فهل يجرؤ حقير أو صعلوك على أن يعيب محمداً لأنه كان يقوم بهذه الأعمال التى يحسبها المتغطرسون من حقائر الأشياء ؟ ! . .

---

(١) ثبت فى صحيحى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : « دخلت الجنة فسمعت خشف نعليك بين يدى » (تهذيب الأسماء للنووى جا ص ١٣٧) .

ومتى كانت الحرفة — مهما كانت منزلتها — سبباً لعيب صاحبها ، وقد قيل : « رب حجام أو دباغ أو نساج أو بقال هو عند الله وعند نبيه خير من قرشى أمير أو ملك » ؟ ! ومن يدرى فقد يصير هذا المتواضع فى حرفته ، المستضعف فى حياته ، سيداً وقائداً لغيره من المتطاولين عليه ، أو المستخفين به ، والشاعر يقول :

لا تحقرن أمرأ قد كان ذا ضعة فكم وضيع [1] من الأقوام قد رأسا
فرب قوم جفوناهم فلم نرهم أهلا لخدمتنا صاروا لنا رؤسا !

وحسب هؤلاء المكافحين فى سبيل العيش والقوت شرفا أنهم لا يتكلون على ميراث أو اختلاس أو اغتصاب أو استغلال أو سحت ، بل يكسبون قوتهم بعرق جبينهم ، وبطريق شريف نظيف ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول « من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له » . وقيل إن النبى رأى رجلا ورمت يده من العمل بالمسحاة فقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » .

وننظر فى أعلام هذه الأمة الإسلامية وقادتها وأئمتها والبارزين من رجالها فنجد الكثيرين منهم كانوا يعملون ، وكانوا يحترفون ، وكانوا يعالجون بأيديهم ، وكانوا يزاولون حرفاً يعدها الناس قليلة ضئيلة ، فأبو بكر الصديق وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وميمون بن مهران كانوا بزازين ، أى يبيعون الثياب . والزبير بن العوام وعمرو بن العاص وعامر بن كريز كانوا جزارين ، والعوام أبو الزبير وعثمان بن طلحة — الذى دفع له النبى مفتاح الكعبة يوم فتح مكة — وقيس بن محزمة ومجمع الزاهد كانوا خياطين ، وطائفة كبيرة من أعلام هذه الأمة كانوا يبيعون بزر الكتان ولقب كل منهم بلقب « البزار » وجاء فى « القاموس » أسماء كثير منهم . ومالك

(١) الوضيع : الرجل المحطوط القدر الذى لا يحفل به الناس .

ابن دينار الزاهد العالم المحدث المشهور كان وراقا ، يكتب المصاحف بالأجرة . . .

وهذا قاضى قضاة المالكية فى عصره الشيخ شمس الدين البساطى كان يجمع بين خدمة دينه ودنياه ، إذ كان يأكل من صيد السمك ، فكان يخرج بشبكته فيصطاد ما يبيعه ويقتات به ، ثم يخلع ملابس الصيد ويلبس ملابس القضاة ويجلس للحكم بين الناس ، وكان فى عصر واحد مع ابن حجر المحدث الكبير . . .

ولأبى بكر أحمد الخلال محرر المذهب الحنبلى رسالة فى الحث على التجارة والصناعة والعمل . وقد ذكر « الخلال » أن نبى الله داود كان لا يأكل إلا من عمل يده ، وكان يخطب الناس على منبره وإنه ليعمل الخوص بيده . فيعمل منه القفة أو الشىء ، ثم يبعث به مع من يبيعه ثم يأكل من ثمنه ، وكان سليمان ابنه يعمل الخوص بيده ، وادريس نبى الله كان خياطاً ، وكذلك كان زكريا نجاراً ! ! . .

والرسول صلوات الله عليه لم يستقذر للمسلم أن يحترف بأى حرفة ، حتى ولو كانت جمعاً للحطب ، فقد قال : « لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيأتى الجبل ، فيجىء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ويستغنى بثمنها ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه !

لقد جاء إلى النبى — كما يروى الخلال — رجل يشكو الفاقة وله كساء وقدح ، فباعهما له الرسول بدرهمين ، ونصح الرجل أن يشترى فأساً بدرهم وبالآخر طعاماً لأهله ، ثم أمره بأن يجمع الحطب وغيره من الوادى طيلة خمسة عشر يوماً ، وأطاع الرجل فكسب عشرة دراهم ، فأمره النبى أن يشترى طعاماً لأهله بخمسة دراهم وكسوة لهم بالباقى . فقال الرجل : يا رسول

الله، لقد بارك الله فيا أمرتني . فقال له النبي : هذا خير من أن تجيء يوم القيامة في وجهك نكتة المسألة ، إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة : لذى دم موجع ، أو غرم مفظع ، أو فقر مدقع [1] ! .

وربما يعيب رجل منتفخ الأوداج عريض الألواح متكبر النفس رجلا آخر بأنه حمال مثلا ، ولو ذهبنا نبحث عن حال الأول المتكبر لوجدنا فيه عيوباً ومثالب ، ولو بحثنا حال الحمال لوجدناه شريفاً عفيفاً ، غيوراً على الحرمات متحرزاً من الحرام ، مجاهداً للباطل وأهله ، فأى الشخصين أحق بالتقدير وأولى بالاحترام والتوقير ؟ : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ، أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ ! . .

لقد سمعت رجلا مسلما عاملا يقول إنه يستطيب لقمة العيش إذا حصل عليها بعرق جبينه ، وأنه يجد لذة كبيرة إذا أكل هذه اللقمة بعد أن تعب فيها وبعد أن سال عرقه فى بلوغها ، وأنه لا يحس للطعام بلذة إذا أكله وهو هادىء مستريح لم يشتغل ولم يتعب ، ويقول إنه يشعر إذا أسال عرقه فى سبيل اللقمة بأن هذه اللقمة طيبة مباركة طاهرة يجعل الله فيها الغذاء والدواء والشفاء . . .

أليس هذا أيها الناس نوعاً من التفسير والشرح لقول الرسول عليه الصلاة والسلام « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » ؟ . وأمام هذا الرجل العامل الكادح الفقير يوجد أناس من المجرمين اللصوص الذين لا تطيب لهم لقمة العيش إلا إذا اختلسوها . أو عجنوها بعرق البائسين الذين يستبد بهم هؤلاء المجرمون أو يتحكمون فيهم أو يتسلطون عليهم ناسين قول النبي « : كل لحم نبت من

---

(١) أخلاق العلماء ص ٢٥٤

سحت فالنار أولى به » وسمعت عن رجل حلاق ربى أبناءه تربية كريمة . وهيأ لهم إتمام دراستهم الجامعية ، وشغلوا وظائف ملحوظة . وسمعت بآخر غنى مترف ، له الدور والقصور . والعقار والمال . وله ولد وبنت ، فأساء تربيتهما ، فخرج الولد نصف رجل أو قل نصف امرأة ، وحلت البنت شعرها وأسلمت ساقيها للرياح ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا جيداً ودائماً أن الإسلام يحترم « الكناس » المخلص فى عمله ، الذى يعرق فى أداء واجبه ، ، وأن الإسلام يحتقر الرجل الكبير الخائن الذى يهمل فى واجبه ، أو يسرق ويختلس ، أو يأخذ أزيد مما يستحق . . . واذكروا أن الإسلام يكرم العاملين المحترفين مهما كان عملهم ومهما كانت حرفتهم ، وأن الإسلام يهين كل متكبر يعتمد على الأنساب والأحساب ، أو يفتخر بالمال والجاه : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » : فيا عناية السماء كونى مع العاملين الكادحين ، ويالعنة السماء تنزلى على المستغلين المبطلين ! ! (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون : إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . .) .

المسلم بين الغنى والفقر

الحمد لله خلق الخلق وأجرى الرزق ، وهو أفضل الواهبين وخير الشاكرين ، سبحانه أبدع الكون وزانه بنعمه وآياته ، وحشده بخيراته ، ليسعد به من شاء من السعداء ، ويغيظ به من حرم من الأشقياء ، والله عنده حسن الثواب ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، تريد بعبادك التيسير ولا تريد بهم التعسير ، وتدعوهم إلى البناء والتعمير ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، جاهد من أجلك وأجل عبادك . فأحيا الموات وجمع الشتات ، وأخرج البشرية من كهوف التأخر والانحطاط إلى مدارج الرقى والكمال ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحبابه ، وعشيرته وأصحابه ، وأتباعه العاملين بكتابه ، أولئك تتلقاهم الملائكة عند باب الفردوس المقيم هاتفين : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . .

لا يزال بين المسلمين مع الأسف قوم عميت أبصارهم وضلت أفكارهم ولكنهم علت بحكم الصدف أقدارهم ، وانتشرت بين الدهماء إخطارهم ، وهؤلاء الشراذم يذيعون بين الحين والحين ، دعوات أثيمة يصبغونها بصبغة دينية ، يوهمون بها المسلمين أن الدين لا يريدهم إلا فقراء صاغرين ، كسلاء زاهدين ، ويحرضهم على العزوف عن الاكتساب والامتلاك والادخار وجمع المال ، ويقولون ضالين : إن الله إذا أعطى الدنيا لأحد حرمه من الآخرة ، لأن الله لا يمكن أن يجمع النعيم للانسان هنا وهناك ؛ وتلك فرية تنسب إلى الإسلام وهو منها برىء ، إذ لا يعقل أن يدعو هــذا الدين العظيم الخالد

إلى العزوف عن الحياة والخمول فيها والفرار منها ، وهو الذى جاء ليقول للانسان : إنك خليفة الله فى أرضه ، وقد سخر لكم أيها الناس ما فى السموات وما فى الأرض نعمة منه وفضلا ، واستعمركم فى الكون لتكونوا رءوسا واقطاباً ، لا لتكونوا عالة أو ذباباً ، ولتستخدموا ما استطعتم من مظاهر وأسباب فى تجميل الحياة وتنظيم المجتمع . . . والإسلام هو الذى يحرض على العمل والنشاط ، والكسب من وجوه حله وطيبه ، وفى القرآن الكريم آيات كثار تتحدث عن ذلك بوضوح وجلاء والرسول صلوات الله عليه هو الذى يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » ويقول : « كاد الفقر أن يكون كفراً » . ويقول عبد الرحمن بن عوف : « يا حبذا المال أصون به عرضى ، وأتقرب به إلى ربى » . ومن وصايا لقمان لابنه : يا بنى ، استغن بالكسب الحلال فإنه ما افتقر أحد إلا أصابته ثلاث خصال : رقة فى دينه ، وضعف فى عقله ، ووهاء فى مروءته ، وأعظم من هذا استخفاف الناس به ! . . وإذن فلا يدعو المسلمين إلى الذلق والمسكنة والافتقار ، والإعراض عن مناعم الكون وطيبات الحياة إلا أحد اثنين : إما جاهل بالإسلام الحنيف يحسبه رهبانية مبتدعة ، أو تصوفاً محرفاً ، أو تبتلا مسرفاً ، وإما مخادع ماكر له فى تلك الدعوة مآرب خبيثة أخرى ، فهو يريد أن تظلوا فقراء حتى ينفرد هو وحده بالثراء ، وكل منهما مظنون الرأى ، مطعون النصيحة ، خبيث الغاية ، من حقكم إن لم يكن من واجبكم أن تقابلوه بالإعراض والاستهزاء . . .

لعل متسرعاً سيجادل قائلا : كيف تقول هذا وفى الإسلام نصوص كثيرة فى القرآن والسنة تحبب فى الافتقار ، والتخفف من زينة الحياة وعدم الشغف بها والتفرغ لجمع حطامها ؟ . . فنجيب بأن تلك النصوص إنما قامت لظروف خاصة ، ولتعالج عللا طارئة ، ولتصلح أوضاعاً مختلفة ، كأن يشيع الترف والسرف ، أو تشغل الحياة المرء عن العبادة ، أو يتخذ المال من

صاحبه عبداً له يكنزه ويقدسه ؛ والإسلام يريد ممن يحببه فى الفقر أن يفتقر عن قوة واقتدار ، لا عن عجز ومذلة ، بمعنى أن المسلم يجب أن يرفض الفقر الذليل المهين إذا فرض عليه ، أو أناخ بكلكله فوق صدره ، وأن يسعى جاهداً لإزالة سبته عن نفسه الأبية الكريمة ، بأن يكسب ، ويجمع ، ثم ينفق ويفرق ، ولو أدى به ذلك إلى أن يأتى على أغلب ما عنده ، لأن هـــذا سيدعوه إلى معاودة الكسب من جديد ، وهكذا دواليك ، وذلك هو معنى الحياة التى تسمو بمن فيها من الأحياء . . . وإذا كان الحق سبحانه قد اختار لرسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم أن يكون قليل المال ، ليس فى ثروة كسرى وقيصر ، فما كان ذلك عن إهانة أو مهانة ، إذ كان الرسول كسابا قادراً على الاستثمار والربح ، ولقد عرضت عليه الجبال لتكون بين يديه ذهباً وفضة فأباها ، وفضل أن يعيش مسكيناً ، وأن يموت مسكيناً ، وأن يحشر فى زمرة المساكين ،وإنما حدث ذلك بصفة خاصة لتطييب خاطر المحرومين الذين انقطعت بهم الأسباب أولا ، ولإزالة الشبهة عن مقام النبوة الخالصة لله ثانياً ، فلا توصف بأنها ملك أو إمارة ، ولأن الرسول مثل أعلى لا ينطبق حاله على العامة ثالثاً، وحسبنا أن الرسول الذى أراد له ربه وحده أن يكون قليل المال ، هو نفسه الذى كان يحرض صحابته على الاكتساب والربح ، حتى غدا منهم رجال لهم أموال تلفت الأبصار ، وتسير الأحاديث بشأنها فى البقاع والأمصار ، ولم يمنعهم غناهم أن يكونوا المثل السامى فى الهداية والإيمان ! .

وإذاً فمن الواجب علينا إذا أصابنا الفقر لعامل من العوامل أن نرضى به كقضاء كتبه الله علينا ، وأن نحاول التخلص منه أيضاً كما نتخلص من محنة سيقت إلينا . لتشحذ منا الهمم أو تجلو العزائم ، فقد أثر : لو كان الفقر رجلا لقتلته . ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يصبح الفقر ويمسيه باللعنة ، ويسميه « كفراً » . . . فإذا نجحنا فى التخلص من الفقر وكسبنا الكثير المعجب

فلنأخذ فى إنفاقه بحكمة وتعقل على أنفسنا وأهلينا وأقاربنا ، وإخوان لنا فى الوطن والإنسانية ، ولنبذل من موفوره الغزير بذل من لا يخاف من ذى العرش إقلالا ؛ فإذا حدث لفرد منا تحت ضغط ظروف قاهرة أن عجز عن إزاله فقره ، فليصبر عليه صبر الرجال ، لا يذل به ولا يخنع له ، بل يتطلع فى أمل ورجاء إلى تبدل الحال وتغير المآل .

ولعله من واجبنا أن نذكر الذين بأيديهم أعنة الخلائق هنا وهناك ، بأنه ليس كالفقر فى تقويض البناء وتشويه الرواء ونشر الداء . فإن الفقر فى الغالب رذيلة مجرمة ، تسخر بكل فضيلة ومكرمة ، والفقير يستبيح تحت نير الحاجة وضغط الحرمان أن يسرق ويغش ويختلس ، ويتجر بالعرض وغير ذلك من الموبقات ؛ ومراجعة يسيرة لقوائم الجرائم المسببة تكفى لتعريفنا أن الفقر هو القائد الأعظم لكتائب الجريمة والإفساد ، ومن أمثلة العرب : لا تنم بجوار جائع فيأكلك ! . . . أما يوم نبذل المجهود ، نوحد الجهود، للقضاء على الفقر ، بالتكافل بين الطبقات وتنظيم الإحسان والصدقات ، وجمع المفروض من الزكوات ، وإنشاء الشعبي من المصانع والمعامل والشركات ، والقضاء على الجشع والطمع فى مترف الأسر والعائلات ، فسنصل إلى عهد مجيد ، وسنبنى دعائم الحياة على أساس وطيد ؛ فبم نعف النفس عن ضلالها إلا بالمال ، وبم نبنى مرافق الأمة إلا بالمال ، وبم نعد الجيوش إلا بالمال ، وبم نعمر الكون إلا بالمال ؟ فاجمعوا المال أيها الرجال ، اجمعوه من حلال وانفقوه بلاضلال ، واكتسبوا به المحامد وكريم الفعال ! . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

انطلقوا يا أبناء الإسلام فى رحاب الكون ساعين كاسبين ، طاهرين طيبين ولا تدعوا منبع استثمار مباح دون أن تستنفذوا ما فيه من خيرات ،

فالكون قد خلق لكم أنتم ، وإلا فستظلون أذلاء ما دمتم فقراء ، بين أغنياء من مواطنين ودخلاء ، وسيظل المتخمون فيكم بلا حق يتخذون منكم عبيداً أرقاء وخدماً أذلاء ، فتخسرون دنياكم وتصلون فيها نار الحرمان ، وتخسرون دينكم بإعراضكم عن صوت الرحمن ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.أقول قولى هذاواستغفر الله لى ولكم سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الحياة حركة

الحمد لله عز وجل ، بيده ملكوت كل شيء : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يسبح له الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس: « تولج الليل فى النهار ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قضى دهره لله عابداً ، وأفنى فيه مجاهداً ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أغصان دوحته وأقطاب صحبته وأنصار دعوته « إن للمتقين لحسن مآب » .

إن من شأن المسلم العاقل أن يولع بالتدبر فيما يمر عليه ، ويحرص على الاعتبار بما يراه فى توالى الليالى والأيام : « يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . ونحن الآن قد دخلنا أبواب الفصل الذى يسمونه فصل الخريف ، فقد انتهت حدة الصيف ، وبدأ الحر يكسر من شدته ، وشرع النهار يقصر ، والليل يطول ، وأخذت الأشجار تتهيأ لإسقاط أوراقها ، والريح تتأهب لتعصف هنا وهناك ، ولعل أول خاطر يخطر على بال المسلم وهو يشهد انتهاء فصل من العام وابتداء فصل آخر هو أن يتذكر اقتدار البارىء المصور على مداولة الأيام ، وموالاة الأعوام ، وتقليب الليل والنهار : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب» .

ويخطر بباله أيضاً أنه إذا كان قد شهد مرحلة من الحياة فربما لا يشهد مرحلة مثلها بعد ذلك : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس

---

(١) ألقيت فى مسجد الرفاعى بالقلعة يوم الجمعة ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦١ م

بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » . ويخطر بباله أن المسيطر القادر الذى جعل عقب الصيف خريفاً ، وبعد الحرارة برودة ، قادر على أن يجعل عقب الشتاء ربيعاً ، وبعد الربيع صيفاً ، وهو قادر على أن يجعل بعد الضعف قوة ، أو بعد الحياة موتاً : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت . ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » ويخطر بباله خاطر المراقبة والمراجعة والمحاسبة لنفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، فهو يرى أياماً تمر ، وشهوراً تكر ، وعمراً يتناقص حيناً بعد حين ، وكل يوم يطالعه من أيامه يقول له : يا ابن آدم ، أنا يوم جديد ، وخلق جديد ، فماذا أعددت لى ؟ وكيف تقضينى ؟ وهنا يتذكر المسلم قول خالقه . جل جلاله : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » . ويتذكر الأثر الإسلامى الذى يقول : « إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وكثير من الناس يعتبرون « الخريف » نذيراً بالإدبار بعد الإقبال ، وبالهمود بعد الحركة والنشاط ، حتى جعلوا الخريف مثلا فى هذا فقالوا : هذا الرجل قد أدركه الخريف ، أى ضعف وشاخ ، وقالوا : هذه المرأة فى خريف حياتها ، أى ذهب جمالها وبهاؤها . وقد يكون فى الخريف من المظاهر الخارجية ما يوحى بهذا الفهم ، ولكن الخريف فى الواقع فترة انتفاضة ، تخلع الطبيعة فيها ثيابها التى استعملتها فى وجوهها ، واستخدمتها فى أغراضها ، وكأن هذه الثياب قد بليت أو وهت فهى تريد أن تزيلها عنها وتجددها ، وتعد عدتها لارتداء ثياب جديدة قشيبة تصلح لأداء المطلوب منها فى عهد آت بعد قليل ، ولذلك تلقى الأشجار أوراقها ، وتخلع الأرض ما عليها ، وتنطوى على نفسها حيناً ، وكأن أمطار الشتاء تأتيها لتغسلها وتطهرها وتزيل عنها كسل التعب وغبار النصب ، وتهيئها لانتفاضة الحياة ونضرة

الازدهار فى مطلع الربيع بعد وقت يسير : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » ، « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

تعالوا بنا نشاهد الطبيعة كتاب الله المنظور لنرى كيف تتطور وتتجدد، ليكون لنا من وراء ذلك عظة وعبرة ، ودرس ومثل : إن البراعم والأكمام تتفتح فى مطلع الربيع ، وتورق الأشجار ، وتزهر الرياض، وتغرد الأطيار ، فيرى الناس فى ذلك جمالا ومتاعاً ومنفعة ، ثم يقبل الصيف بقوته وصولته ، فتنضج الثمار ويستوى الحصاد ، ويجمع الناس خير الأرض من هنا وهناك ، وكأن الطبيعة تحس عقب هذا الميلاد الكبير والإنتاج الواسع والإخصاب النافع بأنها قد تعبت وأجهدت نفسها ، فلابد لها من راحة واستجمام ، فهى تنزع عنها فى الخريف ثيابها ، ثم تنطوى وتضمر ، وتتفاعل من داخلها أثناء الشتاء، استعداداً لربيع جديد ، وصيف مخصب آخر ، ثم ينتهى الشتاء بزوابعه وزعازعه ، فإذا الطبيعة العافية تتجدد وتنتفض انتفاضة تشعرنا بظهور الحياة القوية التى كانت مستورة لم تضع كما ظن بعض الناس : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » ، « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شىء قدير » .

فلنتعلم من هذه الطبيعة أيها الناس ـ أن الحياة من سنتها التجدد والتنقل من حال إلى حال ، ولو بقيت على صورة واحدة بلا تطور أو تغير لما كانت حياة ، لأن الحياة فى أبسط معانيها حركة ، والحركة انتقال من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال ، ولو جمد الماء فى مكانه لفسد وأنتن ، ولو جمدت الشمس فى مكانها لضاعت فائدتها وتفاقم ضررها ، ولو استقر القمر فى موضعه لما سعدنا بضوئه ، ولو جمد كل حى على وضع له لما كانت هذه الحياة

الكبيرة الواسعة الدائبة التى نرى ونشاهد : « « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

فلنتعلم من الطبيعة أنها تقبل وتدبر ، وتقوم وتقعد ، وتنام وتستيقظ ، وتستجم ثم تخصب ، فأين هذا من الذين قد ينالهم مرض طارئ أو فتور عارض وهم ما زالوا فى وسط القمر أو نضرة الحياة ، فيخيل إليهم أنهم قد بلغوا أرذل العمر ، وأنهم شارفوا النهاية وإن لم يبلغوا الغاية ، فيستشعرون الضعف والوهن ، ويميلون إلى الجمود والكسل ، ولا يفكرون فى تجدد أو تطور ، أو معاودة للتفتح واستقبال الحياة ، ويخيم عليهم ظلال القنوط مع أنه لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ، «ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

إن هناك كثيراً من الأشجار تسقط أوراقها ، وتتجرد أغصانها ، ويخيل لرائيها فى نهاية الخريف أو أثناء الشتاء أنها قد صارت حطباً أو خشباً عديم الحياة أو غير صالح للخضرة ، ولكن هذه الأشجار يأتيها الربيع ، فتتفتح وتخضر ، وتزهر وتثمر ، ويجنى الإنسان منها الجنى الطيب والثمر اليانع ، لأن فيها من الداخل قوة الإخصاب وسر الإنتاج والاستعداد للتجدد والتفتح ، وهناك أنواع كثيرة من الأشجار تظل مخضرة مورقة من الظاهر طيلة العام ، ومع ذلك لا نجد لها ثمراً ، ولا نجنى منها شيئاً ، فالعبرة إذن بالمخبر لا بالمظهر ، وبالقلب لا بالصورة ، وبالجوهر لا بالعرض ، ومن هنا قال الرسول : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، وأقوالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » . فإذا رزق الله عبده قلباً حياً نابضاً واثقاً

به ، مستمداً منه ، غير يائس ولا قانط ، فقد فتح أمامه أبواب الحياة المتفتحة المتجددة المستجيبة لدوافع الطموح والرجاء .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . يقول ربكم جل جلاله فى وصف ذاته : « كل يوم هو فى شأن » أى هو يحدث فى كل وقت أموراً ، ويجدد أحوالا على ما سبق به قضاؤه ، ويقول الحديث الشريف : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » فلنرفع أبصارنا وبصائرنا إلى رحمة هذا الخلاق القدير ، آملين أن يأخذ بنواصينا إلى ميادين الحركة واليقظة والتجدد والتفتح للحياة ، ذاكرين أن الخريف بعده شتاء يتلوه ربيع فصيف ، وهكذا دواليك ، وبعد ظلام الليل نور الصباح ، ومن خلف السحب الداكنة تتألق أشعة الشمس الساطعة ، ومن وراء الشدة فرج ، وبعد العسر تيسير : « إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الخطبة الثانيـــة

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى الهداية والتوفيق وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، اللهم أغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب الدعوات يارب العالمين .

اللهم أنا نسألك أن تؤيد الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى بفضلك كلمة الحق والدين ، وأن تثبت عزائم المؤمنين العاملين ، وأن تتوب على العصاة المخطئين اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن عين لا تدمع ، ومن دعاء لا يسمع يارب العالمين . اللهم وفق ولاة المسلمين للعمل بكتابك وسنة نبيك الكريم ، اللهم وفق ولاة الأمور لما فيه رضاك ، ولما فيه خير العباد والبلاد يا أرحم الراحمين . يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون .

الحياة أمل وعمل

الحمد لله عز وجل ، هو مصدر الخير الذى لا ينفد ، وصاحب الفضل الذى لا يجحد : « ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون ». نشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى المؤمنين بنوره ورحمته : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ويشقى المجرمين بطردهم وحرمانهم : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى الله حق الجهاد ، وجمع باسمه الناس على دعوة الخير والرشاد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » .

هذه الدنيا ميدان تنافس وصراع ، وجنودها المتنافسون فيها هم أهلوها من الأحياء ، والصراع بينهم مباراة وسجال ، فمرة يسبق هؤلاء ومرة يسبق هؤلاء ، والحياة ليل ونهار ، وإقبال وإدبار ، وصحة ومرض ، وراحة وتعب ، وفوز وفشل ، وبضدها تتميز الأشياء ، فلولا لذعة الحرمان ما ذاق المرء لذة الفوز والوصول ، ولولا وخزة الألم والعلة لما عرف المرء قيمة الصحة والعافية ، والصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى ، ولولا مرارة الفشل والهزيمة لما أحسس المرء بمتعة النجاح والتوفيق .

ولذلك كان من الواجب على الإنسان أن يعيش فى هذه الحياة مستعداً لملاقاة الأحوال المختلفة والظروف المتباينة ، متدرعاً بقلب المؤمن ، وعزيمة الصبور ، وأمل الموقن ، الذى ينتزع النجاح من بين أنياب الفشل ، وينتظر

---

(١) ألقيت بمسجد الامام الرفاعى بالقلعة يوم الجمعة ٢٩ يونيه سنة ١٩٦٢ م

الضياء من خلف الظلمات ، ويحسن احتمال الصعاب يمهد طريقه إلى غايته ومأموله ، لأنه لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة ؛ وهناك فريق من الناس يظنون الحياة — أو يريدونها — على الدوام طريقاً مفروشاً بالورود والرياحين والحرير ، فإذا أصابتهم أزمة ، أو نالتهم صدمة ، ركنوا إلى اليأس ، وسقطوا فى هاوية القنوط ، مع أن الحق تبارك وتعالى يقول : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ويقول : « فلا تكن من القانطين » .

وقد يرسب الشاب فى الامتحان مثلا ، فيفلت منه زمام نفسه ، فى الانتحار أو الانكسار ، أو الإدبار عن مواصلة المحاولة والمغالبة لأسباب الرسوب ، وقد يفشل الرجل فى صفقة أو عمل فتنهار أعصابه ، ويسد منافذ الحياة فى وجهه بنفسه ويده ، وقد يخون الحظ رجلا فى معركة أو جولة فينفرط عقده وينتفض جسده ويتبلبل خاطره ، حتى يرى الدنيا أمامه ، وكأنها ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور . . . ولو تذكر هؤلاء أن الليل مهما طال يعقبه نهار وضاح ، وأن الفشل قد يكون أخصب مزرعة لثمرات التوفيق ، وأن الغمرات تقبل على الأبطال ثم تنجلى ويبقى الأبطال كما هم ، وأن فترات من الزمان تمر على الرجال بيأسائها ولأوائها لتمتحن نفوسهم وتبتلى عزائمهم فتزيدهم خبرة وتمحيصاً . . . لو تذكر هؤلاء ذلك لتلقوا ما ينالهم من صعوبة أو تعويق بعزم حديد وصبر جميل .

والله جل جلاله — وهو خير معلم وأول مؤدب — يرشدنا إلى أن نحسن الظن به ، وأن نوسع الرجاء فيما عنده ، وأن نتذكر أن الأمور بمواقيتها ، وأن شئون الحياة تجرى بمقدار وأقدار : « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم » فرزقه ممدود ، وفضله غير محدود ، ولكنه سبحانه ذو تدبير وتقدير : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . وهو يرشدنا إلى مواصلة الطلب

واستمرار الدأب ، ويحذرنا من الاستكانة للضعف أو اليأس ، فيقول : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون (مؤمنون بربهم عابدون له) كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين» ويقول : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم (أعداء المؤمنين) إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » .

وتاريخ المسلمين الأوائل يفيض بمواقف المصابرة والمغالبة ، والمواصلة للأعمال والجهود ، والمقاومة لليأس ، والمكافحة للهزيمة ، والمغالبة للفشل ... ألم تروا أسلافكم المسلمين وقد انكسروا فى غزوة أحد ، ودارت عليهم الدائرة لحكمة يعلمها ربهم ، وكثرت جراح رسولهم ، واشتد الأمر عليهم ، وصرخ زعيم المشركين المنتصرين يومئذ يقول : « إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هبل » . فأراد الرسول أن يهون أمر الشدة على أتباعه ، وأن يبعث الأمل والثقة فيهم ، فقال لعمر : قم يا عمر فأجبه فقل : « الله أعلى وأجل ، لاسواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار » .

ويعود أبو سفيان فيصرخ : « إن لنا العزى ولا عزى لكم » . فيقول الرسول : « الله مولانا ولا مولى لكم » . . وفى اليوم التالى لغزوة أحد أذن مؤذن الرسول فى المسلمين بالخروج لملاحقة العدو ، حتى لا يظن بهم الضعف واليأس ، وأمر الرسول بأن لا يخرج إلا من حضر غزوة أحد ، وذلك لتقوى معنويتهم . ويعتزوا بأنفسهم ، وخرجوا فأرهبوا المشركين إرهاباً شديداً . .

ونحن نذكر غزوة الخندق يوم أحاطت أحزاب البغى والطغيان بمدينة الرسول يريدون القضاء عليه وعلى قومه : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ،

هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً » ومع ذلك صبروا وصابروا ، وجاءت عاصفة الله فشتت شمل المجرمين ، وعقب الرسول على ذلك تعقيب الراجى الآمل الذى لا ييأس ، ولا يقبل اليأس لمن معه فقال : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم » . وقد تحقق ما وعد به الرسول ، فتوالى انتصار المسلمين على الكافرين حتى فتحوا الفتح المبين ، وذلك بفضل الثبات واليقين ، والوقوف فى وجه اليأس والقنوط : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

ويأتى يوم « صلح الحديبية » وتفرض على المسلمين شروط ظاهرها القسوة ، ولكن الرسول يقبلها ويصبر عليها ، لبعد نظره ويقينه بوعد ربه ونصره ، ويشتد الأمر على بعض المسلمين حتى يقول عمر : « علام نعطى الدنية فى ديننا » ؟ . ويجيب الرسول : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » . ويرجع المسلمون بلا حج ، ويظن بعضهم الظنون بهذا الرجوع ، ويرونه هزيمة وانكسار ، وفى الطريق ينزل قرآن مجيد ، يفتح أبواب الأمل ، ويطرد شبح الهزيمة والكسل ، ويصور هذه الشدة خيراً ونصراً ، ويعدها قنطرة الفوز والغلبة : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن العرق المتصبب من جبين المكافح المناضل الراجى الآمل هو الرى الذى يسقى شجرة الفوز والنجاح ، وإن الطريق المحفوف بالمصاعب والأشواك هو المؤدى إلى المجد والرفعة ، ويد المؤمن فى هذه الحياة موصولة بيد الرحمن جل جلاله ، كلما عثر أو تعب آوى إلى ركن شديد ، وهو ركن الله العزيز المجيد ، واستعان بيد قوية هى

يد الله القوى الحكيم ، فلنقبل على الحياة إقبال المغالبة والمناضلة فى عزيمة وإيمان ، ولنرقب نور الله حتى فى أحلك الظلمات : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . ولنتذكر قول الرسول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، فإن لو تفتح باب الشيطان » وقوله : « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا » ، ولنؤمن دائماً بأن الله معنا ، وأنه هادينا وراعينا بإيماننا ويقيننا : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الدين والصناعة

الحمد لله عز وجل ، « بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يهدى العاملين ، ويثبت المحسنين ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، بنى وعمر ، وأصلح وأثمر ، فكان خير المصلحين وإمام المرسلين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، المهتدين بأعماله وأقواله : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاه والسلام :

أصدقكم الحديث حين أقول لكم إننى اهتززت هزة الفخار والاعتزاز والثقة حينما رأيت صاروخاً عربياً صنعه وطنى ، وأتقن صنعه إخوة لى فى هذا الوطن ، ولا يمكن لأى فرد سوى مؤمن فى هذه الديار المؤمنة إلا أن يهتز ويعتز بمثل هذا النصر الصناعى الكبير ، لأن مثل هذا الصاروخ سيكون لنا درعاً وحصناً ، نتخذه وغيره من الأسلحة فى يوم الفصل أداة لرد العدوان وتحرير ما أغتصب من الأوطان ؛ ولقد كانت بلادنا فى عهود الظلم والظلام مقصورة على الزراعة ، يدخل أعداؤها فى وهمها أنها لا تزيد عن كونها مزرعة ، وكانت خيرات هذه المزرعة تنتهى إلى الدخلاء ، وفضلاتها تبقى للمكافحين الشرفاء ؛ ثم اتجهنا إلى الصناعة والتصنيع ، فإذا الأيدى الماهرة تحسن العمل والصنع والإنتاج ، وإذا بنا نجنى ثمرة ضخمة من ثمرات التصنيع فى بلادنا وهى الصاروخ ، وإذا بنا نزداد إيماناً بأننا نستطيع أن نعمل الكثير ،

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ١٣٨٢ هـ الموافق ٢٧ يوليه سنة ١٩٦٢ م

وأن نصنع الكثير ، فتزداد أمامنا الثمرات والخيرات ، وتتضاعف الصناعات والمنتجات ، لنستعين بها فى السلم والحرب على السواء .

ومن واجبنا هنا أن نتذكر قول ربنا جل جلاله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وكلمة « قوة » تشمل كل نوع من أنواع القوة ، وكل جزء من أجزائها ، سواء ما كان منها بادياً أو خافياً ، وسواء منها ما كان حسياً أو معنوياً وسواء ما كان منها للتحصين أو الدفاع أو الهجوم ؛ وهذا هو القرآن الكريم يحرضنا بقوة وشدة على الصناعة والتصنيع ، فهو يقول : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » والحديد هو المادة الأساسية لأغلب الصناعات السلمية والحربية ، وقد جمعت الآية بين الصنفين من الصناعات ، فهى بذكرها « للبأس الشديد » قد أشارت إلى صناعات الحرب والقتال ، وبذكرها لمنافع الناس قد أشارت إلى الميادين المختلفة التي يستعمل فيها الحديد لتوفير الخدمات والمصالح لأبناء الأمة هنا وهناك . ومن عجيب حديث القرآن المجيد عن الصناعة أنه أشار إلى صنعة الله المبدعة الخلاقة ، حين قال : «وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تعملون » ، وذكر القرآن أن طائفة من الأنبياء كانت تصنع ، فقال عن داود : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ، فهل أنتم شاكرون » واللبوس عند العرب هو السلاح كله كما يقول المفسرون وقال عنه أيضاً : « وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر فى السرد ، واعملوا صالحاً إنى بما تعملون بصير » وقال عن نوح : « ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون». ثم انتقل القرآن إلى تصور حالة الصناعة فى عهد نبي الله سليمان وكيف اتسع نطاقها ومجالها ، بعد أن سخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر وبعد أن أسال له « عين القطر » وهى معدن النحاس الذائب ، وكيف سخر الله الجن « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور

راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور » . وفى هذه الآيات التى تتحدث عن الصناعة عند داود وسليمان نجد القرآن قد جمع بين صناعات السلام والأمن والمنفعة الاجتماعية وبين صناعات الحرب والحصانة والمقاومة ، فقد ذكر اللبوس والسابغات فى شأن داود وهى الدروع والأسلحة ، وذكر فى شأن سليمان الأبنية والنقوش وأدوات الطعام وأوعية القوت الكبيرة ، وكأن القرآن بذلك يريد أن يقول لأبنائه : لا تنسوا الصناعة ، بل امنحوها عنايتكم ورعايتكم ، ولا تقتصروا على صنعة دون صنعة ، بل اصنعوا للحرب وللسلام ، واصنعوا للاعداد وللاسعاد ، واصنعوا للانسان وللميدان ، وبذلك تكونون من المفلحين .

وهذا سيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كان الرحمة المهداة والنعمة المزجاة ، والنور لهذه الحياة ، وكان يدفع قومه إلى كل مجال من مجالات العمل والصنع ليعودوا على أنفسهم وإخوتهم والإنسانية بالخير والبر والرفاهية ، فإذا جد الجد ، وحان وقت النضال ، كان هذا الرسول الكريم الرحيم هو القائد الحكيم العظيم ، وهو المجاهد الحازم الصارم ، وهو الذى يجند كل شىء فى سبيل النصر والفوز ، ويحرض على ذلك حتى يهتف ويردد : « من مات دون ماله فهو شهيد ، ومن مات دون عرضه فهو شهيد ، ومن مات دون دينه فهو شهيد » ؛ ولقد رأيناه فى حصاره للطائف ينصب عليها « المنجنيق » ، وهو ما يرسل القذائف كالقنابل ، وقد أشار عليه بهذا سلمان الفارسى ، وروى أن الطفيل بن عمر وهو الذى أحضر المنجنيق ومعه بعض الدبابات على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فاستعملوها فى غزوة الطائف . وكانوا يضعون الدبابات ويغطونها بجلود الإبل والبقر ، ويدخلون فى جوفها فتحفظهم من السهام والحجارة ، وكان هذا أول منجنيق رمى به فى الإسلام ..

ويجب أن نتذكر أن القرآن المجيد حينما يدعو إلى الصناعة والتصنيع ، إنما يدعو إلى صناعة الخير والنفع والإصلاح ، فهو يدعو إلى صناعات يسعد

بها الجميع فى عهود السلام والأمان ، ويدعو إلى صناعات حربية ، ولا تبغى ولا تطغى ، ولا تخرب ولا تدمر حبا فى التخريب والتدمير ، بل تكون إعداداً للدفاع وصد العدوان . وتكون إرهاباً لأعداء الله وأعداء عباده ، حتى لا يتطاول هؤلاء المجرمون على كرامة الإسلام أو عزة المسلمين ، ولذلك يحمل القرآن حملة شديدة على صناعات البغى والتجبر والتكبر ، ويقاوم إنشاءات العبث والخبث ، فيقول على لسان هود لقومه الكافرين : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون » . ويقول عن بغى فرعون وقومه ، وما كانوا يقيمونه من أبنية للتعذيب ، ومنشئات للبغى والطغيان : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ويقول مرة أخرى عن الذين يعملون فى ضلال وخيال ، ويسعون على غير هدى أو منار : « الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . وهكذا يمضى القرآن فى الحملة على صناعة الظلم والإثم ، بعد ما أيد صناعة الخير والبر ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الأمة المؤمنة بعد أن استيقظت وتحررت وعرفت طريقها فى الحياة ، وأدركت موعدها مع القدر ، فى أشد الحاجة إلى العقول المفكرة ، والأيدى البانية ، والهمم الصانعة ، والمواهب المبدعة . وهى فى أشد الحاجة إلى أن تعمل كل ما تستطيع لدعم أمنها ورفاهيتها ، وأن تعمل كل ما تستطيع لصيانة حريتها وكرامتها ، ولذلك يبارك الإسلام كل جهد يبذل فى هذه المجالات ، ويعتبره لوناً من ألوان التقرب إلى الله ما دامت تتوافر فيه عناصر الإيمان والإخلاص والقصد إلى وجه الله تعالى وخدمة عباده فى هذه الحياة ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

خمس ركائز

الحمد لله عز وجل ، رسم معالم الطريق ، وهيأ أسباب التوفيق : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » أشهد أن لا إله إلا الله ، دعا إلى الخير ونهى عن الشر ، « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أمرنا بالاتباع ونهى عن الابتداع ، فعليه من ربه الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول الإمام الأوزاعى رضوان الله عليه : « خمس كان عليها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان : لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المسجد ، وتلاوة القرآن ، والجهاد فى سبيل الله » . والأوزاعى هو الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى الذى عاش فى القرن الثانى الهجرى حيث توفى سنة سبع وخمسين ومائة ، وهو فقيه الشام الذى أضاع قومه فقهه ، كما أضاع أهل مصر فقه إمامهم الليث بن سعد رضى الله عنه ، وفى هـذه العبارة التى رددها الأوزاعى أعطانا صورة لما كان عليه صحابة الرسول والتابعون لهم بإحسان ، وهؤلاء هم الرعيل الأول والطليعة المباركة فى تاريخ الإسلام ، وفيهم يقول القرآن : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » . ويقول الرسول عن المخلصين الأوفياء من أصحابه : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » . وأول

---

(١) ألقيت فى يوم الجمعة ٤ من رجب سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ٣ من أغسطس سنة ١٩٧٣ م

صفة من صفات هذه الطليعة : « لزوم الجماعة » والاجتماع على الإيمان والعمل الصالح هو أصل الفلاح وسر النجاح ، ولذلك قال التنزيل : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » وقال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . وقال رسول البشرية محمد : « يد الله مع الجماعة » وقال : « عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد » .

والصفة الثانية هى « اتباع السنة » والسنة هى كل ما صدر عن الرسول من قول أو عمل أو تقرير أو سلوك ، ومادام الرسول هو المثل الأعلى الذى صاغته القدرة الإلهية ليكون قرآناً عملياً يمشى بين الناس ، حتى قالت عنه عائشة « كان خلقه القرآن » . فإن الاقتداء به فى كل الأمور هو الهادى إلى الصراط الذى لا يضل ولا يزيغ ، ولذلك قال رب العزة : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » ويقول : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما » . ويقول المصطفى : « تركت فيكم ، ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، كتاب الله وسنتى » .

والصفة الثالثة هى « عمارة المسجد » والعمارة كما تكون بالبناء والتشييد ، والتطهير والتنظيف ، تكون أيضاً بالتردد على المسجد وتعميره بالصلاة والذكر والدعاء ، والقرآن يمجد عمارة المساجد حين يقول : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » . ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أحب البلاد (أى البقاع) إلى الله مساجدها » . وفى الحديث القدسى « إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وإن زوارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ، ثم زارنى فى بيتى ، وحق على المزور أن يكرم زائره » .

والصفة الرابعة هي « تلاوة القرآن » ، والقرآن هو الدواء والغذاء ، وهو الضياء والشفاء ، وتلاوته فرض على كل مسلم حسب طاقته واستطاعته ، وهي من طلائع الأوامر الإلهية لنبي هذه الأمة المحمدية : « ورتل القرآن ترتيلا » ، وهي دعوة أبي الأنبياء لحفيده محمد : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » وهي وظيفة الرسول مع الناس : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ويقول سيد الخلق محمد : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ويقول : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

والصفة الخامسة هي « الجهاد في سبيل الله » والجهاد هو عماد الأمر وسنامه وهو بدء العز وختامه ، وهو التجارة الرابحة ، والطريقة الناجحة ، والقرآن يقول : « انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار إليها » .

هذه هي الصفات الخمس التي كان عليها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان ، فماذا بقي لنا نحن المسلمين من هذه الصفات؟ ماذا بقي لنا من « لزوم الجماعة » ؟ . لا جماعة لنا في فهم الدين ، فالمذاهب شتى والفتاوى متضاربة . ولا جماعة لنا في السياسة ، فكل دولة من دول الإسلام في واد ، وكل حاكم من حكام المسلمين في اتجاه ، وأعداؤنا يأكلوننا تباعاً ، ثوراً بعد ثور ، ولا جماعة لنا في التقاليد والعادات نحن نتبع كل ناعق

ولا شخصية لنا كمسلمين بين الناس . وماذا بقى لنا من اتباع السنة ؟ أنحن نتبع سنة الرسول حقاً فى الاعتقاد والتعبد والسلوك ، وكيف وقد بلغ استخفاف كثير منا بالسنة أننا أصبحنا نطلق كلمة « سنى » على أنها لفظة سخرية واستهزاء ، ونجعلها دليلا على التنطع والجمود ؟ . وماذا بقى لنا من عمارة المساجد ، وقد كان القادرون من المسلمين قديماً يحرصون على إقامة المساجد وتعميرها ، حتى شاهدنا عدة مساجد تجتمع فى ميدان واحد ، وصرنا اليوم نحتاج إلى مساجد كثيرة فى كثير من الأماكن ، وأصبحت مساجدنا ، القائمة فى حاجة شديدة إلى الترميم والتنظيف ؟ . وماذا بقى لنا من تلاوة القرآن المجيد ، وقد كان أسلافنا يفتتحون نهارهم بالتلاوة ويختمون ليلهم بالتلاوة ، وكان أبناء الإسلام يضعون المصاحف فى جيوبهم وعلى صدورهم ، وكانت خفقات قلوبهم تستمد حركتها من كلمات القرآن المجيد ، فأصبح القرآن نسياً منسياً عند شباب الإسلام اليوم ، ومن أقبل على القرآن وصفه الآخرون بأنه رجعى متأخر لا يليق بعصر المدينة والنور . وأخيراً ماذا بقى لنا من الجهاد فى سبيل الله ! غزينا فى عقر دارنا ، وحقت علينا شقوتنا ، وثقلت علينا نكبتنا . ولم يبق لنا إلا اجترار الألفاظ واستحياء الخبال .

إنها خمس صفات فيها جماع الخير : « لزوم الجماعة » والجماعة هى الحزب : حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » . و« اتباع السنة » والسنة هى المنهج والتخطيط « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وعمارة المساجد ، والمسجد بيت الله فى الأرض ، وهو الدار التى تسع وتجمع بلا غرض ولا مرض : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ، « وتلاوة القرآن » والقرآن هو الدستور ، وهو القانون ، وهو الأساس ، « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون و« الجهاد فى سبيل الله » والجهاد

هو الدرع الواقية والحارس الأمين وسبيل المتقين «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلنا وان الله لمع المحسنين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن هاتفاً من ضمير الغيب يصرخ فينا : أين أنتم ؟ وفيم أنتم ؟ إلى أين أنتم ؟. أما من سميع مجيب أم أن الأمر قد بلغ قول القائل :

لقد اسمعت لوناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الدين والشيوعية

الحمد لله عز وجل ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، والمؤاخذ لكل يد بما اجترحت « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » : أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة ومصدر التوفيق : « من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كاشف الغمة وهادى الأمة إلى أقوم طريق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأوفياء وأصحابه الأتقياء وأتباعه الأمناء « الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الأمة القوية الصالحة للبقاء والخلود هي الأمة التي تواصل العمل والكفاح ، فتخرج من ميدان إلى ميدان ، وتنتقل من امتحان إلى امتحان ، لأن هذه المعارك العملية النضالية هي التي تقوى سواعدها وتشحذ عزائمها وتجعل أبناءها أشبالا عاملين وجنوداً مرابطين ؛ والأمة التي لاتتعرض للاختبار الطويل والتمحيص المتكرر تضعف ثم تزول ، والأمة الإسلامية تتعرض منذ أقدم العصور لصنوف من الأحداث وألوان من البلايا ، وقد لاقى الإسلام ما لاقى من المحن والإحن ، ومع ذلك بقى وخلد ، ولو كان من صنع غير الله لما ثبت أمام كل هذه النكبات ، بل يعد من باب المعجزة أن يبقى الإسلام ويدوم مع ما أصابه فى مختلف القرون مما يحطم الجبال ويهد الرواسى الشامخات ؛ ولقد ابتلينا نحن أبناء الأمة المؤمنة فى مراحل نضالنا القريبة بثلاثة أنواع من الاستعمار الغربى ، والاستعمار الصهيونى ، والاستعمار

---

(١) ألقيت بمسجد الامام الرفاعى فى يوم الجمعة ١٦ من شوال سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٤ من ابريل سنة ١٩٥٩ م

الشيوعى ؛ ولقد قاومنا الاستعمار الغربى الذى استبد بنا قرابة قرن من الزمان حتى اندحر وانكسرت شوكته فى أكثر ميادينه ، واستطاع الاستعمار الصهيونى — فى حين غفلة منا وفرقة — أن يضع فى جسم أمتنا العربية المسلمة خنجراً خبيثاً مسموماً هو تلك الدولة الدخيلة العليلة المصطنعة « إسرائيل » ، وإذا كان هذا الخنجر قد بعثنا بشروره وفجوره من رقادنا فانطلقنا نتنادى ونتجمع ونتكتل ، فإن واجبنا أن لا نسكت عليه أو نرضى به ، بل يجب أن لا يهدأ لنا بال أو يقر قرار حتى نسترد أرض الإسراء والمعراج فلسطين لأهلها ، ولن يكفينا أبداً أن نحاور أو نداور فنطالب مثلا بما يسمونه « حقوق عرب فلسطين » أو « عودة اللاجئين » ، بل الواجب الأساسى هو أن تعود فلسطين عربية إسلامية كما كانت ، لأنه لن تسلم العروبة ولن يعز الإسلام وفى صميم كياننا هذا الخنجر الخبيث المسموم ، ولابد أن يوماً آتياً يتلاقى فيه أبناء العروبة والإسلام على صعيد الانتصاف الحق والثأر العادل ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء . .

ثم ابتلينا أخيراً ببدء صراعنا مع الاستعمار الشيوعى ، أو الإلحاد المادى الذى يقول : إن الكون والحياة والإنسان مادة ، وإن الله جل جلاله غير موجود وإن الدين خرافة ، وإنه أفيون الشعوب ومخدر الجماهير ، إلى آخر ما يقولون من مبادىء تعصف بالدين والروح والأخلاق وكرامة الإنسان . . . ولو دققنا النظر لوجدنا أن الاستعمار الشيوعى أخطر من الاستمار الغربى ، لأن الاستعمار العربى احتلال يراد منه سلب خيرات وامتصاص دماء ، وأما الاستعمار الشيوعى ففيه سيئات الاستعمار الغربى وفيه بعد ذلك مقوضات للعقائد ، ومعاول للأديان ، ومحطمات للأخلاق والقيم الروحية . . . وقد شاء الله الذى لا راد لقضائه أن تخدعنا الشيوعية ببريقها ولمعانها فترة من الزمن ، وغمرتنا صحفها ومجلاتها وأفلامها ووفودها ، وخيل لكثير من الناس أن الذئب

قد صار حملا ، وأن الثائر الأحمر قد أصبح ملاكاً ، وأن الذى استبد بملايين كثيرة من المسلمين فاحتل ديارهم وسامهم الخسف والهوان قد أعطى هؤلاء حرياتهم وجعلهم يتقلبون فى جنات وفراديس ، ثم شاءت عناية الله ودقيق صنعه لدينه وعباده أن تلقى الشيوعية قناعها وتبدأ مع العروبة والإسلام صراعها فإذا الاحتلال الشيوعى يبدأ زحفه ، وإذا الإلحاد المادى يكشف عن حقيقته وإذا القرآن والدين والعلماء والأخلاق والحريات تتعرض لما تتعرض له على أيدى الشيوعية ودعاتها والمخدوعين بها ، وهنا أدركت الأمة أنه لابد لها من التكتل ضد هذا الخطر القديم الجديد ؛ واستبان للناس أن هذا الخطر لا يقاومه ولا يقضى عليه سوى الدين والإيمان بالله والاعتصام بالعقيدة التى تصل أسباب الإنسان بقيوم السموات والأرض ورحمن الدنيا والآخرة ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . . .

ومن عجيب صنع الله لدينه وقرآنه أنه قد صرح بضرورة الرجوع إلى الدين الذين كانوا يؤمنون به والذين كانوا يعرضون عنه أو يسخرون منه ، ورأينا الجميع — إما بطريق الإيمان أو بطريق المتابعة والمداهنة ، أو بطريق الخوف والرهبة — ينادون بالرجوع إلى الله ، والاعتصام بالدين ، والمسارعة إلى التعبئة الروحية لتقف فى وجه هذا الطوفان الشيوعى الإلحادى المادى ، وأقيمت لذلك مؤتمرات وندوات وهذا رجل يذيع عنه الناس أنه معروف بجرأته على الدين ومناهضته لرجاله ، يقف بين الجموع فيمجد الدين ويطالب بالرجوع إليه ، ويرفع شأن العقيدة ، ويظهر ألمه البليغ من التطاول على القرآن ، ويقرر على مسمع من الناس أن الدين هو المقوم الأكبر للقومية ، وأن الإيمان بالله واليوم الآخر هو عماد الأمة وسنادها ، حتى عجب الكثيرون عندما سمعوه ، وقال البعض : إن كان هذا عن إيمان ويقين فلعلها رجعة أقبلت أو توبة جاءت ، وإن كان يصانع ويداور فيالقسوة الحكم على الإنسان إذا الريح مالت مال حيث تميل ! . .

ومع قول الجميع الآن بوجوب الرجوع إلى الدين لحماية الدولة من الخطر الشيوعي نجد أن كثيرين لا يزالون يخافون من ذكر كلمة « الدين » صريحة واضحة فى كتاباتهم وتصريحاتهم ، ونراهم يلفون حولها ويدورون ، فتارة يقولون المقدسات وتارة يقولون المعتقدات ، وتارة يقولون التربية الروحية والتهذيب الأخلاقى ... لا تخافوا أيها الناس أو لا تداوروا ، وقولوها صريحة واضحة وضوح شمس الصيف عند الظهيرة قولوها مجلجلة عادلة : نحن فى حاجة إلى الدين العاصم من الانحراف والاعتساف ، ونحن فى حاجة إلى الإسلام الذى يدعو إلى دار السلام ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط مستقيم . . . فإن قيل لكم إن هناك فى الأمة غير المسلمين ولهم دين غير دين الإسلام فقولوا : لا ضير من ذلك ولا تعارض ، فنحن نريد للأكثرية الغالبة المسلمة أن تعرف دينها وتتمسك به وتطبق تعاليمه ، ولا نمنع المتدين بدين غير الإسلام أن يتمسك بدينه ويعمل به ، ولأن غير المسلم متديناً بدين سماوى خير وأفضل من أن يكون زنديقاً ملحداً متحللا ، والإسلام لا يريد لأبنائه حينما يعملون به أن يظلموا غيرهم ، أو يهضموا حقوق سواهم من مواطنيهم أهل الأديان السماوية ، بل لهم مالنا وعليهم ما علينا ، والله رب الجميع .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان عجيب صنع الله لعباده ودينه أن يريهم رأى العين أن حصنهم الحصين هو الدين ، وأن وقايتهم المنيعة فى الإيمان به والاعتصام بحبله ، ونحن نرجو أن تكون العودة إلى دين الله عودة صادقة موصولة ، تزول عن طريقها المآثم والسيئات ، وتتحقق فى ظلها الخيرات والثمرات ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الدين وقيمة العمل

الحمد لله عز وجل ، زان الحياة بالأمل ، وقواها بالعمل : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعباده ربه أحداً » أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى العاملين ونصير المناضلين : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، آمن فأيقن ، وعمل فأتقن ، وجاهد فأحسن ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نعق ناعق فقال بحماقة وصفاقة « إن التدين يؤدى إلى الركود والكسل ، ويوجد السلبية والانعزالية » ؛ وهذا ضلال من القول وزور ، فنحن حينما نرجع إلى مبادئنا الدينية وتعاليمنا الإسلامية نجد أن الدين يؤكد أن العمل هو القيمة الأساسية للانسان ، فليس للانسان من قيمة ولا مكانة فى نظر الدين إلا بعمله ، وبمقدار ما يحققه من ثمرة بهذا العمل ، ولذلك قال القرآن الكريم : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ويأتى الحديث النبوى فيزيد هذه الحقيقة الدينية تأكيداً وتوطيداً ، فيرينا أن الإنسان لا يقام له ميزان على أساس لونه أو جنسه أو نسبه وطبقته ، بل يقام له هذا الميزان على أساس عمله وقيمة هذا العمل ، فيقول الرسول : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » ، ثم يقول الإمام على : « قيمة كل

---

(١) ألقيت يوم الجمعة ٧ من شوال سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٢٨ من يناير سنة ١٩٦٦ م

امرئ ما يحسنه » . فالعمل إذن هو أساس التفاضل والتمييز ، وبهذا أهدر الإسلام الافتخار والاعتزاز . بالطبقة أو العنصر أو اللون ، ونادى سيد البشرية محمد على هذا الإهدار بأعلى صوته حين قال لآ له : « لا يأتيني الناس بالأعمال ، وتأتوني بالأنساب » .

وإذا كنا نقول إن العمل حياة ؛ فمعنى هذا أن الإنسان يستحق وصف الكائن الحي بصدق وجدارة إذا كان له في الحياة عمل ، ولم يكن عاطلا بالوراثة ، أو الحماقة ، وهذا يذكرنا بالكلمة البليغة التي قالها عمر بن الخطاب وهي : « إني أرى الرجل فيعجبني شكله ، فإذا سألت عنه فقيل لي : لا عمل له ، سقط من عيني » ! ، وكان هذا الإنسان في نظر عمر يفقد قيمته واعتباره أو كيانه وحياته ، إذا لم يكن له عمل يؤديه ، فهو يهبط حينئذ من نظر عمر ، ويسقط عن مستوى عينه التي تريد أن ترى رجلا ، فإذا هي تجد أمامها حيواناً في شكل إنسان . . وهذه الكلمة العمرية تذكرنا بأخت لها قالها عبد الله بن مسعود وهي : « إني أكره أن أرى الرجل فارغاً : لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة » . ولذلك تعرض بعض المفسرين لقوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب» قال إن المعنى هو : إذا انتهيت وفرغت من واجب ، فلا تركن إلى الكسل أو النوم ، بل أشرع في واجب آخر ، وانصب له واتعب فيه ، فما تكاد تفرغ من واجب ، وتأخذ راحة ميسورة بعده حتى تشرع في واجب يليه ، وهكذا دواليك ، وإن استطعت أن تلقى ربك وأنت في حركة دائبة من عملك وسعيك ، فلا تقبل لنفسك أن تلقاه مجرداً من سمة الحياة الأصيلة وهي الحركة والعمل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام !

ولقد حث الإسلام الحث القوى على العمل ، وجعله فى مكانة رفيعة حين أخبرنا نبينا عليه الصلاة والسلام أن العمل شيء يحبه الله تبارك وتعالى ، فقال : « إن الله يحب العبد المحترف » . وقال عن اليد العاملة : « هذه يد يحبها الله ورسوله » . وقال : « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة (أى الحرفة) ليستغنى بها عن الناس » ولعله عبر هنا عن العمل بكلمة « المهنة » ليشير إلى أن العمل أحسن من التبطل ، حتى ولو كانت الحرفة فى نظر بعض الناس مهينة وقال أيضاً : « من أمسى كالا (أى متعباً) من عمل يده أمسى مغفوراً له » . ويقول الأثر الإسلامى : « لو علم عباد الله رضى الله فى إحياء أرضه لم يبق على وجه الأرض خراب » ، وهذا حث قوى على التعمير حتى لا يبقى جزء من الأرض دون إصلاح أو استعمال أو استغلال ؛ ومن المعلوم بداهة أن التعمير لا يتم إلا بالعمل على اختلاف أشكاله وألوانه . وإذا كنا نؤمن بأن العمل واجب فهذا الإيمان مستلهم ومستمد من ديننا الذى يقول رسوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . ويقول فاروقه عمر : «لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم أرزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » . كما يقول : « تعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنته » . وكأن هذا توجيه للذين يستغنون فى حاضرهم عن العمل ليسرهم أو اقتدارهم المالى ، فهو يطالبهم بأن يتعودوا عملا من الأعمال – مهما كان كان هذا العمل – لأنهم سيحتاجون عما قريب إلى هذا العمل ، ، ولأن يمارسوه ممارسة الخبراء عند الاحتياج إليه ، خير من أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى ممارسته بلا خبرة ولا تدريب ، وممارستهم للعمل حينئذ – مهما كانت قيمته – خير من تعرضهم للاستجداء ، ولذلك يقول عمر : «مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس» ، وكأن هذا القول مقتبس

من قول إمام الأنبياء : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

وإذا كنا نؤمن بأن العمل شرف فهذا استهداء أو استحياء من نور خالقنا وهدى بارئنا ، لأن الدين يؤكد أن العمل الطيب النافع شرف لصاحبه وأى شرف ، ولقد رأى الصحابة شاباً بكر ساعياً إلى عمله الدنيوى ، فتمنوا أن يكون نشاطه فى سبيل الله ، فأنكر عليهم النبى قولهم ، وقال لهم : لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان قد خرج يسعى على نفسه ليعفها ويكفها عن السؤال فهو فى سبيل الله ، ، وإن كان قد خرج يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف فهو فى سبيل الله ، وإن كان قد خرج يسعى تفاخرا وتكاثرا فهو فى سبيل الشيطان ، وأى شرف للعمل وراء أن يجعله الرسول كالجهاد فى سبيل الله ؟ . وفى ضوء هذا قد نلحظ فى جمع القر ن الكريم بين العمل الدنيوى والجهاد المشروع فى مجال واحد ، حيث عطف أحدهما على الآخر فقال : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » . ثم لا ننس أن الإسلام قد شرف العمل هذا التشريف فى بيآة كانت جاهلة ، تحتقر الحرف ، وتستخف بالعمل ، وبخاصة العمل اليدوى ، وتسخر بالعمال ، فكانت قبيلة « تميم » مثلا تعير قبيلة « الأزد » لأنها تشتغل بالملاحة فى عمان ، وكان مشركو مكة يحتقرون أهل المدينة لأنهم زراع ، وكما لقى أبو جهل مصرعه فى غزوة بدر غاظة أن يكون قاتله زارعاً ، وكانوا يسمون الزارع باسم « الأكار » فقال أبو جهل : « لو غير أكار قتلنى » ؟ . وكان أهل الجاهلية يسمون الحرفة « مهنة » كأنهم يلاحظون منها معنى المهانة والابتذال ، ومع هذا الفساد كله ، وبعد هذا الضلال كله جاء الإسلام فحرر وطهر وعمر وثمر ، وأعاد إلى العمل قيمته وشرفه ، حتى رأينا رجلا على عهد عمر يترك حرفته التى يرتزق منها ليخرج إلى ميدان الجهاد بلا ضرورة ،

فقال له عمر : « ارجع إلى عملك ، فإن عملا بالحق جهاد حسن » ، ولم يقتصر الإسلام على التنويه بعمل الرجل بل نوه بعمل المرأة أيضاً فقالت السيدة عائشة : المغزل فى يد المرأة كالرمح فى يد المجاهد » . أفيقال بعد هذا من أثيم أو لئيم إن النزعة الدينية تولد فى صاحبها الميل إلى البطالة والكسل ؟ . كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . ديننا مظلوم مهضوم . وأكبر الظالمين له الهاضمين حقه هم الذين يشوهون جماله بقبح تصرفاتهم ، فيحكم الجهلاء على هذا الدين من خلال هذه التصرفات ، فلنبذل جهدنا فى تصحيح إيماننا وتصديقه بكريم أعمالنا ، نكن من المفلحين ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

الدين والدولة

الحمد لله عز وجل ، ضلت الطرق إلا طريقه ، واعوجت السبل إلا سبيله : « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، وعد بنصر من لجأ إليه ، وضمن إعزازه لمن اعتمد عليه : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قاد بدينه ، وساد بيقينه : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز » فصلوات الله وسلامه عليه وعلى أغصان دوحته ، وأقطاب صحبته ، وأنصار دعوته : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يوجد بين الأمة الإسلامية بعض الأفراد الممسوخين المصنوعين من ثقافة الخارج ، فهم لا يؤمنون بالدليل أو البرهان إلا إذا جاءهم من وراء البحار أو أتاهم وقد طبع عليه كلمة « صنع فى أوربا » أو « صنع فى أمريكا » وبرغم ما فى هذا التفكير من حماقة وسخف ، فنحن نلقمهم اليوم حجراً ، ونتدرج معهم فى الحديث ، ونأتيهم بالدليل من هناك ، وفيه ما فيه من برهان على كلمة الله : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

إن هؤلاء ظلوا ردحاً طويلا من الزمن يحاولون فصل الدين عن الدولة ، ويقولون إنه لا علاقة للاسلام بالنظام الاجتماعى ، لأن وظيفة الدين مقصورة على التهذيب الأخلاقى والتطهير الروحى ، ويحتجون بأن الغرب قد فصل الدين عن الدولة ، مع أن الغرب قد فعل هذا فى الظاهر ليتخلص من السلطان

---

(١) القيت ١٠ من جمادى الأولى سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٥٨ م

الذى اكتسبته الكنيسة لنفسها ، وادعت أنه سلطان إلهى ، وبدأت تتحكم عن طريقه خلال الأجيال السابقة فى عقائد الأفراد وصلاتهم بربهم وبالناس وتتدخل تدخلا شخصياً فى شئون الحكم والحكام ، ومع هذا بقى الغرب يستعين بالدين كلما احتاج إليه ، ويستغله كلما وجد نفسه فى ضائقة ، وما الحروب الصليبية بسر عميق ؛ وبالأمس[1] نشرت الصحف أن وزير خارجية أمريكا قد اشترك فى المؤتمر القومى الدينى للكنائس ، ووقف يخطب فى مكان انعقاد المؤتمر وهو كنيسة لا ناد ولا جمعية ، وقد طلب السياسى الوزير من رجال دينه أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء لينقذ العالم ، ويبعد شبح الحرب عن الدنيا ، وينشر نور السلام بين الناس ، ثم تحدث حديثاً طويلا داخل الكنيسة وبين رهبانها عن السياسة والشئون الدولية المختلفة ، إن هــذا الخبر يجب أن يكون موضع تأمل منا وتفكير ، لأنه طعنة جديدة فى وجوه الذين يزعمون أن لا علاقة للدين بالدولة ، فهذه أمريكا التى تشترى ذمم الدول بالدولار ، والذهب الرنان ، والمعونات الخبيثة ، والأسلحة الظنينة ، والمساعدات المشروطة ، لم تستطع أن تشترى لنفسها سلاماً أو اطمئناناً ، فلجأت إلى رحاب الكنيسة تستجدى من رجال دينها عوناً وتأييداً ، وكأنها لم تكتف بقوتها المادية الجبارة فأرادت التقوى والتحصن بسلطان الدين .

وهذا صحفى مصرى معروف يزور الآن أمريكا ، ويكتب لجريدته يومياً من هناك بعنوانه « نحو النور » ، وهو يقول أول أمس[2] عن مشاهداته فى بعض المدن هناك : « والناس هنا متدينون ، أكثرهم يذهب إلى الكنائس ،

---

(١) انظر جريدة القاهرة يوم الأربعاء ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٥٨م. والوزير هو مستر جون فوستر دالاس .

(٢) انظر جريدة الأخبار يوم الأربعاء ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٥٨م والكاتب هو الأستاذ محمد زكى عبد القادر .

وينتمى إلى فرع ،منها ، ويؤدى واجباته لها ، وهذه ظاهرة تلمسها فى كل مكان . وفى كل اجتماع يعقد يقف الحاضرون قبل بداية الاجتماع ويؤدون صلاة قصيرة » ! ! . .

ومعنى هذا أن القوم فى أمريكا المادية المتمدنة المتحضرة متدينون يتمسكون بدين ينتسبون إليه ، وإن كنا نحن لا نعتقده ولا نؤمن به بعد مادخله من تحريف وتحوير ؛ فهم قد تقدموا مادياً فى كل ناحية ، واستعانوا بالسيارات والطيارات والثلاجات والمواقد والمغاسل وأسباب الحياة الناعمة المترفة ، ومع ذلك لم يشبعوا ولم يقنعوا ، بل أحسوا بالحاجة إلى الدين كما أحس الذين حرروا بلادهم من قبل بمثل هذه الحاجة ، وهو وهذا الصحفى المذكور ينقل لنا أن نشرات دينية توزع فى أمريكا وفيها يقول رجال كنيسته
أحس الذين حرروا بلادهم من قبل بمثل هذه الحاجة ، وهذا هو الصحفى المذكور ينقل لنا أن نشرات دينية توزع فى أمريكا وفيها يقول رجال كنيسته
المسيح فى فيلادلفيا بأمريكا : « وإن الذين أعلنوا استقلال أمريكا فى القرن الثامن عشر كانوا يؤدون الصلاة فى الكنيسة ، وإن اثنين منهم دفنا فى فنائها ، وإنهم كانوا يستوحون الدين فى كل ما قدموه للوطن ، وهم يعرفون أن الله هو المصدر الأكبر للحرية والمساواة ، وأنه خلق الناس متساوين أحراراً » . ثم يحدثنا الكاتب بأن الكنيسة هناك لا تقصر رسالتها على الواجبات الدينية ، بل تشارك فى التشريع ودراسة الشئون الاجتماعية والاقتصادية ، ويدعى رجالها فى كثير من الأحيان أمام لجان الكونجرس الأمريكى لسماع وجهة نظرهم فى بعض الشئون ! ! . . .

هذا بعض الحديث عن الاتصال بين الدين والدولة فى أمة يقال عنها إنها لا تقيم للدين وزناً ، ولا تعترف فى نصوصها الدستورية بالصبغة الدينية لها ، فلماذا يعاب أيها الناس على رجال الإسلام إذا طالبوا أبناء الإسلام بأن يهتدوا

فى دولهم ومجتمعاتهم وسياساتهم بهدى الإسلام الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟ لماذا توصف الدعوة للحرص على الإسلام بأنها رجعية وجمود ؟ ... ولماذا لم يوصف هذا السياسى الأمريكى الخطير بمثل هذا حين اشترك فى مؤتمر كنائسى ، وخطب فى كنيسة ، وتحدث داخل معبد عن شئون الحكم وسياسة العالم ؟ ولماذا لم يوصف الغرب الظلوم بالرجعية حين صنع هذه الدولة المفتراة علينا وهى « إسرائيل » فجعلوا عنوانها إسماً دينياً . وأقاموا العلاقة بين أفرادها على اليهودية وحدها ، وحرضوها على أن تحكم أحلاماً دينية جشعة فهى تعمل ليل نهار بدولار أمريكا ومعاونة فرنسا وإغضاء روسيا على تحقيق مملكتها اليهودية الصهيونية التى تزعم أنها تمتد من النيل إلى الفرات ؟ ولماذا لم توصف بالرجعية مدارس التبشير الأجنبية المبثوثة فى دول الإسلام وهى تفتتح دروسها كل يوم بصلاة دينية ، وتفتتح طعام التلاميذ بتراتيل دينية ؟ . .

أحرام على بلابلة الروح حلال للطير من كل جنس ؟!

لالا أيها الناس . . . إن أبناء القرآن قد رضوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، وهذا الرضى يقتضيهم أن يؤمنوا بدينهم ، وأن يعتزوا بعقيدتهم ، وأن يعملوا بها ولها ، وأن يسودوا معها ويقودوا عن طريق حكمتها ورحمتها ، ولا يخافون بعد ذلك لومة لائم ، ولا اتهام متهم : « أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » والله جل جلاله يقول لرسوله صلوات الله عليه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » .

إن هيمنة الإسلام على المجتمع لا تسبب له ضرراً ، بل تحقق له خيراً ، فإن الإسلام هو نور الله المبين ، وصراطه المستقيم ، وهو الدين الذى جاء

خاتماً لرسالة السماء ، وناسخاً لما قبله من شرائع موقوتة ، ومتمماً لما سبقه من دين الله ، ومهيمناً على الدين كله ، وهو الدين الصالح لكل زمان ، وليس فى الإسلام سلطة لرجل الدين كسلطة الكنيسة أو كسلطة رجالها ، فلسنا نعرف فى الإسلام عالماً من علماء الدين له حق السيطرة على عقائد الناس ، أو حق حرمانهم من الثواب ، أو حق الحكم عليهم بالعذاب ، أو إعطائهم صكوك غفران ، أو توسط روحى بينهم وبين خالقهم ، بل الكل عباد الله ، والكل أمام الله سواء ، والكل يقرعون بابه ، يرجون رحمته ويخشون عذابه ، فلا خوف إذن من قيادة الإسلام لدول الإسلام ؛ وما يخوفنا الغربيون والممسوخون بيننا إلا لأن أعداءنا يخافون من سيادة الدين فينا ، فإنه سيعلمنا الحرية والعزة وعدم الخضوع إلا لله ، ومثل هذه الحياة القوية الكريمة لا يمكن معها لأجنبى أن يحتل أو يستغل أو يمتص الخيرات من بلاد الإسلام .

إن الإسلام يريد منا أن نذكر الله فى كل شىء ، وأن نتوجه إليه فى كل أمر ، ولذلك شرع لنا الله أن نكرر فى صلواتنا وتلاوتنا قوله فى سورة الفاتحة « إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم » .

والرسول صلوات الله عليه يعلم معاذ بن جبل الاستعانة بما لله فى كل حين فيقول له : « يا معاذ » ، والله إنى لأحبك » فلا تنس أن تقول فى دبر كل كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » . والصلاة تتكرر عدة مرات كل يوم ، ومعنى هذا أن الدعاء النبوى المذكور يتكرر عدة مرات كل يوم ، فلا ينسى الإنسان ذكر ربه .

إن أبناء الإسلام يفرحون ويبتهجون كلما شاهدوا اتجاهاً من الرعاة فى دول الإسلام نحو هدى الله وكتاب الله وشريعة الله ، فهم قد فرحوا يوم شاهدوا أندونيسيا مثلا تنشىء برلمانها وتستن سنة حميدة وهى أن تفتتح جلساته

بقراءة آيات من القرآن الكريم ، وهم قد فرحوا حين قرأوا أخيراً أن القادة الحاكمين فى جنوب الوادى بالسودان قد أقسموا يمين الولاء أمام مفتى السودان[1] ، لأن المفتى هنا رمز يمثل كلمة الإسلام ، فكأنهم أرادوا تقوية القسم وتزكيته عن طريق ربطه بسبب من الدين ومن هدى الله الذى يؤيد من أخلص الاستعانة به : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . والأمة قد ترى راعيها الآخذ بزمامها فى مختلف المناسبات ، ولكن أروع مشهد تراه فيه هو مشهد سعيه إلى بيت من بيوت الله ، يخضع لخالقه ، ويستمع لتوجيه دينه ، ويستمد من عونه وفضله الهداية والرشاد ، وإذا خشع حاكم الأرض لبارئه فقد رحم جبار الأرض والسموات : «إن رحمة الله قريب من المحسنين» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الذين رضوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، يؤمنون كل الإيمان بأن الإسلام دين ودولة ، وعبادة وقيادة وتبتل وفروسية ، ومسجد وثكنة ، ومدرسة ومصنع ، وإصلاح للفرد وتنظيم للمجتمع ؛ وهو كما يحض على مكارم الأخلاق ويعمل لتطهير القلب والنفس ، يشرع للأمة ، ويقود بالحكمة ، وينظم سائر العلاقات والمعاملات ، « ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

---

(١) انظر الصحف المصرية الصادرة يوم الخميس ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٥٨ م .

بين الرئيس والمرءوس

لله الحمد ، هو وحده المنزه عن الخطأ والنسيان ، وهو « الذى خلق الإنسان علمه البيان » ، سبحانه ألف بين قلوب المسلمين فأصبحوا بنعمته إخواناً ، ونزع ما فى قلوبهم من غل فكانوا أحبة وخلاناً ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، جعلت الناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، وسويت بينهم فلا عبيد ولا أرباب « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من اصطنع الرجال وأبرز الأبطال ، وأصدق من حارب الاستبداد وآخى بين العباد ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى أغصان دوحته الناضرة ، وفرسان صحابته أولى العزمات الباهرة ، والثابتين على نصرة شريعته الزاهرة ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

من عيوبنا الشنيعة الفظيعة ، التى تهد البنيان وتحطم الكيان ، أن أكثر المترئسين فى نواحى الحياة المختلفة ، يعتبرون الرياسة مغنماً يفيض بالرغبات ، وسلماً يؤدى إلى التجبر والإعنات ، فما يكاد الواحد منهم يتسلم مقاليد السلطة ، ولو فى دائرة محدودة أو عمل ضيق ، حتى يستنسر وقد كان بالأمس بغاثاً ضعيفاً ، وحتى يستأسد وكان من قبل ثعلباً هزيلا ، فلا هم له إلا أن يظهر سلطانه ويبدى عنفوانه ، تارة يطغى ويتجبر ، وتارة يتحكم ويتسيطر ، وتارة يصيح فيمن حوله ليسمعوا ويسمع الجيران وجيران الجيران إن استطاع ، فيقول : أنا الآمر هنا فلا تأخر أو عصيان ، وأنا الناهى فلا مخالفة

---

(١) ألقيت فى ٧ من رجب سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٣ من ابريل سنة ١٩٥١ م

أو نكران . . ويحاول بكل ما أوتى من وسائل مشروعة أو ممنوعة أن يركز السلطة كلها فى يده ، فلا معقب عليه فى حكمه ، ولا شريك له فى أمره ، وكأنه يشعر « بمركب النقص » فى نفسه فهو يستره ، أو يحاول خداع الناس عنه بالاغترار والاستكبار . . .

وإنك لتنظر إلى المرءوس الذى توقعه حظوظه السود تحت رياسة هؤلاء ، فتراه أمامهم آلة صماء ، ليس لها من الأمر شىء ، وليس لها عند التصرف حساب أو ميزان ، بل عليها أن تدور وتعمل حينما يطلب منها ذلك ، وعليها أن تقف بسرعة وتصمت صمت الجماد أو صمت القبور حينما يطلب منها ذلك ، فالمسكين لا يختار ولا يتصرف ، ولا يستعمل عقله أو مواهبه ، ولا يعمل عملا إلا بإذن من الرئيس السيد المهاب ، فهو ينهض بإذن ، ويجلس بإذن ، ويوقع بإذن ويضع الورقة العادية فى « الملف » المألوف بإذن ، وهو أيضاً يذهب إلى دورة المياه بإذن ؛ وهكذا . . . ولا يحسبن ظان أن فى القول مبالغة أو ادعاء ، فإن كثيراً من الأرجاء فى حياتنا تضم الرؤساء المهازيل أو المعاليل الذين يريدون دائماً أن يكونوا جبابرة تطاع أوامرهم مهما كان سخفها أو ضعفها بلا مناقشة أو جدال ، ومن حدثته نفسه بأن يراجع أو يلاحظ فهو المصاب المنكوب بلا رحمة أو إبقاء ، وكثيراً ما يتلقى المرءوس من رئيسه أمراً والمرءوس يعلم أنه فساد أو ضلال ، ولكنه يوافق ويؤيد ويسارع إلى التنفيذ ، وربما أمر الرئيس بعد ذلك بنقيض ما سبق فلا يرى المرءوس بأساً فى أن يساير تطور رئيسه فيوافق أيضاً ويسارع . . . وقد تمر على المرءوس حالة تحتاج التصرف فيها ، فيلجأ إلى رئيسه المهاب مستفتياً ومتلقياً منه الوحى والإلهام ، فيأمره الرئيس بما يرى ، ويفتيه بما يجب أن يكون ، وبعد ذلك تمر نفس الحالة ، فإن حدثت المرءوس نفسه بأن يطبق عليها ما تلقاه من قاعدة سابقة ، غضب الرئيس وثار ، وصرخ : يا أيها

الناس ، إنى هنا الرئيس فكيف لا استشار ؟ . . وإذن فلابد من الإذن فى الصغير والكبير ، والجديد والقديم ، كأن طلب الإذن من الرئيس أمر تعبدى لا يسأل عن علته ولا عن حكمته ؛ وإذا ضعفت النفوس وضاعت الأحلام فقل على المجتمع السلام ! ! . .

ما هكذا الإسلام يا بنى آدم ، وما ذلك بطريق الرجال أيها الأقزام ، لقد خلقكم الله أحراراً ، غير مستعبدين ، لا فى الديار ولا فى الأفكار ، وجعلكم كلكم من أب واحد وأم واحدة ، ولم يفرق فى الحقوق الإنسانية بين خادم ومخدوم ، ولا بين رئيس ومرءوس ، وجعل سيد القوم خادمهم ، وعبر عن وحدة الأصل مع وجوب اللجوء إلى الله سبحانه باتقائه وحده ، وخشيته وحده ، والخوف منه وحده ، فقال القرآن : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » وأمر نبيه المختار المعصوم صلوات الله عليه ألا يستبد بالأمر فقال له : « وشاورهم فى الأمر » ... ومعنى هذا أن يجعل الرسول لكل فرد حقه فى إبداء الرأى وإحالة النظر ، حتى يشعر كل مسلم بأنه فى أمة تحترم وجوده وتعتبر رأيه وتشركه فى تدبير الأمور ؛ ولقد حرص محمد عليه صلوات الله على أن يجعل صحابته وأتباعه أشخاصاً أحياء ، يفكرون ويستفسرون ويعترضون ويتحركون ، ولم يتخذهم فى يده آلات صماء ، أو أسلحة له خرساء ، فكان أولا يعرض الأمور عليهم ، ويشاورهم فيها ، ويجعل نفسه كأحدهم فيبدى رأيه فيما لا تشريع من السماء فيه كما يبدى أى فرد منهم ، وأحياناً كثيرة يختار رأيهم ويترك رأيه ؛ ولقد رأيناه كيف بارك بتقديره جهود الشباب من صحابته فاستمع منهم واستجاب لهم ، ووكل إليهم من جلائل الأعمال وعظائم الأمور ما يدلنا على أنه كان لا يريد الاستئثار بأمر لنفسه ، ولا يريد السلطة لذاته ، ولا يريد أن يتباهى برياسته أو يتجبر

فى قيادته ، بل كان يريد أن يجعل كلا منهم صالحاً للقيادة والرياسة ، إذا انفرد بأمر نهض به نهوض الكلمة من الرجال ؛ وكأنما أشار إلى ذلك فى قوله الوجيز البليغ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . . .

ولقد أثمرت تلك التربية الاستقلالية أينع ثمارها ، وأفرجت أبهى أزهارها ، أخرجت لنا أبناء المدرسة المحمدية الأولى الذين يرتفعون حتى يمسوا الثريا علاء ومجداً ، ثم توضع فى أيديهم مقاليد الأمور فلا يستبدون فيها ولا يستأثرون بها ، ، ولا يرونها تشريفاً بل يعدونها تكليفاً ، ويؤمنون بأنهم محاسبون أمام الله وأمام الناس على الفتيل والقطمير ، وأنهم لا يطاعون الطاعة العمياء ، بل يطاعون عن إيمان وضياء ، وفيما هو حق ومشروع لأن قانون محمد يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ولذلك كانوا لا يضيقون بمناقشة أو معارضة ، ولا يفرون من حساب أو مراجعة ، ولا يدعون لأنفسهم كل شىء ، بل لو تصرف أحد الرعية تصرفاً جميلا ولو بغير إذن منهم حمدوه وغفروا له ، وسألوا الله أن يؤيده ويعضده ؛ وهذا على سبيل المثال سعد بن أبى وقاص أول مريق لدم الكفر فى الإسلام ، وأول رام بسهم فى سبيل الله ، وفارس الإسلام المجاب الدعوات ، وخال الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذى قال فيه الرسول : اللهم استجب لسعد إذا دعاك . وقال : اللهم سدد سهمه وأجب دعوته . . هذا سعد كان زعيماً فى فتح القادسية ، وكان القائد الأعلى للجيش الإسلامى المظفر ، ولما تهيأ للبدء فى الغزو وتسرع القعقاع بن عمرو متشوقاً إلى الحرب فزحف بغير إذن من سعد القائد ، فلما علم بذلك سعد أبان أنه لا يبغى تجبرا أو تكبراً ، وأنه أخلص نفسه وعمله لله والإسلام ، فقال : اللهم اغفرها له وانصره ، فقد أذنت له وإن لم يستأذن . . . وكذلك تعجلت قبيلة بجيلة فى الزحف دون إذن ، فلم

يثر سعد ولم يغضب ، ولم يعتبر أن رياسته قد جرحت ، أو أن كرامته قد أهينت ، بل قال : اللهم أغفرها لهم وأنصرهم ! . . وهذا عمر الفاروق يثق برعيته فتثق به رعيته ، ويأتمن جنوده على كنوز الأرض وخيرات الفتوح فلا يخونونه فى قليل أو كثير ، ويرسلهم باسم الله فاتحين ، لهم حريتهم ولهم تصرفهم ، فيفتحون ويغنمون ولا يغتالون ، ويحملون إليه مثلا ذخائر كسرى وكنوزه وجواهره وهى هائلة مدهشة ، فيقول عمر معجباً : إن الذين أدوا هذا لأمناء . . . ولكن علينا البصير يشرح السبب فى ذلك فيقول : يا أمير المؤمنين ، إن القوم رأوك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا ! . . وهكذا كانت الرياسات بين المسلمين مغرماً لا مغنماً ، وتعبا ونصبا ، لا زهوا ورتباً ، وتعاوناً واستناداً ، لا تجبراً واستبدداداً ، وبذلك عزت الأفراد وأدت واجبها ، فعزت وسادت ، ولم تخضع جباهها إلا لله الواحد القهار . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . . ألا لعنة الله على من يريد أن يدعى لنفسه ما ليس له ، أو من يحاول اتخاذ الناس عبيداً وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، ولعنة الله على من يخفض رأسه أمام الباطل لينا له رشاش من قذارته ، ولعنة الله على أمة لا تمكن كل فرد فيها من أن يكون له كيانه ووجدانه وحريته وشخصيته . . نريد تعاوناً بين كل رئيس ومرءوس ، ونريد من الرئيس ألا يفرض أو يرغم ، ونريد من المرءوس ألا يتقهقر أو يحجم ، ونريد من من الفرد أن لا يقول (أوافق) إلا بعد أن يؤمن ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

المال للانفاق

الحمد لله ، يؤتى كل نفس برهان هدايتها وطرق إيمانها ، ويهب النعمة ثم يرشد إلى سبيل شكرانها ، « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » نشهد أن لا إله إلا أنت ، الغنى ونحن الفقراء ، القادر المقتدر ونحن الأذلة الضعفاء ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، ملك نفسه فلم تذلها شهوة ، وأخلص لله وجهه فلم تسيطر عليه هفوة ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وعترته ، وأنصاره وصحابته ، وأتباعه وأمته ، « أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

يصاب المجتمع الفاسد غالباً بطائفة لئيمة خبيثة ، يستبد بها سعار الطمع ، ويستولى عليها جنون الجشع ، فلا تعرف فى الحياة غاية ولا هدفاً إذ أن تلم وتجمع ، وتمتلىء وتشبع ، وتتخذ لها من الذهب عجولا تعبدها وتقدسها ، ثم تصم آذانها عن كل نداء أو رجاء إلا رنين هذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ومثل هؤلاء أشبه بالعلق الذى يمتص الدماء ويمتلىء بإفناء سواه ، ولن تقوم للمجتمع الصحيح السليم قائمة ما دام هؤلاء الفراعين الملاعين يبنون صروحهم من أشلاء ضحاياهم ، وجماجم المصروعين ببغيهم وبلاياهم ، وكيف يتهيأ لصغار الأسماك الهزيلة الضئيلة أن تحيا أو تسعى ، ومن حولها حيتان الطغيان تفغر أفواهها ، لتلتقم بها كل ما يصادفها دون تبصرة أو تمييز ؟ ! . .

نعم إن المال شيء جميل جذاب ، حتى فى تأثيره وتحذيره إنه اللحن الموسيقى الساحر الذى يرقص حوله العالم ، وإنه متمم الأعمال ومحقق الآمال ومنقذ الرجال ، وقد وضع الله فى نفس الإنسان حبه للمال : « وتحبون المال حباً جماً » ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا « « وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً » . ولكن الأجمل من المال إنفاقه فى مواطنه ، والتمتع به فى أوانه ، لأنه يفقد قيمته عند عدم استخدامه ، وما نفع المال إذا لم يخرج من الخزائن والأغلال ؟ . ولذلك نرى الإسلام الحنيف البصير بطبائع النفوس وحنايا الضلوع ، يأمر أهله بكسب المال من حله ، ويعده نعمة كبرى ساقها الله إلى عباده ، ولكنه فى الوقت نفسه يحذرهم أن يكونوا له عبيداً أرقاء ، وإلا صار المال إلهاً يعبد من دون الله ، وما من إله إلا إله واحد ؛ ويدعوهم إلى إنفاقه فى سبيل الله وسبيل الله كل واد من أودية الخير يكسب بها المرء نفعاً طيباً لنفسه أو لأهله أو لبنى جنسه ؛ ويعدهم على ذلك المضاعفة وحسن العوض ، ؛ ولذلك يقول القرآن : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » ويقول الحديث : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » . ويتوعد القرآن أولئك الفجرة المجرمين الذين يمتصون ولا يفرزون ، ويجمعون ولا يقسمون ، وينتفخون ، فيقول : « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة » . ويقول : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وبالأمس البعيد كان الكرام الأماجد من أبناء الإسلام ينطلقون فى جنبات الحياة وأرجاء الكون عاملين غانمين ، فيكسبون ويربحون ، ويجمعون الكثير

الطيب الذى يسر ويعجب ، أو يدهش ويذهل ، فيعفون منه أنفسهم ، ويفيضون ينابيعه على أهليهم وتابعيهم ، ثم يذكرون مع هذا أو بعد هذا أنهم من الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، فيستجيبون لصرخة الملهوف ، وينعطفون لأنه المكروب ، ويبذلون فى المكارم والعظائم والخطوب مؤمنين أن المال غاد ورائح ، وأن الرجال بالأعمال والأخلاق لا بالسبائك والأوراق ، وأن المنفقين لهم من الله حسن الخلف ، وأن الأشحاء لهم منه سوء التلف ، « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » ، وأن طريق السعادة فى الحياة لا ينتظم مع امتلاء الأشحاء ، وأن طريق الجنة لا يستقيم إلا إذا أظلته أشجار من صنائع الإنفاق والسخاء . . .

هذا عبد الرحمن بن عوف كان من فضلاء الصحابة وأتقيائهم ، وكان موفقاً فى التجارة والكسب حتى قال : لقد رأيتنى وما أرفع حجراً إلا ظننت أنى سأجد تحته ذهباً أو فضة . . . ولقد نظر إليه الرسول يوماً وقال له : يا ابن عوف ؛ إنك من الأغنياء ، ولن تدخل الجنة إلا زحفاً ، فأقرض الله يطلق قدميك . . قال عبد الرحمن : وما الذى أقرض يا رسول الله ؟ . . قال : تبدأ بما أمسيت فيه . قال : أبكله أجمع يا رسول الله ؟ قال : نعم . فخرج عبد الرحمن لينفذ ذلك ، فأرسل إليه الرسول بعد قليل يقول : إن جبريل قال : مر ابن عوف فليضف الضيف وليطعم المسكين وليعط السائل ، فإنه إذا فعل ذلك كان تزكية ما هو فيه . . . أرأيت كيف أشفق الرسول على ابن عوف من تكتل الثروة ، وصورها له كأنها أثقال وأغلال تقيد قدميه ، وتعوقه عن السبق إلى الفردوس ، وكيف نصحه أولا بالخروج عن ماله كله ، ثم يخفف عليه الامتحان بوحى السماء فينصحه بالإنفاق المعتدل فى الوجوه المشروعة اللازمة ؟ . . بهذه الاشتراكية الإسلامية العالية ساد الأولون ! . .

ولقد حدث بعد وفاة الرسول أن قدمت عير لعبد الرحمن كبيرة طويلة لها ضجة ، فسألت عائشة عنها فقالوا : هذه عير عبد الرحمن بن عوف قد قدمت . فقالت : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كأنى بعبد الرحمن بن عوف على الصراط يميل به مرة ويستقيم أخرى حتى يفلت ولم يكد ! . . وبلغ الكلام ابن عوف فقال : هى وما تحمله صدقة ! . وكانت خمسمائة راحلة تحمل نفائس التجارة من الشام ، فتبرع بها عبد الرحمن للأمة المسلمة ، لأنه خاف وعيد الحسيب الرقيب ، وأراد أن يتخفف من أثقاله وكنوزه ليستقيم سيره على الصراط ! . . .

وعلى الرغم من أن عبد الرحمن كان مبشراً بالجنة قال لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها : « يا أماه ، أخشى أن تهلكنى كثرة مالى ، فإنى أكثر قريش مالا » . فقالت له : يا بنى ، تصدق فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن من أصحابى من لا يرانى بعد أن أفارقه . فأخذ رضى الله عنه ينفق ما استطاع ، وكان فضل الله عليه عظيما فكلما توسع فى الإنفاق وسع الله عليه فى الرزق والله خير الشاكرين .

ولقد أصابت المسلمين شدة على عهد عمر ، فكتب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص يغلظ له القول فى طلب المعونة منه قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاصى ؛ سلام عليك ، أما بعد ، أفترانى هالكاً ومن قبلى ، وتعيش أنت ومن قبلك ؛ فياغوثاه ! يا غوثاه ! . . » . فأسرع عمرو بالنجدة وكتب يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فقد أتاك الغوث ، فلبث لبث ، لأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى » . . .

أفى آذان أغنيائنا وأصحاب الملايين منا صمم فهم لا يسمعون ، أم فى أعينهم عمى فهم لا يقرأون ، أم على قلوبهم حجب وأقفال فهم لا يشعرون ، ولذلك لا ينفقون إلا لحزبية مشتتة ، أو غنيمة مقبلة ، أو دعارة فاجرة ، أو شهوة آثمة ؛ والحمى يعج بملايين الضحايا التى أتى عليها الحرمان والطغيان ؟.

يا أتباع محمد عليه السلام . . . إنه لا يجوز فى شرعة إنسان عاقل فضلا شرعة السماء الطاهرة أن يمتلىء أشخاص معدودون حتى يموتوا من التخمة ، وأن يحرم بجوارهم آلاف حتى يموتوا من الجوع ؛ ولو أعطى المتخمون للمحرومين ما زاد عن حد الاعتدال لأستقامت الحال وطاب المآل ، وعندها يصبح المؤمنون إخوة أعزاء ؛ فبشروا بهذا وأعملوا له تكونوا من المجاهدين ؛ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

الاسلام والمراة

لك الحمد يا صاحب الحمد فى الأولى والآخرة ، وواهب اليقين للنفوس الذاكرة ، أنت الذى خلقها فسواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، وكتب النجاح والفلاح لمن زكاها ، وبشر بالخيبة والندامة من دساها ، وما ظلمهم الله ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، نطقت بفضلك الآيات ، ودلت عليك العلامات : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ؟ . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، اصطفيته لرسالتك ونصرته بجندك وعنايتك ، « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله وأحفاده ، وصحابته وأجناده ، الذين استقاموا وما استناموا ، فحق لهم وعد الجليل فى محكم التنزيل : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لا يزال بيننا مع الأسف طائفة من المسلمين الشكليين ، الذين انحرفت تربيتهم وثقافتهم ، ففسدت عن الإسلام الحنيف فكرتهم وعقيدتهم ؛ نشأوا فى بيئات لا هى شرقية ولا هى غربية ، فدرسوا من العلوم والفنون ما درسوا ، ولكنهم لم يصلوا أسبابهم بالثقافة الإسلامية ، فظلوا بها من الجاهلين ؛ وكم حكموا على الإسلام أحكاماً خاطئة ، ونسبوا تهماً كاذبة ، والناس بالطبع أعداء لما يجهلون . .

لقيني رجل من هؤلاء الذين تربوا تربية غربية أوربية ، وآمنوا الإيمان الأعمى بكل ما يأتيهم من الخارج ، فسألني مستثيراً : هل يبيح الإسلام حقاً أن يضرب الرجل امرأته ؟ . . فأجبته : نعم يجيز الإسلام ذلك فى بعض الأحوال وبشروط كثيرة هى . . . وأردت أن أسرد له هذه الشروط فقاطعنى قائلا : لا لا . . . لا داعى لتطويل الحديث ؛ ويكفى قولك « يبيحه الإسلام » فذلك كاف فى الدلالة على الوحشية والقسوة ، وأن قانون الصحراء كان له دخل كبير فى وجود ذلك الاستبداد ! . . وجاهدت نفسى جهاداً كبيراً لأغالب ثورتى وغيظى ، وأردت أن أكون داعية لا مؤدباً ، فحاولت أن أبين له وجه الحق الناصع المشرق فى تشريع الإسلام ، فأبى واستكبر ، وأصر على الإعراض ، وولى عنى مدبراً وهو يتمتم : حقاً إنها لوحشية وفظاظة أن يجوز للرجل ضرب امرأته مهما كانت الأسباب ، فأين ذلك التوحش من حضارة أوربا وقوانينها الحديثة ، وتقاليدها الراقية ، وحرصها على المساواة بين الرجال والنساء ! ؟ . . وعاودت كتمان غيظى ، وسألت الله أن يشفى الصدور المريضة ، وأن يفتح للحق الآذان العريضة ، ومرت أيام ، وإذا بى أتناول صحيفة فأقرأ فيها هذا العنوان الكبير : « ضرب الزوجة مباح فى انجلترا » ! . . وطالعت تحت العنوان ما ملخصه أن سيدة إنجليزية لها مكانة اجتماعية ملحوظة ، قد رفعت قضية على زوجها ، وهو محام كبير ، تطلب الطلاق منه لأنه تعود أن يضربها بقسوة ، فإذا ما احتجت عليه قال لها : « ارفعى الأمر إلى القضاء فإن القانون بجانبى يحمينى ، إذ فيه نص صريح بأن ضرب المرأة مباح » . . ثم ذكر كاتب المقال أن القانون الإنجليزى لا يحرم ضرب الزوجة ، بل يبيحه صراحة ، ولو أنه وضع للضرب حدوداً بحيث لا يؤدى إلى تشويه الزوجة أو كسر عضو من أعضائها ، وأن عدداً كبيراً من الأزواج الإنجليز يستغلون هذا النص أسوأ استغلال ، فيضربون

زوجاتهم ضرباً مبرحاً ، بأدوات غير مشروعة للتأديب ، وأن القانون الإنجليزى يحكم فى الغالب لمصلحة الأزواج ، ما لم تتخلف عن الضرب المبرح آثار ظاهرة ؛ حتى قالت رئيسة إحدى الجمعيات هناك : إن إباحة ضرب الزوجة فى بريطانيا قد جعل من الزوجة « قطعة أثاث » ينظفها الزوج ويزيل التراب عنها بوساطة الضرب ! . . وذكر أن القانون الإنجليزى يحكم برد الهدايا والجواهر التى قدمها الزوج لزوجته ، إذا حدث بينهما طلاق ، ويعلل ذلك بأن الزوج إنما ملكها هذه الأشياء « لتظهر بها فى المظهر اللائق أمام الأصدقاء » ! . .

قرأت هذا فهتفت : ذلك هو ما يقنع المفتون ، ويرشد المجنون ؛ وسارعت بالصحيفة باحثاً عنه حتى لقيته ، فرميت إليه بالصحيفة قائلا : إليك الدليل الذى يعجبك ، والبرهان الذى يناسبك ، يا من لا يؤمن بالفكرة إلا إذا جاءته من الخارج ملفوفة فى غطاء كتب عليه : قد صنع فى أوربا ! . . فطالع المقال واستخذى ، ثم أظهر الأسف وأبدى الاعتذار ..

وحاول الفرار فاستبقيته قائلا : ما كان لك أن تفلت من سلطان الحساب حتى تعلم فوق هذا فضل الإسلام وسموه وتعاليه عما تعتقد فيه اعتقاداً مطلقاً من قوانين المدنية والحضارة . . . إن الإسلام يمتاز على ما تفتتن به وتهيم فيه بأنه يأمر المسلم إذا طلق امرأته ألا يأخذ مما أعطاها شيئاً ، ولو كان قنطاراً من ذهب ، فذلك لا يليق بالرجولة ، ولا بسابق العشرة الطويلة ، فاستمع إلى القرآن إذ يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » ؟ : فأين يذهب قانون انجلترا المتحضرة الذى يجيز استرداد ما أعطى الزوج لامرأته من هذا الأدب الإلهى الرفيع ؟ ! . .

وقانونك الإنجليزى الحديث يا هذا يبيح للرجل أن يضرب امرأته إباحة فيها نوع من السعة ، والإسلام حقيقة يجيز للزوج أن يضرب زوجته بقدر محدود فى حالة اليأس من الإصلاح بأى طريق أو أسلوب فى قوله تعالى : « قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن وأهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيراً » ولكن الإسلام جعل ضرب الزوج لزوجته كسلاح أخير يلجأ إلى استعماله مضطراً بعد استنفاذ جميع الوسائل التى يمكن أن تؤدى إلى الإصلاح ، وعند تمرد المرأة على الأخلاق والآداب ، أو تمسكها بالعصيان والطغيان ، وقد قدم الإسلام بين يدى الضرب من العوامل والحوائل ما يكفى لعدم استعماله إلا فى أشد الحالات ، فالإسلام يأمر بأن يختار الرجل زوجته من منبت كريم : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » ومن طاب منبتها طاب سلوكها فلا تحوج إلى ضرب أو تأديب ، والإسلام يأمر الرجل بحسن معاشرته لزوجته فيقول : « وعاشروهن بالمعروف » وأوضح أن المعروف ليس بكف الأذى عنها فقط ، بل باحتمال الأذى منها ، ولقد كان الرسول يحتمل من نسائه مراجعتهن له اليوم بأكمله ، وهو القائل : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم لنسائهم » . ولقد أسلم روحه الشريفة وهو يردد : « استوصو بالنساء خيراً » . والإسلام يأمر الرجل بالإرشاد وحسن التوجيه والتعليم إذا أخطأت المرأة ، وأن يصبر على تقويمها لأنها خلقت من ضلع أعوج ، فإن استمر خطأها وعيبها فعليه أن يعظها ، ثم يحذرها ، ثم يخوفها ، ثم يلجأ إلى الاستعانة بحكم من أهلها يردها إلى صوابها ثم يهجرها فى الفراش فيوليها ظهره ، أو ينفرد بفراش آخر ، لعلها ترعوى أو تفيق ، فإذا لم تجد هذه الوسائل كلها وأبت المرأة إلا نشوزاً واستكباراً

جاز له — ولم يجب عليه أو لم يستجب له — أن يضربها بقدر كعلاج أخير حسبما قال الفقهاء ضرباً خفيفاً يراد به التهذيب والتأديب لا التشفى والتعذيب، ضرباً غير مبرح لا يسيل دماء ولا يقطع لحماً، ولا يكسر عظماً، ولا يشوه خلقة، ولا ينال وجهاً، ولا يخلف أثراً، حتى لقد قال ابن عباس ترجمان القرآن : إن الضرب يكون بالسواك ونحوه ؛ ومع ذلك فعدم الضرب أحسن إلا إذا ترتبت مفسدة أكبر، ولذلك قال الرسول : ولن يضرب خياركم. وقال : أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخر اليوم ؟ ! . . فأين القانون الإنجليزى العصرى الفضفاض من هذه الحدود الإسلامية التى حدها الرحمن ليحول بيننا وبين سوء الاستغلال ! ؟

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن الحق أبلج، والباطل لجلج، وإن الشواهد كلها لتصيح بأن شرعة السماء هى العلاج والدواء، وأن الناس يشرقون ويغربون ويغترون وينخدعون ثم تكون خاتمة المطاف إلى رحاب الإسلام، يجدون لديه الحكمة والهدى والسلام، وقد حملكم الله أمانته، ووكل إليكم نصرته، فأين أنتم من ميدان الدعوة إلى الله، والدخول فى حماه ؟ . . واتقوا الله أيها المؤمنون لعلكم تفلحون .

عن معاوية القشيرى قال : يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ . قال : تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى المبيت . وقال عليه الصلاة والسلام : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى . .

المرأة وثقافة الدين

الحمد لله عز وجل ، أنزل القرآن ضياء للانسان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل الظلمات والنور ، وماز الهداية من الفجور : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ؟ لا يستوون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، اتخذ القرآن غذاءه ودواءه ونوره ودستوره : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » . فصلوات الله وسلامه عليه وعلى الغر الميامين من آله والكملة السابقين من صحابته ورجاله ، والمقتفين لآثاره وأعماله : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً : »

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هذا خبر قصير تنشره إحدى المجلات فى زاوية من زواياها ، ولعل الكثيرين لم يلتفتوا إليه ، ولم يشغلوا أنفسهم به ، مع أنه مخجل مؤسف ، يعطى فكرة خطيرة عن ضياع الثقافة الدينية بصفة عامة ، وضياعها بين النساء بصفة خاصة ، فقد قالت المجلة إن إحدى سيدات المجتمع المشهورات وهى مرشحة فى الانتخابات — سألت أحد السفراء العرب عن الشاعر الذى قال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[2] » ! .

---

(١) القيت فى ١١ من المحرم سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ١٧ من يوليو سنة ١٩٥٩ م .

(٢) مجلة روز اليوسف ، عدد ١٣ يوليو سنة ١٩٥٩ م

غفر الله لك يا سيدة المجتمع المشهورة ، وهداك إلى سواء السبيل ، وأزال عنك بسلطانه ظلمات الجهالة ، وأراك بقدرته نور العرفان ، حتى تدركى الفرق بين القرآن الإلهى المجيد وبين الشعر العربى المنظوم . . إن هذا يا سيدة المجتمع المشهورة جداً ليس بيتاً من الشعر ، ولكنه جزء كريم من آية كريمة فى فاتحة سورة كريمة تسمى سورة الإسراء ، فى مصحف كريم يضم كتاب ربنا الذى يسمى القرآن الكريم . . . ألم تستطع هذه المرأة — وهى سيدة مجتمع مشهورة كما يقولون — أن تحس الفرق الواضح الظاهر بين كلام الله العزيز وبين نظم الشعر المعروف ؟ وصدق الله : «وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون » «وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» ..
إن هذا الخبر المخجل يذكرنا بالجهل الفاضح الموجود عند كثير من النساء بالدين ومبادئه ، والإسلام وتعاليمه ، والسيرة الإسلامية وأحداثها الكبرى ، ولا عجب ، فأغلب هؤلاء قد نشأن فى مدارس أجنبية أو كالأجنبية ، لا تقيم للدين وزناً ، ولا تحفظ للعقيدة حرمة ، ومن هنا خرجن إلى المجتمع دون أن يعرفن شيئاً عن القرآن أو الحديث أو السيرة أو تاريخ الإسلام ؛ وهذا الجهل الفاضح يحتاج اليوم أشد الاحتياج إلى علاج ، فقد أخذت المرأة تزاحم الرجل فى كثير من الميادين ، وصرنا أمام تيار جارف لا يجدى معه النصح بالتعقل أو التروى ، فلا أقل إذن من أن تتحصن المرأة بالعلم والثقافة ، وبالهدى والتقى ، إن كانت مصممة على سلوك هذا الطريق المحفوف بالمتاعب والأشواك ؛ ويزيد الطين هنا بلة أن السيدة المشار إليها مرشحة فى الانتخابات ، وهذا يذكرنا بقول شوقى : « لا تبعثوا للبرلمان جهولا » ! . . .

قد يقال إن هذه حادثة فردية لا تعطى حكماً عاماً ؛ ولو لم يكن هناك سواها لصح هذا الدفاع ، ولكن المشاهد المر أن كثيرين من النساء اليوم جاهلات بالثقافة الدينية ، وكثير من الآنسات والسيدات اليوم يبرعن فى

حفظ الأغانى الخليعة والقصص الماجنة وأسرار البيوت الفاضحة وأسعار الكماليات الفاحشة ، بينما يجهلن مايجب أن يعرفنه عن العقيدة والقرآن وثقافة الدين . . . وهذه مثلا قصة الإسراء والمعراج وهى موضوع الحادثة ، لقد قيلت وأعيدت وكررت مئات المرات فى السابع والعشرين من رجب فى كل عام ، وفى أغلب المناسبات التى يجرى فيها الحديث عن الشهيدة المضيعة « فلسطين » ، فهل لم تسمع سيدة المجتمع المشهورة شيئاً عن هذه القصة فى حديث أو خطبة أو مقالة ؟ . . أين نحن من الدنيا أيها الناس ؟ . . والعجيب هنا أن كل كلمة من كلمات الآية الشريفة تشير إلى أنها قرآن ، وتباعد بينها وبين الشعر ، وكل كلمة فيها تذكر بمعنى دينى أو ناحية إسلامية ، مما لا يدع مجالا للذهن ، ولو كان كليلا أو عليلا — لينصرف جهة التفكير فى أن هذا كلام شعراء ، والأمى فى بلاد الإسلام الذى يتعلم ولم يقرأ يستطيع أن يميز كلام الله من كلام البشر ، وأسلوب الإنسان . . .

إن الآية الكريمة تبدأ بكلمة « سبحان » وهذا تنزيه لله عن كل نقص ، وتعبير خاص بالله لا يليق بسواه ، ولقد قال طلحة بن عبد الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله ؟ فأجابه : تنزيه الله من كل سوء ! . ثم تقول الآية : « أسرى بعبده » فقال الله هنا بعبده ولم يقل برسوله أو نبيه أو حبيبه ، ليعلمنا أدب التواضع من جهة ، وليخبرنا أن العبودية لله هى أشرف المقامات ، فلو كان هناك وصف أشرف من هذا الوصف لنعت الله رسوله فى هذا المقام المشهود : مقام التكريم والاصطفاء . ويقول القشيرى : « لما رفعه الله تعالى إلى حضرته السنية ، وأرقاه فوق الكواكب العلوية ، ألزمه اسم العبودية ، تواضعاً للأمة » ! . والشاعر الإسلامى يقول :

ومما زادنى شرفاً وتيهاً   وكدت بإخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك : يا عبادى   وأن صيرت أحمد لى نبياً !

وأيهما أسمى وأشرف ؟ . . أذلك الذى يفاخر بعبودية لله مالك الملك ، وقيوم السموات والأرض ، ورحمن الدنيا والآخرة ، أم ذلك الذى يفاخر بعبوديته لمحبوبته فيقول :

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنــه أشرف أسمــائى !

ثم تذكر الآية « المسجد الحرام » فهل عجزت المرأة أن تفهم شيئاً عن المسجد الحرام حتى تباعد بين حديثه وحديث الشعر ؟ ... إنه المسجد الذى قال فيه القرآن : « إن أول بيت وضع للناس ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً » . . ثم تذكر الآية « المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » فهل فات المرأة أن تسمع فى حياتها مرة عن هذا المسجد الأقصى الذى بفلسطين ، وقد قال فيه الرسول : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » ، وقد بارك الله حوله بمجارى الأنهار وتعدد الثمار ومدافن الأنبياء والصالحين وغير ذلك .

ثم تعالوا بنا أيها الناس ، خبرونا عن المقياس الذى يقيسون به سيدات المجتمع ؟ . أو بعبارة أخرى : ما المؤهلات التى تسوغ للمرأة اليوم أن تصبح سيدة مجتمع ؟ . أهى أن تهجر بيتها ، وتنسى واجبها ورسالتها ، وتتقن تبرجها وزينتها ، وتكثر من الاختلاط بالأوساط المتميعة أو المتصدعة ؟ . أهى أن تتقن كيف تشرب وترقص وتصادق وتلوى لسانها بكلمات فرنسية مع أخرى انجليزية ؟ . . فأين العلم والخلق والدين والثقافة والتهذيب ؟ .

إن كثيراً من المسميات بسيدات المجتمع هن فى الحقيقة والواقع نساء فشلن فى أن يكن زوجات مستقرات ، أو ربات بيوت ناجحات ، أو أمهات بانيات ، فلما أخفقن فى هذه الميادين الكريمة حاولن ستر هذا الإخفاق بالإندفاع إلى الأوساط الاجتماعية الهائجة ، لكى يغمرهن تيارها فيخفين ما الله مبديه ، والله عليم بذات الصدور . . . ونحن فى الواقع لا نحتاج إلى سيدات المجتمع هؤلاء ، وإنما نحتاج إلى نساء يسهمن فى حياة الوطن بأخلاقهن وثقافتهن وجهودهن فى ميادينهن وما أكثرها ، ونحتاج إلى زوجات صالحات قانتات ، ونحتاج إلى أمهات مخرجات للأبطال من الأبناء ، دافعات للرجال بأيديهن إلى قمم العزة والمجد ، ماسحات بأيدى الرحمة والحنان على الجراح والآلام . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . أذكركم بعد هذا بالقرآن المضيع بيننا أيها الناس . . . أفما آن لأهل البصر والبصيرة ، والقدرة والاستطاعة أن يتداركوا أمر تحفيظه ؟ . . إننا نخشى أن يأتى اليوم الذى نفتش فيه بمصباح « ديوجين » عن حفاظ للقرآن فلا نجد . . . وبالأمس كانت فتيات المسلمين يحفظن القرآن وينافسن فى ذلك الفتيان ، فهل هناك اليوم فتيات من بنسات المسلمين يعكفن على القرآن ؟ وهلا تذكرتم واجبكم فى هذا المجال ، فأخذتم أبناءكم وبناتكم بمعرفة القرآن والتثقف فى الدين ! . . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

المرأة والمعركة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله عز وجل . وعد من يعمل ويحسن بالأجر العظيم والثواب الجزيل : « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو القائل : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ذكر بالنعمة ، ووجه بالحكمة ، فكان إمام المرشدين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن التوفيق فى الكلمة المسموعة أو المقروءة لون من ألوان الهداية الربانية للعباد ، ولذلك قال القرآن الكريم فى شأن الأخيار من الناس : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » . وفى وسط الأسبوع الماضى نشرت إحدى صحفنا خبراً غير صحيح ولم تكن موفقة فى نشره حيث قالت إن النساء الجزائريات قد اشتركن فى الاشتباكات الحربية الأخيرة التى وقعت فى منطقة السويس بين العصابات الإسرائيلية والقوات العربية ، وأن اصابات حدثت لهؤلاء الجزائريات بعد أن قمن بجهود نضالية عظيمة ، وفى اليوم التالى نشرت الصحيفة نفسها تكذيباً للخبر جاءها من المسئولين وطلبوا نشره فأطاعت وفوق أن الخبر لم يقع نحس أن نشره يوجد أثراً سيئاً فى النفوس ، فما زال فى الحمى رجاله وأبطاله ، وما زلنا نرتجى من أبنائنا وفلذات أكبادنا أن

يكونوا صقور المعركة ونسورها . والجزائر العربية الإسلامية الشقيقة قد قدمت إلينا فى المعركة الأخيرة مجموعة من زهرة شبابها ومجاهديها ، وقد قامت هذه المجموعة بأعمال بطولية قبل النكسة وبعدها ، وأفرادها هم الذين يستحقون التنويه والتمجيد ، فكيف يترك هؤلاء ، ويدور الحديث المتطرف أو المتسخف عن فتيات غير موجودات ؟ ولمصلحة من يصنع هذا الخبر المكذوب ثم يذاع على الناس ؟

إن الجهاد قسمان : جهاد مباشر فى الميدان ، وجهاد غير مباشر خارجه ، والدين قد علمنا أن الجهاد المباشر يجب أولا وبالذات على الرجال . وإذا حدث الزحف العام ، أو وطىء العدو أرض الإسلام ، وجاء وقت التعبئة الشاملة ، كان الجهاد فرضاً عينياً محتوماً على الجميع ، حتى قال الفقهاء إن الزوجة تخرج إلى الجهاد دون إذن زوجها ، وتاريخ الإسلام يشهد أن المرأة اسهمت فى الجهاد بنصيبها ، وتألقت جهودها بنوع خاص فى مجال المعاونة على إنجاح المعارك بالجهاد غير المباشر ، فقد روى الإمام البخارى أن الربيع بنت معوذ الجليلة قالت : « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . نسقى القوم ونخدمهم . ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة » . وهذه أم عطية الصحابية الجليلة الانصارية تقول : « غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات ، أخلفهم فى رحالهم . وأصنع لهم الطعام ، وأداوى الجرحى . وأقوم على الزمنى » أى المرضى . وحينما احتاجت المعركة إلى نزول المرأة المسلمة فى ميدانها لم تتخلف عن ذلك . وهذه أم عمارة نسيبة بن كعب الصحابية الجليلة قد شاركت أولا فى غزوة أحد بسقى الماء وخدمة المجاهدين . وحينما اشتد الأمر على المسلمين باشرت القتال بالفعل . ودافعت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام بالضرب بالسيف والرمى بالقوس . وأصابتها جراح كثيرة بسبب اشتراكها فى القتال . وقال الرسول صلوات

الله وسلامه عليه يمجدها : « ما التفت يميناً ولا شمالا إلا وأراها تقاتل دونى » .

ولقد علمنا الإسلام العظيم أن الجهاد مراحل ، وأن طريقة طويل ممتد ، وأن الجهاد يسبق المعركة ويصاحبها ويعقبها ، فهناك جهاد قبل بدء المعركة عن طريق الإعداد والاستعداد والتأهب ، بدليل قوله تعالى : « وخذوا حذركم » وقوله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وهذا لا يحقق الفائدة إلا إذا سبق المعركة ، وهناك جهاد فى وقت المعركة بالإقدام والثبات والاحتمال بدليل قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » . وهناك جهاد بعد المعركة بالاستمرار فى حياة العزة والقوة ، وبدوام النفوس على رزانتها وسكينتها وتماسكها ، وتحصنها بالمشاعر النبيلة والأحاسيس الطاهرة ، ويمثل ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عائد من إحدى الغزوات ، حيث قال لأصحابه : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ! قال : جهاد النفس . والمرأة تستطيع أن تسهم بنصيبها المعلوم فى هذه المراحل ، فتؤدى واجبها الكبير حين الإعداد المادى والاعداد المعنوى . وتستطيع أن تخدم المعركة الدائرة من قرب أو من بعد ، وتستطيع أن تؤدى واجبها بعد المعركة على نطاق رحيب ، مع لزوم التنسيق والتنظيم ، حتى يؤدى كل فرد واجبه المناسب فى الوقت المناسب على الوجه المناسب .

إن المرأة المسلمة اليوم أمامها واجبات كثيرة نحو المعركة ، أمامها أن تشارك فى عملية الإعداد الكبيرة ، وأن تجيد الدفاع عن النفس والدفاع المدنى . وأن تجيد الإسعاف والتمريض والحراسة والصيانة ، وأن ترعى أسر المجاهدين والشهداء ، متذكرة قول رسولها عليه الصلاة والسلام : « من خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا » ، وأن تكون خير معوان على إثارة عواطف النضـــال

والإقدام فى نفوس المجاهدين ، متذكرة أختها السابقة التى قال لها ولدها وهو خارج إلى المعركة : إن سيفى قصير يا أماه . فأجابته : تستطيع أن تجعله طويلا بخطوات إقدامك يا بنى . وأختها السابقة متى قصت شعرها . وجعلته ضفيرة وقدمتها لتكون لجاماً لأحد الخيول المجاهدة ، فأشعلت نار الحماس فى صدور المجاهدين ، وأختها السابقة « الخنساء » التى دفعت بأولادها الأربعة إلى الميدان ، وأوصتهم بالحرص على الثبات وصدق الجهاد حتى الموت والاستشهاد ، وشاء الله أن يكتب لهم مصير الشرفاء فيكونوا جميعاً من الشهداء. وحينما علمت بذلك قالت : الحمد لله الذى أكرمنى بموتهم فى سبيله ، وأرجو أن يجمعنى به فى جنته ومستقر رحمته .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

لا شك أن هناك عدداً من نسائنا قد حاولن تأدية واجبهن قدر استطاعتهن ، ومنهن من تدربن على حمل السلاح وتفجير القنابل واختراق الحواجز واللهب ، والإسعاف والإطفاء والإنقاذ والحراسة ، ولكننا ما زلنا نرى أعداداً ضخمة من النساء كأنهن لم يشعرن بما نحن فيه ، فما زلن يسرن مائلات مميلات ، كاسيات عاريات ، مع أننا سمعنا أن النساء فى بعض أقطارنا كالجزائر وليبيا يلبسن السواد شعوراً بالنكسة . وإثارة لحوافز غسل العار والأخذ بالثأر وتحرير الديار ، ومن واجب القوامين على هؤلاء النساء أن يأخذوا بأيديهن إلى مجال الإسهام فى المعركة . فما زالت الحرب قائمة ، وما زالت المعركة مستمرة ، والجهاد يتطلب عزائم الكل وجهود الجميع . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

تعدد الزوجات

الحمد لله عز وجل ، خلق الخلق وهو العليم بما يضرهم وما ينفعهم ، الخبير بما يشقيهم وما يسعدهم : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أقام الشواهد على ربوبيته ، وبث الدلائل على صدق دعوته : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام المتقين ، وزعيم الموقنين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

فى زحمة الشواغل الكبرى التى تشغلنا فى هذه الأيام ، والتى أطلنا عنها الحديث من قبل ، نشرت الصحف خبر قضية يجب أن نقف أمامها وقفة الاعتبار والادكار ، لأنها تعطينا برهاناً جديداً على أن الإسلام هو الدين الجامع الخالد الصالح لكل زمان ومكان ، وموضوع هذه القضية أن رجلا مسيحياً تزوج باثنتين ، فأرادت الزوجة الأولى حرمان الزوجة الثانية وأولادها من حقوقهم بدعوى أن الجمع بين الزوجتين محرم وباطل فى الديانة المسيحية ؛ وقد حكم القاضى فى هذه القضية برفض ذلك ، وقرر أن هناك خطأ مشهوراً هو القول بأن الإسلام وحده هو الذى يبيح تعدد الزوجات ، مع أن هذا التعدد غير غريب على البيئة المصرية منذ عهد الفراعنة . وأنه كان النظام السائد فى الديانة اليهودية ، وإنما حرمه مجمع يهودى عقد فى القرن الحادى عشر

---

(١) ألقيت فى ٢٥ من رجب سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٤ من فبراير سنة ١٩٥٨ م

للميلاد . ومع ذلك ظلت بعض الطوائف اليهودية تعدد الزوجات أسوة بأنبياء بنى إسرائيل ، ولم يرد فى الإنجيل نص صريح قاطع يحرم هذا التعدد . والنصوص التى يستند إليها القائلون بغير ذلك لا تستقيم دون الاعتساف فى تأويلها وتفسيرها ، وإنما الذى حرم التعدد فى المسيحية هو مجمع « نيقيه » المعروف [1] .

هذه خلاصة أمينة لقرار القاضى فى هذا الموضوع . وإنه لقرار عميق الدلالة جليل الأثر . لأنه يعد صفعة قوية على وجوه أولئك الذين يحاولون من حين إلى حين أن يهدموا شريعة الله ، فيطالبوا بمنع تعدد الزوجات منعاً باتاً ، وبتسوية المرأة بالرجل فى الميراث . إلى آخر ما يحاولونه من تحريف وتبديل ، ويتفننون فى اتخاذ الطرق الملتوية إلى ما يريدون . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . . . وقيمة هذا القرار ترجع إلى أنه من قاض مدنى وليس من رجل دينى . وأنه يصحح أوهاماً رائجة بين كثير من الناس ، وينصف الدين الإسلامى المظلوم عند الجاهلين به والحاقدين عليه . فطالما افترى المفترون بأن تعدد الزوجات أمر معيب فى كل صورة ويجب أن يمنع بتاتاً ؛ مع أن هناك ظروفاً تقضى به وتلجىء إليه ، فحينما يزيد عدد النساء على الرجال بسبب تعرض الرجال للمتاعب والشدائد والحروب لابد للعدد الزائد أن يجد الحياة الكريمة فى ظل الأسرة ، وإلا عمد إلى الترهب والفجور . وكل منهما يفضى إلى طائفة من الشرور .

وقد تصاب الزوجة الأولى بعقم ، والرجل يريد الذرية ، وإن طلق الأولى ضاعت أو هانت . فهو يبقيها مكرمة ويضم إليها ثانية . وقد تصاب المرأة بمرض مزمن يجعلها غير صالحة للفراش . ولابد للرجل من إرضاء غريزته ، فإن لم يفعل ذلك حلالا اندفع إليه فى ظلال الإثم والفسوق .

---

(١) انظر جريدة الجمهورية ، يوم الأربعاء ٥ من فبراير سنة ١٩٥٨م

والواقع أن كلا من الإسلام والمدنية التى يتشدقون بها وينتسبون إليها يبيح تعدد الزوجات ، ولكن الفرق بين الإسلام الحنيف ومدنيتهم الكاذبة فى هذه الناحية هو أن الإسلام أباح تعدد الزوجات عند الضرورة إليه . تحت بصر التشريع وسمع المجتمع ، وفى صورة واضحة معترف بها من الفرد والجماعة ، مستلزمة لتبعات كثيرة أثناء الزوجية وبعدها . وأما مدنيتهم فإنها أباحت التعدد تحت ستار المخادنة والعلاقات الأثيمة الفاجرة بين الجنسين والاتصالات البهيمية بين الرجال والنساء ، بلا اعتراف نظيف من المجتمع . ولا التزام صريح بحقوق الزواج ، «فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون» ؟ ! . .

لسنا بهذا نحرض على تعدد الزوجات أو نشجع عليه ، فإنه كالدواء الذى يؤخذ عند الحاجة إليه فقط ، وما أكثر المجرمين الذين يسيئون استعمال هذا الدواء بلا حاجة فيجنون على أنفسهم وعلى غيرهم ، ولكن سوء الاستعمال لا يوجب منع الدواء إطلاقاً وإلا تعذر علاج الحالات التى يلزمها هـذا الدواء ، والأصل أن يقتصر الإنسان على زوجة واحـدة ، وتكاليف الحياة أصبحت اليوم شاقة عنيفة ، ومن العسير أن ينهض الفرد العادى بحقوق الزوجة كلها ، فكيف يضع ضغثا على إبالة ؟ . . والإسلام يعتبر الفقر والعجز عن نفقة الأسرة عذراً وسبباً فى عدم التزوج بزوجة واحدة فهو من باب أولى لا يبيح للعاجز عن التبعات الزوجية أن يتزوج بأكثر من واحدة .

وخطتنا فى هذا الباب هى أن تبصر الرجال بتبعات الزواج وبحقوق الزوجية ، وبأن البيت له نفقاته وتكاليفه ، وبأن زوجة واحدة تحتاج إلى كثير من العناية ومزيد من الرعاية . فلا يقدم على الزواج بأخرى إلا إذا كان محتاجاً احتياجاً صادقاً ملحاً إلى هذه الزوجة الثانية . وعرف أنه سيعدل

بين الزوجتين العدل المستطاع الذى يدخل فى طاقته : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، والرسول يقول : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط » ! .

ومما يتصل بهذا الموضوع أن إحدى المجلات المتحللة نشرت كلاماً عن تعدد زوجات الرسول صلوات الله عليه يفهم منه أن ذلك التعدد كان للشهوة الزائدة ، « ألا ساء ما يحكمون » وأية شهوة طاغية عند نبى صنعه الله على عينه ، واختاره لرسالته ، وكلفه من التبعات ما يزلزل الجبال الرواسى ؟ وأية شهوة هذه عند الرجل تزوج وهو فى الخامسة والعشرين من عمره سيدة فى الأربعين من عمرها ، وهى خديجة ، وقد تزوجت قبله مرتين ، ومع ذلك عاش معها وحدها فى أطيب عيش أكثر من خمسة وعشرين عاماً . أى بعد أن تجاوز الخمسين من عمره ، وانقضى عهد الشباب والاشتهاء ؟ . .

وإنما تزوج الرسول فى سنواته الأخيرة من تزوج من النساء ليجمع القلوب ويتألف القبائل ، وليحقق أغراضاً أنظف وأشرف مما يفترون . . . فتزوج عائشة تكريماً لأبيها الصديق أبى بكر ، وتزوج حفصة إرضاء لأبيها عمر ، ، وجبراً لخاطر ها بعد زوجها الذى توفى مجروحاً فى غزوة بدر ، وتزوج أم سلمة الطاعنة فى السن ليحفظها ويحفظ ذريتها بعد موت زوجها شهيداً فى سبيل الله ، وتزوج زينب بنت جحش ليبطل زواجها نظام التبنى الذى كان فاشياً بين العرب . . . وهكذا . . . أفيقال بعد هذا عن هـــذا الرسول العظيم ما يقولونه من زور وإفك وبهتان ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن حياة النبى المجاهدة المناضلة لم يكن فيها مجال للاستمتاع أو الراحة ، فقد نشر دعوة ، ووحد أمة ، وجمع كلمة ، وأخرج الناس من الظلمات

إلى النور وشهد الغزوات والمعارك ، وأفسد المؤامرات ، وقضى على الشرك ، وكان يرى نفسه مسئولا عن كل فرد فى أمته ، فهل يجد فى حياته متسعاً لهذه الشهوة أو لهذا الاستمتاع ؟ إن الرجل منا قد تشغله التجارة أو الكتابة أو العمل فينسى الخلق والنساء ومتاع الدنيا ، ولا يجد دوافع للمتعة أو الشهوة ، فكيف بمن تعب للجميع حتى أسعد الجميع عليه الصلاة والسلام ؟ . . فتعرفوا إلى دينكم ، وطالعوا سيرة نبيكم على وجهها ، وأدركوا أسرار شريعتكم ، وألقموا أعداءها بالحجة والبرهان ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الدين وتنظيم الأسرة

الحمد لله عز وجل ، هو الرحيم بخلقه ، اللطيف بعباده : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يمن بالنعمة ويهدى بالحكمة : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل : « دعامة المؤمن عقله » ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه . وأتباعه وأحبابه : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

جعل الإسلام الأسرة قوام المجتمع ، وجعل الزواج بداية ، وجعل للزواج أهدافاً سامية ، منها إرضاء الناحية الحسية . وتحقيق المشاركة الوجدانية ، والتعاون على أمور الحياة ، وإنجاب الذرية ؛ والذرية نعمة إلهية عظيمة من جهة ، وتبعة خطيرة من جهة أخرى ، فهى أمانة تحتاج إلى الرعاية والصيانة ، فإذا أراد الإنسان أن يحظى بها كان واجباً عليه أن يكون صالحاً : فى حسه ونفسه ، طاقته وقدرته ، فى إشرافه ورعايته ، حتى يكون أهلا للنعمة ، جديراً ببقائها بين يديه ، ولو أنه تعرض لها وهو عاجز عن مسئولياتها ، لكان مستخفاً بها مفرطاً فيها ، معرضاً نفسه لمذمة التقاصر عن استحقاق النعمة من جهة ، وإثم تضييع ذريته وإهمالها من جهة أخرى ، ولذلك أوجب الإسلام على الوالد أن يرعى ولده حق رعايته ، فينهض بتبعات نقصه وإرضاعه

---

(١) ألقيت فى يوم ١١ من فبراير سنة ١٩٦٦ م

وإطعامه وإلباسه وإسكانه ، وتعليمه ما ينفعه دنيا ودينا ، ويدخر له فى غده القريب أو البعيد ما يهيئ له أسباب الراحة والسعادة ، حتى قال سيد الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام : « لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » أى فقراء يسألون الناس .

وهناك كثير من الذين لم يتفقهوا فى دين الله على بصيرة يظنون أن مجرد الاكثار من الذرية حتى ولو كانت عليلة هزيلة لون من الازدياد فى النعمة ، وهذا فهم غير قويم فإنه إذا لم تتوافر مع الكثرة العددية القدرة المادية والمعنوية الكافية لصيانة هذه النعمة حق صيانتها ، والنهوض المستقيم بتبعاتها ومسئولياتها فإن الكثرة حينئذ سيكون مآلها الضعف والهزال ، أو الانحراف والخبال ، وهذه الكثرة الهزيلة العليلة المضيعة لدينها لا تغنى ولا تفيد ، ولقد قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ . قال : بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ . قال : حب الدنيا وكراهية الموت » . .

ولقد جاء فى الفقه الإسلامى أن الإنسان لا يجوز له الاندفاع العاجل إلى الزواج نفسه إذا كان غير قادر على النهوض بتبعاته الأساسية وواجباته اللازمة بأن يكون عاجزاً عجزاً مادياً أو جنسياً ، أو تأكد لديه أنه سيظلم زوجته أو سيهضمها حقوقها الضرورية ومطالبها المشروعة ، وفى هذا المقام نتذكر قول الله تبارك وتعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة (أى القدرة على تبعات الزواج) فليتزوج ، ومن لم

يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى وقاية . فإذا كان هذا معروفاً من فقه الإسلام فى الزواج نفسه ، فإنه مما لا ينبغى للمسلم فى ضوء هذا الفقه أن تستبد به شهوته أو غفلته ، ، فيأتى بذرية تتكاثر على مدى الأيام عدداً ، بينما هو يزداد معها عجزاً ولها تضييعاً ، مع أن سيد الأنبياء محمداً يقول : « جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشيء » . وقال حبر الأمة وعالمها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « كثرة العيال أحد الفقرين ، وقلة العيال أحد اليسارين » ، وكأنه يريد بالفقرين قلة المال التى تسبب العجز والتقصير ، مع كثرة العيال التى ترهق صاحبها وتشق عليه ، فيعجز عن النهوض بتبعاتها ، ويقصر فى أداء واجباتها ؛ ويريد باليسارين وفرة المال المعينة على تحقيق الآمال ، مع قلة الأولاد التى تمكن صاحبها من أداء الواجب والنهوض بالتبعة ولقد قال الإمام على بن أبى طالب فى كتابه المشهور « نهج البلاغة » أيضاً : « قلة العيال أحد اليسارين » .

ومنذ مئات ومئات من السنين تحدث فريق من فقهاء المسلمين عن إباحة اللجوء إلى وسيلة مشروعة غير ضارة لإيجاد فترات متباعدة بين مرات الحمل عند الزوجة ، إذا كانت هناك ضرورة تدعو إلى ذلك ، وذكروا من مبيحات هذا أن يكون عند المرأة ضعف ، مع استعداد قوى لتتابع الحمل مما يعرضها للهزال والمرض ، أو يكون هناك مرض خبيث معد فى الزوجين أو أحدهما ينتقل إلى الذرية إذا جاءت ، أو أن يكون هناك ضعف اقتصادى واضح ، بحيث لا يكون لدى الزوج أى اقتدار مالى على النهوض بتبعات الذرية إذا كثرت ، وقد عبر عن هذا حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالى بقوله : الخوف من كثرة الحرج بسبب كثرة الأولاد » .

ولقد وجهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بعض الوسائل المشروعة التى نتجنب بها هزال الذرية الناشيء عن تتابعها فقال : « لا تقتلوا أولادكم

سراً ، فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره من فوق فرسه » أى يصرعه ، والغيل هو أن تحمل الزوجة وهى ترضع ، وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد شبه الغيل بالقتل السرى للولد ، أو كأنه شبهه بالاغتيال الذى تذكرنا به مادة الغيل، وكأن النبي ينهى الزوج عن معاشرة زوجته معاشرة جنسية تؤدى إلى الحمل فى أثناء ارضاعها لمولود لها عندها، حتى لا يتعرض المولود السابق للهزال ، وحتى لا يتعرض المولود القادم للضعف ، وحتى لا تتعرض الأم أيضاً للألم والإجهاد ، بسبب حيرتها بين تحقيق مطالب الرضيع من جهة ، ومطالب الجنين من جهة أخرى . وتمام الرضاع سنتان بنص القرآن الذى يقول : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » والحمل سيأتى بمقتضى هذا التوجيه بعد انتهاء مدة الرضاع ، والحمل فى العادة يقرب من سنة ، ومعنى هذا أنه سيكون هناك ما يقرب من ثلاث سنوات بين المولود الأول والمولود الذى يليه ، وفى هذا تباعد بين مرات الحمل ، وهو يؤدى إلى تنظيم الأسرة ، وبذلك يتحقق لون من التوازن أو التعادل بين طاقة الزوج الاقتصادية ، وحالة الزوجة الصحيحة ، ومطالب الذرية المتعددة .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن الله تعالى لم يخلق لنا الحياة لنشقى فيها ، بل لنسعد ، ولم يفتح لنـــا باب الذرية لنشقيها أو نهملها ، بل لتكون قرة أعين لنا ، وإنما يتحقق هذا إذا عملنا على أن يكون لنا اقتدار مادى نستطيع به تحقيق هذا المستوى الكريم الذى ينبغى أن يتحقق للفرد الصالح ، . فى المجتمع الفاضل ، فى ظلال الوطن السعيد . ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الشباب أمل الحاضر وعدة المستقبل

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله عز وجل ، زان الحياة بالأمل ، وقواها بالعمل : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى العاملين ونصير المناضلين : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، آمن فأيقن ، وعمل فأتقن ، وجاهد فأحسن . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن الشباب فى كل أمة هم الذين يمثلون ربيع العمر ونضارة الحياة وقوة العزيمة — لأنهم بفتوتهم وهمتهم ، وطموحهم وحسن توجيههم — يستطيعون أن يواصلوا الخطوات على الطريق ثابتة راشدة . ولذلك يعد الشباب فى الأمة معقد الأمل وموطن الرجاء ، وبسواعدهم وعلى أكتافهم تقوم النهضات وتتم الوثبات ، وتكمل جلائل الأعمال . وهم بقوتهم وإيمانهم يستطيعون بناء الأمة وحمايتها ، ولذلك كان من واجب الأمة أن تعنى أكبر عناية بالشباب فتحسن إعدادهم وتحكم توجيههم ، وتمكنهم من أداء رسالتهم وواجبهم ، حتى تقطف أطيب الثمرات من هذا الغرس الناضر النامى ، الذى ينبته ربه نباتاً حسناً ، فيؤتى أكله مباركاً ، ويكون عند ظن قومه به . فيعود عليهم بأنفع الحصاد وأكرم الثمار .

وللشباب فى الإسلام مكانة ملحوظة يغبطون عليها . ولو راجعنا تاريخ الدعوة الإسلامية فى أول أمرها لوجدناها نضالا بين الشباب الذين تفتحت

---

(١) ألقيت فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦٧ م

قلوبهم وعقولهم لهدى الله ونور السماء ، وطائفة من كفرة شاخوا على الباطل ، فأخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا عن الاستجابة للحق ، ووصفهم القرآن المجيد بقوله : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » . وقد استطاع هؤلاء الشباب ، الذى ربوا على الإيمان والخلق أن يهزموا الباطل ، ويرفعوا راية الحق ، ويؤسسوا دعائم المجد ، وإذا راجعنا أسماء الطليعة التى حملت أشعة الإسلام إلى الناس نجد أكثر أفرادها قد دخلوا فى دين الله وهم فى طليعة الشبيبة ، وحسبنا أن نتذكر بينهم على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص وجعفر بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله وزيد بن حارثة ، ولم يقتصر الأمر فى هذا السبق على الذكور ، بل كان للفتيات فيه نصيب ، وحسبنا أن نتذكر من بينهن فاطمة بنت الخطاب وأسماء بنت عميس وفاطمة بنت صفوان ، ولذلك جاء فى أحد الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أوصيكم بالشباب فإنهم أرق أفئدة ، إن الله بعثنى بشيراً ونذيراً فحالفنى الشباب وخالفنى الشيوخ » ثم قرأ قوله تعالى : « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » .

وحسب الشباب المؤمنين مجداً وشرفاً أن تزدان قافلة الدعوة إلى الله فى أول أمرها ، بقيادة أكرم الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يشد من أزره شباب أسلموا لله أنفسهم ، وطهروا من الدنا حواسهم ، واحتسبوا لربهم عزائمهم ، وأخلصوا لدينهم هممهم ، فانطلقوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، يحقون الحق ويبطلون الباطل ، ويقاومون البغى والطغيان ، ويقيمون مجتمع العدل والإحسان ، ولقد قص الله علينا نبأ شباب وقفوا فى وجه الكفر والظلم بعزائم مستمسكين بعقيدتهم ومبدأهم ، فقال فيهم : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذن شططا » ، وفى فيض التوفيق الذى هيأه الله لشباب الإيمان وفتية

الرحمن حق لعبد الله بن عباس أن يقول : « الخير كله فى الشباب » . كما حق للأثر الإسلامى أن يردد : « روح الجنة فى الشباب » ، وحينما استعان المجاهد الناسك يحيى بن المختار بطائفة من الشباب فى نضاله ، ولامه بعض الناس على ذلك استنكر لومهم ، وقال منوهاً بقيمة الشباب ومكانتهم : « أتعيروننى بأصحابى وتقولون إنهم شباب ؟ وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شباباً ، شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم . . . حتى إذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله » .

ولقد أعطانا الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، درساً بليغاً فى تكوين الشباب . وفى إسناد جلائل الأعمال إليهم ، وفى تمكينهم من مواقف مشهودة ، يسعون فيها خير السعى ، ويقطفون فيها أطيب الجنى ، فهاهوذا أبو بكر ينفذ خروج الجيش الإسلامى بقيادة البطل الشاب أسامة بن زيد ، وخرج أبو بكر يودع هـذا الجيش ماشياً على قدميه ، وأسامة فوق صهوة جواده ، فلما رأى القائد خليفة رسول الله ماشياً قال له : ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن . فأجابه الخليفة : والله لا تنزل ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له ، وسبعمائة درجة ترفع له ، وترفع عنه سبعمائة خطيئة . ومضى الجيش المؤمن إلى غايته يقوده بطل قوى فتى تتمثل فيه نضارة الشباب وعزيمة الفتيان ، وحقق المجاهدون ما أسند إليهم وعادوا ظافرين ، وهكذا يقيم شباب الإسلام الذين اهتدوا بهدى الله عز وجل الدليل بعد الدليل على أنهم يستطيعون بفضل الله وتوفيقه أن يحققوا الكثير من الآمال .

وإذا كنا الآن على أبواب عام دراسي جديد ، ينهل فيه الشباب من حياض العلم ما يؤهلهم لحمل الأمانة فى هذه الأمة ، فإن واجبنا أن نرعى هؤلاء الشباب فى دور العلم وخارجها رعاية دينية أخلاقية اجتماعية ، حتى يكونوا اللبنات القوية فى بنيان أمتنا ، ونحن أحوج ما نكون إلى عزم الشباب المسلح بالدين والإيمان والعلم ،حتى نقيم أمجادنا ، ونزيل آثار العدوان عن ديارنا ، ونحقق الخير الذى تصبو إليه نفوسنا ، وعلى الشباب أن يدركوا الواجب عليهم نحو ربهم ووطنهم ، وأن يعلموا أنهم مسئولون عن هذه الفترة من أعمارهم ، فلن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن شبابنا هم زهرات حاضرنا ، وأمل مستقبلنا، ومن أوجب الواجبات علينا أن نلتفت إلى هؤلاء الشباب بأبصارنا وبصائرنا ، ورعايتنا وعنايتنا ، فنحرص على تربيتهم دينياً وخلقياً وعلمياً وقومياً ، ونصلهم دائماً بالقيم الربانية الرفيعة ، والمبادىء الإلهية السامية ، لأننا نرتجيهم لمستقبل نريدهم فيه أن يكونوا حماة الديار وحراس المجد ، فيؤدوا واجبهم نحو الله والوطن فى استقامة وكرامة وإخلاص ، والله ولى المجاهدين المؤمنين وهو وحده مصدر الهداية والتوفيق . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

تمييع الشباب

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى القوة وحذر من الضعف : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أراد لعباده النصرة والغلبة والسيادة : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله لقوى عزيز » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من جمع بين قوة الحس وطهارة النفس ، فكان إمام المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه القانتين ، وأتباعه المجاهدين : « رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لا يمكن لأمة أن تحيا حياة كريمة عالية ، دون أخلاق فاضلة سامية ، ومكارم الأخلاق هي عماد الأفراد والشعوب ، ولذلك كان من الأهداف الأساسية للنبوات والرسالات دعم هذه الأخلاق ، حتى قال محمد سيد الخلق : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وفى ظلال الأخلاق الفاضلة تندفع الأفراد والجماعات إلى حياة شريفة متماسكة ، فيها صحة أبدان وقوة عقول وعلو همم ، وفيها اعتزاز بالفضيلة وحرص عليها ، وحملة على الرذيلة ونفور منها ؛ وقد ابتلانا الحظ الأسود بمجموعة من الشباب كأن الشيطان الرجيم قد استرقهم حساً ونفساً ، فهو يبثهم بين الناس كى يحققوا ما يبغى لهم من خسار وبوار ؛ هذه المجموعة تتمثل فى أولئك الرقعاء المائعين أشباه الرجال الذين يتحللون فى أخلاقهم ، ويعبرون عن هذا التحلل بالمظاهر التى لا تليق بالرجال ، فهم يلبسون الثياب الملونة والسراويل الضيقة ، ويضعون السلاسل الذهبية حول

أعناقهم ، والأساور فى أيديهم ، ويتسكعون فى الشوارع ، يعبثون ويفجرون ويعتدون على النساء والفتيات ويرددون أقذر الألفاظ ، ويمشون مترنحين كأنهم خارجون سكارى من ماخور أو حانة خمور . . .

ومن المضحك المبكى أن هؤلاء الشبان يصفون الذين ينصحونهم أو يدعونهم إلى الرجولية والحياة المتماسكة . بأنهم من أنصار القديم . . . ورحمة الله ورضوانه على كثير مما فقدنا من هذا القديم ، فأين عفة هذا القديم وأين جهاد القديم ؟ وأين تماسك الأسرة فى القديم ؟ وأين صيانة الأعراض فى القديم ؟ وأين نشأة التدين والإيمان والقوة التى كانت فى القديم ؟ . . سلاماً سلاماً على كثير من ذلك القديم ، وسبحان من يحيى العظام وهى رميم . . . الحق أننا خسرنا الكثير حين أعلنا الحرب على هذا القديم دون أن نفرق فيه بين فاسد وسليم ، وبين ما يصح أن يترك وما يجب أن يصان ، وفى حربنا للقديم تركنا ذخائر نفائس . . . تركنا الفضيلة لأنها شىء قديم ، واستهنا بالعرض لأنه شىء قديم ، ونسينا معنى الشرف لأنه شىء قديم ، وهزئنا بالقيم الفاضلة ، والمبادئ الأخلاقية لأنها شىء قديم ، وأصبحت الفضولية والوصولية والإباحية من القيم الجديدة فى العالم الجديد . . . وهذا مثل من أمثلة هذه القيم ، وهو مثل مخجل — إن كان قد بقى فى الدنيا من يخجل — فقد سئل أحد هؤلاء الشباب المائعين حين تعرض لبعض الفتيات بما لا يليق أترضى أن يرتكب شاب مثل هذه الوقاحة مع أختك ؟ فأجاب أختى حرة تفعل ما تشاء ! . . وهذا مبلغ الغيرة على الحرمات والأعراض إن كان قد بقى مكان للغيرة بين أشباه الرجال . . .

ومن الواجب هنا أن ننص على أمر له أهميته وقيمته ، وهو أن هؤلاء الشبان المتميعين قد اشترك فى إفسادهم أمران : سوء تربيتهم وإعدادهم من جهة وانتشار التبرج الفاجر بين النساء من جهة أخرى ، وليس من السهل

على الشاب أن يرى أمامه لحوم النساء عارية فاتنة صارخة ، ثم يستمسك بعفته وفضيلته ، فإذا كنا نريد الاستقامة فى الإصلاح ، فلنؤدب الشباب هؤلاء أولا ،ولنعلم العفة والوقار للنساء والبنات ثانياً ، وإلا فلا فائدة من البكاء والعويل على الأخلاق والفضيلة ، وهؤلاء الرقعاء يقولون : إننا نعاكس الفتاة التى تكشف عن مفاتن جسمها ، لأن الكشف عن هذه المفاتن دعوة صريحة ونداء سافر ... وعلى الرغم مما فى هذا من مغالطة أو احتيال للتسويغ يجب على من يريدون الإصلاح أن يعلموا أن انحراف الشبان ذو صلة وثيقة بانحراف النساء ، ورحم الله الرافعى إذ يقول انه لو عرضت عليه قضية امرأة متبرجة عاكسها شاب فى الطريق لعاقب هذه المرأة عقوبتين : « إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب ، والثانية بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر . . .

إن هؤلاء الشبان لم يتربوا فى البيت تربية صالحة ، ولم يجدوا فى المدرسة التوجيه الروحى الصادق ، ولم يجدوا المرأة فى الشارع على ما ينبغى من التصون أو الوقار ، ووجدوا فى المسارح والسينمات والشواطئ والنوادى والمجتمعات الأخرى عوامل الفتنة وجواذب الشر ، فسقطوا وتحللوا ورتعوا ، وكونوا لنا هذا الجيش من المائعين والمتحللين الذين لا يكتفون بفساد نفوسهم بل ينشرون الفساد بين غيرهم كما ينتشر الوباء الخبيث ؛ فما نفع هؤلاء لأمتهم وما جدواها منهم ، وهى معرضة لوقوفها موقف الزحف العام فى بعض الأحيان ، كى تدفع عدواناً ، أو تسترد أوطاناً ، ماذا يكون موقف المائعين الخانعين الذين يبثون الضعف والهوان ؟ . . . هل يثبتون فى معركة ، أو يجيدون حمل سلاح . . إنهم سيكونون معاول الهدم ودعاة الهزيمة بين العصبة النافرة للجهاد والنضال ، فإما أن نحسن تربيتهم ، وإما أن نبعدهم عن

مجموعة الأمة التى نرجيها ليوم نغسل فيه العار لنعيش عيشة الأحرار . . .
إننا نريد مثلا أن نخرج اليهود من فلسطين لنرد ها على أهلها الشرعيين ، وأن نحرر بقية أوطاننا من أعدائنا ، فهل تتحرر أرض فلسطين وغيرها بالأجسام الرخوة والملابس الحريرية والسلاسل الذهبية والمشية المتخاذلة والأخلاق المنحلة والحياة المتحللة ؟ . . إن فتيات اليهود قد حملن السلاح فى معركة اغتصاب فلسطين ، وحاربن وتعرضن لمتاعب ومشاق ، فهل عجز شبابنا عن أن يكونوا مثل فتيات اليهود فى الشعور بالتبعة والنهوض بالواجب؟. لقد ذل من بالت عليه الثعالب ! .

من واجبنا أن ننقل الشباب جميعاً إلى حياة القوة والفروسية التى يريدها لهم الإسلام . فإن القرآن الكريم يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » والرسول يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » . وقد حث الإسلام أبناءه على ألوان الرياضة والفروسية والفتوة حتى يكونوا فرساناً فى مختلف الميادين ، وإن كانوا رهباناً لربهم فى المحاريب ، وحتى يحققوا الصورة الرائعة للأمة التى يذكرها القرآن بقوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضواناً » . ورضوان الله على الإمام على يوم طالب ابنه بأن يكون فى الميدان صورة للشاب المسلم القوى الفتى فقال له : يابنى تزول الجبال ولا تزل ، عض على ناجذك ، أعر الله جمجمتك ، تد (ثبت) فى الأرض قدمك . ارم ببصرك أقصى القوم وغض بصرك ، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه » . وهل يطيق ذلك إلا فتى تربى تربية مؤمنة تجعله عليما بالفروسية ، خبيراً بالفتوة ، صبوراً عند اللقاء ، مقداماً فى حومة الهيجاء ؟ ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن أولادكم أمانات من الله فى أيديكم ، فاحسنوا صيانة هذه الأمانات ورعايتها، وبدلا من أن تجعلوهم يتخذون قدوتهم من مخانيث الغرب وممثلى المسرح والسينما ، اجعلوا قدوتهم من أمثال عمرو وعلى وأبو عبيدة وخالد وأسامة والمثنى وطارق وعمر بن عبد العزيز فأولئك أعلام الإسلام الذين زانوا الدنيا وسمو لقيمة الحياه ، وإنما يصلح أمر هذه الأمة بما صلح به أولها من الإيمان بالله والاعتزاز بهذه ، والتطهر فى هذه الحياة ، وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

واجب الآباء نحو الأبناء

الحمد لله ، يهب النعم الجزيلة فضلا وإحساناً ، ويجعل ثمنها من العباد طاعة وشكراناً : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، مبدع الحياة ، وواهب الجاه ، ومالك الجباه ؛ [تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شئ قدير [. ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، أعطيته الكوثر والميراث الأكبر ، وجعلت شانئه هو الأكبر ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى ذريته العاطرة النفحات ، وصحابته الخالدين بمآثرهم الباقيات ، وأتباعه الثابتين فى الأزمات والمسرات ، « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً » . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

بين الآباء والأبناء معركة من الخلاف والشقاق حامية الوطيس عالية الأوار ، لا تخبو نارها ولا ينقطع شرارها ؛ وما حاول أحد الفريقين أن أن يكون منصفاً ، فيدعو الطرف الثانى إلى مائدة مستديرة ، يعلوها الحق ويسودها الصدق ، بل الآباء غاضبون حانقون ، يصفون أبناءهم بالعقوق والمروق ، ويصبون عليهم اللعنات تلو اللعنات ، والأبناء ثائرون مائرون ، يصفون الآباء بالرجعية والجمود ، ويطيلون بهم السخرية والاستهزاء ، وبين غضب هؤلاء وحمق هؤلاء تضيع حقوق كان يجب أن ترعى بين الآباء والأبناء . . . ومع أن اختلاف العصور والنشأة له أثره البين فى النزاع بين

---

(١) ألقيت فى ١٩٥٧/٥/١٠ م

الطائفتين ، حتى قال الفاروق عمر رضى الله عنه : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » فإن أغلب التبعة فى الواقع يبوء بها الآباء ، لأنهم هم السابقون ، وهم المسئولون ، وهم الذين وضعت بين أيديهم العجائن اللينة ليصوغوها كما يشاءون ، فأهملوها أو أساءوا فى تشكيلها ، فجنوا ثمرة ذلك عقوقاً وتمردا ؛ والمرء لا يجنى من الشوك العنب ! . .

إن الذرية بلا شك عزيزة غالية ، فهى قطع الأكباد وثمار القلوب ، وعماد الظهور وقرة العيون وزينة الحياة ؛ ثم هى بعد ذلك أمانة من الله سامية يضعها بين أيدى العباد ، ليرعوها حق رعايتها ، ويصونوها حق صيانتها ، ولكن الآباء فى العهود الأخيرة أهملوا أبناءهم إهمالا شنيعاً ، لا نقول أهملوهم فى الطعام والثياب والفراش ، فذلك قدر من العيش ميسور للناس مع اختلاف فى الأحوال والأشكال ، ولكنهم أهملوهم فيما هو أهم وأعظم ، وأخطر وأكبر ، أهملوهم فى تقويم نفوسهم وتطهير أرواحهم وتدعيم أخلاقهم فى تنشئتهم على الدين والعبادة ، وفى ضرب القدوة الصالحة لهم ، وفى تحديد الطريق المستقيم أمامهم ؛ ومن هنا خرج الأولاد إلى الحياة بلا هدف وبلا إيمان ، وبلا رصيد من عزيمة أو أخلاق ، فتفرقت بهم السبل ، وتوزعتهم الأهواء ، وتقسمتهم الأخطاء ، وعاشوا فى دنياهم بأفئدة هواء ! . .

ومن أسف أن بعض الآباء يضلون ضلالا بعيداً فى تربية الأولاد ، فيسرفون فى تدليلهم والاستجابة لرغباتهم ، حتى يخرجوا كالأعواد الهينة الفضة اللدنة التى لا تحتمل مرور الرياح فتنكسر وتتقصف ، ويشبوا وفيهم روح الخور والمهانة ، فلا عزيمة ولا ثبات ، وما هى إلا سنوات يقضيها الولد فى حمى الوالدين لأنه ضعيف عاجز محتاج إليهما كل الاحتياج ، ثم ثم ينطلق على وجهه ضالا مضلا غير مستجيب لندائهما الحزين ، وعلى نفسها جنت براقش ، فلو أحسن الوالدان التربية والتقويم والتعليم ، لخرج الولد

وفيه نزعة الولاء وعاطفة الحياء ؛ وإذن لاستجاب الآباء لدعوة الحق تبارك وتعالى حين يقول لهم : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » والولد من الأهل ، ووقاية الأهل من النار إنما تكون بالهداية إلى طريق الله رب العالمين ، والتحذير من مزالق الشيطان المضل المبين ، فإذا فعل المرء ذلك حفظ أهله وولده فى الدين والدنيا ، ، وفى العاجلة والآجلة ، ثم كان له فوق ذلك ثواب جزيل عند الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع » . وعلى العكس من ذلك يتحمل الوالدان تبعة الإثم إذا أهملا تربية الولد ، أو انحرفا به عن الطريق المستقيم ، أو لم يمكنا له الصلة بالدين القويم ، لأنه ألقى إليهما خلواً من المؤثرات ، مطبوعاً على الفطرة ، وهما اللذان حولاه إلى هنا أو هناك ، وإلى هذا يشير الحديث الشريف : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . . .

وبعض الآباء يسرفون على أبنائهم بشدة المعاملة وقسوة الحرمان وغلاظة الكبت فيفزع الولد من أبيه ، ويرهبه ويتقيه ، وإذا ما انفلت الولد من رقبته انطلق كالمجنون يعوض ما فاته بسبب هذه القسوة وهذا الحرمان . . . والآباء مطالبون بالحكمة والرشاد والاعتدال فى معاملة الأولاد ، فلا يدللونهم حتى يجعلوهم أغصاناً ضعيفة تتكسر ، ولا يقسون عليهم حتى يجعلوهم كالدواب المسخرة ، والإسلام كما يصب اللعنة على الآباء المفسدين لأبنائهم بالتدليل والتفريط ، يصبها أيضاً على الآباء المفسدين لأبنائهم بالإفراط فى القسوة والشدة ؛ ولقد سمع النبى صلوات الله عليه الأقرع بن حابس يقول : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً . فنظر إليه النبى وقال : من لا يرحم

لا يرحم ! . . وجاء اعرابى إلى النبي فقال : أتقبلون الصبيان فما نقبلهم ؟ . فقال النبي : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ ! . . وفى الحديث : « ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن . أى ما أهدى والد إلى ولده هدية أفضل من تأديبه بمكارم الأخلاق ! ! . .

ولقد كان الألى سلفوا يحفظون الله فى أبنائهم ، ويحسنون تربيتهم وطبعهم على الدين والخلق الكريم ، فتخرج الذرية طيبة طاهرة ، ترعى حقوق الأبوة والأمومة ، ولا تكفر بماضيها المجيد ، ومن هنا طابت العلاقات بين الآباء والأبناء ، فلم تتقطع بين الفريقين الأسباب كما نرى الآن ، وكذلك ضرب الأوائل للأولاد أكرم الأمثال فى الهداية والإرشاد ، فهذا مثلا سهل بن عبدالله التسترى كان يقوم بالليل وهو طفل فينظر إلى صلاة خاله الزاهد العابد محمد بن سوار ، فقال له خاله : ألا تذكر الله الذى خلقك ؟ . . فقال سهل : وكيف أذكره ؟ . . فقال ابن سوار : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات دون أن تحرك لسانك : الله معى ، الله ناظر إلى ، الله شاهدى ! . . . فكرر ذلك أياماً ، ثم ضاعف العدد وهو يشعر له بحلاوة ولذة ، فلما انتهت السنة قال ابن سوار لسهل : احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة ... ثم قال له بعد حين : يا سهل ، من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه ؟ إياك والمعصية ! . . وما هى إلا سنوات حتى كان سهل التسترى قد ملأ الدنيا وشغل الناس بعلمه ويقينه وزهده وعبادته . . . وهذا عبد الله بن عمر يصور ما وصل إليه ابنه سالم من الهداية والتوفيق فيقول : « إن ابنى سالما يحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه » إلى غير ذلك من الشواهد والبراهين . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إن أولادكم أمانات فى أيديكم ، فإن شكوتم خسارها أو بوارها فذلك منكم وعليكم ؛ أهملتم رعايتهم فى أول الطريق فساءت أخلاقهم فى نهايته ، وماذا كنتم تنتظرون غير هذا وقد تركتم لأولادكم الحبل على الغارب ، فلا دين ولا خلق ، ولا دقة فى الحساب ، بل تدلل وتميع وإطلاق للشهوات ؛ فإن شئتم تقويم المعوج فخذوا أبناءكم بشرعة الله المثلى ، واحفظوهم من قرناء السوء وموطن الخبث ، وعودوهم الخشونة والرجولة والعزة ، واضربوا لهم من أعمالكم وأقوالكم خير القدوة ، ويومها تضمنون لأنفسكم ذرية صالحة ، تتجدد بها حياتكم ، وتمتد آجالكم ؛ واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم . سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم . . .

صلاة فى ملعب الكرة

الحمد لله عز وجل ، زان عباده بالخضوع لعظمته ، وكلهم بالخشوع لعزته : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون » . أشهد أن لا إله إلا الله ، وعد بالثواب من أطاعه واستجاب له ، وتوعد بالعذاب من كفر به وأعرض عنه : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من وحد ربه وتعبد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وذريته ، وصحبه وشيعته ، ومن سار على طريقته : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

نالت انجلترة كأس العالم فى مباريات كرة القدم بعد أن كانت محرومة من الحصول عليه مدة طويلة ، وما أذكر هذا لأعلمكم به أو لأحدثكم عنه ، فإن أجهزة الإعلام — وأهمها الصحافة — قد تكفلت بذلك على نطاق واسع ، بسبب الحمى الجديدة التى أصيب بها المجتمع ، وهى حمى تفضيل الاهتمام بأخبار الرياضة على كل شىء ، حتى ولو كان ذلك الشىء متصلا بالعقيدة أو القومية أو المصالح الحقيقية للناس . ولعلكم لم تنسوا بعد أن أحد اللاعبين قيل عنه إنه يريد الانتقال من ناد إلى آخر ، فإذا الصحف تقوم على قدم وساق ، وتشغل القــراء بهذا القيل ، وتظل بعضها نحو أسبوع وهى تقدم عنه كل يوم صفحة واسعة ، كأن الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب ، أو كأن

---

(١) ألقيت فى ١٨ من ربيع الآخر سـنة ١٣٨٦ هـ الموافق ٥ من أغسطس سنة ١٩٦٦ م

انتقال هذا اللاعب من هنا إلى هناك يشبه عودة فلسطين من أيدى أهليها ، أو كأن هؤلاء يريدون أن يرغمونا على أن نصدق قول الشاعر الذى قال :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم : هى أمة تلو وشعب يلعب !

لم أرد — معاذ الله — أن أحدثكم عن انتصار انجلترة أو خيبتها — خيبها الله ، وخيب مثيلاتها من دول البغى والاحتلال والضلال ولكن هنـاك شيئاً يتعلق بهذه المباريات فى الكرة ، مر عليه الكثيرون مروراً بلا توقف أو تفكر ، وهو أن إحدى الصحف[1] نشرت صورة للاعب الكرة الانجليزى « جاكى شارلتون » وهو يصلى على أرض ملعب « ويمبلى » فى لندن ، قبيل المباراة النهائية على كأس العالم فى كرة القدم ، ومع أن الصحيفة اكتفت بنشر الصورة ، وتحتها سطر ونصف ، ولم تعلق على معناها أو مغزاها ولم تستوح منها درساً للرياضيين أو غير الرياضيين ، فقد تطلعت إلى الصورة بإمعان ، فإذا صاحبها قد برك على ساقيه ، وثنى إلى الأمام رأسه وكتفيه ، ورفع يديه بين وجهه وركبتيه ،وانخرط فى صلاة حسب دينه وعقيدته ؛ فقلت فى نفسى : يا لها من صورة تثير عبرة ، وتحرك فكرة ، والحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أى وعاء خرجت ، وأنى وجدها فهو أحق بها كما قال الصادق المصدوق رسول الله عليه الصلاة والسلام .

لو أن شخصاً متديناً منا فعل مثل هذا فقام وصلى فريضة الوقت فى وسط من أبناء الطبقة التى تصف نفسها كذباً راقية أو مثقفة لسخروا منـه وتندروا عليه ، وأحرجوه بين معارفه وغير معارفه ، ولكننا نجد هذا يحدث فى انجلترة ، وفى عاصمتها لندن ، وفى ملعب عالمى واسع ، وعلى مشهد من

---

(١) جريدة الأخبار يوم الخميس ٤ من أغسطس سنة ١٩٦٦ م

الألوف المؤلفة ، ولا يثير سخرية ولا استخفافاً ، بل يعد يقيناً وإيماناً ، مع أننا نؤمن بأن ديننا خير من دين الإنجليز ، وأن تعاليم إسلامنا المحفوظ بعناية الله أفضل مائة مرة من تعاليم مسيحيتهم المحرفة ، أفلا يليق بنا أمام هذا أن نراجع أنفسنا ، لنصفيها من رواسب الماضى العفنة ، وفضلات الشعور بالنقص المعيب ، وأقذار السموم التى قذفها فى عقولنا وقلوبنا أعداؤنا خلال سيطرتهم علينا واستعبادهم لنا ، ، وتمييعهم لشخصيتنا وعقيدتنا ؟ . أفلا يجب علينا أن نصحح إيماننا ، ونثبت قيمنا ، ونعتز بعبادتنا وعاداتنا الطيبة وتقاليدنا الكريمة المستمدة من تراث ديننا الكريم : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

إن الصلاة فى الإسلام هى الركن الأول بعد عقيدة التوحيد ، وهى دون غيرها من الواجبات الدينية – الفريضة اليومية المتكررة التى أراد الدين لها أن تغادى المسلم وتراوحه : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » ، « وأقم الصلاة لدلوك الشمس[1] إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن كان مشهوداً ». وقد كرر القرآن الكريم الأمر بها فى عشرات من الآيات ، وحذر من تضييعها فقال : « حافظوا على الصلوات » ، وجعل لكل مرحلة من اليوم صلاة مرتبطة بوقتها فقال : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » ، وطالب بأدائها حيثما كان الإنسان ، ولم يقصر الإسلام أداء الصلاة على مسجد أو مكان معين ، بل قال سيد الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعلت لى الأرض

---

(١) أى بعد زوالها . وغسق الليل : ظلمته أو شدة ظلمته .

مسجداً وترابها طهوراً » ، ومعنى هذا أن أبواب الصلاة مفتحة فى المنزل والمعمل ، فى المكتب والملعب ، وأنها تهيء للانسان كل يوم مرات يقف فيها بين يدى خالقه طاهر القلب ، طاهر الحس ، طاهر النفس ، طاهر المكان ، يلاقيه ويناجيه ، ويدعوه ويرجوه ، ويفتتح وقفاته تلك بأعذب الكلمات وأرق الدعوات ، فما يكاد الإنسان يلفظ تكبيرة الإحرام فى الصلاة حتى ينطلق لسانه يقول : « الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . .

أذكر أننى فى سنة ١٩٥٩ قلت فى كتاب « وسائل تقدم المسلمين » أننا نريد بجوار كل ملعب مسجداً ، وبجوار كل مسجد ملعباً (١) ، وبذلك نزكى الرياضة ونعليها ، ونعمم العبادة ونقويها ، دون أن نفرط فى حقوق الله أو حقوق بيوته التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ويسبح فيها بالغدو والآصال ، ولكن الذى حدث هو أن الملاعب كثرت وتعددت هنا وهناك ، ولم تعقد الرابطة المرجوة بين المسجد والملعب ، فلا سكان أحياء المساجد الكثيرة نالوا حظهم القويم من الملاعب والرياضة ، ولا أهل الرياضة والملاعب الحديثة وأزانوا كما ينبغى بين رياضة البدن ورياضة الدين ، وما زلنا نشكو مر الشكوى من أن كثيرين يعطون أجسامهم من العناية والرعاية ما يعطون بعضه لقلوبهم وأخلاقهم ، وإذا امتدت الأجسام وغلظت وقويت ، ولم

---

(١) وكنت قد قلت هذا فى خطاب لى فى المؤتمر الرياضى بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م وانظر ص ١٣٩ من الكتاب المذكور .

يكن من ورائها أخلاق تحرسها وتصونها ، فإنما هى هياكل جهيمية لا تعصم من ضلال ولا تصون من فساد .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

هل جاءكم أو علمتم أن مدارس الأجانب تبدأ دروسها بالصلاة وتختمها بالصلاة ، وإذا قدمت إلى أبنائها طعاماً لم يمسوه إلا بعد صلاة ؟ إذا كنتم قد علمتم ذلك ما ازدادوا به علماً ، وإن لم تكونوا علمتموه فاعلموه ، ثم لنساءل أنفسنا جميعاً عن مدى استمساك الجيل الجديد من أبنائنا بالصلاة ، ولنصدق فى جواب السؤال ، لنعنى بعد ذلك بعلاج الحال حتى لا يستشرى الضلال والانحلال ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الكلمة الطيبة

أحمد الله تبارك وتعالى ، هو الجميل الذى يحب الجمال ، والطيب الذى لا يقبل إلا طيباً ، وهو الذى يعلم مستودعات الضمائر ومكنونات السرائر ، وهو العليم الخبير ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، طاب قوله كما حسن عمله ، فكان للعالمين سراجاً منيراً ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله الخالصين المخلصين ، وأصحابه السادة الغر الميامين ، وأتباعه المهتدين بنوره المبين : الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اللسان ترجمان الإنسان ، وعنوان صاحبه ، ونصف كيانه ، لأن المرء يتكون فى جوهره من شطرين جليلين : أحدهما حساس مدبر وهو الفؤاد ، وثانيهما مصور معبر وهو اللسان ، ولذلك قال القائل :

لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

فإذا حلا هذا اللسان فى تعبيره ، وسما فى تصويره ، دل على سمو الفؤاد فى شعوره وتدبيره ، لأن اللسان هو الترجمان ، وهو آلة البيان ، وكان ذلك نعمة من الله على عبده تستحق التقدير والشكر ؛ وأما إذا كان الإنسان صاحب لسان قذر فإن ذلك يكون بلاء له ونكبة عليه وعلى غيره من الناس ولذلك قال العلماء إن أعظم ما يراعى استقامته بعد القلب هو اللسان ، لأنه ترجمان القلب

---

(١) ألقيت فى ١٧ اغسطس سنة ١٩٥٧ م

والمعبر عنه : ولما ذكر الحديث استقامة القلب ربطها باستقامة اللسان ، فذلك حيث يقول : «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » . وروى الترمذى — مرفوعاً وموقوفاً — : إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تفكر اللسان فتقول : اتق الله فينا ، فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » ! ؛ ونحن ما زلنا نسمع العامة تقول : إن حلاوة اللسان زينة الله للانسان ؛ وهذا يزكيه ما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنه قال لعمه العباس : يعجبنى جمالك . فقال العباس : وما جمال الرجل يا رسول الله ؟ . قال : لسانه[1] ! . ولذلك اعتبر القرآن الكريم طيب الكلام مظهر من مظاهر التوفيق والاهتداء ، فقال يصف عباد الله المؤمنين : « وهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط الحميد » .

والمسلم أحق الناس بحلاوة اللسان وعذوبة البيان ، لأنه ابن الإسلام ، والإسلام عقيدة صفاء ووئام ، ودعوة محبة وسلام ، وإنما يسود السلام بين البشر إذا تخاطبوا بالحسنى ، وتلاينوا فى الحوار ، وقالوا قولا سديداً ، لأن الكلمة الطيبة الرشيدة فيها قوة ولها تأثير ، وهى لون من ألوان العمل الصالح ، ونوع من أنواع القربات التى يثيب عليها رب الجزاء . . . أليس الرسول هو الذى يقول : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

فتأمل قوله عن الكلمتين « ثقيلتان فى الميزان » ! . . . إن الكلمتين لهما ثقل ووزن وأجر وثواب ! . .

---

(١) ادب الدنيا والدين ص ٢٥٢

وفى حديث رسول الله عليه صلوات الله : «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن — أو تملأ — ما بين السماء والأرض . . . »

فتأمل قوله : «تملأ الميزان »وقوله : «تملآن ما بين السماء والأرض..»!.

«وقد قيل : إنه ضرب مثل ، ، وأن المعنى : لو كان الحمد جسما لملأ الميزان ، وقيل : بل الله عزوجل يمثل أعمال بنى آدم وأقوالهم صوراً ترى يوم القيامة وتوزن ، كمال قال النبي صلى الله عليه وسلم : يأتى القرآن يوم القيامة تقدمه البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف »[1] . . .

وربما أثمرت الكلمة الحكيمة الموفقة ما لا تثمره الأعمال الكثيرة المتلاحقة ، ومن هنا اعتمد الرسل صلوات الله عليهم وسلامه على بلاغة القول وحسن البيان قبل اعتمادهم على الجيوش أو حد السنان ، وقد صور القرآن المجيد الآثار الكريمة المترتبة على الكلمة الطيبة ذلك التصوير البارع الرائع ، وقارن بين آثار الكلمة الطيبة وأضرار الكلمة الخبيثة ، فقال : «ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ويضل الله الظالمين . ويفعل الله ما يشاء » .

والله عز وجل يصف عباده الصالحين المصلحين بأنهم الذين يبتعدون عن فاحش القول ومرذول الكلام ، ويتجنبون مشاركة السفهاء أو الجهلاء فى

---

(١) جامع العلوم والحاكم لابن رجب ص ١٥٥

حديثهم الباطل أو لغوهم الهزيل ، لأن هؤلاء العباد كرام أهل سلام ، فيقول : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » ثم يعود فيقول عنهم : « والذين لا يشهدون الزور (أى لا يشهدون فى باطل الحديث وكذبه (وإذا مروا باللغو مروا كراماً » ، وذلك لأن المسلم يعبد الله ، والله هو الحق ، ويؤمن بالإسلام ، والإسلام دعوة الحق ، ويلتزم العدل ، والعدل هو صراط الحق ، ومن هنا لا يتحرك المسلم الصادق فى جسمه أو لسانه إلا لحق وإلى الحق ، ولذلك روى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال : « رحم الله من قال خيراً فغنم ، أو سكت (أى سكت عن باطل (فسلم » ، وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو الصمت » ؛ واستمد الحكيم الإسلامى هذا من المنهل النبــوى الصافى فقال : « اعقل لسانك إلا عن حق توضحه ، أو باطل تدحضه ، أو حكمة تنشرها ، أو نعمة تذكرها » .

بل إن الإسلام يفضل الكلمة الحلوة الطيبة ، التى يعرفها قلب السامع وتألفها نفسه وترتضيها ، على عمل الخير المصحوب بالأذى ... أليس الله تبارك وتعالى يقول : « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم » . أى : كلام جميل تقبله النفوس ولا تنكره ، ترد به السائل من غير عطاء ، خير من صدقة تتبعها بأذى من سوء المقابلة أو سوء الكلام ؛ وصلوات الله وسلامه على رسوله حين جعل الكلمة الطيبة تلقى بها أخاك صدقة ، وحين جعل كلمة السوء من موجبات العذاب ، وذلك حيث يقول : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب » .

ولننظر إلى تأديب الله عز وجل لرسله فى باب الدعوة ومخاطبة المتجبرين بين الناس . . . لننظر إلى تعليمه لموسى وهارون حينما أرسلهما إلى فرعون

جبار الأرض وطاغية البشر الذى زاد فى البغى على كل متكبر فقال : أنا ربكم الأعلى . . . ماذا قال الله لموسى وهارون ؟ . . . لقد قال لهما : « إذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالا : ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال : لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى » .

وذهبا إلى فرعون ، وحرصا على لين الخطاب معه كما أمرهما الله ، فقالا له مثلا : « إنا رسولا ربك ، فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم . قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى » . . . وهذا الخطاب اللين الهادئ مع من ؟ . . . إنه مع فرعون وكفى ! . . .

والكلمة الحلوة الطيبة قد يجعلها الله ثمناً للمتاب والغفران . . . فهذا آدم أبو البشر قد عصى ربه ، وأكل من الشجرة وأخرجه الله من الجنة ، ثم كانت الكلمات الطيبات طريق الرحمة له والتوبة عليه : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم » . وقد روى أن هذه الكلمات هى قوله : ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين. . وروى أنها قوله يخاطب ربه : ألم تخلقنى بيدك ؟ : ألم تسكنى جنتك ؟ ألم تسجد لى ملائكتك ؟ ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ أرأيت إن تبت أكنت معيدى إلى الجنة ؟ قال : نعم ! .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

عودوا ألسنتكم الكلمة الحلوة الطيبة . لتكونوا فى هذه الحياة كالعافية التى يحن إليها الناس ويرغبون فيها ، فإن المرء يحلو حديثه ويطيب كلامه يكون كالربيع المورق الناضر ، وإن المرء يسوء حديثه وتخبث ألفاظه حتى يكون كالكلب العقور يضيق الناس به ويفرون منه ولا عجب فعبد الله

بن عباس يصور الكلام الخبيث بصورة الحدث المستقذر فيقول لمن يسوء حديثه : الحدث حدثان : حدث من فيك ، وحدث من فرجك[1] .
والمسلم كما يقول الرسول إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ؛ وليس معنى هذا أن تنافقوا ، أو تتملقوا ، أو تكتموا الحق ، أو تبدلوه ؛ معاذ الله ، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، وأفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر ؛ ولكن المسلم يستطيع أن يقول ما يريد فى عفة لفظ وطيب حديث ، ولنذكر جميعاً أن الحق تبارك وتعالى يقول : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ، ومكر أولئك هو يبور » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

---

(١) عيون الأخبار جـ ٢ ص ٢٥

القومية والعقيدة

أحمد الله تبارك وتعالى ، الفضل منه وإليه ، والاعتزاز به والاعتماد عليه ، « يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » ؛ وأشهد أن لا إله إلا هو يرفع أقواماً ويخفض آخرين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أكرمه ربه فجعله خاتم النبيين وإمام الهداة المتقين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المسارعين فى الخيرات ، وأصحابه المستمسكين بالمكرمات ، وأتباعه الثابتين فى الأزمات : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

كان نتيجة كفاح العرب فى سبيل حريتهم واستقلالهم أن استيقظت فيهم القومية العربية ، وانتشرت دعوتها بينهم بصورة قوية واضحة حتى نص الكثيرون منهم عليها فى مناهجهم الأساسية وقواعدهم السياسية العامة ؛ ونحن فى فورة الحماس لهذه القومية ، وفى ثورة الجهاد لتحقيقها وتكريمها ، نكاد ننسى الصلة الوثيقة التى يجب أن تزداد على الدوام توثقاً بين القومية العربية والعقيدة الدينية الإسلامية ، لأن يد الله العلى الأعلى قد أوجدت هذه الصلة بين العروبة والإسلام منذ انبثق نور هذا الدين الخاتم العام ، وما عقدته يد الله الحكيمة القوية لا يجوز أن تحله يد الإنسان أو يد الشيطان ؛ وقد أراد الله العليم الخبير أن تكون العروبة وعاء الإسلام ، وأراد فى الوقت نفسه أن يكون الإسلام هو روح تلك العروبة ، والعامل الأول فى تحريرها وتكريمها وتعظيمها وتخليدها على الأيام ... فقد أراد الله — ولا راد لما أراده — أن

ألقيت فى ١٢ من المحرم سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٩ من اغسطس سنة ١٩٥٧ م

يكون نبي هذا الدين رجلا عربياً من صميم العرب وأصدقهم فى العرب نسباً ، وجعل الله مبعث هذا النبي ومبدأ دعوته فى أرض عربية وواد عربى أشبه بمركز الدائرة بين بلاد العروبه ، وأنزل الله دستور هذا الدين وهو القرآن المجيد المحفوظ « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » أنزله بلسان عربى مبين ، وفصله بياناً عربياً غير ذى عوج ، وجعل تفسير هذا الدستور الإلهى الخالد تفسيراً عربياً فى لغته وبيانه ، وهذا التفسير هو الحديث النبوى الشريف ، وجعل المسارعين إلى هـــذا الدين وحملته الأوائل الموصوفين فى كل جيل بالسلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ، والموصوفين بالسابقين المحسنين ، جعلهم قوماً عرباً من صميم العرب فى دارهم وجنسهم ولغتهم وخصائصهم ، وجعل القبلة التى تتجه إليها المسلمون كل يوم عدة مرات بأبصارهم ، وأشباحهم وأرواحهم ، بنية فى أرض عربية عريقة العروبة ، وهى الكعبة الحرام فى مكة المكرمة . . . الكعبة التى يقول فيها القرآن المجيد : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » . . ومكة المشرفة التى يشير القرآن إليها وينوه بها ويقرر أن الكعبة فيها هى أول بيت وضع للناس ، فيقول سبحانه : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة . . . إلخ .

وكم يكتف الإسلام بهذا التكريم للعرب والعروبة ، حين جعل العروبة وعاء للاسلام وبناء له فى مكانه ولغته وكتابه وقبلته ورسوله وحملته الأوائل ؛ بل أقبل نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام يزيد فى تكريم هذه العـــروبة وهؤلاء العرب الأماجد من آبائنا وأجدادنا فيقول : « إذا ذلت العرب ذل الإسلام » ، ويقول : « أحب العرب من قلبك » ويقول : « أحبو العرب لثلاث : لأنى عربى ، والقرآن عربى ، وكلام أهل الجنة عربى » ، ويقول : « بغض العرب نفاق » . . .

وإذا كان الإسلام قد رفع من شأن العروبة بهذا القدر ، فإن العرب الأولين الذين حملوا رسالة هذا الدين قد أدركوا فضل هذا الصنيع من الإسلام فألغوا شخصياتهم أمام عظمته ، وخضعوا لسلطانه الخضوع العجيب ، واعتزوا به الاعتزاز البليغ ، ونسوا فى سبيله ومن أجله أنسابهم وعنجهياتهم وعصبياتهم ، وباعوا له ولمنزله جل جلاله أرواحهم وأشباحهم ، وأموالهم وأعمالهم ، وحصروا عزهم وفخارهم فى الانتساب إلى هذا الدين والارتباط به ، حتى صار قائلهم يهتف :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى جنب كان فى الله مصرعى

أو يهتف قائلهم :

أبى الإسلام ، لا أب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم !

ولا شك أن هذا تقدير منهم للجميل ، وعرفان للفضل الجليل الذى وهبهم إياه الإسلام ورب الإسلام ، فقد أخرجهم الله بدينه من الظلمات إلى النور ، وأعطاهم عز العاجلة وعز الآجلة ، ورفع ذكرهم بين الناس ، وأعز شأن نبيهم على سائر العالمين . وإذا كان الله قد قال لنبيه صلوات الله عليه : « ورفعنا لك ذكرك » فإنما رفع ذكره بنبوة الإسلام ورسالة القرآن وجلال هـذا الدين ، لا بالمال أو الجاه أو السلطان أو الجبروت ؛ ولذلك رفع الله ذكر قومه بالإسلام ؛ أليس الله تبارك وتعالى يقول لنبيه : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » . وحسبهم أنه قد نقلهم من رعاية الإبل والغنم إلى قيادة الشعوب والأمم : « ذلك الفضل من الله ، وكفى بالله عليماً » . . .

وإذا كان الأمر كذلك فلابد للعروبة من الإسلام ، ولا عز للعروبة إلا بالإسلام ، ومن أوجب الواجبات أن يكون لهذه القومية العربية دين يحميها من الضلال ، ويهديها إلى الكمال ، ويضمن لها الخلود والبقاء ، ويجعلها قومية مؤمنة معتقدة متدينة ، لا تصل أسبابها بمنافع ذاتية أو مصالح مادية فحسب ، بل تربط قيادها بأسباب الملأ الأعلى ، وتستهدى فى دنياها بنور الدين وهدى الخلاق العظيم ؛ وليست الدعوة إلى تدين القومية وإيمانها دعوة إلى عصبية أو طائفية ، فإن كثرة العرب الغالبة مسلمون والمسلم لابد له من دين ، وإذا كانت هناك من العرب قلة من أهل الكتاب غير المسلمين ، فلأن يكون هؤلاء متدينين أفضل من أن يكونوا غير متدينين ، ولهذا فإن الدعوة إلى أن تكون القومية مؤمنة لا تتعارض مع وجود غير المسلمين ، وواجب المسلمين أن يحفظوا حقوق غيرهم من الناس مهما كانوا فكيف بهم مع شركائهم فى الوطن ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا جيداً ودائماً أن العروبة بغير دين لا تغنى ولا تفيد ، واذكروا أن ربكم حين يتحدث عن العرب غير المؤمنين يشتد عليهم فى الحكم ، كأن يقول عز شأنه وجل سلطانه : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم » ، وأما حين يسلمون له ويؤمنون به فإنه يجعلهم عباده الوارثين ، وجنوده المنتصرين ، الذين لا يذلون ولا يحزنون : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » « وإن جندنا لهم الغالبون » . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر

بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » . وهذا هو صوت المسلم المترجم عن اعتزازه بالإسلام يقول مخاطباً ربه تبارك وتعالى :

ومما زادنى شرفاً وتيهـا   وكدت بإخمصى أطأ الـثريا
دخولى تحت قولك : يا عبادى»   وأن صيرت.« أحمد » لى نبياً !

فإذا تحدثنا عن القومية العربية مرة فيجب أن نتحدث عن الإسلام مرات ، وإذا اعتززنا بالقومية العربية كثيراً ، فيجب أن نعتز بالإسلام أكثر وأكثر ، وإذا تذكرنا أن العروبة هى وعاء الإسلام وإناؤه فيجب أن نتذكر دائماً أن الإسلام هو روح هذه العروبة ، وهو باعثها من رقادها ، وهو مجدها ورفعتها ، وإن كنا نقول إننا أمة عربية فيجب ألا ننسى أن دين هذه الأمة هو الإسلام ، فإذا طالبتنا العروبة بأن نعمل لها فى ميدان فإن الإسلام يطالبنا بأن نعمل له فى ميادين ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

فى طريق الوحدة

الحمد لله عز وجل ، هو الواحد فى ذاته ، المتفرد فى صفاته ، « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يؤيد المؤمنين بقوته ، ويكبت المارقين بنقمته : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كشف الغمة ، وجمع الأمة ، ووحد الكلمة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المجاهدين ، وأصحابه المحتسبين ، وأتباعه الموقنين « أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

هناك أمور لا يعاب أن يمتد فيها الحديث ، لخطورتها وتشعب نواحيها ، ومن هذه الأمور التى تستحوذ على اهتمامنا الآن موضوع الوحدة التى نسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه ، وأن يبارك مسعاها حتى تتم على الوجه الذى يرضاه خالقنا ، ويسعد به نبينا صلوات الله وسلامه عليه ، إذ لا شك أن وحدة الأمة الإسلامية فى عقيدتها وطريقتها ودنياها وأخراها كانت أعظم أمل حققه محمد عليه الصلاة والسلام ؛ وقد بقيت الأمة المؤمنة متحدة متماسكة قوية ما بقى الإسلام سيداً ومسيطراً ومتمكناً من القلوب والعقول ، ولما ضعفت العقيدة وتحكم الهوى ضاعت هذه الوحدة ، وهان المسلمون بعد عز ، وضعفوا بعد قوة ، وظل الأخيار من بناء هذه الأمة يتطلعون إلى استعادة هذه الوحدة ، ويجاهدون فى سبيلها ، ومن أجل هذه الوحدة جاهد جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى وشكيب أرسلان ومحمد عبده

ألقيت فى ١٨ من رجب سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٧ من فبراير سنة ١٩٥٨ م.

وأضرابهم من رجالات الإسلام ، كل بقدر طاقته وبقدر توفيقه ؛ فإذا شاهدنا اليوم جزأين من أجزاء هذه الأمة يتحدان كان من واجبنا أن نلتفت إلى هذا الأمر وأن نطيل التفكير فيه ، لأنه يعد مرحلة من مراحل الوحدة العامة التى نتمناها ونرتجيها حتى يصير أبناء الإسلام كما أراد لهم ربهم أمة واحدة كالجسد الواحد ، أو كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضاً ، ولا شك أننا الآن فى بداية الطريق ، وما زالت هناك مراحل نرجو أن يتابع المسلمون فيها الخطوات ، حتى تتحقق الوحدة بين الجميع ، وما زالت هناك جهود جبارة كبيرة لا بد من بذلها فى إخلاص وإيمان ويقين ، لأن عهود الاحتلال والاستعباد قد خلفت فى جسم هذه الأمة كثيراً من الآفات والعيوب ، فقد خرجت هذه الأمة من ظلمات الهوان والمذلة مقطعة الأوصال ممزقة الأشلاء ؛ تقسمت إلى دول ، وكل دولة تقسمت إلى دويلات ، وقام فى كلى ناحية أمير أو سلطان ، وانفرد والطغاة الدخلاء بهذه الدويلات ، يستذلونها قطعة بعد قطعة ، ويضربون بعضها ببعض ، ويخدعون كبراءها بالمناصب والمراتب والألقاب ، وهذا داء عصيب قديم فشا فى المسلمين شرقاً وغرباً خلال العصور البئيسة المظلمة فهدمهم وحطمهم حتى ضج من بعض صوره شاعر فقال :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتمـــد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

وقد تخلفت فى هذه الدويلات — بسبب هذه الظلمات — أحقاد وأضغان ، وشهوات وأهواء ، حتى اختلفت أبناء القبلة الواحدة والدين الواحد ، وامتشق بعضهم السلاح فى وجه البعض الآخر فى كثير من الأحيان ، وعجب الناس كثيراً لطائفة من أبناء الإسلام تحارب طائفة أخرى من أبناء الإسلام مع قول الله عز وجل : « إنما المؤمنون إخوة » وقول رسوله : « وكونوا

عباد الله إخواناً « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » . ولابد للوصول إلى الوحدة الكاملة من إزالة هذه الأحقاد والأضغان ، وتحرير سائر الأوطان ، والرجوع إلى شرعة اليقين والإيمان ، والاعتصام بحبل الله وإخلاص العمل له ، والتلاقى الشامل على العقيدة الواحدة والخطة الموحدة والمنهج الواضح ، وحينما تبقى أجزاء من الوطن الأكبر خارجة على هذه الوحدة أو معارضة لها يتيسر كسب الخيرات المأمولة من وراء الوحدة الشاملة ، وقد يستغل أعداؤنا وأعداء الإسلام ذلك فيضربون ، ويجعلون بأسنا بيننا شديداً كما كانوا يفعلون ، وكما لا يزالون يحاولون ، فعلينا أن نحذر ونحن نسير ، وأن نثبت أقدامنا أثناء خطوها ، وأن نفتح عيوننا جيداً لما حولنا ، وأن نتذكر الأعداء الذين يتربصون بنا الدوائر عن يمين وشمال ، والذين سيحاولون طعننا من خلف أو من أمام ، وقد يحاولون ذلك بسهام من قريب ، وأن نتذكر أمامنا خطوات واسعة وتبعات جسيمة ، وأول مقتضيات الوحدة أن يعاد بنا هذه الأمة الكبرى بناء سليما قويماً يتفق مع عقائدنا وأخلاقنا ومواريثنا الأدبية والروحية وتاريخنا الطويل العريض ولوازم الحياة الجادة المتطورة السعيدة . . .

ويجب علينا أن نؤمن بأن الوحدة ليست عصبية أو جنسية أو تأليباً على الشر أو اعتزاماً للبطش والعدوان ، بل هى الوحدة المؤمنة العادلة التى يلزمها أن تقوم بالحق وبالقسط ، وإذا كان للقومية حقها ومكانتها ، فللدين قبل ذلك سلطانه وحقه المفضل المفضل ، والدين هو أقوى وتر حساس فى نفوس المؤمنين . ومواريث المسلمين الدينية والعقلية والتاريخية لا تزال هى المحرك الأقوى الأكبر لعواطف هذه الملايين التى تعد بالمئات من أبناء الإسلام هنا وهناك . ولعل هذا الإقدام على تحقيق الوحدة هى أحسن فرصة ننتهزها لكى نضع لأمتنا الكبرى نظماً وقوانين مستمدة من وحى عقيدتنا وهدى ربنا

وسنة نبينا ، ومستمدة من تعاليم قرآننا الذى أنزله خالقنا ليكون هدى ونوراً وضياء نستضىء به فى هذه الحياة : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . ونحن لا ننسى هنا أن فى هذه الأمة الكبرى أقليات غير مسلمة ، وليس لهؤلاء المواطنين أن يفزعوا من هذا الاتجاه ، فإن الإسلام قد ضمن حقوقهم خير ضمان ، وصان لهم حياتهم وحريتهم على وضع كريم نبيل ، وجعلهم على قدم المساواة فى الحقوق العامة مع المسلمين ، « لهم مالنا وعليهم ما علينا » وحرم الإسلام الاعتداء على غير المسلمين من الذميين وأهل الكتاب ولو بكلمة سوء أو غيبة أو أى نوع من أنواع الإيذاء ، ومن فعل ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام ، والرسول يقول : « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » بل أمرنا الله بالإحسان إليهم حتى فى الحديث والحوار والجدال فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » .

يقول شهاب الدين القرافى فى كتاب الفروق :

« إن عقد الذمة يوجب حقوقاً علينا ، لأنهم فى جوارنا وفى خفارتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم . أو أى نوع من أنواع الأذية ، أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام » .

وقال ابن حزم فى مراتب الاجتماع :

« إن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه ، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ، ونموت دون ذلك صوناً لمن هو فى

ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة » .

ولقد كره الإمام على أن يفضله الفاروق عمر بن الخطاب على خصم له غير مسلم حتى فى لهجة الخطاب ، وذلك من شدة حرصه على الحق والعدل ، ولا عجب فى ذلك فالإسلام هو الذى يأمرنا بأن لكل إنسان أمانته وحقه ، وأن نقوم بالعدل بين الناس جميعاً مهما تعددت الألوان والأجناس أو الأديان « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن الوحدة شعار الإسلام ، فإذا اتحدنا فلابد لاتحادنا من عقيدة ، وخير العقائد ما ارتضاه لنا بديع السموات والأرض ، والإسلام ليس عصبية أو طائفية أو عدواناً على غير المسلمين ، بل هو إيمان بخالق هذا الوجود ، واهتداء نسبة سيد الوجود ، وعدالة بين الناس كلهم ، وشورى فى الحكم ، ومساواة بين الأفراد ، وإعزاز للفضيلة ومحاربة للرذيلة ، ومنع للفاحشة وعمل للدنيا مع عمل للآخرة .

والدين يسر ، والخلافة بيعة والأمر شورى ، والحقوق قضاء !

فلنعد إلى الإسلام نجد فيه الدواء والغذاء والضياء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

اساس الوحدة فى الاسلام

الحمد لله ، كتب على نفسه الرحمة ، وأزال عن الناس بدينه الغمة ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ؛ ضلت الطرق كلها إلا طريقك ، وفسدت المشارب كلها إلا رحيقك ؛ « ومن يهد الله فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام » ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، ما أمر حتى أقنع ، وما بنى حتى جمع ، فكان سيد الحكماء وخيرة المصلين ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى ذريته وأحبائه ، وصحابته وخلصائه ، وأتباعه وأوليائه : « أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

طالما هتف الهاتفون منا ، وتغنى متغنون فينا ، بأنه يجب أن تكون هناك وحدة قوية راسخة بين أبناء الأمة جميعاً ، حتى تكون هذه الوحدة صخرة تتحطم أمامها أمواج الضعف وتتخاذل ؛ ولا شك أن حديث الوحدة حديث عذب النغمات بالغ التأثير ، وليس هناك من العقلاء أو الأوفياء من يعارضه أو يمارى فيه ، ولكن السؤال الذى يجب أن يشغلنا جوابه هو : كيف نبنى هذه الوحدة ؛ وعلى أى أساس يجب أن تنهض وتقوم ؟ . . .

أنقيمها على الجنس ؟ . . إن الجنس وحده لا يكفى ليكون أساساً للوحدة لأن الاعتزاز بالجنس غالباً عصبية وتفاخر كاذب ومصرع مستور ، وهؤلاء هم العرب فى جاهليتهم قبل الإسلام ، اعتزوا بعروبتهم وأسرفوا فى هذا

---

(١) ألقيت فى ١٤ من ذى القعدة سنة ١٣٧٠ هـ الموافق ١٧ من أغسطس سنة ١٩٥١ م

الاعتزاز ، وشمخوا بأنوفهم على غيرهم من العالمين ، فلم يزدهم تعصبهم لجنسهم إلا فقراً ونكراً وشتاتاً ؛ ولما تولدت فى الأمويين نزوة العصبية العربية ومحاربة ما ليس بعربى ومن ليس بعربى ، كان ذلك نكبة على المجتمع الإسلامى ، إذ تولدت « الشعوبية » فجاءت ببلاياها التى انبسطت فى عصور بنى العباس فأطاحت بدولة الإسلام الزاهرة . وهذه ألمانيا فى العهود الأخيرة لا يعيبها منصف فى عظمتها وقوة شعبها وكثرة مآثرها ، ولكن عصبيتها وجنونها بما سمته الدم الجرمانى كان سبباً فى تقويض مجدها وسلطانها ؛ والإسلام بعد هذا كله لا يقيم للجنس فى تقديره ميزاناً ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ! .! . .

أنقيم وحدتنا على اللغة ؟ . . إن اللغة وحدها لا تكفى ، فكم من شعوب تتكلم لغة واحدة ، ثم لا يجمعها على رباط الوحدة جامع ، فهذه هى الهند تتكلم الإنجليزية كما تتكلمها بريطانيا ، وبين الدولتين عداء لا يحتاج إلى إفصاح ، وهذه هى أمريكا تشارك انجلترا فى لغتها ، ومع ذلك نرى بين الدولتين من الصراع والتنافس والحقد الدفين ما تسير به الأنباء ، وهما لا يتفقان — إن اتفقتا — إلا ظاهراً ، فالهدنة بينهما دائماً تكون على دخن ، وصداقتهما المفتعلة إنما تبدو لأغراض أو أمراض ثم تنطوى فى أودية الفناء ؛ وإن الإمريكى ليلقى الإنجليزى فيسمعه يرطن بلهجته ، ويردد عبارة كعبارته ، ولكنه لا يأنس به ولا يميل إليه ولا ينسجم معه ، لأن توافق اللسان لا يؤدى دائماً إلى توافق الجنان ، وكم رددت الشفاه كلاماً لا نصور ما تنطوى عليه الحنايا والصدور . . .

أنقيم الوحدة على أساس الاتحاد فى الموطن والاتصال فى الوادى ؟ . . قد يغرنا هذا الأساس فى ظاهره ببريقه ولمعانه ، ولكنه أيضاً يكفى وحده ،

فكم من أناس يتجاورون فى المسكن وبين قلوبهم من الفرقة ما بين المشرق والمغرب ، وبين عقولهم من الاختلاف ما بين الأضداد ، وبين أهوائهم من الشتات ما يبعث الحسرات ؛ وحسبكم أن تتذكروا الأمة العربية فى جاهليتها ، فقد كانوا متجاورين متحدين فى الموطن ، فما أغناهم ذلك فتيلا ، ولا أوجد بينهم من الوحدة أو الانسجام كثيراً أو قليلا ، بل تهارشوا تهارش الكلاب ، وتناحروا تناحر الذئاب ! . .

أنقيم الوحدة على أساس الاتحاد فى الآلام والآمال ؟ . وكيف والآلام غير ثابتة ، فما تشكو منه اليوم قد يزول غدا والعلة المسيطرة الآن قد نتخلص منها بعد قليل أو طويل ؛ وكيف والآمال متغيرة متقلبة ، فآمال الإنسان فى وقت الشدة غير آماله فى وقت الرخاء ، حتى قال الباحثون إن الأمل شىء لا ضابط له ، وتيار لا يقف عند حد ، ولا يعرف له اتجـــاه ، ولذلك قرر الأخلاقيون أن المثل الأعلى للطموح لا ينتهى ! . . .

إذن كيف السبيل ، وما هو الأساس الذى يكفى ويشفى؟ .. لابد ، أيها السادة من أساس يجمع الأرواح كما يجمع الأشباح ، ويقنع العقول كما يسيطر على القلوب ، ويؤلف بين الرغبات والأهواء كما يؤلف بين النبات والماء ، وتمتد جذوره فى طبقات الغبراء ثم تعلو فروعه حتى تبلغ السماء ؛ وهذا الأساس هو عقيدة الإيمان المستكنة فى الخواطر والصدور ، وملة الإسلام التى تظل أبناءها جميعاً بلواء العلى الغفور : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » . وهذا الأساس فى الوحدة هو الذى أمر به ربكم ، ودعا إليه نبيكم ، وردده كتابكم ، ونجح به أسلافكم ، : « إنما المؤمنون إخوة » ، « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ، « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين

قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

وليس بعد هذه العقيدة الإلهية قوة فى الأرض تحرك الإنسان نحو التضحية والجهاد ؛ فقد تحدث المرء عن الافتخار بالجنس فيهزأ بهذه الرعونة الحمقاء ، وقد تحدثه عن سمو لغته فيرد عليك بأن اللغات كلها سواء ، وقد تحدثه عن رقعة الأرض فيقول : وهل بقيت فى العالم حدود أو سدود ؛ ولكنك لو حدثته عن ربه الذى خلقه ، ونبيه الذى أرشده ، ودينه الذى مجده ، وعقيدته التى يحيا لها ويموت عليها لاستجاب لداعى الكفاح ونداء الإقدام فكيف بنا لو لا حظنا بعد هذا أن الإسلام قد شمل ما سبق من أركان وقواعد للوحدة بعد أن طهرها وصفاها ، وقومها وأعلاها ، وفيه الجنسية السامية لأنه يعتبر أتباعه « أمة الله » ، وقد مجد اللغة العربية فأنزل بها كتابه المجيد ليضمن لها الخلود والبقاء ، وفيه وحدة الموطن وسلامة المسكن : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ؛ وفيه اتحاد الآمال والآلام : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

ثم إن اتخاذنا الإسلام أساساً للوحدة يبارك هذه الوحدة ، ويعلى شأنها ؛ إذ سيجعل قضية الوادى جزءاً من العقيدة ، فحب الوطن من الإيمان ، وللنيل شأن أى شأن فى نظر القرآن ، وما دامت وحدتنا الوطنية قائمة على القاعدة الدينية فقد أصبح بناؤها شامخاً ، لأن أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

ليس هناك شبهة تعترض الوحدة القائمة على أساس العقيدة والإيمان إلا ما يردده الجاهلون أو المغرضون من أن السلطة الدينية قد تهضم حقوق

الأقليات من غير الموافقين فى الدين ، وذلك بهتان قد يلتصق بكل دين إلا دين الإسلام ، فهو الدين الذى يقيم العدالة بين الجميع لا فرق بين مسلم وغيره ، وهو الذى يجعل لأهل الكتاب ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وهو الذى يحفظ الحرية لكل مستحق لها حتى يقول : « لا إكراه فى الدين » فإن دعاكم الداعون يوماً إلى الوحدة والبذل فى سبيلها ؛ مالا كان المبذول أو عملا ، فقولوا لهم مصممين حازمين : إننا لا نريدها قومية ولا وطنية ، فحسب ولكننا نريدها إسلامية ربانية ؛ ويومئذ يستجيب لكم العصى ، ويتجلى أمامكم الخفى ، ويدنو منكم القصى ، لأن الله سيكون يومها معكم ، « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ؛ ويؤمئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ؛ واتقوا الله الذى أنتم له مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

عام فى تاريخ الوحدة

الحمد لله عز وجل ، كتب الفوز للمؤمنين ، وجعل العاقبة للصابرين : والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، وحد لعباده دينهم ودنياهم : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الأمة ووحد الكلمة ، حتى ترك الناس على المحجة البيضاء ليلها نهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله المجاهدين فيه ، وأصحابه الواثقين به ، وأتباعه المخبتين إليه : « أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الذكرى تنفع المؤمنين ، وإن فى الأيام خبرا ، وفى أحداث التاريخ عبرا ، ولقد مضى عام منذ أعلنت الوحدة فى بلادنا ، وقامت الجمهورية العربية المتحدة لتكون كما نتمنى مرحلة الوحدة القومية الشاملة ، ومفتاحاً للأخوة الإسلامية الجامعة ؛ والعام فى تاريخ الأمة كاليوم فى تاريخ الفرد ، ومع هذا نرى من واجبنا أن نقف على قمة هذا العام مراجعين ما قدمنا ، متبصرين ما نعمل ، محددين ما سنفعل ، لنصفى حساب الأمس ، ونتقن عمل اليوم ، ونحسن الاستعداد لواجب الغد ، فمن ديدن المسلمين الأصحاء أن يراجعوا صفحات أيامهم ومجموعات أعمالهم كلما مضت فترة من الزمن ، أو مرت مرحلة من التاريخ ؛ ولا شك أننا قد استفدنا من الوحدة أننا أنقذنا أنقذنا جزءاً غالياً فى وطننا الكبير من أنياب عدو فاجر يتربص بنا الدوائر ، وأننا عززنا جوانب جزء آخر بالقوة المادية والمعنوية ، واستفدنا أننا أخذنا

---

(١) ألقيت فى ١٢ من شعبان سنة ١٣٧٨ هـ الموافق ٢٠ من فبراير سنة ١٩٥٩ م

نزداد تعارفاً وتآلفاً وإدراكاً لحقائق قضايانا ، وتبصراً لطبائعنا وخصائصنا ، واستفدنا أننا خطونا خطوات نحو التجمع والتكتل مما نرجوأن يؤدى إلى أمة الجماعة التى أشار إليها محمد صلوات الله عليه حين قال : « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار » .

حينما أعلنت الوحدة خيل لطائفة الناس أن الإعلان وحده كاف لتحقيق المطالب والرغاب ، وتمهيد الطرق والشعاب ، وتهيئة كل الأسباب للحياة الموحدة الماجدة ، ولكن تحقيق معنى الكلمة المتضمنة للأمل الكبير يتطلب الكثير من الجهود ، والراسخ من العزائم ، والجميل من الصبر ، ولقد يرغب الإنسان فى إصلاح أمر من الأمور ، ويقرر ذلك ويردده ويؤكده ، ثم لا يكفيه هذا ، بل يحتاج إلى صبر ودأب وتعب ، فطريق الصعود إلى الأمجاد وقمم العزة ليس ممهد المراحل ولا مفروشاً بالورود الرياحين ، بل هو طريق متعب عنيف شاق ، وأما طريق التخريب والتدمير والانحراف فسهل ميسور ، ومن هنا قال معلم الإنسانية محمد : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » . ومعنى هذا أن الذين يتعرضون لجلائل الأعمال يجب أن يوطنوا أنفسهم على تحمل المتاعب حتى يحققوا ما يريدون ما داموا مؤمنين به واثقين منه موقنين أنه طريق الخير والصواب ، إلى هذا يشير القرآن حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ولقد عاهد قوم ربهم على أن يدأبوا فى أداء واجب من الواجبات آمنوا به ، ولكنهم لم يفوا بعهدهم ، ولم يصبروا فى ميدانهم ، فعابهم ربهم على ذلك لأن من التزم شيئاً لزمه شرعاً ، ووجب عليه الوفاء به ما دام خيراً ، فقال لهم ربهم : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . ثم أرشد الله عقب ذلك إلى طريق النجاح

والفلاح ، وهو الثبات على اليقين ، والصبر فى مجال الحق ، والاجتماع على محض الإيمان ، فقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » أى البنيان المتماسك المتلاحق كأنه قطعة واحدة ، فكل من فى الصف يثبت ويلزم مكانه كثبوت البناء ، ولذلك كان عبد الله بن رواحة يقول بعدها : « لا أزال حبيساً فى سبيل الله حتى أقتل » !

وفى سبيل كلمة « لا إله إلا الله » ظل محمد عليه صلوات الله ثلاثة ثلاثة وعشرين عاماً لا يعرف فيها معنى الراحة ولا طعم الهدوء حتى جعل مدلول هذه الكلمة الجليلة العظيمة حقاً واقعاً وأجراً صادقاً ، ولقد أقبل دهاقين الشرك على رسول الله يفاوضون ويساومون ويطلبون إليه المهادنة والملاينة فى أمر الدين ، ويعرضون عليه العروض السخية ليتلاقى معهم فى منتصف الطريق ، فيستلم بعض أصنامهم حيناً فى مقابل أن يصدقوه ويتابعوه ، ولو كان محمد يريد عرضاً قريباً أو متاعاً عاجلا لفعل ، ولكنه كان يرقب يوماً يؤدى فيه الأمانة كاملة ، ويحقق فيه الرسالة تامة ، وهى أن يكون الناس عبيداً لله وحده ، ولذلك جاءه التنزيل الإلهى آمراً بالإصرار على الحق والثبات فى موطن الصدق : « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين » . وما كان ذلك إلا لأن الحق لن ينقلب باطلا مهما قل متبعوه ، ولأن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه ! .

ولقد عمل محمد على وحدة قومه ، ومهد لذلك بتحقيق الأخوة فيهم ، فقال لهم فى صدر دعوته : « وكونوا عباد الله إخواناً » ولكنهم لم يصيروا إخواناً حقيقة فى يوم وليلة بمجرد هذا القول ، بل تمرد عليه متمردون ، وتآمر به متآمرون ، وكاد له كائدون ، واستلزم ذلك من التعب والنصب ،

والصبر والمرابطة ، ما طال وامتد ، وجاءت يد الله العلى الأعلى تبارك هذه الجهود ، وتبلغ بها غايتها لتثمر ثمرتها ، فكان التوحيد ، وكانت الوحـــدة ، بفضل الله وقدرته : « هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

ولقد أردنا الوحدة وتطلعنا إليها وعملنا لها ، وخطونا نحوها خطوة عملية فوحدنا جزأين من أجزاء وطننا الكبير المؤمن ، ولكن نبتت لنا على الطريق مشقات وعقبات ، اصطنعها الاستعمار حيناً ، وابتدعها الذين يخشون على مطامعهم من الوحدة حيناً ، وأظهرها الفرق بين الفكرة والتطبيق حيناً آخر . ليس هذا بضائرنا ولا بعائقنا ما دمنا مؤمنين بقضيتنا ، متبصرين لطريقنا ، محددين لهدفنا ، فإن انتقال أمة من وضع إلى وضع يصحبه تبدل وتحول وقد يحدث أثناء ذلك اختبار وابتلاء ، وهذا شبيه بنفض الغبـــار عن كيان يراد انتفاضه واهتزازه لبعثة وتجديده ؛ ولعل من أدهى المكائد للوحدة أن يقال إن نصر العروبة عصبية لا تلتقى مع نصر الإسلام ، وهذا باطل من القول وافتراء ، لأن الرسول صلوات الله عليه يقول : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » ولقد ورد أن حب الوطن من الإيمان ، وسئل الرسول عن العصبية فأجاب : « أن تعين قومك على الظلم » . وليس من الظلم فى شىء أن نطلب لأنفسنا كمجموعة من عباد الله فى الأرض حرية وكرامة وقوة وسيادة ، ولقد قلنا وسنظل نقول : « إن العروبة وعاء الإسلام ، والإسلام هو روح هذه العروبة ، وإذا كان الإسلام قد كرم العروبة فاتخذ منها نبياً ولغة وداراً وحملة أوائل نقلوه إلى الناس فى المشارق والمغارب ، فإن العروبة قد وجدت فى الإسلام مجدها الأعلى وعزها الأكبر : « وإنه لذكر — أى شرف — لك ولقومك وسوف تسألون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . فى يوم كهذا اليوم ، وفى هـذا المكان منذ عام ، اجتمعت حشود من أبناء هذا الوطن ليعلنوا باسم الله وفى بيت من بيوت الله قيام هذه الوحدة ، ومن فوق هذا المنبر فى ذلك اليوم دعوت الله أن يبارك هذه الوحدة بتأييده ومعونته ، وأن يجعلها على الدوام مستظلة بلواء الإسلام ، مهتدية بالهدى الكريم العظيم الذى جاء به رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، ونحن اليوم نعيد هذا الدعاء ، ونكرر هذا الرجاء ، ونرجو أن نشهد اليوم الذى تتحقق فيه آمال الأوطان مع مبادىء الإيمان ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ..

الوحدة طريق النصر

الحمد لله عز وجل ، جعل الإئتلاف طريق القوة والسلامة ، وجعل الاختلاف نذير الخيبة والندامة ، إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد . أشهد أن لا إله إلا الله ،يؤيد بنصره من استجابوا لدعوته ، واجتمعوا على كلمته ، فكانوا من المفلحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، قاوم الفرقة ، ووحد الأمة ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

كأننا لا نريد أن نتعظ بدروس الأيام ، ولا أن نستفيد من عبر الأحداث فمنذ عشرين عاماً ذقنا مرارة النكبة التى كانت فاتحة النكبات ، يوم أضعنا فلسطين من أيدينا فى سنة ١٩٤٨ ، بل يوم أعطيناها لليهود والصهاينة الذين اجتمعوا من كل حدب وصوب ، ووحدوا صفوفهم وأهدافهم ، ووحدوا خطتهم وقيادتهم ، على الرغم من أنهم قدموا أقطار مختلفة ودول شتى ؛ ولقد سأل سائل بعد نكبة ١٩٤٨ فقال : كيف انهزم العرب أمام القلة الصهيونية وللعرب يومئذ فى فلسطين سبعة جيوش ؟ . فكان الجواب هو : إنما انهزم العرب لأنهم كانت لهم سبعة جيوش ، ولم يكن لهم جيش واحد ؛ ومع أن هذا الجواب كان عظة بالغة ولطمة رادعة ، فقد مضى عشرون عاماً ، لم تصر الجيوش السبعة جيشاً واحداً ، بل تعدادها حتى بلغت ضعف السبعة ، وكأن مر الأحداث و توالى العظات لا يزيدنا إلا إصراراً على التفرق والتمزق ،

---

(١) ألقيت فى ١٨ من ربيع الأول سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ١٤ من مايو سنة ١٩٦٨ م

والتعدد لا التوحد ، مع أن اشعار ديننا الذى نؤمن به وندين الله عليه هو : كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فقد جاء الإسلام بوحدة الإله : الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ووحدة الرسول : « محمد رسول الله » ، ووحدة الدين : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » ووحدة الكتاب « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ووحدة القبلة : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ووحدة القيادة حتى قال الحديث : « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقبلوه » ووحدة الأمة : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وكتاب الله العلى الأعلى يقول لنا : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وهذا توجيه إلهى حكيم إلى وحـدة الجيش ووحدة القيادة إذ لا يمكن للمؤمنين بحال من الأحوال أن يجاهدوا فى سبيل ربهم صفاً واحداً يصيروا كالبنيان المرصوص المتلاحم المتعاون إلا إذا كانوا جيشاً واحداً له قيادة واحدة وخطة واحدة ، وتدريب واحد ، وهدف واحد ، هو البطش بالمجرمين المعتدين ، وتحقيق العزة والحرية للمؤمنين : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » . ويحذرنا القرآن الكريم من تعدد الاتجاهات والقيادات لأن ذلك يؤدى إلى ضياع الجهود وكثرة الثغرات التى ينفذ منها الأعداء ، فيقول : « وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » والتنازع كما يكون على إمارة أو حكم أو مغنم قد يكون أيضاً على قيادة أو زعامة . وقد يكون على جاه أو شهرة ، ولو صفت النيات ، وأخلصت القلوب ، وعرفنا معنى الجندية المجهولة ، وذقنا لذة العمل لوجه الله ومصلحة الوطن . لما وجد أى كبير فى الأمة المؤمنة أية غضاضة فى أن أن يكون مجاهداً تحت لواء الإسلام . مهما كان الحامل لهذا اللواء ، متى

ارتضته الأمة قائداً لها ، ورسول الله عليه الصلاة والسلام هو الذى قال : أطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة » وهدى الإسلام هو الذى ينادينا على الدوام قائلا : «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » ، والحديث الشريف يقول لنا : « سووا صفوفكم ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وعلمنا رائد الإنسانية ومعلم البشرية محمد صلوات الله وسلامه عليه أن مفتاح عزة الأمة وسيادتها هو أن تكون كلها على قلب رجل واحد ، يقودهم نحو الخير ، ويوجههم إلى البر ، ويستمد من عون الله وتوفيقه ما يجعله يسخر هذه الطاقات الكبرى لما فيه صلاح أصحابها ورشادهم ؛ ورضوان الله على الإمام على يوم قال : « لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد أمرهم ، واستحكمت عقدتهم .

والتطبيق الإسلامى لمبادئ الجهاد فى صدر الإسلام يعطينا صوراً حية كريمة لاجتماع الأمة المؤمنة على قيادة موحدة ، دون خضوع للأهواء الذاتية أو الرغبات الشخصية أو المطامع النفعية ، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يولى أسامة بن زيد قيادة الجيش ، ويجمع خلف إمارته وهو الشاب الفتى — فطاحل الصحابة وكبار المسلمين من أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، بل ويسير الخليفة أبو بكر على قدمه فى ركاب هذا القائد الشاب وهو فوق صهوة جواده ، حينما يقول القائد الفتى للرجل الأول فى الدولة : يا خليفة رسول الله ، إما أن تركب وإما أن تنزل ، يجيب الخليفة قائلا : والله لا أركب ولا تنزل ، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة ، بل ضرب قادة الإسلام الأوائل أروع الأمثلة فى الاستجابة لنداء الواجب ، وفى الحرص على إنكار الذات ، وفى الإخلاص للقيادة الموحدة ، ومن بين هذه الأمثلة أنه حينما تولى أبو بكر الخلافة كان أبو عبيدة يقود جيش المسلمين لتحرير أرض الشام ، فأرسل أبو بكر خالد بن الوليد ليكون قائداً لهذا الجيش وكتب إلى أبى عبيدة يقول له : « قد وليت خالد قتال الروم بالشام ، فلا

تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإنى وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك » . وكتب خالد يخبر أبا عبيدة بذلك بلطف وأدب ، ويقول له فيما يقول : « والله ما طلبت ذلك ولا أردته ، ولا كتبت إلى الخليفة فيه ، وأنت ر حمك الله على حالك التى كنت عليها ، ولا يعصى أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين . . » ويعود أبو عبيدة القائد بالأمس إلى صفوف الجنود يجاهد صادقاً مخلصا تحت قيادة خالد . وتمر الأيام ، ويلحق أبو بكر بربه ، ويجئ إلى الخلافة عمر ، فيرى الناس يكادون يفتنون بخالد ، فيعفيه من القيادة ، ويولى مكانه أبا عبيدة ، ويكتب إليه يقول : « قد وليتك على جند خالد ، فاقبض الجيش منه » وكانت المعركة دائرة ، فكتم أبو عبيدة الخطاب حتى تمت المعركة ، وتحقق النصر على يد خالد ، ثم أخبره بعد ذلك ، وأكد له أن هذا التغيير يتناول الشكل وحده ولا يتناول الجوهر ، وأنه لن يستغنى عن بطولته ومهارته ، وعاد خالد القائد بالأمس إلى صفوف الجنود يجاهد صادقاً مخلصاً تحت قيادة أبى عبيدة وهكذا لم يتردد قادة الإسلام المخلصون فى أن يعمل الواحد منهم جندياً تارة وقائداً تارة أخرى ، والمهم هو أنهم حرصوا على وحدة قيادتهم ، وعلى الإخلاص فى جهادهم ، وبذلك نصرهم ربهم ووفقهم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

فى ظل الجماعة والوحدة حققنا الكثير مما ينفع ويفيد ، وفى ظلمات التمزق والفرقة أضعنا الكثير من الثمرات والجهود ، أفما آن لنا بعد كل ما تقدم من عبر وعظات أن نعود إلى قيادتنا الموحدة الجامعة للشمل المنظمة للكل ، وأن نحقق وحدة الصف مع وحدة الهدف ؟ . لقد جبرت بنا الأحداث فلنجد ، وأحاطت بنا النذر فلنستعد ، والله ولى المجاهدين المخلصين ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

يد الله مع الجماعة

الحمد لله عز وجل ، رسم طريق الرشاد ، وأوضح أسباب الهداية للعباد « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » . نشهد أن لا إله إلا الله ، جعل الفلاح كل الفلاح فى الالتجاء إليه والاعتماد عليه ، وجعل الخسار كل الخسار فى الإعراض عنه والانقطاع منه : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . ونشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أحب فيه وخاصم له ، فكان أطهر الطاهرين وأفضل المخلصين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله المعتزين بذل الرجاء والضراعة ، وأصحابه ذوى الوحدة والجماعة ، وأتباعه المستوجبين بقرباتهم نعمة الشفاعة : « أولئك لهم عقبى الدار » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لاشك أن طبائع الناس مختلفة ، وعقولهم متفاوته ، ولذلك نراهم أشتاتاً فى الآراء ، متباينين فى الميول والأهواء ؛ ومن حق كل امرئ كريم أن يأخذ قسطه من حرية الرأى واستقلال الذات ، حتى يشعر بقيمته البشرية ومنزلته الإنسانية ، وحتى يميز الله الخبيث من الطيب عن طريق التفاوت والاختلاف ، ولكن المجتمع تمر به أحياناً أزمات مزلزلة وخطوات مبلبله ، فتبرز قرون الفتنة ، وتبدو بوادر المحنة ، وهنا يجب تناسى الأشخاص والذوات ، وسحق الأهواء والعصبيات ، والتلاقى على شرعة الوحدة والإخاء التى تتعالى عن الأحقاد والأضغان والمطامع ، ولذلك حض الإسلام بأسلوب مؤثر على الاتحاد والاجتماع ، فقال القرآن الكريم : « واعتصموا بحبل الله

القيت فى ١٦ من صفر سنة ١٣٧١ هـ الموافق ١٦ من نوفمبر سنة ١٩٥١ م

جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » . ويقول : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين » . ويقول الرسول : « من فارق الجماعة قيد شبر خلع ربقة الإسلام من عنقه » ويقول : « عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنة فيلزم الجماعة » .

ولو رجعنا إلى تاريخ الإسلام لوجدنا المسلمين الأوائل قد فقهوا هذا المعنى الكريم خير الفقه ، وطبقوه أجمل التطبيق ، فإذا نزلت بهم نازلة ، أو ألمت بديارهم ملمة ، نسوا أنفسهم وحقوقهم ، وذكروا أن دعوتهم فى خطر ، وأن بلادهم فى محنة ، وأن الجهود كلها يجب أن تتضافر لتكون قوة تهزأ بالصعاب وتحقق الرغاب ؛ وما نستطيع فى مجال محدود كهذا المجال أن نفيض فى ضرب الأمثال ، ولكن حسبنا أن نذكر مثلا واحداً يظهر فيه روح التسامى عن الشقاق ، والتعالى عن الخصومات فى مواطن الأزمات . . . ذلكم هو على ابن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه ، وكرم الله وجهه وطيب مثواه ، كان يرى لنفسه بعد موت الرسول حقاً فى خلافته ، لأنه ربيبه وتلميذه الأول ، ولأنه السباق فى مواطن اللقاء والكفاح ، ولأنه زوج ابنته ، وأسرة الرسول يومذاك تمثل التقوى والهدى ، والقرب من الملأ الأعلى ، ولا تمثل العصبية أو الهوى ؛ ولكن الناس بايعوا أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، فهل يتمرد على أو يعارض ؟ وكيف والخلاف هنا تفريق لكلمة المسلمين ، وتشتيت لقوى المؤمنين ، ومعونة لأعداء الدين ؛ وكذلك ما كادت الشواغل التى شغلت عليا عن المبادرة إلى المبايعة تنتهى ، حتى ذهب إلى الخليفة الأول وبايعه متناسياً حقه الذى يعتقده فى الخلافة قائلا له : « ما نفسنا عليك

ما ساقه الله إليك من فضل وخير ، ولكننا نرى أن لنا فى هذا الأمر شيئاً ، فاستبددت به دوننا ، وما ننكر فضلك » .

وحفظ على عهده لأبى بكر ، لا يخون ولا يمين ، ولا يتقاعس أو يتباطأ ، بل أخلص للخليفة الإخلاص كله ، وحسبنا دليلا على ذلك أن أبا بكر لما أسرع إلى الخروج بنفسه لقتال المرتدين أدركه على وأخذ بزمام ناقته ورده قائلا : « إلى أين يا خليفة رسول الله ؟ لا تفجعنا فى نفسك ، فوالله لو أصبنا بك لا يكون للاسلام نظام » . وفى هذه النصيحة الخالصة الصادقة ما فيها من كرم ونبل الطبع وطهارة الفؤاد . . . لقد قابل أبو بكر الوفاء بوفاء مثله ، فكان يحفظ لعلى قدره ، ويعلى بين القوم ذكره ، ويبادله ثقة وعرفاناً بعرفان . . .

وذهب الخليفة الأول إلى ربه راضياً مرضياً ، أوصى لعمر بالخلافة من بعده ، فتجددت أشجان على ، ورأى مرة أخرى أن حقه كما يؤمن به قد أخذ منه ، ولكن الناس رضوا عنه عمر فليرض بها على طواعية واختيار ، وليصدق فى هذا الرضى مهما كان رأيه الشخصى وعقيدته الذاتية ، حتى إن عمر يسأل عليا بنته أم كلثوم ليتزوجها ، فيعتذر إليه على بأنها صغيرة ، فيقول بعض الناس لعمر إنه يتخلص منك فيعيد الطلب فيقول له على : أبعث بها إليك فإن رضيت فهى امرأتك » . ويرسلها على وهى ذات الخدر والحجاب ، فيرضاها عمر لنفسه فيتزوجها ، وتلد له ولدين من أبنائه ؛ ويرعى عمر لعلى حقه الرفيع السامى ، فلا تمر عليه معضلة إلا ويرجع فيها إلى على أبى الحسن ، ولا يغيب أبو الحسن عن عمر إلا ويظهر عمر أنه لا يستطيع تصريف الأمور وحل المشكلات دونه ! . .

ويسقط عمر شهيداً ، ويعهد إلى بضعة نفر من الصحابة ، ليختار الناس أحدهم خليفة ، وينتهى الأمر باختيار عثمان ، ويعتقد على أن الأمر اشتمل على مكيدة ، وأن حقه قد أعطى لسواه أيضاً ، ولكنه لا يخرج على الجماعة ولا يشق عصا الطاعة ، بل يفى لعثمان كما وفى لصاحبه من قبل ، وحينما ثار الثائرون على عثمان رضى الله عنه لم ترض نفس على له أن يشترك معهم أو يستغل حركتهم ، بل اعتزل الفتنة وباعدها ، وبعث بابنيه الحسن والحسين ليذودوا عن الخليفة الشهيد ويحولا دون مصرعه ، ولكن الفتنة كانت أكبر من ذلك فقتل عثمان ، وغضب على لقتله غضباً شديداً ، وعنف ابنيه تعنيفاً أليماً . . .

وأخيراً بايع الناس عليا ، وجاءه حقه الذى يؤمن به بعد طول انتظار ، فهل يسرف أو يتحيف أو ينحرف ؟ . . لا لا ، بل عدل وإنصاف ، ورحمة بلا اعتساف ، ولكنه لا ينتظر طويلا حتى يخرج عليه الخوارج ، ويستحلوا دمه . فلا يبغى عليهم وهو القادر ، ولا يحكم فيهم هوى نفس أو نزعة شيطان أو شهوة ذات . بل ينصفهم من نفسه ، وينسى إساءتهم إلى شخصه ، فيقول لهم : « إن لكم عندنا ثلاثا ما صحبتمونا ، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفىء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا » وليس وراء ذلك شىء فى ضمان الحريات للمخالفين . . . والأعجب من هذا أن أحدهم يدفعه الشيطان فيطعن الإمام ليغتاله . فيجمع أولاده ويوصيهم بأن يطيبوا طعام قاتله . ويلينوا فراشه . فإن يعش فهو ولى دمه . عفو أو قصاص . وإن يمت ألحقوه به ليخاصمه عند ربه يوم القيامة . ونهاهم أن يعتدوا عليه أو يمثلوا به . . . وهذه غاية فى نسيان الذات وإزهاق الهوى وكبت الغضب . والترفع عن الأحقاد والأضغان . . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ما المراد من هذا كله ؟ . . . المراد هو أن يكون لنا عقول تفهم وقلوب تشعر ، فتعتبر بمواقف السالفين ، فنذكر أن الواجب علينا دائماً هو أن يبسط كل منا يده لأخيه نقية طاهرة ، ليتلاقى الجميع فى ساحة الأخوة الصادقة والتعاون الصحيح ، لا فرق بين كبار وصغار ، فالكل فى حق الحياة والجهاد سواء وحين نخلص لله هذه الوحدة ، ونصدق فى صف الصفوف وإعداد العدة ، تتنزل علينا ألوية النصر من واهبه ، ويأتينا صادق العون من صاحبه ، لأننا سنكون يومئذ أولياءه وأحباءه : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . واتقوا الله الذى أنتم به مومنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . . .

وقاحة التفرقة

الحمد لله عز وجل ، أعلى كرامة بنى الإنسان ، وجعلهم خلفاءه فى الأرض : «ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أبدع الكون بقدرته ، وملك الخلق بربوبيته : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ناشر دعوة المساواة والعدالة بين الناس ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

تقف البشرية اليوم موقف الخزى الموجع من نفسها ، وتحس بالخجل البليغ من ذاتها ، لأنها تتطلع فتجد فى جنوب أفريقيا طائفة من الأوربيين المحتلين الدخلاء ، يتحكمون تحكم الطغاة الجبابرة فى الوطنيين الأفريقيين هناك ، ويعيدون مخازى التفرقة العنصرية بين السود والبيض ، فهم يحرمون السود أبناء البلاد الأصليين الشرعيين من ممارسة حقوقهم الطبيعية ، ويحولون بينهم وبين التمتع بخيرات بلادهم وميزاتها ؛ وأفحش ألوان الظلم فى الحياة أن يحتل اللص الغريب الدار ، ثم يتحكم فوق هذا فى أهليها ومالكيها ، فيسومهم سوء العذاب ، ويفوز دونهم بما فى الدار من خيرات وثمار . . . وهؤلاء القراصنة فى جنوب أفريقيا يقومون الآن بحصاد دموى بشع ، فالمذابح قائمة على قدم وساق ، وحمامات الدم تجرى عن يمين وشمال ؛ ويظن

---

(١) ألقيت فى ١٣ من شوال سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٨ من ابريل سنة ١٩٦٠ م

هؤلاء الطغاة أن هذا القهر يؤدى إلى إذلال أبناء أفريقيا وإرغامهم ، وهو فى الواقع يؤدى إلى ثوراتهم وانفجارهم ، وسيرحل هؤلاء الطارئون الغرباء عن أفريقيا القارة السمراء العذراء ، سيرحلون راغمين قبل أن يصيروا جزءاً من الرماد تحت أقدام العمالقة الأفريقيين الذين استيقظوا من نومهم ، وانبعثت من أفواههم صيحات الوعى والتحرر ، وهم بالغون بإذن الله ما يريدون ، إن لم يكن اليوم ففى غد قريب .

ومن الإسراف فى التبجح أن الذين يرتكبون وقاحة هذه التفرقة بين البيض والسود هم الذين يدعون أنهم أبناء المدينة والحضارة ، إنهم أصحاب المواثيق العالمية لحقوق الإنسان والمساواة بين البشرية ؛ فأين هذا الضلال والتناقض من سمو الإسلام وتكريمه لبنى الإنسان وتسويته الحقة بين الناس . . أجمعين ؟ . . . أين هذا من هدى الإسلام الذى أعلن تساوى الناس فى الخلقة من ماء وطين . وأنهم صنعوا بيد خالق واحد يريدهم متحابين متعارفين ، لا متعصبين متناكرين : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ولقد أجاز الإسلام للعبد الأسود المملوك أن يتزوج الحرة النسيبة الغنية ، ما دام عفيفاً مسلما ، ولقد زوج النبى زينب بنت جحش الحرة العربية القرشية من زيد بن حارثة الذى كان عبداً مملوكاً ، وزوج فاطمة بنت قيس الحرة الفهرية من أسامة بن زيد الذى كان عبداً مملوكاً ، وتزوج بلال بن رباح العبد الحبشى الأسود من الحرة النجيبة أخت عبد الرحمن بن عوف . قال الرسول : « إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فانكحوه (أى زوجوه) إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

ولقد حدث أن صحابيا جليلا مقرباً من رسول الله عليه صلوات الله اختلف مع صحابى آخر فتخاصما ، فقال الأول للآخر يعيره بسواد أمه :

يا ابن السوداء . . . فغضب الرسول من ذلك غضباً شديداً ، وقال مستنكراً : طف الصاع ، أعيرته بأمه ؟ إنك إمرؤ فيك جاهلية ، كلكم بنو آدم . ليس ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح ! . . ولقد رأى أبو هريرة رجلا راكباً على دابته ، ووراءه خادم له أسود يمشى على رجليه : فقال أبو هريرة للرجل : أحمله خلفك يا عبد الله ، فإنما هو أخوك ، وروحه مثل روحك » وكأن أبا هريرة يريد بقوله للرجل : « يا عبد الله » أن يذكره بالعبودية لله المشتركة بين الناس أجمعين ، ولعل هذا هو السر فى أن الإمام على قال : « إنى لأخجل من نفسى إن استعبدت رجلا يقول : ربى الله » ! . . ولم يعرف الإسلام فى الوظائف أو المناصب أو المراتب تفريقاً بين الأبيض والأسود ، وهذا وفد المسلمين إلى المقوقس سلطان مصر يرأسه رجل أسود هو عبادة الصامت ، ولقد قال المقوقس للوفد : « نحوا عنى هذا الرجل الأسود ، وقدموا غيره ليكلمنى » ، فقالوا جميعاً : « إن هذا أفضلنا رأياً وعلما ، وإنما نرجع جميعاً إلى رأيه وقوله » فأرغموا المقوقس بذلك على أن يفاوض هذا الأسود مفاوضة الند للند ، والله يرفع درجات من يشاء ! ! . .

ومتى شرع الإسلام هذه المساواة بين الطبقات والألوان ؟ لقد شرعها فى الوقت الذى كانت فيه بعض القوانين توجب على المرأة الحرة التى تتزوج بعبدها أو معتوقها أن تحرق معه بالنار وهما على قيد الحياة . وفى العصر المظلم الذى كان الناس يتحاكمون فيه إلى شرعة الغاب . ويتعاملون بأسلوب الأسماك فى المحيط . فالحيتان تأتى على صغار السمك بلا إبقاء . . . وأين نفذ الإسلام هذه المساواة لأول أمرها ؟ . . لقد نفذها بين قوم كانوا غلاظ الأكباد قساة القلوب . أصحاب عنجهية وحمية جاهلية وعصبية قوية . وتفاخر

بالأنساب والأحساب . فنسوا كل هذه ولم يذكروا غير رابطة الأخوة وصلة الإسلام ، فكل منهم يردد :

أبى الإسلام ، لا أب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم !

وكيف طبق الإسلام هذه المساواة ؟ لقد طبقها تطبيق اليقين والإخلاص ، فأصبح أتباعه بنعمة الله إخواناً ، وارتبطوا بعواطف الأخوة والمحبة أكثر من ارتباطهم بعواطف النسب والقرابة ، وامتدت رحاب هذه المساواة الصحيحة فى التاريخ أجيالا عدة وقروناً متتابعة وشعار الأمة هو تلك الصورة الرائعة التى صور بها رسول الله أمة الإسلام فقال : ترى المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الاستعمار الغربى الخسيس يلفظ أنفاسه فى كل مكان تحت وطأة الضربات المتوالية التى يتلقاها من أيدى المجاهدين الأحرار هنا وهناك ، وهذا الاستعمار اللئيم الخبيث يداور ويكابر ، ويحاول بكل ما أوتى من حيلة ووسيلة أن يستبقى حياته . فترة أخرى . وهو يخيل إليه أن سهول أفريقيا هى أنسب الأماكن له ، ولذلك يتجمع فيها ويتبجح ، ، ولكنه مهما فعل ومهما استبد سيزول ويؤول إلا الدمار والفناء ، لأن الذين يريدون حياة الحرية لن يرضوا عن بقائه بينهم بحال من الأحوال ، وأمام هذه المآسى القذرة التى يرتكبها الاستعمار اليوم فى جنوب أفريقيا ، ويثير بها الروائح المنتنة للتفرقة العنصرية بين السود والبيض . يجب أن يقف الذين أصيبوا بنكباته فى الماضى أو الحاضر صفاً واحداً ليجهزوا عليه ويتخلصوا منه . حتى يستجيبوا لهدى ربهم الذى يقول : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . والعاقبة للمتقين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

جريمة الاعتراف باسرائيل

الحمد لله عز وجل ، أدخر للطائعين رحمته ونعمته ، وأعد للمجرمين عذابه ونقمته : « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم » . أشهد أن لا إله إلا الله، يعز من يشاء بحبله المتين . ويذل من تمرد على أمره ودينه : « وأملى لى إن كيدى متين » . . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع الكلمة ووحد الأمة ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وعترته ، وأصحابه وجماعته : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ، وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

فى أثناء الفرحة بأعياد الثورة ، ومحاولة توثيق العلاقات الأخوية بين الشمال والجنوب فى وادى النيل ، فاجأنا شاه إيران بذلك التصرف الأثيم وهو الاعتراف بإسرائيل وتبادل التمثيل السياسى معها ، فكان لهذا النبأ الأليم وقع مؤسف فى نفوس العرب والمسلمين أجمعين ، وذلك لأن أهل إيران ينتسبون إلى الإسلام ، والاعتراف بالدولة الدخيلة المصطنعة المسماة « إسرائيل» يتضمن الرضى بما فعله اليهود الملاعين فى فلسطين ، وهو أمر لا يرضاه الله ولا يقبله الإسلام ، ومن يفعل ذلك مجاهراً به مستحلا له ، فقد باء بغضب الله ، وعداوة الإسلام ، ووصمة التاريخ . ومن العجيب أن إيران ليست على حدود إسرائيل حتى تخشى عدوانها أو الاحتكاك بها ، وليست بينهما مصالح مشتركة تضطر إيران إلى هذا التصرف الأثيم ، وليست إيران بالدولة الفقيرة التى تحتاج إلى أن تمد يدها لإسرائيل تستعينها وتستجديها ، وعند إيران

---

(١) ألقيت فى ٥ من صفر سنة ١٣٨٠ هـ الموافق ٢٩ من يوليو سنة ١٩٦٠ م

من البترول ما ليس لدى إسرائيل ، وإسرائيل لقيطة استعمارية ما زالت تعيش عالة على معونات انجلترا وأمريكا وغيرهما ، ولو أن هذه الدول الباغية منعت يد المعونة عن إسرائيل حيناً من الزمان لأصبحت فى خبر كان ، فما الذى يدعو إيران إذن إلى أن تفعل مافعلت متنكرة للاسلام والجوار والروابط المشتركة بينها وبين الغرب والمسلمين خلال عصور التاريخ .

إنها الملكية المستبدة التى لا يعنيها شيء سوى تحقيق مآربها ومطالبها ، فقد قبل الشاه أن تكون بلاده مطية لأمريكا وإنجلترا فى مناصرة إسرائيل ، مقابل ثمن تافه وعرض زائل هو مجموعة من الدولارات يستعين بها على ملذاته وشهواته ، وأما الإسلام والشرف ومبادئ العدالة والحق ، ورابطة الدين والشرق والجوار ، فذلك كله يضرب به عرض الحائط فى استبداد وطغيان .

إن هؤلاء الذين ارتكبوا جريمتهم فاعترفوا بإسرائيل ينسون أو يتناسون المأساة الكبرى التى أسود منها وجه البشرية ، وهى مأساة اغتصاب الصهيونية لفلسطين ، وتشريد أهلها من النساء والرجال ، والشيوخ والأطفال ، ولو كانت أمهات هؤلاء المعترفين بإسرائيل فى إيران أو زوجاتهم أو إخواتهم أو بناتهم هن اللواتى تشردن ولقين ألوان الذل والإيذاء ، لعرفوا مقدار النكبة ، ولطالبوا إخوتهم فى الإسلام بأن يغضبوا من أجلهم ويعاونوهم بما استطاعوا . . . ولو عرف هؤلاء حكم الله وحكم الإسلام فيما فعلوا ، واتعظوا بهذا الحكم ونزلوا على أمره ، لما فكروا يوماً من الأيام فى مثل هذا العمل الأثيم فضلا عن أن يرتكبوه وينفذوه ، ويحملوا وزره أمام الله وأمام الناس .

إن الله تبارك وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا

اليهود والنصارى أولياء » ويخبرنا القرآن بأن اليهود والمشركين هم ألد الأعداء للمسلمين : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ويقول : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء » . وقد روى أن هذه الآية نزلت فى عباده بن الصامت الأنصارى ، وكان بدريا تقياً ، وكان له حلف من اليهود ، يساعدونه ويعاونونه ، فلما جاء يوم الأحزاب العصيب ، واشتد الأمر على المسلمين ، أراد عبادة أن يسخر هؤلاء اليهود فى خدمة المسلمين ، فقال للنبي : « يا نبي الله ، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فاستظهر بهم على العدو » فنزل قوله تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » وقد جاء هذا الرفض الصريح الصارم فى وقت شديد عصيب كان المسلمون فيه محتاجين أشد الاحتياج إلى أى معونة ، فكيف بالذى يوالى اليهود المغتصبين لأرض المسلمين ، ويواليهم ليكونوا شوكة فى جنب المسلمين ، وليزدادوا قوة ومنعة فى معاداة المسلمين ؟ .. ألا ساء ما يفعلون ! . . وأين إذن ذلك التعاون الإسلامى ، وذلك التناصر الواجب بين الأمة المؤمنة التى يصفها رسولها بقوله : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ؟ ! . . أين أخوة الدين ورحم الإسلام ووشيجة الإيمان يا أهل إيران ؟ !

ولكن لا عجب ، فللشاه سلف كان منذ سبعين عاماً ، وارتكب من الجرائم ما أغضب الشعب الإيرانى ، وكان من جرائمه أنه أعطى احتكار الاتجار فى التنباك » — وهو مورد الثروة الضخم فى إيران — لبعض الأجانب لمدة خمسين عاماً ، فثار جمال الدين الأفغانى لذلك — وكان منفياً من إيران — وأوعز إلى شيخ الإسلام هناك بأن يصدر فتوى بتحريم التنباك حتى يبوره ، واستجاب الشيخ ، وامتنع الشعب عن التنباك فلم يبق له أثر ، حتى إن الشاه

نفسه أراد أن يدخن النار حيلة ، فقال له الخدم : لقد صدرت فتوى شيخ الإسلام بتحريم الدخان فكسرنا النار جيلة . فقال الشاه غاضباً : وهل استأذنت مولاك السلطان فى ذلك ؟ . فقال رئيس الخدم : إذا أمر الشرع يا مولاى فلا حاجه بنا إلى استئذان السلطان ! ! . .

وبعد زمن قصير اضطر الشاه إلى إلغاء احتكار التنباك وانتصر الشعب ، ولكن الشاه عاد إلى ارتكاب مخازيه ، وظل جمال الدين يندد به ويحمل عليه ، وحاول أحد رجال الشاه أن يتوسط بينه وبين جمال الدين على أن يضمن له عيشاً رغيداً ، فثار عليه جمال الدين وقال : « والله لن أرضى إلا أن يقتل الشاه ، وتبقر بطنه ، ويوارى فى القبر » . وكأنما كان جمال الدين يتحدث عن الغيب ، فبعد مدة قصيرة هجم أحد تلاميذ جمال الدين على الشاه وطعنه طعنة قاتلة وهو يقول له : « خذها طعنة من يد جمال الدين » وحينما سمع جمال الدين بمصرع الشاه حمد الله وقال : « إن الأمة التى يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ، ويفتك بالطاغى على رأسها ، لا تكون قد فقدت عناصر الحياة » ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . إن اعتراف إيران بإسرائيل كان طعنة أصابت قلب كل عربى وقلب كل مسلم ، فمن واجب كل عربى وكل مسلم أينما كان وكيفما كان أن تقاوم هذا الاعتراف ، وأن يقف فى وجهه ، وإن أحق الناس بمقاومة هذا البهتان أولئك الذين يؤمنون بربهم الأحد ، وأمتهم الواحدة وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . .

الأزمات تكشف معادن الشعوب

الحمد لله عز وجل ، هو باعث الأمل فى نفوس المؤمنين ، وموطد الرجاء فى صدور المناضلين : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » . أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا وجاهد ، وأفضل من وجه وأرشد ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن الذهب بين المعادن هو أغلاها قيمة وأعلاها مكانة ، وهذا المعدن الأصيل النفيس ، لا يتم صفاؤه ولا يتجلى نقاؤه ، ولا يكمل تماسكه واستحكامه إلا بالعرض على النار لصهره وتمحصه ، وتزيل عنه الأخلاط والشوائب ، وكذلك الأمم القوية والشعوب المجيدة ، لابد لكل منها فى مراحل حياتها المختلفة من التعرض لعوامل الاختبار والانصهار حتى يتحقق لها النقاء والطهارة من جهة . ويتأكد فيها التماسك والاحتمال والثبات من جهة أخرى ؛ ويتمثل هذا الاختبار فى تجارب تمر بها ، أو مصاعب تتعرض لها ، أو أزمات تعجم أعوادها وتمتحن عزائمها وتشد أزرها ، ولذلك كانت الشدائد من أقوى الأسباب الموصلة إلى الكشف من معادن الأمم وجواهر الشعوب ، والأمم التى لا تتعرض للتجارب أو المصاعب ، التى تمتحن إرادتها ، وتشد من عزائمها ، تكتب على نفسها دواعى فنائها وهلاكها .

---

(١) ألقيت فى ١١ من اغسطس سنة ١٩٦٧ م

والله تبارك وتعالى يدعو عباده المؤمنين إلى حياة القوة والمقاومة والمغالبة والاحتمال، ويذكرهم بأنه جل جلاله يسوق إليهم فى بعض الأحوال من ألوان التجربة والامتحان ، ومن التعرض للتبعات والأزمات فى بعض الأحوال ، ما يجعله تصفية لنفوسهم وحواسهم ، وتجلية لمعادنهم الكريمة وجواهرهم الأصيلة ، وتحلية لنضالهم فى سبيل ربهم وعقائدهم ومبادئهم ، وحرياتهم ومقدساتهم ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » . ويقول : « وليبتلى الله فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم » . ويقول عن فريق من عباده الأخيار : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » كما يدعو جميع عباده إلى الاحتمال والتماسك ، والصبر والاعتصام بالتقوى — والتقوى وقاية وقوة فى وقت واحد— فيقول: « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ».ويخبرنا كتاب ربنا تبارك وتعالى أن الصبر على أداء الواجب المقرون بتحمل التبعات ، والثبات أمام الأزمات . هو مفتاح النصر والفوز ، بل هو المعوان على تيسير العسير وتقريب البعيد ، فيقول: « فاصبر صبراً جميلا إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ، بل يحدثنا القرآن أن الفوز بالنعيم المقيم له ثمنه ، وهو الصبر على التمحيص والابتلاء ، فيقول: « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » .

إن الشعوب القوية المؤمنة تستطيع أن تصون عزتها وكرامتها ، بقدر ما تتحمله من تبعات ، وتقدمه من تضحيات ، وفى فترات المصاعب والأزمات بوجه خاص ، والصراع أمر معروف مألوف بين أهل الحق وأهل الباطل ، وهذا الصراع يشتد ضراوة وشراسة إذا وقع بين فريق قوى غادر فاجر ، يملك من الطاقات والإمكانيات الضخمة ما يزيد فى بغيه إلى حين ،

وفريق محدود الطاقة والقدرة ؛ ولكن أصحاب المبادىء والدعوات يظلون بحقهم متمسكين ، وعلى مبادئهم ثابتين ، حتى يبلغوا غايتهم ، ويحققوا إرادتهم ، فإذا الطغاة الفجرة يصيرون إلى خيبة وضلال ، وإذا المؤمنون المستضعفون يعتزون بعزة الله ، ويجاهدون بكل وسيلة يهيئها الله ، ويصبرون ويصابرون كما أمرهم الله ، فتذل كلمة البغى والطغيان ، وتسموا كلمة الحق والإيمان : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » ، « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ولقد تعرض المؤمنون الأولون لمواقف الصراع والنضال ، وتألبت ضدهم القوى الكافرة والجموع الباغية ، فما ضعفوا وما استكانوا ، بل كافحوا وقاوموا ، ورددوا شعارهم العظيم : « ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . ولقد نشط هؤلاء الكافرون المشركون فى معارضة المؤمنين واضطهادهم وتعذيبهم ، ليذلوهم أو يخضعوهم ، فما قدروا ، ولا استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ثم عرضوا ألوان الإغراء على الرسول ، وفى طليعتها الرشوة بالمال أو المنصب لينضم إليهم ، أو يترك عقيدته ودعوته ، فأبى واستعصم بالله وحده ، ومضى على طريق الحق والعدل ، لا يرضى بالنصر الكامل بديلا ، ثم أخذ الكافرون فى المقاطعة الاقتصادية للمسلمين ، فأجمعوا أمرهم ألا يبيعوا المسلمين شيئاً . ولا يشتروا منهم شيئاً ، ولا يقدموا إليهم أى معونة ، ولا يكون بينهم وبينهم أية صلة اجتماعية . وتعاون الكفر والبغى والطغيان عند هؤلاء ، فحاضروا الجماعة المؤمنة داخل شعب أبى طالب . وهو مكان بين جبلين بجوار مكة ، وظل هذا الحصار ثلاث سنوات ، احتملها المؤمنون بصبر وثبات ، وكشفوا عن أطهر الأصول وأكرم المعادن فى نفوسهم ، حتى تداعت أركان الكفران ، وتقوضت صروح الطغيان . وعزت كلمة الإيمان ، وخرج المسلمون من

محنة الحصار والابتلاء أقوى عزماً ، وأرسخ همة ، فعاودوا المسير على طريق الجهاد ، حتى من عليهم ربهم ، فجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إن أمتنا يجب عليها أن تعقد العزم على أن تبنى عزتها ومجدها ، بعرقها ودمائها . وتصون حريتها وكرامتها ، باحتمالها للشدائد وصبرها على التضحيات ويجب أن تتوهج فى نفوسنا المعانى الكريمة للتماسك والاحتمال ، وأن تتألق فى حياتنا أعمال البطولة ودروس المصابرة والمرابطة ، حتى نسعى من حاضرنا إلى غد قريب مشرق يتحدث عنه التاريخ فيقول : إن هؤلاء قد استطاعوا بإيمانهم ويقينهم أن يجتازوا شدة عرضت لهم ، فاستحقوا نصر ربهم وخلود ذكرهم ، والله ولى العاملين الصابرين ، واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الاسلام وحقوق الانسان

الحمد لله عز وجل ، هو نصير المؤمنين العادلين ، وخاذل الفاسقين الظالمين : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ناشر الإيمان ومحرر الإنسان ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاه والسلام

كان من نتائج التقارب الحسى والمادى بين أرجاء الأرض – بسبب سرعة الاتصال أو الانتقال – أن أدرك العقلاء من الناس أن العالم لابد له من أن يتجاوب أفراده بروح المودة والاحترام ، وعاطفة التعاون والوئام ؛ وهذا لا يتحقق على وجهه إلا إذا راعى كل منهم حقوق غيره ، كما يرعى حقوق نفسه ، ولذلك قال الأثر الحكيم : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » . ولقد زاد إحساس الشعوب بهذه الحقيقة عقب تكرر الحرب العالمية التى أذاقت الدنيا ما أذاقت من الويلات والنكبات ، حتى اضطر ساسة العالم حينئذ إلى مسايرة هذا الإحساس البشرى الجارف ، فكتبوا « وثيقة حقوق الإنسان » وصدروها بقولهم : إن الناس يولدون أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق ، ويجب أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الأخوة ، دون تفرقة بسبب السلالة أو اللون أو الجنس ، ولا شك أن هذا مبدأ إنسانى كريم ، فرح العالم بإصداره ، لأنه يؤمن الجميع ، فلا يجوز أن يكون هناك اضطهاد

لسبب من الأسباب ، ولا أن يكون هناك اعتداء من قوى على ضعيف ، بل ينبغى أن يكون الجميع إخوة فى الإنسانية ، يعيشون متحابين ؛ وإن غاية ما تتطلع إليه البشرية هى أن يسود أرضها السلام ، وترفرف عليها ألوية العدالة والمساواة ، وحينئذ يتجه كل فرد إلى البناء والتعمير ، وتبعد أشباح الحروب التى تدمر ولا تعمر ، وتخرب ولا تبنى ، وإننا نحيى هذه الذكرى وننوه بمبادئها ، ونحيي كفاح الإنسان الشريف فى كل أرض من أجل حق الإنسانية وحق الحياة ، ونؤمن — كما قرر ديننا — بأن الناس فى أصلهم سواسيه كأسنان المشط فى الاستواء ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأسود على أبيض إلاّ بالتقوى والعمل الصالح .

وإذا كانت هذه المبادىء لم توضع موضع التطبيق فى بعض جهات الأرض ، فليس ذلك لقصور فيها ، وإنما هو نتيجة لتجاهلها وعدم تطبيقها ، فنحن نرى من لم يخلص لهذه الحقوق ، أو لم يصدق وعده معها ، وأوضح شاهد على ذلك ما اقترفه الصهاينة فى فلسطين المغتصبة بالتواطؤ مع الاستعمار ، فإن ما صنعوه بهذه الأرض العربية العزيزة صورة صارخة من صور التفرقة العنصرية الأثيمة التى تأباها وثيقة الإنسان ، فقد ترك أبناء فلسطين ضحايا للجوع والفقر والمرض والشقاء ، بعد أن حرموا أعز شىء فى الحياة ، وهو موطنهم العزيز فلسطين : أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، وغاية إسراء الرسول محمد فى الأرض ، ومفتتح معراجه فى السماء ؛ كما يشاهد العالم الآن صورة أخرى كريهة من صور التنكر لحقوق الإنسان ، وهى ما حدث فى روديسيا من سيطرة جنس بعينه على أصحاب البلاد الحقيقيين ؛ وإنا لنستنهض ضمائر العالم أجمع لكى يعمل بحق وصدق على تطبيق هذه الوثيقة ، فى كل أرجاء الأرض ، لتعم الحرية ، وينتشر الأمن والسلام ، ويطمئن كل إنسان إلى أنه يعيش حراً كريماً ، يتساوى مع سائر الناس فى الحقوق والواجبات .

ونحن المسلمين علينا فى هذه المناسبة أن نتذكر هدى الله السمح ، الذى تنزلت آياته تنزل الغيث العميم المبارك ، فأحيت موات الأرض ، وجددت معانى الحياة ، وبعثت القوة الرشيدة فى مواكب الأحياء ، وعلمت الدنيـــا كيف تصان حقوق الإنسان ، وكيف تحفظ كرامة الإنسان ، فهذا هو الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ، يضع قواعد الحقوق الإنسانية وطيدة متينة باقية ، فيقرر وحدة النوع الإنسانى ، وتساوى الجنس البشرى فى أصله ومنبته ، فيقول القرآن الكريم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » . ثم ينص على كرامة الإنسان وتفضيله وأهليته للمكرمات الربانية ، فيقول : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . ثم يؤكد أن اختلاف الشعوب والأمم فى المكان أو الألوان لا يصح أن يكون سبباً فى التفرق أو التمزق ، أو التعادى أو التمادى فى التفاخر أو التكاثر ، وإنما أساس التقديم والتفضيل هو استقامة السلوك ، وحسن العمل ، وصدق الإيمان ، والتمسك بالعدل ، والتجنب للانحراف ، فيقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . ويأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيحارب النزعة العنصرية واللونية المؤدية إلى التفرقة بين الإنسان فيقول : « كلكم لآدم الناس سواسية كأسنان المشط فى الاستواء » . ويقول : « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح » .

ثم يدعو الإسلام البشر جميعاً إلى شرعة السلام والأمان والموادعة بين أبناء الأصقاع والبقاع ، فيقول القرآن : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ثم يأمر الناس بالعدل والوفاء وصيانة الحقوق والأمانات ، ومراعاة المساواة المنصفة بين الخلائق ، فيقول : « إن الله

يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . ويقول : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » . وينهاهم عن الظلم للناس ، لأن الظلم مرتعه وخيم ، فيقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » . ويدعو الإسلام أتباعه إلى محاربة الأثرة والأنانية واختصاص الذات بما ليس للآخرين ، فيقول الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » . ويعد الإسلام هضم حقوق الناس ، والإفساد فى الأرض بالعدوات أو الطغيان أو التخريب أو الفسوق ، من المنكرات التى يرتضيها الحق جل جلاله ، فيقول القرآن : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » .

هذا جانب من حديث الإسلام عن حقوق الإنسان التى صورها كتاب الله أعدل العادلين وأحكم الحاكمين ، وقد سعدت الدنيا وأزهرت وأثمرت أجيالا وأجيالا بتطبيقها هذه المبادئ ، وذلك حينما حرص المؤمنون على العدالة الإنسانية والمساواة البشرية ، وما على الله بعزيز ولا بمستحيل على الإنسان — إذا تدثر باليقين والإيمان أن يعاود حمل مشاعل الحق والخير والعدل يمضى قدماً فى طريق الصيانة لحقوق الإنسان ، والمحافظة على أمن الإنسانية وسلام العالم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إننا بعقائدنا وقيمنا ومبادئنا — نخلص التعاون مع كل جهد إنسانى عالمى مخلص تبذله الدنيا من أجل حقوق الإنسان وكرامة الإنسان ، وإننا بفيض من إيماننا ويقيننا نرجو ونأمل أن تبلغ البشرية يوماً يسودها فيه السلام القائم على العدل ، والأخوة الناهضة على تبادل الثقة والاحترام ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الاسلام والتفرقة العنصرية

الحمد لله عز وجل ، أوضح الحق وحث عليه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» أشهد أن لا إله إلا الله ، يميز الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الضلال والهدى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ثبت دعائم اليقين والإيمان ، وأقام دعوة العدالة والإنصاف ، فعليه صلوات ربه وسلامه ، وعلى آله القائمين بالحق ، وأصحابه الناطقين بالصدق ، وأتباعه الهادين للخلق : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

من الأمور الواضحة أن مبادىء الإسلام بحاجة إلى نشر بين أهله وغير أهله ، بينما تنتشر فى أرجاء العالم دعايات كثيرة مختلفة تجند لها الجنود ، وتحشد من أجلها الحشود ؛ وهناك الآن فرصة مواتية للاعلان عن عظمة الإسلام ، وهى فرصة ما نسمعه ونطالعه من أخبار عن الحوادث الدامية المخجلة التى تقع فى أمريكا وأوربا ومستعمراتها بسبب التفرقة العنصرية بين البيض والسود ، فنى القارتين الكبيرتين اللتين طال منهما الحديث عن الحرية والإخاء والمساواة ، واللتين امتد منهما الادعاء بأنهما حاميتان للعدالة والإنسانية والحقوق البشرية والأخوة العالمية ، تقع أحـداث مخزية ، لا محرك لها سوى أن الرجل الأبيض الذى يدعى أنه مؤدب ومهذب ومثقف ، يضيق بلون الرجل الأسود ، مهما كانت درجة ثقافته ، فهو من أجل هذا يريد القضاء على مئة وخمسين مليوناً من السود فى الأرض ، لا لعيب فيهم ، ولا لذنب جنوه ، سوى أن البارىء المقتدر خلقهم بلون أسمر لا بلون أبيض.

فالبيض فى الغرب يطردون السود من الجامعات والفنادق والمطاعم . ويركلونهم فى الشوارع بالأقدام ، ويطعنونهم بالمدى والخناجر ، ويحرمونهم حقوقهم الطبيعية الأساسية التى جعلها الخالق العظيم حقاً مشاعاً لكل إنسان ، وهم يضطهدونهم حتى فى العبادة ، فالسود محرومون من الدخول إلى كنائس البيض ، كأن للبيض رباً وديناً عندهم ، وللسود رباً وديناً فأين هذا من هدى الإسلام العظيم الذى يقرر أن الرب واحد ، وأن الرسول واحد ، والكتاب واحد ، والمسجد واحد ، والخادم الفقير يقف بجوار أكبر فرد فى الأمة أثناء الصلاة ، ويسير إلى جواره كتفاً بكتف أثناء الطواف حول الكعبة ، أثناء السعى بين الصفا والمروة ، وفى غير ذلك من العبادات .

وتصل بهؤلاء شناعة التفرقة العنصرية إلى التمييز بين البيض والسود حتى فى القانون والعقاب ، فهذا رجل أسود يسرق دولارين فيحكم عليه البيض بالإعدام جزاء لهذه السرقة ، ونحن لسنا من أنصار السلب والنهب ، ولكننا من أنصار العدالة والحياء ، وهذا الحكم لا عدالة فيه ، لأن قانونهم العام نفسه لا يقضى به ، وليس فيه رائحة حياء ، لأنه يوجد فى الغرب مئات آلاف سرقوا الملايين ولم يلاقوا الجزاء ، ونهبوا الأمم وأزهقوا أرواح الشعوب وما زالوا طلقاء ، ، ولقد دخل الرجل الأبيض أفريقيا فحمل إليها الذل والهوان ، ونشر فيها تجارة الرقيق ، ونهب من خيراتها ما نهب ، وسلب من أجلها ما سلب ، ثم بقى سالماً ، وزاد فتبجح وزعم أنه حمل إلى أفريقيا المدنية والنور .

إنها نكبة يتطلب أهلها النجدة ، وإنه سرطان خبيث يتفشى ويحتاج إلى الدواء والعلاج ، وإنه بلاء يصيب الإنسانية فى صميمها ، فتتطلع ذات اليمين وذات الشمال باحثة عمن يعيد إليها إيمانها بنفسها ، وثقتها بدنياها ، واستقامتها على طريق ينقذها من هذا البلاء . . . وهنا تتهيأ الفرصة لأبناء

الإسلام كي يبشروا به ، ويدلوا الناس عليه ، لينعموا بما شرعه من حرية وعدالة وإنصاف . ولن تكون فائدة هذا الخير مقصورة على المجال الدينى وحده ، بل سيفيدنا أعظم الفوائد فى المجالات القومية والوطنية ، لأن الإسلام نبث مبادئه له تاريخه الطويل العاطر بمفاخر أجدادنا ، فكأننا سننشر جوانب من مآثرنا وصفحات من ماضينا ، ولأن الإسلام قارورة دواء ومضخة إطفاء ، فمن اهتدى إليه على أيدينا من الحائرين فى الغرب سيعتبرنا مرشدين له هادين إياه إلى صراط المستقيم والنور المبين .

إن الإسلام حينما يعرفه أولئك الملونون الأشقياء باضطهاد البيض ويعرفون مايدعو إليه من أخوة وتسامح ومساواة بين الناس سيكون أقوى جاذب لهم إلى رحابه وكتابه ، فإن القرآن المجيد يضع قاعدة الأخوة الإنسانية الراسخة حين يهتف بالبشر جميعاً فيقول لهم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . كما يضع القاعدة الصريحة فى التفضيل بين الناس ، فلا يجعلها قائمة على اللون أو المال أو النسب ، بل يجعلها قائمة على الاستقامة والعمل الصالح فيقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » . ولقد قال أحد الذين يدعون الانتساب إلى الأشراف لرجل آخر : لعلك تتزوج بشريفة . فقال الرجل : قد فعلت . قال المدعى للشرف : ممن ؟ قال : من الذين قال الله فيهم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية » .

وهذا أبو لهب القرشى الغنى المقتدر بين أهله يأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى أرسله ربه للناس جميعاً ، وجعله رحمة للعالمين ، يأتيه أبو لهب مزهواً بحسبه وجنسه وماله ومكانته فيقول : ماذا أعطى إن آمنت بك يا محمد ؟ فيجيب الرسول فى هدوء : كما يعطى المسلمون . فيقول أبولهب مستنكراً هذه المساواة : أما لى عليهم فضل ؟ فيجيبه : وأى شىء تبغى ؟

فضاق أبو لهب بهذا الدين السمح الكريم ، الذى يسوى بين الحر والعبد ، والأبيض والأسود ، والغنى والفقير ، وعبر أبو لهب عن صنيعه وفجوره بقوله الأثيم : تبا لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلاء سواء ، فكان الرد على ذلك التبجح أن نزل القرآن يقول : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نار ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » ولم يفد أبا لهب شىء ، لم يفده قومه ولا حسبه ولا ماله ، لأن الأسباب أمام الإسلام تتقطع ، والأحساب تضيع ، ولا يبقى إلا سبب الإيمان وحسب اليقين .

ولقد سمع نبى الإسلام رجلا يقول يا ابن السوداء . فغضب محمد غضبته وقال : طف الصاع (أى طفح الكيل) أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . فهل يسمع هذا الذين وقعوا وثيقة حقوق الانسان من سنوات ؟ .

وهذا تاريخ الإسلام يزدان بسير الأقطاب الأعلام الذين كان لونهم أسود ولكنهم بأخوة الإسلام مع كفاحهم العظيم بلغوا أرفع الدرجات بين النـــاس وهذا مثلا عطاء بن أبى رباح سيد التابعين علما وعملا ، وفقيه مكة والحـــرم ، وخليفة بن عباس فى الإفتاء والذى كان يقال لأهل مكة عنه : كيف كان عطاء بن أبى رباح فيكم ! فيجيبون : كان مثل العافية التى لا يعرف فضلها حتى تفقد . وكان عطاء هذا أسود أعور أفطس أشل أعرج ، ثم كف بصره ، وكانت أمه سوداء تسمى « بركة » ! .

وهذا عمر بن عبد العزيز يعرف أخوة الإسلام ويطبقها ، فيأذن لزياد ابن أبى زياد العبد الأسود الصالح ، يأذن له والأمويون ببابه ينتظرون الدخول عليه ، حتى يضج من ذلك هشام بن عبد الملك ، فيقول غاضباً : أما رضى

ابن عبد العزيز أن يصنع ما يصنع ، حتى أذن لعبد ابن عباس أن يتخطى رقابنا ؟ . وكان عمر يطلب من هذا الأسود أن يعظه وينصحه ، وذات مرة نصحه زياد فقال له فيما قال وهو يذكره بتبعة الأمة فى عنقه : والله يا أمير المؤمنين ما هناك أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك أمام الله تعالى . . فبكى عمر بكاء شديداً ، حتى تمنى أنه لم يكن قال له ذلك .

هذا هو الإسلام ، وهذا تاريخ أبنائه ، فإذا أردنا عز الدنيا ونعيم العقبى فلنستمسك بالعروة الوثقى : عروة الله ، ولندع إليها عباد الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

الخطبة الثـانية

الحمد لله تبارك وتعالى ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . احمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الهداية والتوفيق ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله . هدى بفضل ربه إلى أقوم طريق ، فصلاة وسلاماً وبركة عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين . اللهم أغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات يارب العالمين ، اللهم إنا نسألك أن تعز الإسلام والمسلمين ، وأن تعلى كلمة الحق والدين ، وأن تثبت عزائم المؤمنين ، وأن تتوب على العصاة المخطئين ، اللهم وفق ولاة المسلمين للعمل بكتابك وسنة نبيك الكريم . عباد الله ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . الخ .

ثمرات المحنة

لك الحمد أيها الغالب فى قضائك ، الحكيم العليم فى ابتلائك ، الرحيم الكريم فى عطائك ، المداوم المواصل لنعمائك ، «أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين» . نشهد أن لا إله إلا أنت ، ترى وتسمع ، وتفرق وتجمع ، وترفع وتضع ، وأنت العلى الكبير ؛ ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، إمام الصابرين وقدوة المحتسبين ؛ فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الذين كانوا معادن لا يسلبها التراب إن ثار يوماً ما فيها من أصالة ونقاء ، وأصحابه الذين كانوا جواهر تزداد بالانصهار صفاء فوق صفاء ، وأتباعه المقيمين بأجسامهم فوق الأرض ، الهائمين بأرواحهم فى أجواز السماء ، أولئك لهم عند ربهم الدرجات العلى «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون» .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

حينما يتبختر الإنسان فى أثواب النعمة ، ويترع من أكواب الفضل والرحمة ، لا يعنى فى الغالب بتقدير ما هو فيه من كرم إلهى سابغ ، لأن نشوة النعمة تخدع فتغر ، وتنسى فتضر ، ولذلك كانت الصحة تاجاً لا يشعر بجماله الأصحاء ، وكان المال متلفة فى أيدى الجاهلين من الأغنياء ، وكانت الحرية شيئاً تافه القيمة فى نظر الأغبياء .

أما حين تضيع النعمة فيمرض الإنسان بعد صحة ، أو يفتقر بعد ثروة ، أو يلقى فى ظلمات الأسر والاستعباد ، بعد حرية وانطلاق ، فإن الفكرة تعقب السكرة ، ويضج المرء نادباً ما كان فى يديه ، متضجراً مما سبق إليه ،

(١) ألقيت فى ١٧ من ذى القعدة سنة ١٣٦٨ هـ الموافق ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٤٩ م

وخاصة إذا كانت المحنة شديدة مركبة كمحنة العزلة وسلب الحرية ، يأتيه مفاجأة بلا جريرة أو مثلبة .

ولكن الحقيقة الأزلية تنادينا بأنه لو دققنا النظر ورجعنا البصر ، لوجدنا المحنة نفسها تضم بعض العطايا والمنح التى قد تساوى ما فى النعمة أو تزيد عنها ، ورحم الله ذلك الصوفى الذى قال : لو دققت النظر لوجدت المحنة عين المنحة ، ورأيت الحرمان هو عين العطاء . . . وإن لله عباداً فطنا تبدو لهم من خلال الظلمات أضواء ساطعات يثبت قلوبهم بها بارىء النسمات ومدبر الكائنات سبحانه ! ! . .

فى مقدمة ثمرات المحنة أنها تذكرك فى صدق وعمق ويقين بالله ، وتدفعك فى قوة ورفق إلى حسن الظن به وكريم التوكل عليه وبليغ السؤال منه ، ولا عجب فقد انقطعت منك علائق الناس وأسباب البشر ، ولم يبق لك إلا من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وهذا موطن يؤمن فيه الكافر ويعتبر الجاحد ويتذكر الغافل ، فكيف بالمؤمن الشاكر الذاكر ؟ . . .

سأل رجل الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه عن (الله (فقال له : ألم تركب البحر ؟ . قال : بلى لقد ركبته . قال الإمام : فهل هاجت بكم الريح عاصفة ؟ فأجاب الرجل : نعم . قال : وانقطع أملك حينئذ من الملاحين ووسائل النجاة ؟ . قال : نعم . قال : فهل خطر ببالك وانقدح فى نفسك أن هناك من يستطيع أن ينقذك إن شاء ؟ . فأجاب الرجل : نعم . قال الإمام : فذلك هو الله رب العالمين ! . .

ومن ثمرات المحنة معرفة الناس ، والتمييز بين الأطهار والأنجاس ، والتفرقة بين الثعالب الماكرين والخلص الثابتين ؛ والناس فى هذا المجال أصناف ؛ منهم الوفى المجاهر بوفائه ومعونته قدر استطاعته وهذا قليل نادر ، وفيهم

المحب الضعيف الذى يكتم فيض ولائه فيعتصم بالصمت ليسلم وينجو ، وهذا أزيد قليلا من الأول ومنهم الخائن الذى يجاهر بحقارته ووضاعته وهذا أغلب وأكثر .

وينتج عن هذا أن تعلم علم التجربة واليقين أن الناس يتابعون الغالب دائماً مهما كان طاغياً أو مخطئاً ، إن لم يصفقوا له تابعوه مستسلمين ، وأنهم ضد المغلوب المقهور ولو كان محقاً ، إن لم يطعنوه فى جهر خذلوه مستترين ، وتلك مع الأسى العميق طبيعة البشر من قديم ، لو أردت إزالتها لطلبت المحال :

ويح لى ، قد طلبت عند طباع	الناس ما عز عنـــدهم مطلوباً
خلق الناس للقوى المـــزايا	وتجنوا على الضعيف الذنوبا
احتفوا فى الحياة والموت بالغا	لب ، فانظر ، هل عظموا مغلوباً
شيعوا الشاة جيفة بمداهم	واتقوا وهو فى الزمام الذيبا !

ولم تأت المحنة إلى صاحبها ؟ . . إن مجيئها لا يخلو من فائدة على أى تقدير ، فهى إما تكفير وتطهير من خطايا وزلات سترت ومرت بلا عقاب ، وإما امتحان وإعداد لدور من الكفاح مرتقب ، وإما تمحيص وابتلاء من الله لعبيده كى يزيده بين الناس علواً ، أو يزيده من حماه القدسى دنوا ، ولذلك كانت المحن والبلايا ديدن الرسل والأنبياء ، وها هوذا شيخ الممتحنين المبتلين محمد صلوات الله عليه الذى ضرب وجرح وعذب وطورد على أيدى اللئام المجرمين ، والحسرة الفاسقين يقول : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حب دينه فإن كان فى دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » ويقول : « إنا معشر الأنبياء يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر » بل لقد ورد فى الحديث ما يفيد أن هناك

منازل من الكرامة لا يبلغها بعلمه ولا تقواه ، ولكن ينالها بالبلاء ، حتى قال الرسول : « المصيبة تبيض وجه صاحبها يوم تسود الوجوه » . فهى إذن مزيلة للذنوب ، مطهرة من العيوب ، مفرجة للكروب ! .

ومن ثمرات المحنة أن الإنسان ينفرد فيها بنفسه ، ويبتعد فى صومعتها عن غيره من المضللين أو المعوقين ، فيأخذ فى مراجعة الماضى مراجعة دقيقة متمهلة ، فيها تدبر وإنصاف وقسطاس فى الحكم على الأشياء والأحياء ، فتلوح له خلال الاسترجاع بعض الأخطاء التى كانت تخفيها أو تزورها له زحمة الحياة وضجة المجتمع ؛ وهنا يستفيد أكبر فائدة من هذه الدراسة والذكرى ، فيعاهد نفسه أن يتجنب أخطاء أمسه ، ثم يأخذ فى رسم خطة حكيمة للمستقبل يتحاشى فيها زلات الماضى بعد أن يكون قد ازداد إيماناً بمبادئه الثابتة ، ويقيناً بعقائده القويمة ، من تكرار التجارب طول الاختبار .

ومن ثمرات المحنة إذا كانت أسراً وعزلة أن تستريح أعصابك من صخب الحياة وضوضاء البشر ، وأن تستجم نشاطك بالراحة وخفة العمل وقلة الهموم المندلعة من لهب المطامع والشهوات ، وأن تنمى مداركك وأفكارك بالقراءة الهادئة الموصولة أو التأمل الطويل العميق فى ملكوت السموات والأرض ، وأن تزداد من الله قرباً واتصالا ، بانهماكك فى العبادة والقنوت ، فيكون ذلك كتعويض لما فاتك فى أيام اللهو وفترات الانغمار فى التيار الجارف ، وذخيرة تبقى لك عند من لا يضيع أجر من أحسن عملا إلى غير ذلك من الفوائد والثمرات التى تنبتها أيام المحن والأزمات . .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

لست بهذا أدعوكم إلى تمنى البلاء أو الحرص عليه ، فليس من هدى الإسلام أن يتمنى المرء لقاء المصيبة ، ولكنى أريد أن أذكركم بأن لله فى خلقه

شئوناً لا ندريها ، وأن له في أفعاله حكماً وأسراراً لا نحيط بها ، ومن الواجب علينا أن نلقى النعمة شاكرين لنزداد منها بفضل الرحمن ووعد الرحيم ، وأن نصبر على المحنة ليكون لنا أجر الصابرين المحتسبين الذين يوفون أجرهم بغير حساب كما يقول القرآن ؛ وربما كان توقع المحنة والخوف منها أهول وأرهب منها ذاتها ، وربما نزل البلاء بمن نستخف به أو نتهم احتماله ، فيهبه الله من عوامل الاطمئنان ومفاتح الرضا والأمان ما يهون به كل شديد ، ، ويذل له كل جبار عنيد ، وما أعجب شأن المؤمن إنه لخير كله ، إن أصابته سراء شكرها فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، فلنكن من المؤمنين الشاكرين الصابرين « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

قال عليه الصلاة والسلام : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أعطى فشكر ، وابتلى فصبر ، وظُلم فغفر ، وظَلم فاستغفر فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

هذا نذير

الحمد لله عز وجل ، هو ولى الرعاية ومصدر الهداية : « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يبشر ويحذر ، ويطمع ويخوف : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » : وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، شكر النعمة ، وبشر بالحكمة ، فكان رحمة الله للناس أجمعين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله القائمين بالحق ، أصحابه الناطقين بالصدق ، وأتباعه الهادين للخلق : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لعلكم قرأتم أو سمعتم عن تلك القنبلة الذرية التى سقطت خطأ من طائرة أمريكية منذ يومين بالقرب من مدينة « فلورنسا » ، وقد تلطف الرحمن الرحيم هذه المرة ، فلم تنفجر انفجاراً ذرياً ، ومع ذلك أصابت عدة أشخاص كما أصابت كنيسة ودمرت عدة أبنية ، ولا تزال النتائج والأخطار المترتبة على سقوط هذه القنبلة التى لم تنفجر موضع الإحصاء والتقدير . . .

كأن هذا الحادث إنذار خفيف من رب الناس للناس ، وتخويف يسير من مالك العباد لنفوس العباد ؛ والعامة تقول فى أمثالها « ما كل مرة تسلم الجرة » ، ولو انفجرت هذه القنبلة انفجاراً ذرياً كاملا لكانت المصيبة جامعة واسعة ، ولتجلت نقمة العزيز القهار صارمة جبارة ، ولوقع الحافر فيما حفر ، واكتوى موقد النار بما أوقد وسعر ، ولكنه لا يزال فى حلم الله وإمهاله سعة : « وما نؤخره إلا لأجل معدود » ؛ فما هذا الإمهال والتأجيل إلا من

---

(١) ألقيت فى ٢٣ من شعبان سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ١٤ من مارس سنة ١٩٥٨ م

باب التحذير والإنذار لعلهم يتذكرون فيرتدعون : « إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » .

كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يتذكر هؤلاء الباغون فى الأرض بعلمهم وعملهم ، المزهوون بسلاحهم وعتادهم ، أن الطريق الذى يسلكونه ليس بالطريق المؤدى إلى الخير أو الإسعاد ، بل هو الطريق المؤدى إلى الشقاء والفساد ، ولو استمرت الإنسانية هكذا تتسابق فى إعداد أسلحة التدمير الماحق ووسائل الإفناء الساحق ، لكان ذلك نكسة خبيثة لها ، وعودة رعناء منها إلى العهود السود التى كانت تصيب الإنسانية بالويلات والنكبات . يوم لم يكن لها دين ولا خلق ولا عدالة بين الناس ، ومعنى هذا أن تضيع سدى كل تلك الجهود الهائلة التى يبذلها المرسلون والمصلحون والمجاهدون خلال الأجيال والقرون للارتفاع بهذه الإنسانية وتزكية هذه النفوس البشرية ، وكيف لا وهؤلاء هم طواغيت الأرض اليوم يحملون أهلها بالإكراه والإعنات على أن ينفقوا فى كل عام آلاف الملايين من الجنيهات للإعداد الشيطانى من الأسلحة ، والتخزين الجهنمى من العتاد ، ولو أن هذه الملايين أنفقت فى عدالة وإخلاص على الضعفاء والفقراء والمحتاجين لسعد الناس جميعاً وساد السلام فى العالم ، ولم يبق هناك من يموت بسبب الطغيان فى التخمة ، ولا من يموت بسبب الحرمان والجوع ! . . .

نعم إنه إنذار إلهى خفيف لا ندرى ما وراءه ففى هذه المرة قد سقطت قنبلة واحدة خطأ ولم تنفجر انفجاراً ذرياً — أو جهنمياً بتعبير أدق — فماذا يكون فى المرة القادمة يا ترى ؟ . . . « وما تدرى نفس ماذا تكسب غـداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . . ليس والله ببعيد إذا دامت الحال على ما هو عليه أن تسقط قنابل لا قنبلة واحدة ، وأن تنفجر انفجاراً كاملا ، وأن تقع الكارثة فوق رءوس الذين أرادوا أن يكونوا

فى هذه الدنيا جبابرة وطواغيت : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » ، « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباسى الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ». « وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا » .

لقد نقلت الأنباء أن سقوط هذه القنبلة الخاطئة التى انفجرت انفجاراً غير ذرى قد أصابت أسرة رقيقة الحال يشتغل رجلها عاملا فى السكة الحديدية ودمرت أبنية ، وأصابت كنيسة وطفلة صغيرة ، ونسفت أشجارا ضخمة ، ونشرت الذعر بين الآمنين ؛ وكل هذا رمز صغير ضئيل لما سيكون لو أن الله كتب على الإنسان شقاءها فأصيبت بتفجير قنبلة أو قنابل من هذا النوع الشيطانى الفظيع ، أو لو أن البشرية جن جنونها فاندفعت إلى بلوى الحروب الذرية وما أشبهها أوفاقها ، فيؤمئذ لن يبقى الدمار أو الخراب على شىء . . . سيأخذ فى طريقه الفقراء الوادعين ، والأطفال الناشئين ، والشيوخ العاجزين ، وسيكتسح المنازل والمعابد ، وسيأتى على الأخضر واليابس ، وسيكون ذلك دليلا رهيباً على أن مدنية الحديد والنار ، وحضارة الذئاب والكلاب ، وقوة الذين يغترون بالحياة ولا يعتزون بالله ، لا بقاء لها ولا غناء فيها ، وأن من طغى وبغى دارت عليه الدوائر ، « يا أيها الناس ، إنما بغيكم على أنفسكم » ، ولن تتخلف سنة العزيز الحكيم « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون .

ومن عجب أيها الناس أن هؤلاء الطغاة البغاة الذين يعملون لإيقاد حريق عالمى عام يعصف بالحياة والأحياء إذا تحدثوا عن الإسلام قالوا إنه دين حرب وإكراه ، وإن حروبه فيها عدوان وطغيان ، مع أن القرآن الكريم يحدد

مجال النضال بحدود الدفاع وحفظ الحياة فيقول : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . ويقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتـــدين » . . . وهؤلاء الطغاة اليوم حينما يحاربون ينشرون نيران الحرب ويبثون لهيبها فى الميادين وغير الميادين . وبين المقاتلين وغير المقاتلين ، والقرآن يحدثنا بأن الله لا يريد إشعال نيران الحروب بين الناس « والله يدعو إلى دار السلام » كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » . ويقول النبى «لا يعذب بالنار إلا رب النار » ، بل حدثنا الرسول أن نبياً من الأنبياء قرصته نملة فأمر بإحراق بيت النمل ، فلامه الله على ذلك قائلا : « أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح » ؟ ! . . فكيف بالذين يحرقون مدناً بأكلها وشعوباً بأسرها ؟ .

ولقد نهى الإسلام فى الحرب عن قتل النساء والصبيان والشيوخ والعجزة والمكفوفين ومن لا يشارك فى المعركة ، فأين هذا الهدى الإلهى الكريم من حروب اليوم ؟ . . إن حروب المدنية المعاصرة لا تنصب بلاياها ونيرانها إلا فوق الضعفاء والمساكين الذين لا يشتركون فى الحروب ولا يريدونها ، ولقد صار ضحايا الحروب من الآمنين والوادعين غير المحاربين أضعاف أضعاف القتلى من الجنود المحاربين ، فأين إذن رعاية حقوق الضعفاء وصيانة حياة الذين لا ذنب لهم فى العدوان ولا جريرة ، مع أن الرسول يقول : « الضعيف أمير الركب » ويقول : « إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » ، ولكننا صرنا فى عالم يتحاكم بشرعة الأسماك فى البحر ، فالكبير منها يبتلع الصغير بلا حساب ولا ارعواء .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

في معمعان الحياة الصاخبة اللاغبة التي تشغلنا بطعامها ووقودها . وسلاحها وعتادها ، وماديتها وأرضيتها وشهواتها وملذاتها ، يجب علينا أن نرفع وجوهنا إلى السماء بين الحين والحين ، لنتذكر أنه يوجد فوق الجبابرة جبار ، وأنه يعلو على الطواغيت قهار ، وأن لحظة من لحظات الغضب الإلهي كافية لقلب الأوضاع وخسف البقاع ، فلنعرف أمام هذا العلي الكبير أقدار نفوسنا ، ولنتطلب رضاه ورحمته ، ولنتذكر أنه أقوى الأقوياء وولي الأولياء ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجيب لكم .

تجارة باسم الدين

الحمد لله عز وجل ، يؤيد الحق وجماعته ، ويخذل الباطل وشيعته ، « ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » أشهد ألا إله إلا الله، يحكم بالعدل ويقضى بالحق : « إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله القائل « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبائه : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

فى شهر رمضان : شهر القرآن والإيمان ، شهر المراقبة والمحاسبة شهر إحياء الضمير والخشية من الله العلى الكبير ، فى هذا الشهر الجليل يأبى الشيطان اللئيم الزنيم إلا أن يدفع ببعض أتباعه إلى الخيانة والاحتيال ، والكذب والافتراء ، فيعمد هذا البعض إلى الاتصال تليفونياً بمن يتوسم فيهم الرغبة فى عمل الخير ، وينتحل اسم من يتحدث إليكم الآن ، ويطلب منهم إعانات أو تبرعات لجمعية خيرية يربطها باسم الإسلام ، وقد أشرت إلى ذلك البهتان الأثيم من قبل ، ولكنى بالأمس — والأمس فقط — سمعت من السيد نائب رئيس الوزراء لشئون الأوقاف أن هذا الاحتيال قد جنى على صهره أيضاً ، وعلى الرغم من إشارة الصحف إلى هذا الإجرام فإن الموضوع يستحق أن نعود إليه من زاوية موضوعية عامة بما لعله يكون عبرة وعظة وتذكرة لقوم يعقلون ، فإن هناك أناساً من هذا الطراز فى جمعيات شبه

(١) ألقيت فى ١٦ من رمضان سنة ١٣٨٥ هـ الموافق ٧ من يناير سنة ١٩٦٦ م

صورية يزعمون أنهم يقيمون مآدب لمئات من الفقراء والمساكين ، ولو تبينا الحقيقة لما وجدنا من هذه المئات إلا عشر ما قالوا ، ولقد يزعمون أنهم ينفقون الكثير من المال على هذه المآدب ، والحقيقة أن أغلب هذا المزعوم — أو المعلوم — قد وصل بطونهم وبطون أهليهم فملأها صاباً وعلقماً ، أو وصل جيوبهم فنفخها سحتاً وحراماً ، ومثل هذا يقال فيما يفترون ويزعمونه من أنهم كسوا مئات من العراة ، أو ما أشبه ذلك من أعمال متخيلة أو صوروا فيها الحبة قبة ، والنمال جمالا ، والرمال جبالا ، وهم بهذا يعيدون سيرة « ناظر الوقف » الذى كان يتفنن فى مخادعه المحاسبين والمراقبين والمراجعين ، لكى يواصل « الخطف واللهف والسف » ، ويبتلع ما يبتلع من أموال الوقف فيما يسميه « الشيء » ولزوم الشيء و « الشيء لزوم الشي » : « إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » .

وهؤلاء الأفاقون يخادعون الناس فى مجال هو أحق المجالات بالتنزه عن الافتراء ، وهو مجال عمل الخير وتقديم الإحسان ، وبذلك يحملون الخيرين على أن يكرهو الخير ، والمحسنين على أن يكرهوا الإحسان ، والمستعدين للمعاونة على أن يكرهو المعاونة ، وهؤلاء الأفاكون يسيئون إلى أنفسهم بما تبتلع من سحت ، وهم يسيئون إلى هؤلاء الخيرين بتكريههم فى عمل الخير إلى الفقراء أنفسهم ، لأنهم يجمعون باسمهم مالا ينال الفقراء ، ويحسب أهل البر والخير أن هؤلاء الفقراء قد وصلهم المال ، والواقع أن المحترفين للاحتيال باسم الدين . والاتجار باسم الإحسان ، هم الذين زادوا سحتا على سحتهم ، وجرماً على جرمهم ، والله من ورائهم محيط ، وكأنهم لم يعلموا أن هذا العمل ينطوى على عدة كبائر . فهو أولا كذب ، والسيدة عائشة تقول : « ما كان من خلق أبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب » . ويقول سيد الخلق محمد : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق ،

وأنت له به كاذب » ويقول : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به » .

ولقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً ؟ . قال : نعم . قيل له : أيكون المؤمن بخيلا ؟ . قال : نعم . قيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ . قال : لا . وهو ثانياً غش ، وإمام الأنبياء يقول : « من غش أمتى فليس منى » وفى رواية : « من غشنا فليس منا » . وهو ثالثاً عمل من أعمال المنافقين المخادعين ، فسيد المرسلين يقول : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أئتمن خان » ، وهو رابعاً إضرار بالمؤمنين يستدعى اللعنة من رب العالمين لأن نبى الرحمة يقول : « ملعون من ضار مؤمناً أو مكر به » .

إن الدولة قد بذلت ما بذلت من جهود ، ووضعت ما وضعت من حدود وقيود ، لضبط أعمال التبرع والإحسان ، حتى تقطع الطريق على المحتالين والأفاكين ، ولكن أتباع الشيطان لهم حيل تذهل الإنسان ، ومهما كانت صرامة القوانين دون ضمائر حية وقلوب مؤمنة ، فلن يزول الإجرام والاحتيال فى هذا المجال ؛ وليس من المستطاع أن يكون هناك شرطى أو رقيب بجانب كل أثيم يتخفى أو يتستر أو يتفنن فى وسائل البلوغ إلى مآربه الخسيسة فى ميدان الاحتيال والافتراء ولهذا يلزم كل عاقل أن يكون فى هذا المقام واعياً بصيراً ، فيحذر ويحتاط ، ويبحث ويتبين ، حتى لا يقع فريسة هينة لأمثال هؤلاء ، وليس المهم هو أن يحسن الإنسان كيفما اتفق ، ولكن الأهم من ذلك هو أن يضع الإنسان إحسانه المادى حيث يجب أن يوضع ، وأن يحرص هذا فى الإحسان على أن يحقق الثمرة المرجوة منه ، وليتبرع القادر بما استطاع ، ولكن يجب عليه أن يعرف أين يتبرع ، ولمن يتبرع ، وكيف يتبرع ، وأمامه مجالات البر المأمونة واسعة ، بعد أن يدرس

ويخبر ويأمن جانب الاحتيال والإضلال ، فهناك جيرانه ، وهو أعلم بهم ، وأبصر بأحوالهم وأخبارهم ، وهناك أقاربه ، وفيهم محتاجون ، والأقربون أولى بالمعروف ، وهناك بعد هذا جهات بر واضحة محددة المعالم ، على الإنسان أن يعرفها ويدرسها ويطمئن إليها ، ويطلع على جهودها ، حتى يكون واثقاً من أن المال الذى تطوع به قد وضع حيث ينبغى له أن يوضع ، وصلوات الله وسلامه على رسوله الذى قال : « إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملا أن يتقنه » .

ومما ينبغى لنا أن نتذكره ولا ننساه أن هناك أفراداً وجماعات ينسبون أنفسهم إلى الدين ، ويزعمون أنهم يخدمونه أو يضحون من أجله ، وهم فى الواقع يتخذون من هذا الانتساب وسيلة للاتجار أو حيلة للاستغلال ، ومن هؤلاء من إذا سعيت إليهم لتعلمهم الدين حاولوا أن يعلموك قلة الدين ، ومن هؤلاء من يتظاهر فى توقح وتبجح بغير ما يطول عليه صدره وقلبه ، وبمثل هؤلاء طال بلاء الإسلام وشقاء المسلمين ، وهؤلاء الآثمون قد جنوا أكبر الجنايات على المؤمنين المخلصين الذين يريدون أن يخدموا فى مجال الإصلاح الدينى بنزاهة وإخلاص ، وبذلك طغى ظلام المستغلين على ضوء المخلصين ، وشتان ما بين الفريقين : « قل لا يستوى الخبيث والطيب . ولو أعجبك كثرة الخبيث » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

اذكروا أن رائدكم الأعظم محمداً صلى الله عليه وسلم قد قال : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

الخوض فى الباطل

الحمد لله عز وجل ، هو الحق ، وله دعوة الحق ، وهو الذى يحق الحق بكلماته وآياته ، ويقطع دبر المجرمين ، أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، الذى كان شعاره « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

من عيوبنا الواضحة الفاضحة كثرة الخوض فى الباطل دون حياء أو أرعواء ، والخوض فيه معنى الخلط والجهل والتقحم فى الغمرات والمزلات والخوض فى الكلام هو الحديث على غير هدى وبلا ضابط من حق أو صدق فهذا شخص يتطاول على الأعراض والطعن فى الحرمات ، كأنه كلب يلعق كل إناء . وهذا ثان يمزح فيسرف فى المزاح السفيه الوقح الذى يتناول عورات الناس . ويجرح كرامات الآباء والأمهات ، وهذا ثالث يفترى على غيره وينسب إليه من الأباطيل والترهات ما الله به عليم ، وهذا رابع يزعم لنفسه العلم ببواطن الأمور وحقائق الأشياء . فهو يحدثك عن الماضى كأنه مطلع على كل الخبايا ، ويحدثك عن المستقبل كأنه حديث من رأى ومن سمع ، وهذا خامس يتهجم — وهو أمى جاهل أو عتل غافل — على أدق المسائل الدينية أو الشئون العلمية . فيهرف فيها بما لا يعرف ، ويتظاهر بأنه بكل شىء عليم ، وهكذا . . .

---

(١) ألقيت فى ٢ من جمادى الأول سنة ١٣٩٤ هـ والموافق ٢٤ من مايو سنة ١٩٧٤ م

ولعل أشد المعاول هدماً وحطماً للأفراد والجماعات والمجتمعات هو الخوض فى الباطل حيث لا تبقى كرامة للعرض ، والالتزام بالغرض ، ولا حرمة للعلم ، ولا صيانة للوقت ، ويصير لسان الخائض كالمقراض ، يقطع هنا ، ويجرح هناك . ويشوه هنالك، وقد يكون أشد الناس احتياطاً إلى التأديب والتهذيب ، والقائل الحكيم يردد قوله : « رُبَّ قارض للأعراض ، وعرضه بين شقى المقراض » وليته تذكر قول رسول الله عليه الصلاة والسلام « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » وقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يرى بها بأساً ، فيهوى بها فى جهنم سبعين خريفاً » .

ولقد تحدث القرآن المجيد عن هذه الآفة الوبيلة ، وأشعرنا أنها كالوباء المنتشر بين سفلة الناس فى مختلف العصور ، وأن مآلها الخسران والوبال ، فقال : « كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولاداً ، فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون » . ولقد يعتذر هؤلاء المجرمون بأنهم فى خوضهم الباطل وحديثهم الأثيم ، لا يريدون الجد وإنما هم يهزلون ويلعبون : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » . وقد روى فى التفسير أن هذه الآية نزلت فى غزوة تبوك حيث قال بعض المنافقين المجرمين عن النبى صلوات الله وسلامه عليه : أيظن هذا أنه يفتح قصور الروم وحصونها ، هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : على بهؤلاء الثغر ، فقال لهم : قلتم كذا وكذا . فحلفوا كاذبين وقالوا مخادعين : ما كنا إلا نخوض ونلعب . فجاءهم التقريع والتبكيت الوجيع : قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون » ؟ .

وهذا هو القرآن ينقل إلينا حديث المجرمين من أصحاب النار ،واعترافهم باستحقاقهم عذاب الجحيم ، فإذا هم يقررون أن من أسباب ذلك الخوض فى الباطل وعدم الإيمان بالبعث : « وكنا نخوض مع الخائفين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين ، فما تنفعهم شفاعة الشافعين » ، ولذلك حذر الله جل جلاله عباده المؤمنين أن يسلكوا مسالك هؤلاء أو يختلطوا بهم ، أو يرضوا عنهم ، فقال : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » أى أتركهم يخوضوا فى باطلهم ، ويلعبوا فى دنياهم ، واشتغل أنت بما أمرت به من عبادة وطاعة وعمل صالح مثمر . فإن لهم يوماً عصيباً يلقونه ويصيبهم فيه العقاب والعقاب ، وعاد القرآن إلى حث المؤمن على ترك هؤلاء مع الإقبال على الله سبحانه ، فإنه ولى الهداية والتوفيق ، فقال القرآن الكريم « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » أى دعهم فى ضلالهم وباطلهم فهم يخوضون ويلعبون ، حتى يأتيهم اليقين من الله جل جلاله وسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين .

ويأمر القرآن عباد الله المؤمنين بأن يتجنبوا هؤلاء الخائضين فى الباطل ، فلا يصادقوهم ولا يشاركوهم فى باطلهم ، ولا يجلسوا فى مجالسهم ، حتى لا يكونوا مثلهم ، وحتى لا يصيبهم من العذاب ما يصيبهم ، فيقول : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بهم ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » . وهذا يدل على أن الإنسان إذا حضر مجلس الباطل وسمع الإثم من القول ، وبقى مع أهله . كان شريكاً لهم بدليل قوله تعالى : « إنكم إذن مثلهم . ولو فرضنا ونسى الإنسان وجلس مجلساً لهؤلاء ، وبدأ لغوهم وباطلهم فعليه أن يترك هذا المجلس ، حتى لا يتحمل تبعية ، أو يشارك أهله فى الإثم : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا

فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » .

الخوض فى الباطل ، التطاول على الحرمات ، الجرؤة فى الافتراء والادعاء المزاح المؤدى إلى الإثارة والإنداء ، التهجم على القول بلا علم أو فهم ، إضاعة الأوقات فيما لا ينفع ولا يفيد ، إطلاق اللسان فى القول بسفه وحماقة . . . هذه هى المعاول التى تهدم الأفراد والجماعات والمجتمعات ، فليت كل إنسان منا يراجع نفسه ، ويحاسب ذاته ، ويذكر قول ربه عن عبادة الأخيار : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » وقول رسوله الكريم : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إذا كان الساكت عن النطق بكلمة الحق شيطاناً أخرس ، كما روت السنة المطهرة ، فإن الخائض فى الباطل شيطان ناطق ، ولعنة الله على كل الشياطين ، أينما كانوا وحيثما حلوا ، بلا استثناء . وإذا تقاصر الإنسان عن الجهر فلا أقل من الاجتناب لكلمة الباطل ، وإذا لم يستطع الإنسان أن يكون مصلحاً فلا أقل من أن يصون نفسه عن أن يكون مفسداً هداماً . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين .

بين العقيدة والهوى

الحمد لله عز وجل ، هو خير الشاكرين ، وأفضل الزاجرين ، يهذب قبل أن يؤدب ، ويحذر قبل أن يعذب « إن فى ذلك لآية لمن خاف عـــذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » . نشهد أن لا إله إلا أنت ، سعد من اعتز بك وانتصر لك ، وخسر من انقطع منك أو ابتعد عنك : « فلا تخافوهم وخافونى إن كنتم مؤمنين. . . ونشهد أن سيدنا محمداً عبدك ورسولك ، ما غضب إلا من أجلك ، ولا تعلق إلا بجاهك ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله . وحزبه ورجاله الذين « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إن الحياة عقيدة وجهاد ؛ يتبصر المرء ما حوله ، فيدرك لنفسه كياناً ، ولوجوده غاية ، ولحياته رسالة ، فيؤمن بها ، ويتعرف إلى دقائقها ، ويتلمس أسباب الكفاح من أجلها ، ومنافذ الوصول إلى تحقيقها ؛ ولا يفلح مسعاه ولا ينجح فى مبتغاه ، إلا إذا أقبل على دعوته ، يخدمها ويؤيدها ، واتجه لعقيدته يعتز بها ويمجدها ، مستهيناً فى سبيل ذلك بالمال يأتى ويزول ، وبالجاه يقبل ثم يحول ، وبالهوى يوسوس للنفس ليصرفها عن طهرها واستقامتها . . . والداء الوبيل فى ميادين الدعوات والمبادئ أن كثيراً من الناس يخلطون بين الفكرة والأشخاص ، وبين العقائد والأهواء ، فيجاهدون لذواتهم وهم يتظاهرون بأنهم يحترقون فى سبيل فكرتهم ، ويغضبون لحقوقهم أضعاف

(١) فى ٢٥ من أبريل سـنة ١٩٥٢ م

ما يغضبون لحقوق ربهم ودعوتهم ؛ وقد يرى الواحد نهم الحرمات تنتهك ، والواجبات تضيع ، والمقدسات تهان ، فلا تثور ثائرته ، ولا تشتعل حميته ، وربما تجاهل أو داور أو تصنع مسايرة الظروف أو تأول فى الملاينة ، ولو وقع بعض هذا الاعتداء على شخصه ، أو على حقه الذاتى لثار وقاتل واستمات ، وظهر منه القوى والقدر ؛ وقاتل الله حب الذات ، كم سخر الملايين من الرجال ومن الأموال لخدمة الخسيس من المطالب والدنىء من المآرب : « لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيراً » .

والإسلام المجيد الخالد يعلم أتباعه أن يطئوا شهوات أنفسهم بخطوات الإقبال على ربهم ، واستحضار جلاله فى كل أمر ، والخوف من حسابه فى كل موقف ، حتى يفوزوا برحمته ورضوانه « ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد » ، « إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .

وهذا رسول البشرية وسيد الإنسانية محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ما رأيناه يوماً يسعى لغاية فى نفسه ، أو يغضب مرة لشخصه ، بل همه أولا وأخيراً دعوته ، يبشر بها ، ويتناسى كل تعب فى سبيلها ؛ ولقد وصل الكفار إليه مثلا فى غزوة أحد ، وقذفوه بالحجارة ، حتى وقع على جانبه ، وكسرت رباعيته ، وجرحت شفته ، وشج وجهه ، ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنته ، وجعل الدم يسيل من جسمه ، فعجب من ذلك ، وغلبته نزعة التقرير لحقيقة مؤلمة فقال : « كيف يفلح قوم خضوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم » ؟ . . . وكأنما استدرك فعاد يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . . ونزل القرآن الكريم مزكياً لاستدراكه فقال : « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

وحينما يشتد إيذاء قومه له ، أو إعراضهم عنه ، أو تهكمهم عليه ، وهو يدعوهم إلى طريق الهدى والرشاد ، كان يحزن على ضلالهم ، ويتمنى بأى ثمن اهتداءهم ، حتى ليصوور القرآن المجيد ذلك بقوله : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقوله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . ويحاول بعض صحابته أن يغريه بلعنهم أو سبهم جزاء تطاولهم على شخصه ، فيأبى ويقول : أنا رحمة مهداة » أو يقول : « إنى لم أبعث لعاناً ، ولكننى بعثت داعياً ورحمة » . ولما تكرر تكذيب المشركين له ، وكان هذا إهانة لشخصه ، جاءه جبريل يخبره بأنه يستطيع أن يطبق عليهم جبال مكة إنصافاً للرسول منهم ، فلم يستجب الرسول لذلك ، بل قال : « أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » . . وهكذا يظل صاحب الدعوة فانياً فى دعوته ، لا يرى لنفسه وجوداً إلا بها ، ولا لشخصه كياناً إلا فيها ؛ أما أهواء البشر وشهوات التراب فهى هنـــاك بعيدة فى غور سحيق . . .

على أن هذا اللين الرحيم ينقلب فى صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام إعصاراً عاصفاً إذا مست الدعوة بسوء ، فهو يصادق بها ويعادى بها ، ولا يقيم بجوارها اعتباراً لصلة النسب أو المودة أو المنفعة وإذا كان لم يغضب لشخصه المهان أو حقه المضيع فهو يغضب لأقل تضييع لجانب من جوانب شريعته ؛ لقد ظل الكفار يحاربون محمداً الرحيم الوديع فى غزوة الخندق حتى شغلوه عن صلاة العصر ، فغضب الرسول للفريضة الضائعة والشعيرة المعطلة ، وقال عنهم : « شغلونا عن صلاة العصر ، ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً » وسارع فأمر بلالا فأذن وأقام وقضيت الصلاة الفائتة . . . وحينما جاءه حبيبه وصفيه أسامة بن زيد يشفع فى المخزومية ، نسى المصطفى الأمين صاحب الدعوة حب أسامة ومنزلته الشخصية عنده ، ولم يتمثل إلا حق ربه

و دينه ، فثار فى وجه أسامة قائلا : « أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ! ! . .

ومن هنا قالت عائشة : ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه وقالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل » . ومن هنا قال فيه القرآن المجيد : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

اذكروا ربكم قبل أن تذكروا مأربكم ، وانصروا عقيدتكم قبل أن تنصروا شهواتكم ، فما من دعوة تقوم إلا برجال يخلصون لها ، ويضحون فى سبيلها بالرغبات والأهواء « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

أين نحن من العظة

لله الحمد ، يحق الحق بكلماته ، ويمحق الباطل بآياته ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ؛ نشهد أن لا إله إلا أنت ، قولك الفصل وحكمك العدل ، وإليك تصير الأمور ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، لم يخش فيك لومة لائم ، ولم يرهب فى سبيل الدعوة إليك طغيان غاشم ، وكيف وأنت القائل له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون » . فصلواتك اللهم وسلامك عليه وعلى آله وأجناده ، والناهلين من رحيق أمداده ، أولئك لهم عند ربهم ما تشتهى أنفسهم وما يدعون ، نزلا من غفور رحيم .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

كانت عظة الواعظ — يوم ساد الإسلام وصح المسلمون — تطهيراً للنفوس وتعميراً للصدور ، وكانت صرخة مجلجلة مزلزلة تصادف الآذان المفتوحة والقلوب المشروحة ؛ وكان المسلم يأتى المسجد مثلا ليسمع العظة وقد أعد نفسه لحساب عسير عما سلف منه ، ولتلقى أوامر دينية جديدة تلقى إليه ، فهو يسمع إذ يسمع بجسد راجف وفؤاد واجف خشية العقاب أو العتاب ، وبعزم جديد وحزم جليد رغبة فى مواصلة الاستجابة والتنفيذ ، ومن هنا كان قليل الكلام يجدى . ويسير العظة يفيد ، فكثرت الأعمال يومئذ وقلت الأقوال . . .

---

(١) فى ١٩٥١/١/١٢ م

أما اليوم فقد صارت العظات لوناً من التسلية ونوعاً من قطع الفراغ ، يتباهى بها الناطق ويتنادر السامع ، فيعجب بفصاحة هذا وينقد أسلوب ذاك ، ويرضى عن تلك العظة لأنها وافقت هواه ، ويغضب من تلك لأنها خالفت مشتهاه ، وهكذا بعد عن الجادة القائل والسامع ، إلا قليلا ممن رحم الله ؛ وما أشبه الأمر هنا بما صارت إليه تلاوة القرآن فى مجالسنا ومحافلنا من ضلال وانحراف ، فلقد كان القرآن يتلى على أهليه بالأمس فكأنما على رؤوسهم الطير من الهيبة والإجلال ، والاستعراض فى التدبر والتفكير ، تراهم وقد خشعت قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ؛ ولذلك أثمر فيهم القرآن المجيد ثمرته ، وطبقوا فيما بينهم رسالته ؛ أما اليوم فانظروا كيف يتلى القرآن ، وكيف يسمع ، إنه يتلى بمط وتطريب ، وتلحين وترجيع ، وغناء كغناء الرهبان أو النائحات ، وخلط منكر بين القراءات واللهجات ، وتقطيع لحروف الكلمات حتى تخفى معانى الآيات ويزول جلال الكلمات ؛ وإنه يسمع لا بخشوع ووقار ليزداد السامع إيماناً ، بل بصراخ كصراخ السكارى ، وصيحات استحسان للتغنى واستعادة لنغمة التلاوة كصيحات المشعوذين أو المخبولين ، وضجيج بالثناء على القارئ لا على ما يقرأ ، وبتفضيله على سواه ، كضجيج السامر يلهو فيه اللاهى أو تعزف المعازف ؛ وليت هذا كله يصحبه اتعاظ أو إدراك للمعنى أو استشعار لجلال المقام ، إذن لخف المصاب ؛ ولكن الجهل بالمتلو سائد الإعجاب بصوت القارئ زائد ، والقارئ أشبه بالتاجر ، يحاول بما خفى أو بدا من الوسائل أن يزداد من حوله الأنصار والمعجبون ؛ حتى إنك لتفتح المذياع حين إحدى الحفلات التى يتلى فيها القرآن فيخيل إليك من التغنى والتصايح والسخف فى التعليق على طريقة القارئ وفتنة صوته

ما يشعرك بأنك تستمع إلى ضجة سوق لا إلى كلام الله رب العالمين يتلى فى مسجد ؛ ومن هنا يذاع القرآن فى الصباح وفى المساء ، وتنقله جميع المحطات حتى ما كان منها مسيحياً أو يهودياً ، ويتبارى فى تلاوته عشرات المتجرين بإذاعته ، ثم لا تجد قلباً يخشع ، أو نفساً تخضع ، أو استجابة لهدى القرآن تكون ، وبكيف يستقيم الظل والعود أعوج أيها الناس ؟ ! . .

وكذلك جنت غفلتنا وإعراضنا عن ربنا وديننا على صلاة الجمعة وخطبتها ، فصارت كحفلة أسبوعية تقليدية ، يحضرها البعض بحسب العادة ، والبعض لحب الاستطلاع والمقارنة بين الخطباء ، والحكم لأحدهم بالسبق على الآخر ، والبعض للتجسس أو التلصص أو تسقط الزلات أو عد الهفوات ، أو غير ذلك من خسيس النوايا وتوافه الأغراض التى لا تليق بصالحى الرجال ، فأين ما كان للجمعة فى تاريخ الإسلام من عظمة وجلال ؟ أين ما كانت تعود به على المسلمين من نقد العيوب وتطهير القلوب ومحو الذنوب والاستعداد للغيوب ، وتأليف الأرواح بعد تدانى الأشباح ، وتجديد العزائم والتواصى بالمكارم ، وأين ما كان فى الخطب من صيحات حق وكلمات صدق ودعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ؟ وأين الذين كانوا يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ لكأنهم والله قد رحلوا إلى غير مآب .

والعجيب الغريب المبكى فى أمر أكثر الناس اليوم أنهم لا يعجبهم العجب ولا يرضون عن الواعظ مهما بذل وأخلص . . . وتراهم يسلقونه على الدوام بألسنة حداد ؛ وقد يلقونه مرائين أو مخادعين بكلمات المديح والإطراء ، فإذا انصرفوا عنه أو انصرف عنهم صرف الشيطان ألسنتهم القذرة إلى الفحش والافتراء ... إن غضب الواعظ للحرمات المهتوكة والحقوق المضيعة قالوا : متطرف لا يحسن التصرف ، وهو يستحق العقاب والجزاء ، فإن لان فى النصيحة ورق فى القول وتلطف فى إرشاد الآثمين قالوا : جبان به هوان

يخاف أهل البطش والسلطان . . . وإن دعاهم الواعظ أن يأخذوا نصيبهم من الحياة ويتمتعوا بطيباتها ، ولا يحرموا أنفسهم من مناعمها ما دامت لم تحرم قالوا : متساهل يريد أن يصرف الناس عن العبادة . فإن لامهم على استهتارهم وتبرج نسائهم وفسق شبانهم قالوا : متأخر جامد لا يجارى ركب الحيـــاة العجلان ! . .

فماذا تريدون من الواعظ إذن يا هؤلاء ؟ . . تريدون أن يكون عصا فى أيديكم تلعبون بها كما تشاءون ، فإن نفرت منكم أو تمردت عليكم كسرتموها وحطمتموها . . تريدون أن يكون مغنياً يمشى حسب هواكم ، فيغنى لكم ما تشاؤون من الألحان ، فإن أعجبكم طربتم واستزدتموه ، وإن لم يعجبكم قلتم له : إيت بلحن غير هذا أو بدله ! . . تريدونه بوقاً يردد لكم كل أسبوع ما عرفنا وعرفتم من نصوص دينية أصبحت من طول تكرارها مع قطعها عن الحياة كأنها آثار ! . . وكيف يؤدى الواعظ إذن واجبه وأنتم تريدون أن تخضعوه لهواكم ورغباتكم ، مع أن الواجب يقضى بأن تخضعوا أنتم لصوته الصريح الذى لا يهاب ، لأنه لا يأتى بكلامه من بيته ولا من بيت أبيه ، ولكنهم يذكركم بكلمة السماء ، وهو يردد : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » . . وما الواعظ إلا رجل يريد أن يطبق شرعة الله على الحياة فيجب أن تكونوا معه ، لا أن تكونوا عليه ؛ وما هو إلا كالطبيب قد يعطيك الدواء وهو مر ، وقد يجرى لك « العملية » وفيها تشريح وتقطيع ، وقد يمنعك مما تحب من مطعوم أو مأكول ، فإن أبيت نصيحته وطاعته خسرت ، وإن عاونته وسرت معه كان الفوز للجميع .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ألا إن قليل الكلام يغنى عن كثيره ، والحلال بين والحرام بين ، وما كثر كلام أمة وقل عملها إلا ذلت وضاعت ، وقد خلت فينا المثلات والمآسى لطول ما غرقنا فى اللذة والكسل والنفاق ، ولم يبق إلا أن نجرب دواء السماء من جديد ، لا على سبيل اللهو والتسلية بل على سبيل الجد والعزم والإخلاص ، والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين .

فماذا يصنع الواعظ

لك الحمد يا من جل ثناؤك ، وتباركت أسماؤك ، وتضاعفت آلاؤك ، أنت أعلم بمن ضل عن سبيلك ، وأنت أعلم بالمهتدين ، نشهد أن لا إله إلا أنت ، جعلت العزة فى طاعتك ، وقرنت الذلة بمعصيتك « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » . ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، سيد الناطقين بكلمة الحق ، وإمام الصاعدين بقوله الصدق ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى الصفوة المختارة من آله وأحبابه ، والخلص الأكرمين من جنده وأصحابه . « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

ذلت والله أمة تكتفى من حياتها ، بأن تعيش على تاريخها وذكرياتها ، فما كان التاريخ يوماً من الأيام إلا محرضاً على حسن الاقتداء ، وشعاعاً يدعو إلى الاهتداء ، وإن نفس المسلم لتتقطع وتتوزع ، حين يقارن بين الغابر والحاضر ، فيرى الفرق واسعاً والبون شائعاً ، ويدرك أن أمر الأمة كان بالأمس جميعاً منيعاً ، فصار اليوم شتيتاً ذليلا ، بسبب الجهل الطافح والهوى الجامح ، والجدل العقيم والتوكل الذميم ، وإذا أراد الله بقوم نكالا ووبالا ، لفت أبصارهم عن التطبيق والعمل ، وشغل أفكارهم بالشقاق والجدل ! . .

هذه عظة المسجد يوم الجمعة مثلا ، كانت عند السلف — كما أرادها الإسلام على الدوام — تذكيرا للنفوس الغافلة ، وتطهيراً للقلوب المريضة ،

---

(١) فى ٢٩ من ذى الحجة سنة ١٣٦٨ هـ والموافق ٢١ من اكتوبر سنة ١٩٤٩ م

وتعميراً للصدور الخاوية ، وقطعة من صميم الواقع وحاضر الحوادث ؛ وكانت خطبة الجمعة عند السلف صرخة مدوية تتجدد كل أسبوع ، فتصادف الآذان المفتوحة والصدور المشروحة ؛ وكان المسلم يسعى إلى المسجد يوم الجمعة خائفاً يترقب ، وفؤاده يرجف قلقاً وتطلعاً إلى ما سيقوله الواعظ فوق المنبر ، فإن بشر الخطيب بخير فرح المسلم ، وتفتح عزمه لمضاعفة المجهود وتخطى الحدود ، وإن حذر من شر ، وندد بباطل ، راجع المسلم نفسه ، وأصلح عوجه ، وآثر فضيلة الرجوع إلى صراط الحق بعد الضلال . . . أما اليوم — فوأسفاه — لقد صارت خطبة الجمعة عند الكثيرين — إلا من عصم الله — نوعاً من المتعة الفكرية والتسلية الأدبية ، يكتفى القوم بالتعليق عليها والتندد بها ، فيعجبون بفصاحة هذا الخطيب ، ويعيبون أسلوب تلك الخطبة ، ويسرون من إيجاز هذه ، ويغضبون من إسهاب تلك ، ولا شيء وراء هذا من استجابة أو إنابة ، حتى لقد أصبحت صلاة الجمعة وخطبتها كلقاء أسبوعى تقليدى معتاد ، يحضره البعض بحسب العادة ، والبعض لحب الاستطلاع ، والبعض رغبة فى تسقط الزلات واختلاق الهفوات ، والبعض للمقارنة بين الخطباء المختلفين ، والحكم لأحدهم بالسبق على الآخرين ؛ أو غير ذلك من توافه الأغراض التى لا تليق برجال يهتف بهم قرآنهم قائلا : « اقتربت الساعة وانشق القمر » . وقائلا : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، وقائلا : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

والأمر من ذلك والأدهى أن بين المسلمين اليوم طائفة كبيرة من الناس لا ندرى كيف ينطبق عليها وصف الإسلام ، وهم أناس لا يرضون عن شيء

ثم لا يقومون بشيء ، قد طالت ألسنتهم ووقحت عبارتهم ، وكثرت طعناتهم فى غيرهم ، ثم قصرت أيديهم وتبلدت عزائمهم ، وهؤلاء يريدون أن يتخذوا ممن يرشدهم ويعظهم عصا فى أيديهم يلعبون بها كما يشاءون ، فإن نفرت أو تابت عليهم كسروها وحطموها ؛ أو كأنهم يريدون أن يكون الواعظ معهم مغنياً يمشى حسب هواهم وأمزجتهم ، فيغنى لهم ما يشاءون من الأغانى ، فإن أعجبهم اللحن طربوا واستزادوا ، وإن لم يعجبهم قاطعوه وقالوا له : إيت بلحن غير هذا أو بدله . . . وما كان للواعظ أن يغير أو يبدل حسب الأمزجة والأهواء والرغبات ، وإلا خان الأمانة ونقض الميثاق ، وإنما هو رجل كتب الله له شرف التبليغ عنه ، وعن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فهو يصدع بما يلهمه الله إياه ، وما يلوح له من القرآن والسنة مناسباً للوقائع والأحداث ؛ دون اعتبار لرضا المخلوق أو غضبه ، فحسبه أن ينال رضا الخالق العظيم . وقد قال الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم : من التمس رضا الناس بغضب الله وكله الله إلى الناس ، ومن التمس رضا الله بغضب الناس أغناه الله عن الناس ! . . ولكن هؤلاء قوم لا يفقهون ! . .

تراهم إن غضب الواعظ للحرمات المضيعة والمنكرات الشائعة ، والكرامات المداسة والحريات المصادرة ، قالوا متطرف لا يحسن التصرف ، ومتجارىء يستحق أن يلقى الجزاء ! . . وإن لان الواعظ فى القول ، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والتمس إلى أفئدة الأقوياء القادرين بابا يخاطبهم منه فى رزانة ووقار ، قالوا : جبان ذو هوان يخاف أهل الجبروت والسلطان ! . . وإن دعاهم الواعظ إلى أن يأخذوا نصيبهم من الحياة ، ويتمتعوا بطيباتها التى التى أحلها الله ، ولا يحرموا على أنفسهم شيئاً من مناعمها ما لم يرد دليل على تحريمه قالوا : ياله من متساهل يريد أن يصرف الناس عن الزهد والعبادة ! . . فإن لامهم بعد ذلك على ترفهم الزائد وجشعهم المريع ، واستهتارهم بقواعد

الأخلاق والآداب ، وخروجهم المتبجح على كريم العادات والتقاليد ، قالوا : ياله من متأخر جامد لا يساير ركب الحياة العجلان ، بل يريد أن يرجع بنا القهقرى إلى قرون الظلمات الأولى ! . . وهكذا ! . .

فماذا يفعل الواعظ مع هؤلاء ، صانكم الله جميعاً أن تكونوا من هؤلاء؟ !. وما الذى يستفيده الإسلام أو المسلمون من أمثال أولئك المعوقين يكتفون بالنقد والتجريح ، وإبداء الرغبات والكيوف ، ثم تقرع أسماعهم العظات القوية الجهيرة فلا تحرك فيهم ساكناً ، ولا تغير منهم خلقاً ، ولا تصلح لهم حالا ، مع أن الواعظ فى وضعه الصحيح طبيب بيده مشرط وآلات جراحة وأدوات تضميد وزجاجات دواء ، وقد يعطيك الطبيب الدواء هو مر علقم ، ولكنه الجالب للعافية والشفاء ، وقد يجرى فى جسمك جراحة فيها تشريح وتقطيع ، وما يريد بذلك الضر ، ولكنه يريد الإصلاح ، وقد يمنعك مما تحب من مطعوم أو مشروب ، فإن أبيت وأعرضت ، لأن ذلك يخالف هواك ومشتهاك ومزاجك ، خسرت وندمت ، وإن جاهدت وغالبت وأطعت ، نجحت وأفلحت ، وصدق رسول الإسلام عليه السلام حين قال : حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ! . .

ليس الواعظ بوقاً يردد فى كل مناسبة ما عرفناه من نصوص وعظات ، أصبحت من إبعادها عن شئون الحياة العامة والخاصة كقديم الآثار فى عيون الأغرار ؛ وإنما هو رجل أهم عنصر فى وظيفته أن يعلو صوته بحكم الله فيما جل وقل من أمور الفرد والجماعة ، ولا شك أن هذا الحكم سيكون مخالفاً لهوى النفس ، لأنها أمارة بالسوء ، والله لا يأمر بالسوء أو الفحشاء ، فمن واجبكم إذن أن تخضعوا لهذا الحكم وتطيعوه ، لأنه ليس حكماً من قائله بينكم ، ولكنه حكم من منزله على نبيكم صلوات الله عليه من فوق سبع

سموات ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ومن واجبكم أن تنسوا أهوءكم وشهوة الجدال والاقتراح فيكم ، وتسارعوا إلى وضع أيديكم فى أيدى الذين يوجهونكم إلى ربكم ، ويريدون تحطيم الأغلال الضالة الباغية عنكم ، وحسب الذين يذكرون بكلمة الله فى الأرض ما لاقوا ويلاقون من محنة وابتلاء ؛ فلنستمع القوه ، ولنتبع أحسنه ، كما أمرنا الرحمن ، فكن من الفائزين ؛ واتقوا الله الذين أنتم مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال عليه الصلاة والسلام : لن يشبع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة .

وقال عليه الصلاة والسلام : الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها .

النسـيان

الحمد لله عز وجل ، « يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، « لا يعرب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان رحمة الله للعالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى ذريته وآله ، وصحبه ورجاله ، والمقتدين بأعماله وأقواله : « ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

(فى صلاة الجمعة الماضية نسيت آية فى فاتحة الكتاب ، ولم أشعر بذلك إلا بعد الانتهاء من الصلاة بفترة ، نبهنى إليه أحد الفضلاء ، ومع أن الصلاة لم تبطل لعدم التعمد من جهة ، وعدم الانتباه إلى ذلك فى أثناء الصلاة من جهة ثانية ، فقد أخذت أفكر فى النسيان كالطبيعة للانسان ، حتى قيـــل إن الإنسان لم يسم إنساناً إلا لأنه ينسى ، والنسيان هو ترك الإنسان ضبط ما أودع فى ذاكرته ، إما لضعفها ، وإما لكثرة الشواغل ، وإما للغفلة ، وإما عن إهمال أو تقصير ، فإن كان النسيان عن قصد أو تعمد ، فذلك قريب من مواطن عفو الله ومغفرته ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . وقد علم الله تعالى أتباعه الأخيار — كما حدثنا القرآن الكريم — أن يسألوه الصفح والعفو عن النسيان والخطأ ، فقال على لسانهم : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا

---

(١) فى ١٩ من شـوال سـنة ١٣٨٢ هـ المـوافق ١٥ من مـارس سـنة ١٩٦٣ م

ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .
وأما إذا كان النسيان عن قصد وتعمد وإهمال فإن الله تعالى يحاسب عبده عليه حتى لا يفرط أو يقصر ، وما ربك بظلام للعبيد .

ولو رجعنا إلى حديث القرآن الكريم عن النسيان لوجدنا فيه أكثر من عظة وعبرة ، فالنسيان كأنه حظ مقسوم للبشر ، لا يستعصى عليه كبير أو جليل ، فآدم أبو البشر وأول الأنبياء قد ناله نصيبه من النسيان على وجهه المعلوم ، فيقول القرآن : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » . وموسى عليه السلام مع فتاه قد نسيا الحوت فى رحلتهما المشهورة : « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا »[1] ، ويعود موسى عليه السلام إلى نسيان التزامه بالمعاهدة التى عقدها مع العبد الصالح « الخضر » ، حتى يقول له موسى : « لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا » . ورسولنا الأعظم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قد نسى ذات مرة كما تحدثنا سيرته ، والقرآن الكريم يخاطبه بما يشعر بأن النسيان جائز منه غير مستحيل فى حقه ، فيقول : « ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا » .

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينسى فيما يتعلق بالدين أو الدعوة أو الحق أو التنزيل ، ولذلك يقول القرآن الكريم مخاطباً الرسول العظيم : سنقرئك فلا تنسى » وإن كان الله تعالى قد أحسن الأدب لرسوله حتى فى هذا المقام ، فقال عقب الآية السابقة « إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى » .

---

(١) أى مسلكا ومنفذا .

فالرسول قد اختار له ربه شيئاً مما أوحى إليه ، ولكن الله تعالى مع هذا قادر على أن يجعله ينسى ، وإن كانت مشيئته لم تتعلق بنسيان شئ مما أوحى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

وهناك نسيان يحاسب عليه صاحبه ويعاقب من أجله ، وهو نسيان الترك والإهمال والإعراض والتقصير ، فمن أهمل الواجب فكأنه أغفله ونسيه ومن قصر فى الحقوق فكأنه ، صنيعها فصارت نسياً منسياً ، ولذلك يقول الله تعـــالى :

« ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » . أى تركت آياتى ، وأعرضت عن بيناتى ، ولم تؤمن بدعوتى ، فكذلك اليوم نهملك وننساك ، فتركك معذباً فى لهب الجحيم . ومثل هذا النسيان الذميم يؤدى بالإنسان إلى الخسار والبوار ، فإذا نسى المرء حقوق ربه وواجبات دينه أصبح كالحيوان الضال ، ورتعت نفسه فى الموبقات والآثام ، فصارت ضائعة مضيعة ، ومن أجل ذلك يقول الله تعالى محذراً عباده : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون» وما أقسى العقاب الذى توعد الله به الذين ينسون واجبهم وينسون ربهم ، ويهملون حقوق الدين والعباد ، يقول رب العزة جل جلاله لأمثال هؤلاء : « فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون » وهذا العقاب من الله للناسين قد يسميه القرآن الكريم نسياناً ، فكما أهمل العبد واجبه فإن الله تعالى يهمله ، وكما نسى العبد وظيفته ودعوته فإن الله ينساه فلا يذكره بخير ، يقول الله تعالى : « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » .

ولكن النسيان بمعنى الغفلة عن الشيء لا يجوز أبداً فى حق الله تعالى ، فإنه العليم بكل شىء ، والمحيط بكل أمر ، والمطلع على كل دقيق وجليل : « قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى ، فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » ، « وما كان ربك نسياً » .

ومما يتصل بموضوع النسيان أن الإمام الشافعى يشير إلى أن الاستقامة مع الطاعة مع التباعد عن الآثام هى الوسيلة للتذكر وعدم النسيان ، فيقول إلى نصيحة أستاذه وكيع بن الجراح له :

شكوت إلى وكيع سوء حظى فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأفهمنى بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصى

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام

إذا كانت هناك واجبات لا يجوز أن ننساها ، فهناك أمور من الخير أن ننساها ، فمن الخير أن ننسى الأحقاد والضغائن ، حتى نبيت بقلوب صافية ونفوس طاهرة لا يأكلها الحقد ولا يحرقها البغض ، ومن الخير أن ننسى هموم الحياة ما استطعنا ، لأن اختزان الهم واجترار ه فى كل مناسبة يؤدى إلى ضعف الهمم وخور العزائم ، ومن واجبنا أن ننسى وساوس الشيطان حتى لا تزيغ بنا عن سواء السبيل ، ، أو تضلنا عن طريق الله الرحمن الرحيم ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مع المرابطين على الحدود

الحمد لله عز وجل ، هو القوى الذى يحب الأقوياء ، العزيز الذى يكرم الأعزاء : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ناصر المؤمنين ، وخاذل الكافرين : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، إمام الصابرين وسيد المجاهدين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

أعود إليكم بعد أن قضينا أكثر من أسبوع فى ندوات اجتماعية وقومية ودينية أقيمت فى غزة والعريش والإسماعيلية وفايد والقاهرة ، بدعوة من إدارة الشئون العامة بالقوات المسلحة ، وقد نظمت الإدارة هذه الندوات بمناسبة ذكرى العدوان الثلاثى الغاشم ، ولتقوية الروح المعنوية فى صفوف الجنود المرابطين على الثغور والحدود والخطوات الأمامية ؛ بل ولعل أهم ما لاحظناه هو أن هؤلاء المرابطين من أبناء الأمة المؤمنة يتطلعون فى حرس وشوق إلى معرفة هدى وحكم الإسلام فى شئون الحياة الفردية والعامة وبخاصة ما يتعلق منها بالشئون الاقتصادية ، كالاشتراكية وتحديد الملكية والتأميم وغيره وهذا يدلنا على أن النزعة الدينية ما زالت مستكنة فى صدور هؤلاء الجنود ، وأنها تؤثر أثرها وتؤتى ثمرها فى التفكير والتوجيه ، ومن الواجب أن يواصل

المختصون تقوية هذه النزعة وتجليتها وتوجيهها إلى ما ينفع الفرد والمجموع ، وما يحسن الربط بين واجب الله وواجب الحياة والجميع بين تبعات الإيمان وحقوق الأوطان ، والتنسيق بين مطالب الدنيا والآخرة ، اهتداء بقول الحق جل جلاله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

ولعل الجندى عند خطوط الدفاع وعلى ثغور المرابطة هو أشد النـــاس حاجة إلى تعمير الصدر بالإيمان وتحصين القلب باليقين ، وتثبيت النفس بالعقيدة التى تعلم صاحبها أن الله هو خير الناصرين ، وأنه يؤيد عباده الصالحين : « بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » ، « وإن جندنا لهم الغالبون » ، « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » .

ولقد سمعنا نشيد « الله أكبر » يتردد أكثر من مرة ، فتذكرنا أنه حينما أقبلت ساعة الهول ودقت طبول الخطر ، وتعرضت الأمة كلها للغزو الأثيم والعدوان الظلوم ، انطلقت صيحة الإيمان من فم أحد الشعراء ، فإذا القـــدر الغلاب يدفعه إلى افتتاح نشيده بشعار الإسلام وهتاف الإيمان : « الله أكبر » فينطقه بقوله :

الله أكبر فوق كيد المعتـــدى   والله للمظلوم خـــير مؤيد
أنا بالسلاح وباليقين سأفتدى   بلدى ونور الحق يسطع فى يدى

وتذكرنا هذا النشيد الدينى الوطنى الهدار قد انتشر وسار ، وتردد على اللهوات والألسنة فاشعر من يعرفون ومن لا يعرفون أن الإيمان بالله هو الملجأ والمعتصم . وهو شاطئ النجاة والأمان حينما تثور الأعاصير وتتمرد الرياح وتتلمظ الأخطار هنا وهناك ، وصدق القرآن الكريم : « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه » .

ومما لاحظناه أيضاً أن إخوتنا فى قطاع غزة وأشقاءنا اللاجئين الذين أخرجوا من ديارهم فى فلسطين العربية بغير حق ، يحسون الآن بلاذع الألم وعميق الحزن لما حدث من انفصال بين مصر وسورية ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن الوحدة بين هذين الجزءين من أجزاء الوطن العربى الكبير بداية لامتداد « كماشة » عربية تدور وتلتف حول الجزء المغتصب من أرض العرب ، والمسمى زوراً وبهتاناً بإسرائيل ، وكانوا يرون أن يوم العودة إلى فلسطين قد أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ولكن الحركة الإنفصالية فى سورية جاءت فخيبت الآمال ، وأبعدت يوم الخلاص ، لأنها فصمت « الكماشة » العربيـــة من وسطها ؛ وكنا نقول لهؤلاء الأشقاء : نحن معكم فى أن حركة الانفصال قد خيبت الآمال ، وباعدت بيننا وبين يوم التحرير ، ولكننا مع هذا لا نيأس ولا نقنط : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » ، « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

والمسمى زوراً وبهتاناً بإسرائيل ،لتسترده هذه « الكماشة » من غاصبيه ، وتعيده إلى أهله ومستحقيه ، عن طريق التطويق والهجوم لتحرير المغصوب واسترداد المنهوب ، وكانوا يريدون أن يوم العودة إلى فلسطين قد أصبح قاب قوسين أو أدنى ، ولكن الحركة الإنفصالية فى سورية جاءت فخيبت الآمال ، وأبعدت يوم الخلاص ، لأنها فصمت « الكماشة » العربية من وسطها وكنا نقول لهؤلاء الأشقاء : نحن معكم فى أن حركة الانفصال قد خيبت الآمال ، وباعدت بيننا وبين يوم التحرير ، ولكننا مع هذا لا نيأس ولا نقنط « ومن يقنط من رحمة ربه إلاالضالون » . « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

ولاحظنا كذلك أن حالة الجنود قد تغيرت عما كانت عليه بالأمس ، فبالأمس كانت الجندية أمراً بغيضاً مكروهاً عند العامة ، كان ، إذا طلب

واحد لأداء واجب الجندية هلع وفزع وودعه أهله بالصراخ والعويل ؛ وكان الجندى يعامل معاملة سيئة وقاسية ، فهو يسمع من الشتائم أقذرها ، ويجد من المعاملة أسوأها ، وكان يحس بأنه خادم لقائده يسخره فى أهوائه وشهواته فقط ، وأما اليوم فقد صارت الجندية للجميع ، وصار بين الجنود مدرسون ومحامون ومهندسون وأطباء وطلاب جامعات ، وصار بينهم مثقفون وأدباء ، وصارت الجندية فى نظرهم أمراً شريفاً يفخر به صاحبه ، حتى لقد قيل فى إحدى الندوات هى « واجب ضريبة الدم » فاعترض أحد الجنود على هذا وعلق بقوله إن الجندية « حق المواطن » بمعنى أن الفرد يطالب بتمكينه منها ، لأنها حقه الذى يجب أن يناله ، فمن حق الإنسان أن يدافع عن نفسه ووطنه وأبيه وأمه وإخوته وأسرته ، فأعجبتنا هذه الروح الدالة على الحماس والوعى « لقد كتب علينا الجهاد » وتغيرت معاملة القادة للجنود فصار هنالك تفاهم وتراحم ، وطاعة من الصغير وعدالة من الكبير ، حتى تذكرنا قول الرسول : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ، ولم يرحم صغيرنا ».

ومررنا بالجنود وهم يرابطون داخل خنادقهم فى الخطوط الأمامية والمواقع العسكرية ، ورأينا كيف يقف الجندى فى الخندق بملابس الميدان ومدفعه بيده ، وبصره يحدق أمامه ، ويظل هكذا ثمانى ساعات فى اليوم ، ثم يخلفه فى مكانه أحد زملائه ، فزكينا فيهم هذا الجهد ، ورددنا عليهم قول الحق تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وقول الرسول : « رباط يوم فى سبيل الله أفضل من صيام شهر وقيامه » وقوله : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة » وقوله أيضاً : « عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله » .

ولعل الحديث الذى كان له وقع السحر فى آذان هؤلاء الجنود هو حديثنا إليهم عن الشهادة فى سبيل الله والوطن ، أو صناعة الموت فى سبيل الحق والواجب فقد تواثبت أفئدتهم حماسة وشجاعة حينما تبينوا كيف كانت صناعة الموت هذه عادة آبائهم وأجدادهم منذ القدم ، فمن آبائهم الشجاع الذى قال :

بكرت تخوفنى الحتـــوف كأننى　　　أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل ..

ومن آبائهم من الذى قال يخاطب نفسه مثبتاً لها فى مواطن الهول :

أقول لها وقد طارت شعاعاً　　　من الأبطال ويحك لن تراعى

يراجع ديوان الحماسة .

واهتزت نفوس الجنود بكريم المشاعر وهم يسمعون كيف علم محمد أتباعه صناعة الموت فى سبيل الله عريضة واسعة ، فهى سبيل الحق والعـــدل والإيمان والحرية وعزة الأوطان وكرامة الإنسان ، حتى قال سيد البشرية : « والذى نفسى بيده لوددت أن أقتل فى سبيل الله فأحيا ، ثم أقتل فأحيا ، ثم أقتل فأحيا ، ثم أقتل » . وقال : « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته » . وقوله : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة » وكيف كان القرآن إماماً لهذا النبى وقومه فى تعليمهم الشهادة : ، فهو الذى يقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . ويقول : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

ولقد اطمأنت نفوس الجنود إلى التزكية الدينية للمبادئ الاشتراكية السمحة العادلة التى جاء بها الإسلام حينما سمعوا قول القرآن :

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد كان آخر ما أسمعته الجنود فى تلك الندوات قول المجاهد العربى المقدام :

سأحمل روحى على راحتى   وأمضى بها فى سبيل الردى
فإما حياة تسر الصديق   وإما ممات يسوء العدى

ولوأن أفراد الأمة المجاهدة حملوا أرواحهم فى أيديهم ، وانطلقوا فى ميدان جهادهم ، مستعدين لبذل هذه الأرواح فى سبيل عقائدهم ومبادئهم وحرياتهم وحقوق حياتهم لنصرهم ربهم وآزرهم ، وأعز جانبهم وكلمتهم ، فليتنا نهتدى بهدى الله ، ونستضىء بسنة رسول الله ، ونتقن الجهاد فى سبيل الله ، وسبحان من لوشاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . .

الأخلاق والوازع الديني

الحمد لله عز وجل ، هو العليم بالسرائر ، المطلع على الضمائر : « وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ أشهد أن لا إله إلا الله ، أحاط بكل شيء علماً ، وهو على كل شيء قدير ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خير من دعا إلى الإيمان واليقين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحربه . « ومن يعتصم بالله قد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

الأخلاق عماد الأمم وقوام الشعوب . هذه حقيقة مسلمة ، لا ينازع فيها إلا مريض أو مغرض . والله تبارك وتعالى حينما بعث رسله إلى خلقه جعل تمكين الأخلاق الفاضلة في النفوس البشرية من أصول رسالاتهم وأسس دعواتهم . وشيخ الأنبياء محمد صلوات الله وسلامه عليه هو القائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وقال : « ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق » وقال : « خياركم أحاسنكم أخلاقاً » . ولقد سعدت الأمة المؤمنة في تاريخها المزهر بنماذج كريمة من الرجال الأبطال الذين تمسكوا بمكارم الأخلاق وتحلوا بفضائل الشيم ، فضربوا للناس أروع الأمثال في مآثر الأعمال ، حتى لو قيل إن الطابع الذى كان غالبا على شخصية الأمة المحمدية . هو طابع الحرص على الأخلاق الفاضلة لما كان هذا القول بعيداً عن الحقيقة والواقع . ولا شك أن الأخلاق قد تدهورت في نفوس الكثيرين اليوم . ولا شك أن لتدهورها أسباباً كثيرة . منها كما هو مادى اقتصادى . ومنها ما يتصل بسوء القدوة وفساد التقليد . ومنها ما يتصل بخلل

القيت في يوم الجمعة ٢٥ شوال سنة ١٣٨٤ هـ الموافق ٢٦ فبراير سنة ١٩٦٥ م

التربية والتوجيه ، ومنها ما يتصل بسيطرة الأهواء وانتشار التحال والتميع فى الصلات بين الرجل والمرأة ، إلى غير ذلك من الأسباب .

ولعل من أقوى الأسباب لتدهور الأخلاق — إن لم يكن أقواها جميعاً — هو ضعف الوازع الدينى ، وهو ذلك الزاجر الناهى الذى ينبعث من أعماق النفس البشرية ، فيمتلك عنانها ، ويسيطر عليها ، ويتحكم فيها ، ويسير بها على خطة معلومة وطريق مرسوم ، وهو الذى يوجد فى الإنسان المراقبة والمحاسبة والخوف والخشية والحياء : لأن الإنسان إنما يفعل الخير ، ويتمسك بخصال البر ، ويتصرف التصرف النبيل ، ويتحلى بالخلق الجميل ، لفائدة عاجلة يرجوها ، أو لثواب آجل ينتظره ، أو لضرر يريد دفعه ، أو لإعجاب بالخلق الجميل فى حد ذاته ، دون نظر إلى ثواب أو عقاب ، والوازع الدينى الصادق يحقق لصاحبه كل هذه المعانى ، فهو الذى يحدث صاحبه دائماً بأن الدين خلق ومعاملة ، وأن هذا الخلق المستقيم يجلب لصاحبه السعادة فى الدنيا ، والنعيم فى الآخرة ، ويصد عنه غضب الله وغضب الناس ، ويحقق فى نفسه الإحساس بالنبل والشعور بالجمال ، ويذيله رضا الله عنه كما يرضيه عن الله عز وجل : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم » .

وكثير من الناس يظنون أن الأخلاق يمكن أن تغرس فى نفوس أصحابها بالعقوبة والردع وسلطان القانون ، ولا شك أن كثيرين يمنعون أنفسهم من أمور محرمة خوفاً من العقاب وخشية من رهبة القانون ، ولكن أيهما أقوى فى هذا الباب : قانون البشر القاصر المحدود ، أم قانون الله الأخلاقى الشامل لدوائر الباطن والظاهر ، ومناطق السر والعلن ؟ . ثم إن القانون البشرى قد

يغضى عن أشياء كثيرة تسيء إلى الأخلاق ، أو لا تلتئم مع مثلها العليا ، إذ يراها من الحرية أو من ظواهر الحياة الاجتماعية أو غير ذلك ، ولكن القانون الأخلاقى الذى يكونه الوازع الدينى يرسم طريقاً مستقيما يتقيد به المرء عن طواعية وإيمان فى الصغيرة والكبيرة ، والحركة واللفتة ، بل والخطرة والفكرة ، لأن موجد هذا الوازع سبحانه يقول : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وثمة فرق آخر ، وهو أن قانون الأرض يتهددك بالعقاب إذا أخطأت أو أجرمت ، ولا يعدك بمثوبة إذا التزمت حدود الأخلاق الفاضلة ، أو تحليت بالمكارم والمحامد ، ولكن قانون الأخلاق الدينى يلقاك بالعقاب المهذب العادل إذا أذنبت ، ويعدك بالثواب إذا هممت بالسيئة ثم صددت نفسك عنها ، ويعدك بالثواب الجزيل المضاعف إذا تحليت بالحسنات : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » . ومعنى هذا أن قانون الناس يفرض عليك الأخلاق بالرهبة والعقوبة فقط ، وأما قانون الدين فيحمل إليك هذه الأخلاق محوطة بثوبين من الترغيب والترهيب ، أو الإنذار والتبشير ، أو الوعد والوعيد ، ومن هنا قال القرآن الكريم فى أسرة أحد الأنبياء : « إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين » وجعل من دعاء المؤمنين قولهم : « إنا إلى الله راغبون » .

ولا يراد بالوازع الدينى مجرد الخوف ، بل يراد به الإحساس العميق الموقن بجلال الله وجماله وكماله ، وأنه متصف بكل حمد ، متنزه عن كل نقص فإن الإحساس بجلال الله وعظمته يوجد فى نفس الإنسان الخشوع والإجلال والتعظيم لله ، مما يصده عن الكثير من خصال الشر والسوء ، والإحساس بالجمال الإلهى المطلق يوجد فى نفس الإنسان التحنث والتعبد والمناجاة وحب

الجمال والرغبة فى التصرف الجميل ، وليس الجمال هنا هو جمال الحس ، بل المراد به حسن الأفعال وسمو الصفات ، والإحساس بالكمال الإلهى المطلق يوجد فى نفس الإنسان الشعور بالتسامى ، والنفور الشديد من النقص ، والرغبة القوية فى التنزه والصعود نحو الكمال . وإذا ما وجد الإنسان أمام فكره وبصره وفؤاده قوة لا مثيل لها ولا شريك ، يتم فيها الجلال الرائع والجمال الجامع والكمال المطلق ، لم يسلك ذلك الإنسان طريق الانحراف فى حياته أو أخلاقه ، لأن هذه القوة ستفجر عنده ينابيع الوازع الدينى الذى يرى بعينه آثار الله فى الطبيعة ويعرف وجوده وألوهيته عن طريق العقل ، ويشاهد نوره عن طريق القلب ، فينهض الوازع الدينى حينئذ على دعائم الاقتناع والمحبة واليقين ، وأسمى مراتب الوازع الدينى هى مرتبة المحبة لله التى يتولد منها محبة كل عمل جميل ، وكل تصرف نبيل ، كما يتولد عنها بطبيعة الحال كراهية كل تصرف ذميم أو خلق لئيم ، وهنا نتذكر كلمة ذى النون المصرى الصوفى المشهور حيث يقول : « لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته ، ولو قال الله لك (أعمل ما شئت فلست آخذك بذنب) لكان ينبغى أن يزيدك كرامة استحياء منه وتركا لمعصيته ، إن كنت حراً كريماً ، وعبد أشكوراً ، فكيف وقد حذرك » ؟ .

إن الوازع الدينى هو الذى يجعل المؤمن الموقن يمضى فى الحياة على استقامة وإنابة ، يصارع أهواءه فيصرعها ، وكلما همت نفسه الأمارة بالسوء أن تأتى إثماً تذكر ربه وحسابه ، وتذكر دينه وخلقه ، وتذكر اطلاع الله عليه ، وإحاطته به ، فلا تستطيع يده أن تتحرك ، ولا رجله أن تبطش ويقف عن الإثم الذى هم به وقد قيدته قيود كثيرة وإن لم يشاهدها ، لأنه يعتصم حينئذ بقوة « الإحسان » التى صورها سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه

عليه بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن هاتفاً من أعماق الأزل يهتف قائلا : إذا أردتم للفرد صلاحاً ، وللجماعة إصلاحاً ، وللعالم خيراً ، فاغرسوا الوازع الديني السليم فى نفوس الناس، بإعادتهم إلى ربهم ، وربطهم بدينهم وأخذهم بهدى رسولهم ، وبذلك تصلح شئونهم ويستقيمون على الصراط ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

آداب الاستئذان

أحمد الله تبارك وتعالى ، هو الجميل الذى يحب الجمال ، والطيب الذى لا يقبل إلا طيباً : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » . أشهد أن لا إله إلا الله ، أدب عباده بالحسنى ، وهذبهم بالطريقة المثلى : « صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى فروع دوحته ، ونجوم صحبته ، وأتباع ملته : « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

يفاخر أبناء المدنية المعاصرة بأنهم وضعوا طائفة من قواعد المعاملة والاختلاط وآداب المعاشرة والمقابلة والزيارة والحديث : ومع أن جانباً من هذه القواعد يحتاج إلى نظر أو تعديل ، نجد أن الإسلام الحنيف قد سبق هؤلاء منذ عهد طويل فى تعليم الناس الآداب الاجتماعية والعادات الكريمة المتعلقة بمعاملة الناس والاتصال بهم : وقد عنى الإسلام عناية خاصة بالآداب المتصلة بالأسر والبيوت ، والحرمات والعورات والأسرار والأمور الخاصة وحسبنا أن الله قد جعل أغلب سورة « النور » دائراً حول هذه الآداب ، فوق ما فى غير هذه السورة من إشارات تتصل بهذه الآداب . وأحب أن أحدثكم عن أدب من هذه الآداب قد يراه البعض هيناً وهو عند الله وعند الفضلاء عظيم . وأعنى به « أدب الاستئذان » ! . .

هناك عدد من الناس فيهم حقارة وسماجة . يجدون للتهم الدنيئة فى التجسس على أسرار الناس أشياءهم . والتهجم على خصائصهم وحاجياتهم

القيت فى يوم الجمعة ٢٥ صفر سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٥٧ م

والتقحم على دخائلهم وعوراتهم ، ناسين أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أخبر بأن من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو فى بيته ! . . ترى هؤلاء يتهجمون على الأحياء وعلى الأشياء ، بلا حق ولا استئذان ولا حياء ، فبعضهم يدخل عليك بيتك ، أو يقتحم خلوتك ، أو يفرض عليك زيارته بلا استئذان ، وبعضهم يأخذ كتبك أو صحفك أو أدواتك بلا استئذان ، وبعضهم يتدخل فى حديثك الخاص مع صديقك أو رفيقك ، أو يتسمع إليه بلا استئذان ، وبعضهم يفتح حقيبتك أو ملف أوراقك بلا استئذان ، وبعضهم يقرأ خطاباتك أو ينطلع إلى محتوياتها بلا استئذان ، إلى غير ذلك من ألوان العدوان .

وقد أدب القرآن الكريم أبنائه بأدب الاستئذان حيث قال : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم » . والاستئناس هنا هو الاستئذان بما جرى به العرف العام ، كقرع الباب ، أو دق الجرس ، أو التنحنح أو التصفيق أو التسبيح أو التكبير أو التحميد أو غير ذلك : وعلمتنا السنة المطهرة أن يقف المرء عند باب البيت ويستأذن ويقول : السلام عليكم ، أأدخل ؟ . فإن أذنوا له دخل وإن لم يأذنوا له أو لم يجد أحداً رجع ، لأن الإسلام يقيم للبيوت الخاصة حرمة وأية حرمة : ولقد يفخر فاخرون بأن المدينة الحديثة قد نصت فى قوانينها على حرمة المنازل وصيانة البيوت إلا فى حالة الأخطار العارضة الواضحة ، ولكن الإسلام الحنيف دعا إلى هذه الصيانة وأكد هذه الحرمة منذ أكثر من ألف وثلاثمائة عام ، حتى قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لو أن رجلا أطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » .

ولقد أطلع رجل على رسول الله وهو فى داخل بيته ، وكان فى يد الرسول حديدة ، فقال له النبي : لو أعلم أنك تنظر لطعنت بها فى عينك ! . كما روى عن رسول الله تبارك وتعالى لم يحل للمسلمين أن يدخلوا بيوت أهل الكتاب (وهم اليهود والنصارى) إلا بإذن .

ونظم الإسلام أدب الاستئذان حتى بين الأصدقاء والأقارب والمقيمين فى المنزل الواحد، لأن كل شخص منا له حالة انفراد يحب أن يكون فيها كما يهوى ، أو كما يتيسر له ويرتاح معه ، فلا يبالى حينئذ بالقيود المتعارف عليها فى ملبسه أو جلسته أو هيأته ، وهو لا يحب أن يراه أحد وهو فى هـــذه الحالة ، لا من الأقارب ولا من الأباعد ، ولو فاجأه أحد بالدخول عليه دون إشعار أو استئذان ، لكرهه واستثقل ظله واستقبح فعله ، ولذلك نفر الإسلام من هذا . ولقد قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمى ؟ قال النبي : نعم . قال : إنى أخدمها . قال : استأذن عليها . فعاوده فقال له النبي : أتحب أن تراها عريانة ؟ . قال : لا . قال : فاستأذن عليها ! .. ودعا الإسلام إلى أن يستأذن الزوج على زوجته ، والزوجة على زوجها ، والأولاد على الآباء ، والآباء على كبار الأبناء ، فلا يفجأ شخص شخصاً فى وحدته أو خلوته دون استئذان روى المفسرون أن امرأة من الأنصار قالت للنبي : يا رسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل على ، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت آيات الاستئذان : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . . . » إلخ .

كما أمر الإسلام الخدم والصبيان الأبناء بأن يستأذنوا الذين يقيمون معهم

وبخاصة فى ثلاثة أوقات اعتاد الناس فيها الراحة وحرية التصرف وطرح الاحتشام ، وهذه الأوقات هى قبل صلاة الفجر ، وقت القيلولة والراحة فى الظهر ، وبعد صلاة العشاء . يقول الله تبارك وتعالى فى سورة النور : يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت إيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم ، بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ، وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » .

وبعض النساء يعتقدون أن الاستئذان خاص بالرجال . مع أنه عام للرجال والنساء ، يستأذن الرجال على الرجال ، ويستأذن الرجال على النساء ، ويستأذن النساء على النساء ، ويستأذن النساء على الرجال ، فلا يجوز للمرأة مثلا أن تهجم على إمرأة فى بيتها أو خلوتها قبل استئذانها بحجة أنها امرأة مثلها ، فلكل امرأة أسرارها وخصائصها وداخليات أمورها . .

والإسلام يعلم أبناءه أن يتجملوا بالأدب والحياء وهم يسعون إلى البيوت يلتمسون الإذن من أهلها لدخولها وزيارة من فيها ، فاللائق بهم ألا يتعللوا بالتماس الإذن أو الزيارة للاطلاع على دخائل الناس أو أسرار البيوت ، فهناك مع الأسف كثير من الناس ينتهزون فرصة انفتاح الأبواب أثناء الاستئذان فيقفون أمامها ، يحدقون داخل البيوت بنظرات جريئة وقحة فاحصة ، تشمل كل ما يرونه : وهم يحاولون بذلك أن يعرفوا ما فى بيوت الناس من حاجات ، أو ما استتر فيها من محارم وحرمات ، وهذا تصرف ذميم ، ولقد كان النبى صلوات الله وسلامه عليه وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وهو المعصوم الأمين — إذا جاء باب قوم ليستأذن عليهم لم يستقبل

الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر . بحيث يستأذن وهو لا يرى ما بداخل البيت من أشياء ، أو من بداخله من الأحياء . . . وكذلك يجب على المسلم أن يكون صريحاً واضحاً فى تعريف نفسه حين الاستئذان إذا سئل عن ذلك ، فلا يقول من وراء الباب : « أنا » أو « صديق » أو « ضيف » ، أو « واحد » ، أو ما شابه ذلك من ألفاظ مبهمة ، بل يذكر اسمه الصريح ، فقد كره النبى مثل هذا الإبهام عن جابر رضى الله عنه قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى دين كان على أبى ، فدققت الباب ، فقال : من ذا ؟ فقلت : أنا . فقال : أنا ! أنا ! كأنه كرهها ! . . وذلك لأنها لم تبين من بالباب ، والمطلوب بيانه بذكر الاسم. وقال على بن عاصم الواسطى قدمت البصرة ، فأتيت منزل « شعبة » ، فدققت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ . قلت : أنا . فقال : يا هذا ، ليس لى صديق يقال له أنا » ! ! . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . تذكروا دائماً أدب الاستئذان ، فلا تدخلوا بيوت غيركم إلا بإذن ، ولا تمدوا أعينكم إلى كتب غيركم إلا بإذن ولا تستعملوا شيئاً لغيركم إلا بإذن ، ولا تتدخلوا فى شأن من شئونه إلا بإذن ، ولا تنقلوا عنه حديثاً أو سراً إلا بإذن . . . الاستئذان . . . لا تنسوه يا أبناء الإسلام ! . . أدب الاستئذان لا تضيعوه يا أبناء القرآن . . . عودوا أنفسكم الاستئذان فى كل موطن يحتاج إلى الاستئذان ، وطالبوا المهملين بالمحافظة على هذا الاستئذان ، ونشئوا أبناءكم على أدب هذا الاستئذان ، « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، ولعلكم تشكرون » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

طريق الرضى

الحمد لله عز وجل ، منه المبدأ وإليه المنتهى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور » . أشهد أن لا إله إلا الله ، رب الخلائق والكائنات وبديع الأرض والسموات : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، زان بالإيمان قلبه ، وأرضى باليقين ربه ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، والآخذين بهديه وأسبابه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

إننا نتطلع يميناً وشمالا فى جوانب الحياة ، ونتسمع لهذا وذاك من الأحياء فنجد كثيراً من ألوان التعب والشقاء ، ونقف على كثير من أنواع الضيق والشكوى ، ولا نجد من أهل السعادة والغبطة إلا العدد القليل ، وأكبر السبب فى ذلك هو هذا الغول الهائل والسرطان الخبيث ، الذى يعصف بالأمان والاطمئنان ، وهو عدم اليقين والإيمان ، لأن من آمن عرف طريقه ، ومن عرف طريقه رضى به وسار عليه ، فبلغ ووصل ، وقد يجد أثناء ذلك تعباً أو نصباً ، فيتلقاه بعزم وصبر ، ويمضى فى سبيله لا يبالى بما قد يلقى ، لأن بصره وفكره معلقان بما هو أسمى وأتقى : وها هوذا الحق جل جلاله ينادى من آمن واطمأن فسعد وفاز ، بقوله : « يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » . وقد رسم سيدنا وسيد الإنسانية كلها محمد صلوات الله وسلامه عليه طريق الإيمان والأمان حين قال : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ،

ألقيت فى يوم الجمعة ١١ من ذى القعدة سنة ١٣٧٧ هـ الموافق ٣٠ مايو سنة ١٩٥٨ م

وبمحمد رسولا » وللايمان طعم يفوق الطعوم ، ومذاق يعلو على كل مذاق . ونشوة دونها كل نشوة ، لأن حلاوة الإيمان حلاوة روحية نفسية قلبية ، تسرى سريان الماء فى العود ، وتجرى جريان الدماء فى العروق ، وتشع على صاحبها إشعاع الأضواء خلال الدياجى ، فلا قلق ولا أرق ، ولا ضيق ولا تضييق ، بل سعة ورحمة ، ورضا ونعمة، « ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً » .

وأول باب من أبواب الوصول إلى حلاوة الإيمان هو أن يرضى الإنسان بالله رباً ، لأنه رب كل شئ ، ولأنه القائم على كل نفس بما كسبت ولأنه رحمن الدنيا والآخرة والرضا به يستلزم الرضا بعبادته ورجائه والخوف منه والتبتل إليه والنزول على أوامره وأحكامه والانتهاء عن محارمه ونواهيه ، سواء أدركنا الحكمة فى الأمر والنهى أم لم ندرك ، لأن العبد الضعيف القاصر لا يسأل خالقه العليم ومولاه الخبير عن حكمة كل شىء ، بل يسلم وجهه إلى بارئه ، مؤمناً بعدالته وحكمته ، راجياً لرحمته خائفاً من نقمته ، وله فى رسوله أعظم القدوة حين كان يدعو فيقول: « اللهم إنى أعوز برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » . وكان يدعو فيقول : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى إذا كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى ، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع . وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت . وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة . ولا فتنة مضلة : اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين » . كما أن له القدوة فى الإعلام من سلف هذه الأمة

الذين جاهدوا أفضل الجهاد ، وعملوا خير العمل . ثم رضوا بالله كل الرضى ، ورحبوا بتقديره كل الترحيب ، وهذا مثلا هو الحاكم العادل خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان يكثر من قوله : « اللهم رضنى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك ، حتى لا أحب تعجيل شىء أخرته ، ولا تأخير شىء عجلته » وكان عمر بن عبدالعزيز يقول عن هذه العبادة : « لقد تركتنى هؤلاء الدعوات وما لى فى شىء من الأمور كلها أرب إلا فى مواقع قدر الله » . ويروى أن عمر بن عبد العزيز كان يقول : « أصبحت ومالى سرور إلا فى مواقع القدر » ويروى أنه كان يقول : « ما أصبح لى هوى فى شىء سوى ما قضى الله عز وجل » .

وهذا هو عبد الله بن مسعود يترجم عن معنى الرضى وتسلطه عليه ، فهو يرضى بما يساق إليه ، فيقول : « الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيهما ركبت : إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل » . وقيل ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضى ؟ فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه ، فيقول : إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ، وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت .

ولو صدق العبد فى رضاه بربه ، وإقباله عليه واستجابته له ، لتفجرت ينابيع الخير والبهجة والبر والبهجة من حوله ، ولا نطلق لسانه يردد مع القائل يخاطب ربه :

يا منتهى الآمال أنت كفلتنى وحفظتنى
وعدا الزمان على كى يغتالنى فمنعتنى
فانقاد لى متخشعاً لما رآك نصرتنى
وكسوتنى ثوب الغنى ومن المذلة صنتنى

فإذا سكت بدأتني وإذا سألت أجبتني
وإذا شكرتك زدتني فمنحتني وبهرتني !

وإذا رضى الإنسان بالله رباً فقد رضى عنه ربه ، وإذا رضى عنه ربه فقد أرضاه وكفاه ، وحفظه ورعاه ، وليس وراء رضى الله غاية لطالب ، ولذلك نجد القرآن يقول : « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ويقول : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » . ويقول « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » ويقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

والباب الثانى من أبواب حلاوة الإيمان ولذة اليقين هو الرضا بالإسلام ديناً ، لأنه قارورة الدواء ومنبع الضياء ومصدر الاهتداء : « إن الدين عند الله الإسلام » ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وإذا كان هناك كثيرون يتنكرون لإسلامهم أو يعرضون عن دينهم أولا يعنون بتوثيق روابطهم بعقيدتهم فقديماً كان المسلمون يضحون بكل شئ فى سبيل أن يبقى لهم إسلامهم صحيحاً ودينهم سليما ، ولقد قال عمر ابن الخطاب لامرأته عاتكة وقد غضب عليها يوماً : والله لأسوأنك . فقالت له : أتستطيع أن تصرفنى عن الإسلام بعد إذ هدانى الله إليه ؟ . فقال : لا .

قالت : فأى شئ تسوءنى به إذن ؟ ! . . فهى واثقة من أنها ستظل راضية النفس ناعمة البال ما دامت مسلمة مستمسكة بدينها حتى ولو صب عليها البلاء صباً ، وإنما يسوءها شئ واحد هو ترك الإسلام . وما كانت عاتكة وحدها هى التى تقول ذلك ، بل كل الأمة المؤمنة الموقنة كانت لا ترضى بالإسلام بديلا ولا تقبل معه نظيراً أو مثيلا ، وشعارها قول أحدهم :

ولست أبالى حين أقتـــل مسلماً　　على أى جنب كان فى الله مصرعى

والباب الثالث إلى حلاوة الإيمان ولذة الرضوان هو أن نرضى بمحمد رسولا لأنه المبلغ عند ربه ، المبيّن لدينه ، المفسر لقرآنه المطبق لشريعته، ولأن الله تعالى يقول : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » . ويقول : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ، ولأن الصادق المصدوق صلوات الله عليه يقول: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين » . والرضى بالرسول يتضمن الاقتداء به ، والاهتداء بهديه ، والاستضاءة بسنته ، والتمثل بقوله وعمله ، فنتلقى تعاليم الدين من أحاديثه ، ونتطلع إلى تطبيق الإسلام فى سيرته ، ونرى صورة المسلم الكامل فى أفعاله وتصرفاته : وإذا كانت هناك فئة ضالة مضلة تهاجم السنة ، وتشكك فى أحاديث الرسول ، وتدعو إلى الاقتصار على الأخذ من القرآن وحده ، فإن هذه الفئة فى الواقع تريد أن تقضى على الإسلام ، ولو نجحت فى دعوتها الإلحادية الإجرامية بالإعراض عن السنة ، — وهيهات هيهات — لجاء الوقت الذى تدعو فيه إلى هجر القرآن ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . . فلنتدبر الأمر جيداً لنعرف

واجبنا وتستعين الله جل جلاله فى أدائه والقيام به . . . فإذا كان هناك كثيرون يعرضون عن الإسلام ويتحللون من واجباته ويستخفون بأحكامه ويقفون له بالمرصاد ، وإذا كان هناك فريق من الناس يؤمن بالله ويؤمن بدينه ، ولكنه يتوارى بإيمانه ، أو لا يجاهر بما يؤمن به ، فإن من أوجب الواجبات أن تكون هناك أمة مؤمنة واثقة بربها ودينها ونفسها ، متمكنة من هديها ويقينها ، داعية إلى الصراط المستقيم فى حكمة وقوة : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين » . فليستعن كل منا بربه فى أن يكون واحداً من هذه الأمة المؤمنة الواثقة السابقة ، حتى يردد فى سره وجهره ، من أعماق قلبه وحنايا نفسه : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا حتى يرضى عنا ربنا ويغفر لنا ذنوبنا فقد روى أن الرسول قال : « من قال حين يسمع النداء (يعنى الآذان) رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولا ، غفرت له ذنوبه » . وهو القائل أيضاً : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » .

وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . . ويهتف كما هتف الأول فقال :

أبى الإسلام لا أب لى سواه　　إذا افتخروا بقيس أو تميم

الأمانة فى الاسلام

حمـــد الله تبارك وتعالى ، هو سبحانه القائم على كل نفس بما كسبت ، المحاسب لها بما اجترحت «إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» . أحمده جل جلاله ، وأشهد أن لا إله إلا الله هو ولى الأطهار ومؤيد الأخيار . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله . القائل له ربه : «وإنك لعلى خلق عظيم» وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى الطاهرين من آله ، والصادقين من صحابته ورجاله ، والمهتدين بأعماله وأقواله : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ، «رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه» .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ومما ينبغى أن يعرفه كل مسلم أن الأمانة خلق من أخلاق الإسلام العظيم وفضيلة من فضائل القرآن الكريم ، وجانب من تراث الرسول عليه الصلاة والتسليم ، والأمانة كلمة جميلة جليلة فيها معنى الأمان والاطمئنان ، والأمانة كذلك شعور عميق بالتبعة والمسئولية ، واحتكام إلى الضمير اليقظ الحى ، ورعاية لكل ما فى عهدة الإنسان من شىء حى أو معنوى ، وكان الحديث النبى قد أشار إلى هذا حين قال : «كلكم راع ، وكل راع مسئول عن رعيته» . ولقد تحدث القرآن الكريم عن الأمانة فى أكثر من موطن وقال فيما قال : «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن فيها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا» . ولقد ذكر العلماء أقوالا كثيرة فى المراد بالأمانة هنا ، ولكن الأقرب إلى القبول هو أنه

ألقيت فى مسجد التليفزيون يوم الجمعة ٣١ مايو سنة ١٩٧٤ م

يراد بها مختلف التكاليف والحقوق والتبعات التى وكلها الله تعالى إلى عباده لرعايتها وصيانتها ، سواء أكانت متعلقة بالنفس أو بالأهل أو بالوطن أو بالناس ، وقد جعل القرآن المجيد الأمانة من صفات الملائكة الأطهار الذين هم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فقال الله تعالى فى حق جبريل عليه السلام . « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .

وكذلك جعل القرآن الأمانة صفة من صفات الأنبياء والمرسلين ، فهؤلاء هم رسل الله عليهم صلاة الله وسلامه يتوالون ويتتابعون إلى الناس ، يحملون رسالات ربهم ، وكلما جاء رسول عرض على قومه رسالة ربه وقال لهم « إنى لكم رسول أمين » . وأشار القرآن إلى أمانة موسى عليه السلام منذ شبابه فقال عنه على لسان بنت شعيب : « قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » والقوة هنا تشمل كل أنواعها وألوانها ، والأمانة يتسع نطاقها وينفسح مداها ، حتى تتغلغل بعمق فى حياة الأفراد والشعوب ، حتى كأنها الديدبان الإلهى الذى يضعه الخالق القدير شعلة مقدسه فى صدر كل مسلم يخاف الله ويخشاه ، فهو معه فى كل مكان : « وهو معكم أينما كنتم » . وكانت الصفة المعروفة المشهورة لنبينا محمد — حتى قبل الرسالة — هى صفة « الصادق الأمين » وكان يدعو ربه فيقول : « أعوذ بك من الخيانة ، فإنها بئس البطانة » . وكذلك جعل القرآن الأمانة صفة عباده المؤمنين ، فقال عنهم فى سورتهم التى سماها باسمهم : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ».

ومن المؤسف أن الكثير من الناس يظنون أن الأمانة لا تتمثل إلا فى حفظ الودائع » من مال أو حلى أو ما شاكل ذلك ، مع أن مفهوم الأمانة يشمل مظاهر عديدة من سلوك الإنسان وتصرفه فى الحياة ، فإتقان القيام بالواجب أمانة ، وصيانة أرض الوطن وحماية ممتلكات المجتمع ، ورعاية حقوق الأمة

أمانة وحفظ الأسرار أمانة ، وصيانة الأعراض أمانة ، وإخلاص النصيحة أمانة ، وأمانة العبد مع ربه تتحقق بحفظ ما أمر الله بحفظه ، وبأداء واجباته ، والانتهاء عن منهياته ، وأمانة العلم تتحقق بنشره وتفهيمه للناس ، وأمانة الحكام مع المحكومين تكون بالعدل والمساواة بينهم ، وأمانة الإنسان مع نفسه تتحقق باختياره الأصلح له فى الدين والدنيا ، والأمانة فى المعاملة تكون بالصدق وترك الغش والخداع ، والأمانة فى الكيل والميزان تكون بالضبط وعدم التطفيف ، حتى لا تتعرض الناس لغضب الله وانتقامه : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

والقرآن الحكيم بعدأن مجد قدر الأمانة وسما بمكانتها رفع شأن الأمانة ، نراه قد حمل حملة صارمة على الخيانة ، فقال « إن الله لا يهدى كيد الخائنين » . ويكفى رذيلة الخيانة شراً ومقتاً أنها كانت السبب فى أن ألقى الله إلى جهنم وبئس المصير — بامرأتين من نساء الأنبياء والرسل : وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » .

وتلك هى السنة النبوية تحذر كل مسلم أن يهمل الأمانة أو يفرط فيها ، فقال رسول الله : « لا إيمان لمن لا أمانة له » . ولقد مر النبى صلوات الله وسلامه عليه برجل يبيع قمحاً ، فوضع النبى يده داخل القمح فوجد فيه بللا ، فقال للرجل مستنكراً : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ . فأجاب اصابته السماء يا رسول الله (يعنى المطر) فقال له النبى : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا .

وقال رسول الله : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قيل : وكيف إضاعتها يا رسول الله ؟ ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة . وفى هذا تحذير وتخويف من ضياع الأمانة ، وإشعار بأنها حين تضيع تكون سبباً فى فساد الناس واختلال الحياة وضياع الحياة .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فليجعل كل منا نفسه فرداً صالحاً ، ومواطناً مصلحاً ، يستشعر روح الأمانة فى صدره وكيانه ، ويبث فضيلة الأمانة فى كل من حوله من أهل وأولاد وأقارب ومعارف ، حتى تصبح الأمانة شعاراً نبيلا لهذه الأمة التى يهديها ربها بفضله إلى أقوم طريق .

دعوة الى الأمانة

الحمد لله عز وجل ، جعل الأمانة طريق الشرفاء ، وجعل الخيانة شعار الأخساء : «إن الله لا يحب كل خوان كفور» . أحمده سبحانه وأشهد أن لا إله إلا الله ، يرفع الأبرار إلى أعلى عليين ، ويهوى بالأشرار إلى أسفل سافلين ، والله قوى عزيز ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وجعله متمماً لمكارم الأخلاق ، وصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله بيته وأهل صحبته وأنصار دعوته ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

منذ أيام كنت أركب سيارة عامة وسط الزحام . فسمعت محصل الأجرة ينادى بصوت رتيب ويقول : «من يدفع فله نبي يشفع ، ومن لا يدفع فله نار تلسع » : ، وجعل الرجل يكررها كأنها لازمة » يحرص عليها ، فاستهوتنى العبارة ، وذكرتنى بما كنت ناسياً ، وقلت فى نفسى : كأن هذه دعوة إلى الأمانة بين قوم نسى أكثر هم الأمانة فى مختلف الأرجاء ، فإن الزحام فى المواصلات قد هيأ أكثر من فرصة شيطانية لأهل السوء الخونة وأبناء الحرام السفلة ، فهذا ذئب يحاور المحصل ويداوره لكى يفر من دفع الأجرة ، وهو يتطلع عند الركوب ، فإن كان المحصل مشغولا فى مقدمة السيارة ركب هو من مؤخرتها ، وإن كان المحصل فى مؤخرتها ركب هو من مقدمتها ، وهو يتنقل تنقل الثعلب الماكر من المقدمة إلى المؤخرة ، ومن المؤخرة إلى المقدمة حتى لا يدفع ، ويظن أن عمله هذا مهارة أو « شطارة » ولكنه فى الواقع سفالة ونذالة . وهذا ثان ينتهز فرصة الزحام لكى « ينشل » نقود هذا أو ساعة ذاك أو قلم ذلك : لأنه « لص صائع عاطل » فى مجتمع يحتاج إلى حدود الله

ألقيت فى يوم الجمعة ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٩٣ الموافق ٢٢ يونيه سنة ١٩٧٣ م

لتردع وتمنع « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، ومن المؤسف أنه يشاع ويذاع ويقال إن المسئولين عن منع هؤلاء المجرمين يعرفونهم جيداً ، ويستطيعون منعهم جيداً ، ولكنهم لأسباب أخرى لا يلتزمون واجبهم ، ولا يتقون الله فى وطنهم ، بل تصل الإشاعة القوية المتحكمة إلى حد أن يقال : « يا عم ، لا فائدة ، حاميها حراميها » . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وهذا وضيع ثالث ينتهز فرصة الزحام لكى يعبث بجسم هذه المرأة أو تلك ، مستخفاً بكل قواعد الأدب والتربية ، ناسياً أن الحياة قصاص . . . وهــذا وغيره وغيره يحدث وسط الزحام ، والمحصل مشغول بعمله ، حريص على ترديد قوله : من يدفع فله نبى يشفع ، ومن لا يدفع فله نار تلسع » وكأن صوته أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وكأنه غريب بين قومه كدعوة صالح فى ثمود ! . .

وبالأمس نشرت بعض الصحف أن سائقاً لسيارة أجرة وجد فى سيارته خاتماً ذهبياً نسيته إحدى السيدات ، فلم يفرح بكسب حرام أو ربح خبيث ، بل سارع إلى الصحيفة لتعلن عن الخاتم ، حتى تأتى صاحبته لأخذه ، فهزنا هذا الخبر العجيب الغريب ، مع أن الأصل فى أمة محمد أن يكون هذا أمراً عادياً لا يثير أى غرابة ، ولكن الأوضاع انقلبت ، فصارت الخيانة هى القاعدة والأصل ، وصارت الأمانة شيئاً أندر من الكبريت الأحمر ، ورحم الله الذى قال : « كان الناس ورقاً بلا شوك ، فأصبحوا شوكاً بلا ورق » . وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » ! وحين قال : « أعوذ بالله من الخيانة فإنها بئس البطانة » !

كأنها دعوة إلى الأمانة التى أجل شأنها كتاب الله عز وجل وطالب بها فى الاعتقاد وفى كل شئون العباد والبلاد ، وجعلها أخطر مهمة يلتزم بها الإنسان فقال : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين

أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » والأمانة هنا تشمل كل التكاليف والواجبات والحقوق التى أمر الله بحفظها وأدائها حق الأداء . والأمانة هى التى جعلها الله صفة الملائكة الأطهار ، فقال فى شأن جبريل عليه السلام : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » . والأمانة هى التى جعلها الله صفة الأنبياء والمرسلين ، فهؤلاء طائفة منهم ، وكلما جاء أحدهم إلى قومه قال لهم : « إنى لكم رسول أمين » وهذا خاتمهم وإمامهم محمد يشتهر بين قومه بوصفه العظيم : « الصادق الأمين » . والأمانة هى التى أبان القرآن أن صاحبها هو صاحب المكانة العليا فى نظر الرجال والنساء : « إن خير من استأجرت القوى الأمين » . والأمانة هى التى ذكر القرآن الكريم أنها صفة أساسية من صفات المؤمنين المفلحين : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وإذا كنا نسمع أن القوم فى بعض بلاد أوربا يدفعون أجرة السيارة أو الترام بلا طلب ولا رقابة سوى الضمير . فقد كان أبناء الإسلام — يوم كان هناك فى الدنيا أبناء للاسلام — أعلى من ذلك أخلاقاً ، وأقوى محاسبة للنفس ومراقبة الله سبحانه ، ونحن لم ننس بعد تلك الفتاة التى قالت عن عمر : « والله ما كنت لأطيعه فى الملا ، وأعصيه فى الخلا ، وإن كان عمر لا يرى فرب عمر يرى » وكان نساء الإسلام يقلن لأزواجهن عند الصباح : يا رجالنا إننا نصبر على الجوع ، ولكننا لا نصبر على النار ، فإياكم وكسب حرام . وكان العامة من آبائنا و أجدادنا يعتقدون أن دخول الشىء الحرام إلى البيت يشعل فيه النار ، ولذلك كانوا إذا رأوا شيئاً مسروقاً يدخل عليهم يدفعونه عن منازلهم دفعاً كأنه شحنة من الديناميت ستنفجر داخل البيت فتسببت له الخراب والدمار ، وكانوا يؤمنون بقول رسولهم صلوات الله وسلامه عليه « الأمانة غنى » ، ويستجيبون لقوله : « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن

من خانك » ويخافون حين يسمعون قوله : « لا إيمان لمن لا أمانة له » وأما اليوم فكثير من الناس يعدون السرقة مهارة ، والاختلاس براعة ، والخيانة فتوة ، والسفالة تقدماً وتطوراً مع أن الله جل جلاله يقول : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

وعاد صوت المحصل يدوى فى أذنى بعبارته اللاذعة : « من يدفع فله نبى يشفع ، ومن لا يدفع فله نار تلسع » فقلت فى نفسى : لقد أصابتنا قاصمة الظهر ومذلة الدهر ، ففقدنا الوطن ، وفقدنا عزة الحرية فى الأرض، أفلا يمكن على أقل تقدير أن نحتفظ بجانب من آداب الدين وأخلاق القرآن ، أم نصر على أن يكون أمرنا كله خراباً وفساداً ، وشوقى يقول :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم   فأقم عليهم مأتماً وعويلا

ويقول :

وليس بعامر بنيان قوم   إذا أخلاقهم كانت خراباً

ويقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما زالت أذنى تطن برنين المحصل وهو يردد : من يدفع فله نبى يشفع ، ومن لا يدفع فله نار تلسع . وهو معنى يذكرنا بقول الرسول : « لا إيمان لمن لا أمانة له » . فليسأل كل منا نفسه : أعنده أمانة ؟ وإذا لم تكن عنده أمانة ، فهل عنده إيمان ؟ أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

امانة المجاهد

الحمد لله عز وجل ، يزكى عباده الشرفاء بالكرامة ، ويركس اللئام الأخساء فى الخيبة والندامة ، وهو أعدل العادلين أشهد أن لا إله إلا الله هو القائل فى الأخيار من عباده « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، صان حقوق الله فصانه الله ورعاه . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لهـا سابقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما أحوجنا فى هذه الفترة من حياتنا أن نرجع إلى سيرة رسولنا ومواقف صحابته ، ونستمد منها الدروس والعبر التى تضىء أمامنا الطريق ، وتحدد لنا معالم المنهج السليم ، فتفيدنا فى دنيانا كما تفيدنا فى ديننا ، وتوثق صلتنا بهدى خالقنا العظيم ؛ وهذا درس من الدروس ، فقد حدث بعد هجرة الرسول إلى المدينة أن انضم اليهود إلى المشركين ضد المسلمين ، وقال اليهود الخونة ولعبدة الأصنام والأوثان : إن وثنيتكم خير من دين محمد ومن دعوة الإسلام وأخذ اليهود يجمعون القبائل ويحرضون الأحزاب على التكتل لاستئصال المسلمين ، وانتهز بنو قريظة الشدة العصيبة التى ألمت بالمسلمين فى غزوة الخندق ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبين الرسول ، وانضموا إلى المشركين ، وشاءت عناية الله أن تفشل حملة الأحزاب ، ويعود أهلها خائبين ، ولما انتهت الشدة توجه النبى إلى الغدرة الفجرة إخوة القردة من بنى قريظة .

ألقيت فى يوم الجمعة ١٥ ربيع الأول سـنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٣ يونيو سـنة ١٩٦٧ م

وحاصرهم فى حصونهم ليجزيهم على غدرهم وخيانتهم ، وحينما طال الحصار على الفجرة بعثوا رسولا إلى النبي يطلبون منه أن يرسل إليهم الصحابي أبا لبابة. وكان حليفاً لهم فى الجاهلية ، وكان له بينهم مال وعقار ، فحسبوا أنه سيكون سبب تخفيف عليهم ، ولما وصلهم أبو لبابة أخذوا يسألونه : أينزلون على حكم محمد ؟ فقال نعم ، ثم بدرت منه بادرة غير مقصوده . فأشار بيـــده إلى حلقة إشارة يفهم منها أن مصيرهم هو القتل ، ولعله كان قد عرف ذلك من الرسول أو استنتجه ، وهو قصاص عادل من غير شك .

وما كاد أبو لبابة رضى الله عنه يأتى بهذه الإشارة ، حتى تنبه لنفسه فى خوف وفزع ، وأحس كأنه خان الله ورسوله فى هذه الإشارة ، لأنه كشف شيئاً كان يجب عليه — ولو فى اعتقاده — أن يخفيه فعصره الألم والحزن ، وقال : « فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله » . وظهر الندم على وجهه ، فقال له بعض اليهود : مالك يا أبا لبابة ؟ فأجاب : لقد خنت الله ورسوله : وعاد مسرعاً إلى المدينة ، والدموع تسيل من عينيه ، وما زال مسرعاً فى مشيه حتى دخل المسجد ، وربط نفسه فى أحد أعمدته بسلسلة ثقيلة ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت ، أو يتوب الله على مما صنعت » وأخذ على نفسه العهد الوثيق ألا يدخل أرض بنى قريظة ما دام حياً ، مع أنه قد كان له مال وعقار .

وبلغت القصة مسامع النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : أما لو جاء لاستغفرت له ، وأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه ؛ وجاء الوحى من عند الله عز وجل مؤدباً ومعلماً ، فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول . وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وظل أبو لبابة مربوطاً فى عمود المسجد عشرين يوماً ، لا تفك قيوده إلا لأداء الصلاة ،

ثم يعود إلى القيد من جديد ، حتى نزلت مغفرة الله تعالى له على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل جبريل يخبر الحبيب المصطفى بأن الحق جل جلاله قد تاب على أبي لبابة بعد هذا الندم وبعد هذا التطهير ، وجاء التطهير ، وجاء قوله عز من قائل : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم » ، وانتهت البشرى إلى مسامع أبي لبابة ، فطار لها فرحاً ، وسعد بها كثيراً ، ولكنه ظل فى قيده كما هو ، وأراد بعض الصحابة أن يفكه من القيد فأبى ذلك ، وقال : والله لا يفكنى من قيدى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكأنه كان يريد بذلك أن يوثق توبته ، وأن يكون فك الرسول لقيده تأكيداً لغفران الله له وعفوه عنه . ومحيت الهفوة من سجل أبي لبابة بفضل الله ورحمته ، وواصل حياته مؤمناً مجاهداً مستقيما على الطريق ، وفياً بعهده لا يخون ولا يهون ، حتى صدق فيه وفى أمثاله من الأوفياء الشرفاء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام : « ومن المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

فلننظر معاً يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام إلى هذا الدرس العميق ولنتدبره لننتفع به ، فهذا رجل يواصل جهاده فى سبيل الله ، ويبذل من نفسه وماله فى سبيل دينه وهداه ، ثم تفلت منه إشارة لم يتعمدها ولم يترصد لإتيانها ولم يصر عليها ، ومع ذلك ارتعدت فرائصه ، وارتجفت أوصاله ، وخيل إليه أن الأرض قد ضاقت عليه بما رحبت ، وأيقن أنه لا ملجأ له من عذاب الله جل جلاله إلا عفو الله ورحمته ومغفرته ، فأخذ نفسه بذلك العقاب الصارم والتأديب الحازم ، حتى تنزلت عليه توبة الرحمن الرحيم من فوق سبع سموات ، وبعد أن ظل مقيداً فى أغلاله عشرين يوماً يبكى ويستغفر ، مع أنه أحد صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام الذين قال فيهم سيد الخلق

« أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » . فكيف يكون عذاب الله الأليم إذن لمن يستبيح لنفسه أن يرتكب جريمة الخيانة لدينه أو وطنه ، بالتفريط والتخاذل ، أو بالتثبيط والتوهين ، أو بافتراء إشاعة كاذبة ، أو إثارة لفتنة ضالة ؟ . إن مثل هذا المجرم الأثيم يكون قد خان الله ورسوله ، وأعلن الحرب عليهما ، وإن عاقبته وخيمة ، ومصيره مشئوم ، وبئس المصير فليتنا جميعاً نتذكر دائماً قول ربنا : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً » وقوله فى عباده الأخيار : « وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لقد تهيأ لى خلال الأسبوع الماضى أن أتنقل فى منطقة القناة ، وأن أزور الإسماعيلية والسويس وبور توفيق والشلوفة وفايد والقنطرة وبورسعيد وبور فؤاد ، وأن أتحدث باسم الدين فى هذه المواطن مع المجاهدين ومع الشعب ، وأقسم لكم بالله الذى لا يقسم بسواه ، لقد شاهدت الروح المعنوية فى الجنود قوية ، ولمست الثقة والعزيمة على مواصلة النضال حتى تزول آثار العدوان وتتحقق الحرية الكاملة للوطن وإذا كان الجنود يمثلون الجيش الأول فيجب أن نكون نحن الشعب الجيش الثانى من ورائهم ، نشد من أزرهم ، ونثبت من عزائمهم ، ونجمع كلمتنا على أن نعيش أعزة أو نموت كراماً ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

امانة تمثيل الأمة

الحمد لله عز وجل ، هو القائم على كل نفس بما كسبت ، والمؤاخذ لكل يد بما اجترحت « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو ولى النعمة والتوفيق : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كاشف الغمة وهادى الأمة إلى أقوم طريق ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه : « الذين يخشون ربهم وهم من الساعة مشفقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

حينما تختار الأمة ممثليها والنائبين عنها ، بمحض إرادتها وخالص رغبتها ، تكون قد سلكت سبيلا نحو التعبير عن رأيها ، والتثبيت لكيانها ، والتوطيد لبنيانها ، والإسلام العظيم قد هدى الناس إلى طريق الحق وصراط التوفيق حين دعا إلى الشورى فى قول القرآن يصف المؤمنين : « وأمرهم شورى بينهم » وحين خاطب الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « وشاورهم فى الأمر » . وقد استجاب السلف الصالح فى صدر الإسلام لهذا التوجيه الربانى الحكيم ، فطبقوا مبادئ الديمقراطية والشورى فى سلمهم وحربهم ، وفى مختلف شئونهم ، وفتحوا الباب فى المشاورة لكل قادر عليها ، حتى رأينا الفاروق عمر ينزل ذات يوم على رأى قالته إحدى المسلمات ، وجهر بكلمته الجليلة الباقية : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . . ورأينا عمر نفسه وهو خليفة يحرص على المراجعة والمواجهة والنطق بالحق ، فيقول للأمة

القيت فى يوم الجمعة ١٣ من ذى القعدة سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٢٧ مارس سنة ١٩٦٤ م

من رأى منكم فى اعوجاجه فليقومه . فيجيبه أحدهم : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا يا عمر ! .

والأفراد الذين تختارهم الأمة ليكونوا ممثلين لإرادتها ، مترجمين عن رغبتها ، يصبحون أمناء على حقوقها ، حراساً على مقوماتها وخيراتها ؛ وهدى الإسلام القويم يعتبر كل من ينهض فى الأمة بتبعة أو مسئولية أحد رعاتها وهداتها ، والرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » ، ويعد التبعة الملقاة على عاتقه أمانة بين يديه ، ويلزمه أن يرعاها حق رعايتها ، وأن يصونها حق صيانتها ، فالله تبارك وتعالى يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » ويصف المؤمنين الأخيار بقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: « أد الأمانة إلى من أئتمنك » ويقول : «لا ايمان لمن لا أمانة له » . وقد حذر الإسلام أشد التحذير من تضييع الأمانة التى يحملها الإنسان ، سواء أكانت مادية أممعنوية ، وخوف أشد التخويف منالانحراف معها أو الخيانة لها ، فقال التنزيل المجيد : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » . وقال : « إن الله لا يحب الخائنين» وقال : إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما » . ولقد كان رسول الله عليه صلوات الله يدعو ربه عز وجل فيقول فيما يقول : « وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئس البطانة » . ولقد اهتدى بهدى سيد البشرية فى هذا المجال أعلام فخرت بهم الدنيا ، ووعى ذكرهم التاريخ ، فظلوا نماذج عليا ومثلا رفيعة فى حفظ الأمانة ، وأداء الواجب ، وصيانة التبعات والجهاد من أجل العباد والبلاد .

وفى طليعة الواجبات التى تجب على من يمثل أمته ، أو يخدم جماعته ،

أن يكون ناطقاً بالحق ناصحاً بالصدق ، يقول ما يعتقده ويؤمن به ، وينقد ما يوقن أنه خطأ وضرر ، ويدعو إلى الصواب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن : وما أجمل أن نتذكر هنا أن القرآن الكريم قد قال على لسان نبي الله هود عليه السلام : « أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين » . فذكر ثلاث صفات جليلة هي التبليغ والنصح والأمانة ، ولقد قال سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « الدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال لله عز وجل ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين وعامتهم » والنصح لله تعالى هو الإيمان به والخضوع له والإخلاص فى عبادته ، والنصح لكتاب الله هو الإقبال عليه والاهتداء به ، والنصيحة للرسول هى الاستجابة له والاقتداء بسنته فى القول والعمل ، والنصيحة لأئمة المسلمين وولاتهم هى حب الصلاح والتوفيق لهم ، ومعاونتهم بكلمة الحق والخير ، وتحذيرهم من الأخطاء والأخطار ، والنصيحة لعامة المسلمين هى إرشادهم إلى النافع ، والمباعدة بينهم وبين الضلال الفساد .

وهذا يستلزم أن تكون الأمة مؤمنة راشدة ، مجتمعة متحدة ، متبادلة فيما بينها المشاورة والمناصحة حتى تحقق ما ذكره الحديث النبوى الشريف : « إن الله تعالى يرضى لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » . ويستلزم أن يحس الفرد المسئول عن تبعة بأنه لبنة فى بناء وجزء من كل ، وعضو من جسم ، وفرد فى مجموع ، ولذلك يشعر بشعور الجماعة ويتجاوب معها ويعنى بأمورها ، لأنه منها وإليها وبها ، الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم : « من غشنا فليس منا » وفى رواية أخرى : « من غش أمتى فليس منى » ويقول : ما من راع يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » .

والإسلام دين الله العلى الأعلى يعلم أتباعه أن يكونوا جميعاً عاملين متعاونين متضامنين يضع كل منهم يده فى يد أخيه بإخلاص وأمانة وشرف ، ويمضون فى سبيل الحق والخير والبر والإصلاح ، بلا تقاعس وانعزال أو سلبية ، لأن الإسلام يحارب السلبية فى كل مجال ، ويدعو إلى الإيجابية فى كل موطن : يدعو إليها فى مجال العمل الصالح فيقول القرآن : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ويدعو إليها فى مجال القول فيحث على الجهر بالكلمة الطيبة والقول النافع فيقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ، ويدعو إليها فى مجال التوجيه إلى الإصلاح والإرشاد إلى النافع فيقول الرسول : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » ، ويدعو إليها فى التفكير ، فالقاعدة الإسلامية تقول : إن من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد : والاجتهاد هو بذل الطاقة فى سبيل الوصول إلى الحق ، وهــذا هو معاذ بن جبل رضى الله عنه يعطينا مثلاللإيجابية الصالحة فىالتفكير والاجتهاد حينما يبعثه الرسول إلى اليمن ، ويسأله كيف يقضى بين الناس ، فيجيبه بأنه سيتبع القرآن والحديث ، فإذا لم يجد الحكم منصوصاً عليه فيهما فإنه سيجتهد برأيه ، فيفرح النبى بذلك ، ويقول : « الحمدلله الذى وفق رسول رسول الله لما يحبه رسول الله » . ولقد حارب النبى صلوات الله عليه المتابعة العمياء التى لا تدل على إيمان أو اقتناع أو شخصية فقال : «لا يكن أحدكم إمعة . يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم : إذا أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الإسلام العظيم قد أرسى قواعد الشورى ودعائم الديمقراطية ، ومن واجبنا أن ننعم بثمرات هذه المبادىء

الجليلة التى دعا إليها وأمر بها ، حتى نسهم معاً فى بناء مجتمعنا على أسس سليمة متينة ، والله جل جلاله يبارك كل يد تعمل وتبنى ، وكل لسان ينطق بخير أو يدعو إلى هدى ، وكل عقل يستقيم منه تفكير وتدبير ، وسبحانه من لو شاء لهدى الناس أجمعين إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

خلق المثابرة

الحمد لله عز وجل ، أبدع خلق الإنسان من طين ، وأحكم فيه الخلق والتكوين . أشهد أن لا إله إلا الله ، سوى الإنسان : وعدله ، وفى أى صورة ما شاء ركبه ، ووهبه من العلم والفهم وقدرة التصرف ما وهبه « فتبارك الله أحسن الخالقين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جد واجتهد وكافح وناضل ، فكان للمؤمنين أسوة وللمناضلين قدوة ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن تمسك بسنته ، وثبت على طريقته : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة وسلام :

من عيوبنا الظاهرة سرعة الملل وضعف المغالبة للأحداث والعوائق ، يرسب الطالب مثلا فيقنط ويترك الدراسة ، وينتحر ويتشرد ، ويعقد التاجر صفقة فيخسرها أو لا ينال فيها ما توقعه من ربح فيثور ويتمرد ، ويحاول الشخص محاولة فإذا لم يفز فيها بكل ما تمنى ضج بالشكوى والأنين ، وقد ينشأ الشخص وفيه نقص حسى محدود كعوج فى ساق ، أو التواء فى أصابع ، أو كف فى بصر ، فيخيل إليه أنه قد خلق ليكون عالة على غيره من الناس عديم الفائدة ، ولا يفكر فى أن يحتال لعمل شىء حتى يعوض هذا النقص ، ويسير مع الناس فى ركب الحياة ، مع أن المواهب والملكات والطاقات المودعة فى الإنسان كثيرة وفيرة ، منها القوى البادية ومنها القوى الخافية ، وقد ينقص الإنسان فى جهة فتعوضه الأقدار فى جهة أخرى ، بل إن العقبات التى تعترض طريق الإنسان الدائب المكافح تكون كالنار التى تعجم عودة

القيت فى يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٢ ينـاير سـنة ١٩٦٠ م

وتصهر معدنه وتفتق حيلته ، وتفجر فيه ما خفى عنه من طاقات وملكات ، والنفس الإنسانية عميقة الأغوار بعيدة الحدود ، ولذلك يحرضنا الخالق جل جلاله على التأمل لها والنظر فيها لاستخراج ما انطوت عليه من آيات وخصائص . فيقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فهو يستنكر على الناس ألا ينظروا فى نفوسهم وألا يدرسوا إمكانياتها ليستغلوها وينتفعوا بها مع أن فيها آيات كثيرة ، حتى قيل إنه ليس فى العالم شئ إلا وفى ذات الإنسان له نظير ، ولذلك قال الشاعر يخاطب الإنسان :

وتزعم أنك كون صغير وفيك انطوى العالم الأكبر !

والتاريخ الحديث والقديم ملئ بأخبار الذين قاوموا العقبات وتغلبوا على المتاعب حتى انتصروا وفازوا ، فهذه فتاة أمريكية تدعى « هيلين كيلر » فقدت وهى فى الثانية من عمرها بصرها وسمعها ونطقها ، ومع ذلك تحدت العجز وقاومت هذه الوجوه الثلاثة من النقص ، فتعلمت وقرأت بالأصابع ، وتكلمت بحركات الشفاه ، وفهمت كلام الناس بلمس شفاههم أو رقابهم وهم يتكلمون ، وبلغت درجة ممتازة من الثقافة وألفت كتباً ونشرت مقالات وأصبحت بكفاحها ونضالها إحدى النساء العبقريات ، وجعلت الناس فى المشارق والمغارب يتحدثون عنها كأعجوبة من أعاجيب العزيمة والمثابرة والإلحاح للوصول لتحقيق ما يبغيه الإنسان لنفسه من مجد ورفعة ، فهى قد فقدت نطقها وسمعها وبصرها ، ومع ذلك لم تيأس ولم تقنط ، استغلت أصابعها ، وصارت عن طريق اللمس تتعرف إلى مختلف الأشياء « ويد الضرير وراءها عين ترى » كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقى .

وهذا عطاء بن أبى رباح الذى كان فى صدر الإسلام ، وكان أسود اللون ، مغلغل الشعر أفطس الأنف أعرج الساق ، أشل الجسم ، أعور العين ،

ثم كف بصره ، ولم تمنعه كل هذه الآفات أن يتعلم ويتقدم ، وينافس ويسبق حتى صار أحد الأئمة الأعلام ، وانتهت إليه الفتوى فى مكة ، وكان حجة بالإجماع ، وكان الحكام ينادون أثناء الحج : لا يفتى فى الموسم إلا عطاء ابن أبى رباح ، وكان أهل مكة يقولون فى عطاء هذا إذا سئلوا عن رأيهم فيه : إنه كالعافية ، إن جاءت الناس فرحوا بها ، وإن غابت عنهم حنوا إليها . . . وربك يخلق ما يشاء ويختار (يراجع كتاب تهذيب الأسماء للنووى) .

ولو تنقلنا من عالم الإنسان إلى عالم الأحياء الأخرى لوجدنا فيها أمثلة واعظة بالغة من المثابرة والمقاومة . فهذه هى الطيور الرقيقة الضعيفة تدأب على البكور كل يوم إلى مسارح رزقها ومطارح قوتها ، فتجمع وتحصل ، ثم تعود مليئة هنيئة ، لا تبالى بما ينالها ، ولا يصدها ما يلحق بها ، حتى ضربها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه مثلا للسعى والعمل فقال : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » . وهذه هى النملة ، هذا المخلوق الصغير الضئيل ، الذى تسحقه الأقدام غالبا لأن العيون لا تراه . . هذه النملة ما أعجبها فى دأبها ونصبها ، وكفاحها ونضالها ، إنما قد تحاول نقل حبة القمح من مكان إلى مكان ، والحبة أكبر منها وأثقل بكثير ، وتفشل النملة فى محاولتها أول الأمر ، ولكنها تكرر المحاولة عشرات من المرات ، ثم تفلح وتنجح فى نهاية الأمر : وكأنها تريد أن تقول للانسان : ألا تعتبر بما بينى وبينك من فروق فى الجسم والوزن والمواهب ؟ أليس عاراً من صميم العار ألا تكون مثلى فى هذا الدأب وهذه المثابرة ؟ ! .

ولذلك يحثنا الإسلام حثاً قوياً بليغاً على الثبات فى الأمر ، والعزيمة فى الرشد ، والصبر فى مجال الخير ، والتصميم على الاستقامة والمرابطة فى مجال الشرف فيقول القرآن : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » والصبر هو الثبات على الطاعات ودوام النفور من

السيئات والمصابرة هي مداومة العمل مع عدم اليأس ، والمرابطة هي ملازمة سبيل الله تعالى ، وهي مأخوذة من الربط على الشيء أي عقدة حتى لا ينحل فيعقد المسلم نفسه على نية الخير ، ويعقد جسمه على عمل الخير . . ويقول الله تعالى مخاطباً نبيه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » أي استمر في طريق الخير والإصلاح ، فإن إخوانك أصحاب العزيمة من الرسل قد جدوا واجتهدوا وجاهدوا ، ولم يصرفهم عن غايتهم السامية صارف ، ولم يعطفهم عن هدفهم الرفيع عاطف ، فاصبر على تبعات الدّعوة وتكاليف الرسالة ومكابدة الشدائد والأهوال . . والرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلمنا كيف نصبر ونصابر ، وكيف نستمر في الكفاح وندوام ، فيقول : « أحب الأعمال إلى الله أدومها و إن قل » ويقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل فإن لوتفتح باب الشيطان » وكأنه بهذا يريد أن يطرد عن الإنسان عوامل التردد والاضطراب ، ووساوس النفس الأمارة بالسوء ، ويدعوه إلى الإيمان بأن الله معه يعينه ويقويه فلا محل للعجز أو اليأس، وكيف يتطرق اليأس والقنوط إلى صدر المسلم وصوت ربه يتردد في سمعه قائلا له : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون » وقائلا : « ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . .

لقد كان أسلافكم أمثلة عليا لدوام النضال ، والمثابرة على الكفاح في الحياة ، وكانت الشدائد أو الظلمات تحيط بهم فلا يعجزون ولا يفرون ، بل يرددون قولهم « الغمرات ثم ينجلينا » أي تأتي المصاعب فنثبت لها حتى

تزول : والحياة بتبعاتها محتاجة إلى عقل وجسم ، وصبر وعزم ، فلنتحلق بخلق المثابرة ، ولنتحصن بروح العزيمة ، ولنقبل على الحياة صالحين فيها ، مصلحين لها ، منتفعين منها ، نافعين بها » ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون . .

من آداب الاسلام

لك الحمد يا مصدر الكمال وواهب الجمال ، أنت الذى تقسم المعايش والعطايا بين عبادك ، فمنهم شقى وسعيد . وفيهم قريب وبعيد ، والآخرة عند ربك للمتقين . نشهد أن لا إله إلا أنت تحصى القليل والكثير ، وتحاسب على الفتيل والقطمير « وكفى بنا حاسبين » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، خير من تأدب وأدب وقوم وهذب ، فصدق فيه قولك الكريم : « وإنك لعلى خلق عظيم » فصلواتك اللهم وتحياتك ورحماتك وبركاتك عليه وعلى آله وصحبه ، وجماعته وحزبه ، أولئك الذين أشرقت أرواحهم بنور ربهم ، فهدوا به فى أحلك الظلمات وأحرج الشبهات ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شئ عليم .

يا أتباع محمد عليه السلام . .

سأتعمد اليوم أن أترك خلفى ما تعارفتم على أنه من جلائل الأمور ومشاغل الصدور ، فلن أتحدث عن هذه المشكلة ولا عن تلك المعضلة ، مما يقلق المضاجع وتهتم له المجامع ، ولكن سأتحدث إليكم عن أمر تحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، ذلكم هو استخفاف الكثير منا بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية حين يسخر من صاحب العاهة أو يهزأ بمن نالته آفة ، فيبدو فى صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ، وذلك داء يصيب الساخر فيجعله محطا لنقمة العزيز الجبار ، مستحقاً للعنة وسوء القرار . وخذوا لذلك مثلا من بين مئات الأمثال :

شاهدت رجلا متعالياً على خالق الله يؤنب رجلا مكفوف البصر على خطأ ارتكبه ، فسمعته يقول له ثائراً ساخراً « لا لوم عليك فإنك أعمى » ! وكأنما

نشرت بمجلة الشرق العربى فى ٥ مايو سنة ١٩٥٠ م

جمع الرجل فى كلمة «أعمى» هذه كل صفات الإهانة والتحقير فنزلت على كاهل الرجل المكفوف صخرة حاطمة . . وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم من الآدميين يقولون لمثل هذا المكفوف ساخرين «حقيقة إن كل ذى عاهة جبار» إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاحتقار .

إن هذا أولا سوء أدب مع الخالق والمخلوق فلو أراد الله سبحانه لجعل الساخر المبصر مكان المسخور منه الأعمى ، فكان الواجب حينئذ على المرء أن يتذكر نعمة الله عليه ومقدار عطائه له ، وأن يأسى ويأسف لحرمان المحروم مما تمتع به هو ، وأن يسأل له من فضل الله وعوضه ما يجزيه خير الجزاء عما أصيب به من نقص فى جانب من جوانب خلقته ، بدل أن يهزأ به ويسخر منه ويتندر عليه فيستوجب بذلك لنفسه المقت والغضب ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن البلاء موكل بالمنطق ، ولو سخرت من كلب لخشيت أن أصير كلباً ! . وليس وراء هذا التحفظ والتحرز من عبد الله غاية لمتباعد عن رذيلة الاستهزاء !

ولست أدرى والله لماذا يسخر الساخر مثلا من الأعمى ؟ لئن كان الأعمى قد ولد مكفوف البصر فذلك سابق القضاء وحكم القدر ، والسخرية مما سبق فى علم الله وجرى بحكمته وهداه محاربة له وتطاول عليه ، ومن يفعل ذلك فقد باء بسخط من لله وعذاب شديد ، وإن كان المكفوف قد فقد بصره فى حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة عليا تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه برؤية جلاله ، والاقتباس من نوره والذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولذلك روى عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلوات الله عليه عن جبريل رب العزة والجبروت ، قال: يا جبريل ، ما ثواب عبدى إذا أخذت كريمتيه (أى عينيه)

إلا النظر إلى وجهى والجوار فى دارى ! . قال أنس : فلقد رأيت أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يبكون حوله يريدون أن تذهب أبصارهم (وذلك اشتياقاً منهم إلى التمتع برؤية ربهم وهى نهاية النعيم فى جنات الخلود) . .
وحتى لو فقد المكفوف بصره فى معصية لكان مستحقاً للرحمة و الرثاء بدل التطاول والاستهزاء . فرب معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت عزا واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجبر ويستقيم . وأما سخريته منه فتحريض له على العناد والابعاد فى مهاوى الفساد ،
لقد شرب رجل الخمر على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فضربوه حدا وتأديباً ، فقال له بعض الصحابة : أخزاك الله ! . فغضب النبى من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ، لا تعينوا الشيطان عليه ! .

قد يكون الرجل المكفوف البصر المزدرى فى أعين الناس كريماً عند الله رفيع المكانة لديه قريب المنزلة إليه لتفتح قلبه وإن ذهب نورعينيه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، فها هوذا الصحابى الجليل عبد الله ابن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد من قريش وهدايتهم إلى الله حتى يتابعهم سواهم ، فلا يجهد الرسول فرصة عاجلة لينفرد بها بهذا المكفوف الساعى ، فينزل الله تعالى سورة كتابه ، يعاتب بها نبيه على إهمال ذلك الكفيف ، فيقول عز من قائل معاتباً ومعرضاً ومورياً : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك أن لا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى كلا إنها تذكرة » ولا يصف القرآن الكريم ابن أم مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » فى صراحة وجهر ، كأنه يريد أن يقول إن هذا الوصف الذى قوبل صاحبه بالإهمال أو الامهال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرأفة والرحمة والاحتفال ،

وصلوات الله وسلامه على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق ، وجعله على خلق عظيم ، ولذلك كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، هل لك من حاجة ؟ وجعله خليفة وراءه على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول ، ولذلك كف بصر عبد الله بن عباس فكان يقول :

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... فني لساني وقلبي منهمـــا نور
قلبي ذكي ، وعقلي غير ذي دخل ... وفي فمي صارم كالسيف مشهور

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان ، وبقاءه في الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عينيه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من المخازي ومشاهدة عديد من المآسي ، ويعف نفسه عن معاينة تلك المفاسد المكشوفة والمحارم المثوفة ، فقد أصبحنا في زمن وبيل عليل تتراءى صوره وحوادثه أقذاء في عيون الناظرين فغشيها وتلميها ، ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من يستحق التأمل فيه أو الاعتماد عليه ، ولذلك جعل يقول :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم ... الله يعلم أني لم أقل فنـــدا
إني لأفتح عيني حين أفتحها ... على كثير ولكن لا أرى أحـداً

فكيف لو تأخر الزمن بهذا الشاعر حتى أدرك زماناً نعيش فيه بأبصارنا ، ونحن نتمنى أن نفقدها لنستريح من خزي ما نرى ونشاهد ؟ ماذا كان يقول لو أدركنا زماناً كذا الزمان أهون ما يوصف به أهلوه قول القائل :

ذهب الرجال المقتـــدى بفعالهم ... والمنكرون لـــكل فعل منكر
وبقيت في خلف يزكي بعضهم ... بعضاً ليدفع معور عن معور

وتاريخ المسلمين الطويل العريض يفيض بمفاخر العظماء الأبطال المكفوفين الذين لم تحل هذه العاهة بينهم وبين أن يكونوا فى طليعة الأئمة من الفقهاء العلماء الأدباء الشعراء وها هو ذا شوقى يخاطب ملكاً مصرياً فى شأن من يضمهم الأزهر المعمور من مكفوفى الشيوخ والشباب فيقول له مشيداً بهم مفاخراً بشأنهم :

نظراً وإحساناً إلى عميــانه ... وكن المسيح مداوياً ومجــبرا

والله ما تدرى لعــل كفيفهم ... يوماً يكون أبا العلاء المبصرا

لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد ... غبناً وجل المشترى والمشــترى

وحتى لو قصر الكفيف أو تقاصر عما يسبق إليه غيره من أعمال ومهام ، لما كان ذلك مجوزا لنا أن نشتط معه فى الحساب ، أو نغلظ له فى الخطاب ، لأن الحق تبارك وتعالى قد جعل عاهته وما شابهها مسوغاً للمعذرة وسبباً لعدم الحرج حينما يجب أن لا يعتذر غيرهم من الناس فقال القرآن الكريم : « ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج » . . ومن هنا كان واجباً على ذى الخلق الشريف أن يحسن التصرف والخطاب مع ذى الكفيف ، وأن يتجنب معه ما يثير فى نفسه ألم الحسرة على فقدان ما فقد من نعمة يتمتع بها سواه ، ولقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة يصف فيها صاحبها مدينة خربتها إغارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف حساس ، وكان فى وسط القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطا ... ينقل فى كل بيت قــدم

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده فيها فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظناً كريماً جال بخاطرى عن تصرفه . فقال لقد لمحت كلمة « ضرير » فى البيت قبل أن

أنطق به ، فخشيت أن تجرح إحساس « فلان » فتخطيته ! فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق يسرى فى صفوف الجميع ! ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

سخرية القوى بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ، والتذكير بالعورات أو التندر بالعاهات ليس من طبع المسلم النبيل ، والمرء يفقد إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمارة بالسوء أن تستطيل بالاستهزاء أو الاستخفاف على رجل امتحنه الله وابتلاه لحكمة يعلمها ولا نعلمها بعلة مزمنة أو عاهة دائمة ، وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوماً بالأجسام أو الأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال ، فطهروا ألسنتكم من خنا القول وفحش التعبير ، وانطلقوا تحت لواء الله إلى دنيا عريضة من مكارم الطباع ومحاسن الشيم وفضائل الآداب : واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال عليه الصلاة والسلام : بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه : إذا أخذت كريمتى عبدى فى الدنيا لم يكن له جزاء عندى إلا الجنة .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم ،

الاسلام دين النظافة

لله الحمد يريد لعباده الرفعة فى كل الأمور ، ويحرضهم على التخلص من الآفات والشرور ، ويدعوهم إلى التباعد عن مزالق الشرور ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . نشهد أن لا إله إلا أنت تحب الصفاء فيما ظهر وما بطن ، والطهارة فيما استعلن واستكن « إن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين » ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبدك ورسولك ، كان إمام الأئمة فى السمو ، ومضرب الأمثال فى العلو فلا منقصة ولا اعتلال بل تمام وكمال ، فصلواتك اللهم وسلامك عليه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المترفعين عن كل ما يعيب أو يشين ، وأتباعه المتجملين بكل ما يرفع ويزين ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

إذا قست الشمس وارتفعت الحرارة واشتد الجو ، كثرت الهوام والذباب ، وظهرت الأمراض والأوصاب ، وتضاعف العرق وتضايقت النفوس ، وحينئذ لابد من مضاعفة الجهود لتوفير النظافة وتحقيق الطهارة ومحاربة الجراثيم لتسلم البلاد وينجو العباد ، ولن يكون ذلك عن طريق التخويف والإرهاب ، أو الحساب والعقاب ، بل يتم ذلك عن طريق الاقتناع والإيمان ، لأن العقيدة فى نفس المرء قوة خارقة تأتى بالأعاجيب ، فما رأيكم حين أقول لكم إن دينكم الإسلامى الطهور الذى تدينون لله به وتؤمنون بتأديبه ، لا يماثله دين ولا يقاربه تشريع أو قانون فى الاهتمام بالطهارة والعناية بالنظافة ، والدعوة إلى التجمل وحسن المظهر فى والجسم والثياب ؟ !

نشرت بمجلة الشرق العربى فى ٢٦ مايو سنة ١٩٥٠ م

إن الماء مثلا وهو الوسيلة الأساسية الفعالة فى التطهر والتنظيف قد احتل مكانته الهامة فى القرآن الكريم ، فالحق تبارك وتعالى يقول : « وجعلنا فى الماء كل شىء حى » ويقول « وأنزلنا من السماء ماء طهوراً » ويقول « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » وقد تكرر ذكر الماء فى القرآن الكريم أكثر من ستين مرة ، مما يدلكم على أنه أراد أن يلفت الأبصار والبصائر إلى قيمة الماء ونعمته فى الاقتدار على النظافة والنقاء .

ولفظ الطهارة بمعناها الحسى قد ذكره القرآن الكريم بصورة كثيرة مختلفة تدل على أن الإسلام هو دين الطهارة والبراءة والعلاء . فهو يقول « فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » ويقول : : « وطهر بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ويقول « وثيابك فطهر والرجز فاهجر » ويقول « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » ويقول « وإن كنتم جنبا فاطهروا » ويقول « فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » وغير ذلك من الآيات .

وما رأيكم فى فريضة الصلاة التى يؤديها المرء المسلم كل يوم خمس مرات على أقل تقدير والتى هى مناجاة للرب ودعاء وهيام للروح فى ملكوت السماء؟ . لقد اشترط الإسلام لصحتها وأدائها أن يكون المرء طاهراً فى ثيابه طاهراً فى مكانه مجدد الطهارة فى أطرافه ، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام « مفتاح الصلاة الطهور » وأعز الرسول شأن هذه الطهارة فقال « الطهور شطر الإيمان » والوضوء الذى يتكرر غالباً بتكرر الصلاة كل يوم عدة مرات يتناول سائر الأطراف المعرضة للمس والاستعمال والغبار والأوساخ وهى اليدان والذراعان والوجه بما فيه من عينين وفم وأنف والأذنان والرقبة والرجلان . . . ومن لطيف ما يذكر

هنا بمناسبة نظافة الشعر أن الرسول النظيف الحرض على النظافة يقول (من كان له شعر فليكرمه) وذلك يكون بطبيعة الحال بغسله وتنظيفه وتمشيطه ودهنه بطيب أو نحوه ولقد دخل عليه شخص ثائر الشعر فقال النبي (أما كان عند هذا دهن يسكن به شعره ، يدخل أحدكم كأنه شيطان) .

ولم يكتف الإسلام فى نظافة الفم بغسله وإدارة الماء فيه عند المضمضة ، بل أمر بالسواك وما شابهه من وسائل التطهير والتنظيف ، ولذلك يقول الرسول (عليكم بالسواك فإنه مطهرة للفم مرضاة للرب (ويقول) لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) ليس السواك مقصوداً لذاته، بل كل ما ماثله من فريجون أو فرشة أو معجون أو مطهر للأسنان يؤدى وظيفته ويقوم مقامه . . وهناك بعض الذين لا يدركون مقاصد الدين السامية على وجهها يتشددون ويضيقون الواسع ويخرجون بالتشريع عن حكمته ، فلا يرضون بعود الأراك وهو السواك بديلا ، وتراهم يشتطون بالتمسك به والتنفير من سواه ولو أدى وظيفته أو زاد عليها ، ويحتجون بأن السواك هو المأثور ، وأنه هو الذى استعمله السلف فى صدر الإسلام ، وأكاد أجزم جواباً لهؤلاء وتخفيفاً لتشددهم أن المسلمين لو عرفوا فى صدر الإسلام ما اهتدى إليه الإنسان المعاصر الذى علمه ربه ما لم يعلم من وسائل التنظيف والتطهير وخاصة ما يتعلق منها بنظافة الفم ، لو عرف المسلمون قديماً هـذه الأصناف والمطهرات لاستعملوها ودعوا إليها واعتبروها من عاداتهم وتقاليدهم فالغرض المقصود إذن هو الطهارة والنظافة نسلك إليها أى سبيل . فإذا وجد عود الإدراك وسهل استعماله فيها ونعمت ، إذن لم يوجد إلا غيره من معاجين أو سوائل أو مطهرات فلا مانع مطلقاً من استعمالها وباستعمالها يكون الإنسان قد حقق ما هدف إليه الإسلام من تحبيب فى الحرص على نظافة الفم باستمرار ، حتى تسلم الأسنان من الآفات ، وحتى يتطهر الفم من

الفضلات وحتى تزول الرائحة الكريهة ، وحتى لا تتسبب وساخة الفم في أمراض المعدة وغيرها من العلل .

ولم يكتف الإسلام بهذا المقدار في تعويد أهلية على النظافة والأناقة ، بل شرع لهم غير ذلك من وسائل التطهر والتباعد عن الأنجاس والقاذورات والأوساخ ، فشرع لهم حلق الشعر وتقليم الأظافر ونتف الابط وحلق العانة والاستنجاء والاغتسال . . ومن بديع حكمة الإسلام في الغسل أنه ربطه بحوادث تتكرر كثيراً كالوقاع والحيض والنفاس والجمعة والعيدين والاحرام والطواف وغير ذلك وكأنما ربط الإسلام مشروعية الغسل بهذه المواطن المتكررة لكي يدفع المسلم في مواعيد محددة ومكررة إلى الاغتسال والاستحمام فلا يكون ذلك موكولا إلى مواعيد مبهمة قد يرعاها قوم ويضيعها آخرون ! .

ولو نظرنا إلى سيد الأمة ونبي الملة محمد صلوات الله عليه لوجدناه المثل الأعلى في هذه الناحية فقد كان أصفى الناس طلعة وأبهاهم منظراً ، وأنظفهم جسما وأطهرهم ثوباً ، وأبعدهم عن الوسخ والقذر ، ولقد كان من مبالغته في حرصه على النظافة يخص يده اليمنى بالشريف من الأعمال كالطعام والشراب والسلام ، ويجعل يده اليسرى للخلاء وإزالة الأذى ونحوه ، وبذلك تظل اليد اليمنى طاهرة متباعدة عن مظنة التلوث بما يعيب أو يسوء ، وكان صلوات الله عليه من حبه للنظافة والنقاء يكثر التطيب وكانت ثيابه كأنها ثياب دهان أو عطار من كثرة استعماله لكريم العطور ، ومن قوله (من عرض عليه ريحان فلا يرده فإنه طيب الرائحة خفيف المحمل) وكان يرجل شعره ويفرقه ويدهنه ويتزين في مظهره وهندامه إذا خرج لأصحابه أو ضيفانه ، وكان يختار أنظف ثيابه لصلاته وخاصة صلاة الجمعة ، وكان يحبب صحابته في أن يخصصوا ثوبين ليوم الجمعة وحده . وكان عليه صلوات ربه يستاك مفطراً

وصائماً ويستاك عند الانتباه من النوم وعند الوضوء وعند الصلاة وعند دخول المنزل ، وكان يكثر دهن رأسه وكان لا يرد الطيب ، وكيف وهو القائل (حبب إلى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني فى الصلاة) وكان يكره الرائحة الكريهة وينفر من أسبابها ، ولذلك كان لا يأكل البقول أو الخضروات التى لها رائحة شديدة كالبصل والثوم والكرات ونحوه وكان يأمر من يأكلها بأن لا يقترب من المسجد أو مجمع الناس ، ومن اضطر إلى أكلها لغرض فليطبخها حتى تزول عنها رائحتها .

وكان صلوات الله عليه من نظافته وأناقته يتمتع بطيبات ربه فى ثيابه فقد لبس على رأسه القلنسوة والعمامة والمغفر ولبس القميص والحبرة والفروج والقباء والأزرار والرداء والحلة والبرد اليمانى والفروة المكفوفة بالسندس والجبة المكفوفة بالديباج ، وكان أحب الألوان إليه البياض والأبيض عنوان الصفاء والنقاء ، ولبس الخاتم والخفين والنعل وكان فى استنجائه يجمع أحياناً بين استعمال الحجر والماء ليكون ذلك ادعى إلى كمال التنظيف ، وعن عبد الله بن عباس قال : لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل ! . . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر ، ولا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . فقال رجل : يا رسول الله ، إنى أحب أن يكون ثوبى نظيفاً ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذاك ؟ . فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس ! .

ولم يقتصر الإسلام على نظافة الجسم من الظاهر ، بل أراد أيضاً أن

يعمل المرء ما استطاع على تطهير باطنه وداخله لأن الصلة وثيقة بين الباطن والظاهر ، فإذا صلح الجوف فاضت صلاحيته على الأطراف والأعضاء ، وإذا خبث ألقى ظلا من خبثه على الظاهر ، ولذلك نرى الإسلام يبغض المسلم فى أن يأكل حراماً ، لأن الحرام يفتح الباب للنهم والطمع والجشع ، وهذه آفات تجعل جوف المرء ماعوناً يلقى فيه ما طاب وساء فيكون ذلك سبباً للمرض والتلف وكذلك أمر الإسلام بالاعتدال فى الطعام والشراب وعدم الإسراف فيهما حتى لا يؤدى ذلك إلى فضلات تضر وتعيب والقرآن الكريم يقول (كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) ويقول الرسول : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع . ويقول : المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء ! .

يا أتباع محمد عليه السلام . . .

أليس من أعجب العجب ، بل من أشد دواعى الأسى والأسف أن يكون الإسلام دين النظافة ، وأن تكون النظافة من الإيمان ، وأن يكون للطهارة كتاب طويل عريض بين كتب الفقه الإسلامى ، وأن يرد فى الحديث أن الله نظيف يحب النظافة جميل يحب الجمال ، ثم يظل أكثر المسلمين بعد هذا وسخين قذرين ، لأن المخادعين أو الجهلاء بالدين قد أوهموم أن المرء لا يكون متديناً أو صالحاً أو متصوفاً إلا إذا كان وسخاً قذراً غير نظيف الثياب وكم لهم فى هذا المجال من مضحكات أو مبكيات ، وما هكذا يكون الإسلام يا أبناء الإسلام ، بل الدين جمال وكمال وطهارة وسمو وعلو ، فطهروا أجسامكم وثيابكم وقلوبكم وأمعاءكم ، وأعطوا عن الإسلام صورة صحيحة ، تشعر أعداءه قبل أصدقائه أنه شرعة الطهارة والصفاء والنقاء ، ودين الرفعة والخلود والبقاء . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون :

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم سلوا ربكم التوفيق يستجب لكم .

الجزائر المسلمة

الحمد لله عز وجل ، فتح القلوب بنور اليقين ، وعصم المؤمنين بحبله المتين « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، نصره ربه بالرعب ومكن له بالحب ، فكان خير المصلحين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

معذرة إليكم إذا امتدت رحلتنا الإسلامية بعض الامتداد فى شمال أفريقيا ، فوقفنا اليوم أمام الجزائر العربية المسلمة ، لأن هذا الجناح من وطننا الكبير ظل مجهولا لنا وقتاً طويلا بحكم الاحتلال الأجنبى والاستعمار الأوربى ، واستطاع شياطين الإثم والبغى أن يحولوا بيننا وبين أشقائنا هناك زمناً طويلا ، ولولا ثورة الجزائر التى حطمت القيود وفتحت الحدود لظللنا على جهلنا وانفصالنا ولكن وقعت — بين الجبال والوهاد ، والسهول والنجاد . من أرض الجزائر — قصة الكفاح البطولى والنضال الرائع ، فقامت ثورتها شاهداً أى شاهد على أن أبناءها هم أحفاد أولئك الأجداد الذين رباهم الإسلام فأحسن تربيتهم ، وأدبهم فأحسن تأديبهم ، وكثير من الناس ينظرون إلى الجزائر على أن أهلها شعب عربى إسلامى . ولكن الاستعمار الأوربى الغاشم ما كان ينظر إلى أهل الجزائر إلا على أنهم مسلمون يجب أن يخرجوا عن

ألقيت فى يوم الجمعة الموافق ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٧ م

إسلامهم ليضمن الاستعمار بقاءه فيهم ، ولذلك كانت المعركة فى الجزائر معركة إسلامية ، دارت رحاها بين الصليبية الأوربية الاستعمارية والكيان الإسلامى العميق الجذور ، وكانت البلاغات الحربية الاستعمارية تصف المجاهدين فى الجزائر بوصف « المسلمين » لا بوصف العرب ولا بوصف الجزائريين وبلغ من حقد هؤلاء المستعمرين هناك أنهم كانوا يرددون قولهم : « إذا رأيت مسلماً وأفعى فبادر بقتل المسلم قبل الأفعى » ولنذكر هنا أن أول بيان صدر لثورة الجزائر سنة ١٩٥٤ جاء فيه : « إننا ننادى شعبنا ليتحرك حتى يعيد للجزائر وجهها الإسلامى الصحيح »

وكان الاستعمار يدرك بوضوح أن الإسلام فى الجزائر يعتمد على ركيزتين عقيدة ولغة ، فعمل على طمس اللغة العربية القرآنية فى الجزائر ، وبذل فى سبيل ذلك جهودا إبليسية جبارة ، ومع ذلك بقيت لغة القرآن فى الجزائر ، وبقيت اللغة العربية الفصيحة بوجه خاص فى البادية الواسعة بأرض الجزائر ، ثم عمد الاستعمار فيها إلى نشر البعثات التبشيرية لمحو الإسلام ونشر النصرانية ، وفعل من أجل ذلك الأفاعيل ، ولكن الإسلام ظل شامخاً مرتفع الهامة موفور الكرامة . واستعان الاستعمار باليهود مطية الخيانة والغدر فى كل مكان ، فتمالوا مع الاستعمار ، وعاثوا بالفساد فى البلاد ، ولكن هذا لم يثن المسلمين عن استمساكهم بدينهم وإسلامهم ، وهدم الاستعمار المساجد فى الجزائر وحولها إلى كنائس ، وألغى مكاتب تحفيظ القرآن الكريم . واستولى على الأوقاف الإسلامية وعبث بها ، وحاول بكل وسيلة أن يجعل الجزائر قطعة من فرنسا ، وأن يعطى أبناءها الجنسية الفرنسية ، ولكن المسلمين الثابتين على دينهم أبوا ذلك ، وصدرت فتوى جمعية العلماء والمسلمين الجزائريين تقول إن من يترك جنسيته وإسلاميته وعروبته ويتجنس بجنسية الاحتلال

يكون مرتداً عن دينه ، فاستعاذ الشعب من نكبة الارتداد ، واستمر على طريق الجهاد ، وحينما كان يأتى واحد من كبار المحتلين لزيارة الجزائر كان يسمع الهتاف الهادر من أهل الجزائر : « الجزائر مسلمة ، وستبقى مسلمة » .

ولقد حاول مكر الاحتلال أن يصل إلى رغيبته عن طريق بذر بذور الفتنة والخلاف والتمزق بين أبناء الشعب المجاهد ، وكاد الاحتلال اللئيم الزنيم ينجح فى ذلك . ولو نجح لكانت مصيبة الأبد ، ولكن الشعب تنبه فأخذ حذره وجمع أمره وعرف طريقه : طريق الوحدة والاجتماع ، وهذا يذكرنا بموقف مشهود فى تاريخ شمال أفريقيا ، فقد حدث خلاف بين البطل الفاتح عقبة بن نافع وبين مناضل آخر اسمه أبو الجهاد دينار ، فأسره عقبة ليأمن طموحه أو تمرده ، ثم حدثت موقعة بين عقبة وبين أعدائه اشتد فيها الأمر جداً على المسلمين ، حتى صار عقبة فى عدد قليل من الجنود على حين تكاثر عدد الأعداء ، ورأى أبو المهاجر وهو فى قيوده هول الموقف ، فلم يشمت فى عقبة ، بل تحلت روحه الإسلامية وترقرق الدمع فى عينيه ، وجعل يردد قول القائل :

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقيا

وسمعه عقبة وهو يقول ذلك فى تأثر ، ففك وثاقه وأطلق سراحه وقال له : « انطلق وألحق بجماعة المسلمين لعلك تحمل الأمر بعدى ودعنا نغنم الشهادة أنا ومن معى » فأبى قائلا : لا والله ، بل أغتنم الشهادة معكم » ونسيت الأحقاد وظهرت أصالة الرجال ، وتجلت أخوة الإسلام ، وجاهد أبو المهاجر مع عقبة وجنوده حتى ذاق الاثنان الشهادة مع الآخرين ، فذكروا الدنيا بقول ربهم فى سلفهم : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

والجزائر التى تشتهر بسلسلة جبالها : جبال الأطلس ، وجبال الأوراس ، التى توجد فيها أشجار البلوط والصنوبر والأرز ، وكلها أشجار سامقة باسقة ترفع هاماتها إلى السماء فى شمم وإباء . هذه الجزائر قد علمت أهلها العزة والنخوة والثورة على الذل والهوان ، فخاض ابناؤها ثورات متعددة خلال عهود الاحتلال المظلمة التى بدأت سنة ١٨٣٠ ، واستمرت أكثر من مئة وثلاثين عاماً ، ثم قامت الثورة الكبرى التى ظلت سبع سنوات طويلة ثقيلة الأعباء جليلة التبعات ، قدمت فيها الجزائر مليوناً من الشهداء مع أن تعدادها لا يبلغ عشرة ملايين ، وبهذا المليون من الضحايا انتزعت حريتها وحصنت كرامتها وأخرجت أعداءها ، ولقد ضرب المجاهد الجزائرى مثلا رائعاً فى البذل والإقدام والثبات ، لتمكن الإسلام من قلبه ، وسيطرة العقيدة الدينية على كيانه ، ولأنه لم يصب بعلل الترف والرفاهية والتمتع والنعيم ، فهو ابن الجبال ، وهو ابن الطبيعة القاسية التى تعجم الأعواد وتمحص العزائم ، وهو الذى خرج إلى المعركة وشعاره : النصر أو القهر ، والسيادة أو الشهادة ، والله لا يخيب مسعى المجاهدين المؤمنين .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

السحب من حولنا كثيرة ، ولكننا لم نبلغ مرحلة اليأس ، فقد ظلت فرنسا فى الجزائر أكثر من مائة وثلاثين عاماً ، ومع ذلك خرجت وظل الانجليز فى مصر أكثر من سبعين عاماً ومع ذلك خرجوا ، وفلسطين لم يمض على احتلال اليهود لها عشرون سنة ، فكيف لا يخرجون ، ومن قبل ذلك احتل الصليبيون فلسطين عشرات وعشرات من السنين ومع ذلك خرجوا ، فلا تيأسوا يا قومنا ولنلم شملنا ، ولنتعرف سبيلنا . ولنواصل نضالنا ، ولنكن مع الله ليكون الله معنا . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

زلازل فى تركيا

الحمد لله عــز وجــل ، هــو سامع النجوى ، وكاشف البلوى : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » . أشهد أن لا إله إلا الله ، هو وحده الملجأ إذا ضاقت السبل ونفدت الحيل : « هذا نذير من النذر الأولى ، أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جمع القلوب على وحدانيته ، وربط بينهم بدينه وعقيدته ، فكانوا زينة العالمين ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

فى غمرة الأحداث القاسية التى مرت علينا فى شهر يونيه تعرضت تركيا لزلازل عنيفة هدمت الكثير من المنازل، وشردت الآلاف من السكان وقتلت المئات من الأفراد، والزلازل مظهر من مظاهر الطبيعة حينما تشتد على الناس وتعنف ، ولعلها لون من ألوان التخويف والتذكير برهبة جلال الله عز شأنه حين تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرز والله الواحد القهار : « يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة » ، « إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً » . وفى تركيا شعب مسلم متدين بصفة عامة، وهو ما زال برغم ما حدث فيه وتعرض له يشترك معنا فى شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ،ويتجه معنا إلى القبلة التى نتجه إليها ، ويقرأ القرآن الذى نقرأه ، ويحج إلى البيت الذى نحج إليه ، وإذا كنا لا ننسى أن العثمانيين قد ارتكبوا مجموعة من الأخطاء ، فإن هذا لا يلغى إسلام الشعب التركى ، وهناك فرق واضح ينبغى أن نلاحظه دائماً بين الحكام

والشعب ، فقد يخطئ السلاطين والملوك وينحرفون ويستغلون ولكن الشعوب منطوية الجوانح على الخير وعلى الاتجاه السليم والشعور القويم ، ولعل هـذا يذكرنا بقول رسولنا صلى الله عليه وسلم : « يد الله مع الجماعة »وقوله : «لا تجتمع أمتى على ضلالة » .

وإن بيننا وبين الشعب التركى المسلم علاقات أخوة ومودة صنعها الإسلام وظلت أكثر من ألف عام ، وإذا كانت مكائد السياسة وأحداث التاريخ قد أثرت فى هذه العلاقات خلال بعض الأوقات ، فإنه من الممكن بصفاء النفوس وإخلاص النوايا أن نستعيد العلاقات الإسلامية مع الشعب التركى ، لكى يشارك معنا فى مقاومة الصليبية الاستعمارية والصهيونية العالمية ، ولقد وقفت تركيا بجانبنا وأيدتنا فى الاجتماع الطارئ لهيئة الأمم المتحدة ، فأدانت العدوان الإسرائيلى الاستعمارى ، وطالبت مع غيرها بانسحاب المعتدين ، ثم اشتركت فى محاولة طيبة مع الباكستان لحمل إيران على تأييد القضايا العربية وإدانة إسرائيل ، وقد حدث هذا من تركيا بعد فترة قاربت الخمسة عشر عاماً كانت العلاقات بيننا وبينها متوترة أو غير مستقرة ، وقد تمنيت ومازالت أتمنى لو أننا انتهزنا فرصة الموقف الطيب من تركيا ، فعملنا على تنقية العلاقات بيننا وبين الشعب التركى المسلم ، حتى يزداد الجميع قوة فى باب التضامن والتعاون : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، وتمنيت او أن شعبنا العظيم خصص جزءاً من عنايته لزلازل تركيا ، وجمع أى مقدار رمزى من التبرعات للمنكوبين ، وأسهم بنصيب فى تخفيف ويلاتهم بالإسعاف والنجدة ، حتى يكون ذلك لوناً من الاهتداء بقول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى

حاجته » وقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وقوله : «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

إن الله تبارك وتعالى قد علم كل موحد له ، أن يعد نفسه جزءاً من كل وبعضاً من مجموع ، ولبنة فى بناء ، فقال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » وطبعنا ربنا على حب الوحدة والتآلف والمشاركة الجماعية حتى فى مقام الدعاء ، فشرع لنا أن نقول كل يوم مرات عديدة فى صلواتنا : « إياك نعبد وإياك نستعين » لا أن تتسرب النزعة الفردية إلى الدعاء ، فيقول المصلى « إياك أعبد وإياك أستعين » . وشرع لنا أن نقول فى هذه الصلوات أيضاً : « اهدنا الصراط المستقيم » لا أن يقول كل مصل عن نفسه : « اهدنى الصراط المستقيم » وأوجب بين المسلمين من التعارف والتعاطف والأخوة الإيمانية ، ما يجعلون به كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » هى الإطار الواسع الرحيب الذى يضم تحت جناحيه كل موحد بربه ، وكل عامل على خير إخوته فى العقيدة والدين ، وتجعل كل فرد دخل هذا الإطار يحس بإحساس الجميع ، ويتجاوب فى السراء والضراء مع الجميع ، فلو أن شخصاً فى هذا الإطار عطس وهو بأقصى المشرق لهتف به أخ له فى أقصى المغرب يرحمك الله ، وقد صور الشاعر الحكيم هذا التآلف المؤمن العميق بقوله :

وإذا ما أن بالعـــراق جريح لمس المشرق جنبه فى عمانه !

وينبغى لنا أن نفرق بين حكام أتراك يقبلون ويرحلون ، ويعتدلون أو ينحرفون ، وبين شعب تركيا المسلم الذى ما زال يدين بالاسلام وما زال صالحاً يبذل جهود موفقة لكى يحيى فى صدوره مودة الإيمان لإخوان له يشاركونه فى الاعتقاد ، على الرغم مما حاوله بعض حكام الأتراك من قطع تركيا عن الركب الإسلامى والعربى ، ومن صبغها فى رسمياتها ومظاهرها

بالصبغة العلمانية التى لا تتقيد الإسلام ، ولقد زرت تركيا منذ سنوات فرأيت مساجدها الكبيرة الكثيرة ما زالت يرتادها الألوف المؤلفة من الأتراك ، وما زال التدين بالإسلام متمكناً فى الشعب ، وبخاصة فى المناطق الريفية الواسعة التى لم تتلوث بمفاسد التجديد والمدنية ، وهم يعظمون القرآن ويبالغون فى احترام علماء الإسلام ، ولقد يبكى الكبار منهم يرون عمامة تتوج رأس رجل يشرف نفسه بالدعوة إلى الإسلام ، ومثل هذا الرصيد الإسلامى الضخم الذى ما زال مطوياً فى الحنايا والصدور يستحق أن نعنى به وأن نستفيد منه ، وإذا كنا ندعو أنفسنا إلى هذا فمن واجبنا أيضاً أن ندعو الشعب التركى إلى أن يحمل نفسه وحكومته على مزيد من خطوات الالتقاء بالأمة العربية المؤمنة ، وأن يحول دون أى تعاون بين بلاده وبين الدول التى تسىء إلى الأمة العربية التى اختارها الله جل جلاله لتكون حاملة دعوته من يد رسوله صلى الله عليه وسلم إلى العالمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إننا بحاجة ملحة إلى مراجعة كشوف الأصدقاء وكشوف الأعداء ، فقد ننقل أسماء من صفوف الأعداء إلى صفوف الأصدقاء ، وما أحوجنا إلى الاستكثار من الأصدقاء والتبصر للأعداء ، حتى نرغم البهتان والطغيان على الزوال ، ونمضى فى طريقنا نحو العزة والحرية والكرامة ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

المسلمون والقدس

الحمد لله عز وجل ، دعا إلى الحق ، وأمر بالصدق « ومن أصدق من الله قيلا » . أشهد أن لا إله إلا الله ، يحق الحق بكلماته ، ويزهق الباطل بآياته : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان الحق شعاره ، والصدق دثاره ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، وجنوده وحزبه « الذين يرثون الفردوس ، هم فيها خالدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نشرت مجلة الوكالة الصهيونية فى لندن منذ حين مقالاً تزعم فيه مزاعم تضليلية كبرى يراد منها ومن أمثالها تزييف التاريخ ، وتحريف الحقائق ، والافتراء على الله وعلى الناس ، ومن أضاليل هذا المقال أنه يزعم أن عناية المسلمين بالقدس (وهى بيت المقدس) وبالمسجد الأقصى لم تظهر إلا أخيراً ، بعد التنافس بين المسلمين واليهود فى فلسطين ، وهذه محاولة صهيونية وقحة لستر الشمس الساطعة بيد حقيرة نجسة ، فإن المسلمين يعنون بالقدس وبفلسطين كلها منذ بزغت شمس الإسلام ، ومنذ أكرم الله رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام فخصه بمعجزة الإسراء والمعراج ، وسجل ذلك فى تنزيل إلهى لا يبلى ولا ينسى ، فقال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » ، وبذلك كان المسجد الأقصى أحد مسجدين اثنين اقتصر القرآن على التصريح باسمها ، وأولها هو المسجد الحرام وفيه الكعبة المشرفة ، وهذه العناية موجودة منذ قال سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه : « لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى فى المدينة ،

القيت فى يوم الجمعة الموافق ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٦٧ م

والمسجد الأقصى » . ولقد ألقى الإسلام رداء الهيبة والكرامة والقداسة على المسجد الأقصى ، فجاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة فى غيره من المساجد ، باستثناء المسجد الحرام والمسجد النبوى . ولقد جاء فى الحديث النبوى : « من مات فى بيت المقدس فكأنما مات فى السماء » وهو يقصد بطبيعة الحال من مات على الإسلام طائعاً ربه تبارك وتعالى ، متابعاً نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجاء فى الفقه الإسلامى أنه يستحب الإهلال بالحج والعمرة من بيت المقدس ، لحديث الذى يقول : « من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر له ما تقدم من ذنبه » وعن أنس بن مالك أنه قال : « إن الجنة تحن شوقاً إلى بيت المقدس » .

ومن مظاهر عناية المسلمين القديمة الموصولة بالقدس وبالمسجد الأقصى وبفلسطين كلها أنهم خلال عصور التاريخ المتوالية لم يدعوا صغيرة ولا كبيرة تتعلق بهذه الأماكن إلا تحدثوا عنها أحاديث التفصيل والتحليل والتمجيد والتخليد ، وأودعوا هذه الأحاديث مؤلفات وكتباً ضخمة ألفها علماء الإسلام ومؤرخوه منذ قرون ، ومنها كتاب « فضائل القدس » لابن الجوزى وكتاب « الأنس فى فضائل القدس » لابن هبة الله الشافعى ، وكتاب « مثير الغرام بفضائل القدس والشام » لابن سرور المقدسى ، وكتاب « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » لمجير الدين الحنبلى ، وكتاب « الجامع المستقصى فى فضائل المسجد الأقصى » لابن عساكر ، وكتاب « باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس » لابن قاضى الصلت ، واستمر تأليف الكتب عن فضائل القدس وفضائل المسجد الأقصى ومكانة فلسطين عند المسلمين ، حتى العصر الحاضر ، حيث نجد كتباً كثيرة فى هذا المجال من بينها كتاب « تاريخ الحرم القدسى » و « المفصل فى تاريخ القدس » وهما لعارف العارف

الرجل المسلم المكافح الذى ما زال حياً يقيم فى القدس المحتلة إلى اليوم . ولكن أليس من الإنصاف أيها الإخوة أو من نقد الذات أن يهمس بعضنا لبعض فيقول : هل قرأنا هذه الكتب أو بعضها ؟ هل فكرنا فى إصلاح خطئنا بالإقدام على قراءة بعضها ؟ هل أدركنا على الأقل أن نكبة الاحتلال الصهيونى تستدعى أن نتعرف إلى حقنا ، وأن ندرس تفاصيل تاريخنا ، وأن نقف على قيمة تراثنا ؟ يهمس بعضنا لبعض ونرجو ألا يبلغ الهمس آذان أعدائنا الآثمين وإلا اتخذوه حجة علينا ، ورددوا ضدنا قول شاعرنا :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا

ويزعم المقال الآثم أن الشعور بأن « القدس » مكان مقدس لم يقول عند المسلمين إلا فى عهد الانتداب البريطانى على فلسطين وهذا كذب وزور ، لأن المسلمين ظلوا خلال العصور والدهور يشدون رحالهم إلى القدس لزيارة المسجد الأقصى بنية العبادة لله ، ولإقامة شعيرة من شعائر الإسلام ، وللاهتداء بهدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو قيل : إن مزيداً من العناية الاهتمام قد بدا بين المسلمين فى القرن العشرين بشأن القدس وفلسطين ، لكان من الواجب تفسير ذلك تفسيراً حقيقياً صادقاً ، فنعلم بأن الاغتصاب البريطانى لفلسطين ، مع تواطؤ انجلترا والصهيونية العالمية — ومن خلفهما أمريكا — لتهويد فلسطين ، هو الذى فجر ما كان مطوياً فى صدور العرب والمسلمين منذ مئات السنين ، من حرص على فلسطين وخوف من مصيرها المؤلم على أيدى الصهيونية والاستعمار ، ولنتذكر على سبيل المثال أن اليهود حاولوا بشتى الطرق فى سنة ١٩٠١ أن يحملوا السلطان عبد الحميد على أن يفتح لهم الباب أمام سكناهم فلسطين ، وعرضوا عليه الملايين والخدمات الضخمة التى كان محتاجاً إليها ، ولكن السلطان عبد الحميد رفض ذلك وقال : « إنى

لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين ، فهى ليست ملكاً لى ، بل ملك شعبي الذى ناضل فى سبيل هذه الأرض ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذا فرقت امبراطوريتى يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، أما وأنا حى فإن عمل المبضع فى بدنى لأهون على من أن أرى فلسطين قد بترت من امبراطوريتى ، وهذا أمر لن يكون ، فإنى لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن الصهيونية قد كسبت أكثر ما كسبت من مغانمها الآثمة الظالمة بطول الدعاية وسعتها ، فهى تروج للباطل ثم تروج ثم تروج ، حتى يبدو فى أنظار الجاهلين والغافلين كأنه الحق ، ونحن لا نعنى بتوضيح حقنا للناس هنـــا وهنالك ، فلا يحسون به ولا يتحمسون له ، فلنقرأ تاريخنا ، ولنتعرف إلى إلى حقوقنا ، ولنتعرف بها ، وليكن من وراء الدرس والمعرفة إيمان ومن وراء الإيمان عمل وإتقان ، ومن وراء الإتقان يقين وإحسان ، وما ضاع حق وراءه مطالب ، والله ولى الصابرين واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

فى الطريق الى فلسطين

الحمد لله عز وجل ، هو مؤيد المخلصين الشرفاء وخاذل المجرمين الأخساء « فننجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » وأشهد أن لا إله إلا الله ، هو القاهر لأعدائه ، الناصر لأوليائه « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، خيرة المؤمنين وإمام المجاهدين « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

هكذا شاءت عناية الأقدار ، واختارت إرادة الله القوى القهار ، أن يسلك بنا طريق الجهاد والنضال ، وأن يفتح أمامنا السبيل إلى غسل العار وتحقيق الانتصار ونيل الفخار ، فى أرض فلسطين ، تراث العرب والمسلمين وأولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى النبى الأمين ، ومجتمع الأنبياء والمرسلين ، ليؤمهم محمد رحمة الله للعالمين ، قبل أن يعرج مع الروح الأمين للقاء الله العزيز الحكيم . وإذا كانت هناك قضايا تعنينا وتهمنا فى شرق الأرض أو غربها ، فإن أهم قضية فيها هى قضية فلسطين ، لأنها منذ حين محتلة بالسرطان الصهيونى الخبيث ، ملوثة بنكبة الاحتلال من عبدة الطاغوت وسلالة القردة والخنازير ، وفيها عدو مجاور ملاصق هو ألد الأعداء فى هذا الوجود ، وقد نزل على قلب الوطن العزيز فلسطين نزول الوباء المهلك ،

اذيعت بالتليفزيون فى يوم الجمعة ٢٣ صفر سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢ يونيه سنة ١٩٦٣ م

واتخذه طواغيت الاستعمار والبغى مطية لمكائدهم ومؤامراتهم : والله جل جلاله قد رتب لنا مراحل النضال والكفاح ، فأمرنا أن نبدأ بأقرب الأعداء منا ، لأنهم أخطرهم علينا ، فيقول سبحانه « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار (أى القريبين منكم) وليجدوا فيكم غلظة » ويقول أيضا : فإما نثقفنهم (أى تصادفهم أمامك) فى الحرب فشرد بهم من خلفهم » أى فأجعل تأديبهم وقهرهم عظة وعبرة للأعداء الواقفين خلفهم أو البعيدين عنكم ، ويقول جل جلاله : «وقاتلوا فى سبيل الله الذى يقاتلونكم » أى يواجهونكم بالعدوان والخطر ، وهذا ينطبق تماماً على الخونة الغادرين من عصابات صهيون التى فعلت بنا الأفاعيل سنة ثمان وأربعين : « وما كان ربك نسيا » .

ومن فضل الله الكبير علينا أن شعلة الجهاد المقدسة قد توقدت فى نفوسنا وتاهبت فى صدورنا ، ونحن فى قوة من سلاحنا وعتادنا وإحكام فى خططنا واستعدادنا ، وتجاوب فى شعوبنا وبلادنا ، ونحن الآن أصلح ما نكون لخوض معركة الثأر والكرامة والشرف ، لا نبالى تهديد المهددين ، ولا وعيد المتوعدين ، ولا باطل المعتدين ، وكأ نا « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » بل كأن الله عز شأنه قد هيأ من الظروف ما لم نكن نتوقع أو نحتسب ، لكى تأتى اللحظات المناسبة لتوجيه الضربة القاضية ، فأخذ بالنواصى الشاردة إلى ملتقى القيادة الواحدة التى تعتز أول ما تعتز بتآلف القلوب من حولها واتجاه الأنظار إليها ، وهى تمضى راشدة متأبية على الضعف والانخداع : « وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

وإذا كنا قد تواصينا على خوض المعركة دفاعاً عن أوطاننا وأعراضنا وعقائدنا ومقدساتنا ، فإن واجبنا أن نتذكر دائماً أن للنصر الإلهى المؤزر أسباباً لابد من توافرها ، وفى طليعتها بعد عداد كل قوة مادية وكل سلاح مستطاع ، الإيمان بالله القاهر فوق عباده ، والإيمان هو اليقين الجازم الذى لا يعتوره ريب ولا شك فى أن لهذا الكون خالقاً سبحانه ، وأن للحياة مسيطر آ عليها ومتصرفاً فيها حسب الحكمة الإلهية العالية ، التى تدنو أحياناً فتراها أبصارنا المفتوحة ، وقد تعلو أحياناً فتتقاصر عن سموها عيوننا الكليلة ، وهذا الإيمان لا يكون إيماناً صادقاً إلا إذا دفع بصاحبه إلى العمل المجيد والتصرف الحميد والسعى المشكور ، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى : « « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » ويقول : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » . ومن أسباب النصر الصبر ، وهو حسن الاحتمال ، ومطاولة الأحداث ، وحمل النفوس على أداء الواجب مهما كان ثقيلا أو جليلا ، وسواء أوافق به هوى النفس أم لم يوافقه ، ولنتذكر جيداً أن الله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ذا لقيتم فئه فاثبتوا » ، ويقول : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . ومن أسباب النصر التقوى ، ومتى عمرت القلوب بالتقوى الصادقة الواعية تنزل نصر الله ، وجاءت عناية الله ، لأنه القائل : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » والقائل : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا » . وهذا التوكل البصير المحض يبذل الجهود واستنفاد المجهود هو الذى يحقق فى نفوسنا الثقة والاطمئنان ، فلا نعتمد إلا على الله ، ولا نستمد الهدى إلا من الله ، ولا نخشى شيئاً سواه : أتخشونهم فالله أحق

أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » ، « قل لن يصيبنا لا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، « إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

الثأر ثأرنا ، والدار دارنا ، والله ولينا وناصرنا ، والسلاح فى أيدينا ، ومواقف البطولة كثيرة فى ماضينا ، وحوافز الأمل الحاضرة وفيرة فينا ، والمعركة أمامنا تنادينا ، فلنتوكل على الله ، ولنعتصم بالله ، ولنتذكر أننا نجاهد فى سبيل الله ، لتحرير أرض الله ، وإزالة الهوان عن عباد الله ، فلنمض مجاهدين بكل ما نستطيع ، والله معنا من ورائنا ناصر ومعين ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . يقول رب العزة سبحانه : « والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »، فلنحصن أنفسنا بالإيمان والعمل الصالح ، والتواصى بإعزاز الحق ، وبالصبر على نصره وتأييده ، حتى نكون من الفائزين فى دنيانا ويوم نلقى الله رب العالمين ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول ربكم جل جلاله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » . والبيعة شعار من تعاليم الإسلام ، وجزء من هدى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وها نحن أولاء قد كتب الله لنا أن نقبل على معركة مقدسة ، لنستعيد بها فلسطين ، أولى القبلتين وثالث الحرمين وقلب العروبة والإسلام ، فلنبايع الله رب العالمين ، بيعة الحق والصدق والوفاء .

حتى نكون من أهل الإيمان واليقين والرجاء ، ولنردد هذه البيعة جميعاً ، فقولوا معى :

اللهم يارب الأرباب ، ويا مهيئ الأسباب ، ويا فاتح الأبواب ، أنت الله الأكبر من كل شئ ، وأنت الله المسيطر على كل شئ ، وأنت الله الذى صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده . اللهم إنا نبايعك على الجهاد ، ونبايعك على النصر أو الاستشهاد ، ونبايعك على استعادة أرض فلسطين ، إلى حمى العرب والمسلمين ، وتطهيرها من الدخلاء الملاعين ، فوفقنا يا ربنا لحسن الإعداد ، وشامل الاستعداد ، وشرف الجهاد ، واجعلنا من أوليائك المتقين وجنودك المخلصين ، ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

اللهم إنا بحولك نستعين ، وبحمايتك نستجير ، أنت النصير وأنت القدير فكن لنا ولا تكن علينا ، ولا تولنا غيرك ، ولا تنسنا ذكرك : واشرح للنضال صدورنا ، ويسر أمامنا أمورنا ، واحفظ بلادنا وثغورنا ، فأنت العزيز القاهر ، وأنت القوى الناصر ، لا قوة إلا بك ، ولا توفيق إلا منك ، ولا رجاء إلا فيك ، ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير .

اللهم إنا نعوذ بك من الجبن والهلع ، ونعوذ بك من الضعف والخور ، ونعوذ بك من الفرار والانكسار ، ونعوذ بك من قلة الرجاء وشماتة الأعداء فلا تجعلنا نخشى غيرك ، أو نخاف سواك ، أنت حسبنا ونعم الوكيل .

اللهم اجعل أول جهادنا صلاحاً ، وأوسطه فلاحاً ، وخاتمته فوزاً ونجاحاً فألهمنا الصبر والثبات ، واحفظنا من التفرق والشتات ، واجعلنا على الدوام أمة واحدة ، وقيادة واحدة ، ووجهة واحدة وغاية واحدة وبصرنا بواجباتنا

وألهمنا النهوض بتبعاتنا . وخذ بنواصينا إلى تحمل مسئوليتنا ،حتى تعزنا بعزك ، وتؤيدنا بنصرك ، فقد قلت وقولك الحق : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » . الله أكبر الله أكبر الله أكبر على من طغى وتجبر الله أكبر ولا عدوان إلا على الظالمين ، الله أكبر والله مع المجاهدين المخلصين الله أكبر والعاقبة للمتقين المؤمنين .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إنها بيعة ونحن مطالبون بها ، ومسئولون عنها أمام الله وأمام الناس ، وقد أتانا الله قائداً حكيما ، وجيشاً عظيما ، ووعداً كريماً ، « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » .

نحو تحرير فلسطين

الحمد لله عـز وجـل ، كتب الكرامة لأوليائه ، والهوان لأعدائه : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» أشهد أن لا إله إلا الله ، شرع الجهاد فريضة محكمة ، يرفع بها أقواماً ويخفض بها آخرين : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاهد فى الله حق جهاده ، فكان خير المؤمنين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه « أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نعيش الآن أياماً مشهورة مجموعة لها الناس ، ورب ضارة نافعة ، وقد يأتى الشر بالخير كما قال القدماء ، فإن التهديد الأثيم الوقح الذى قامت به عصابة الفجار وربيبة الاستعمار إسرائيل قد أدى من جهتنا إلى نتائج طيبة محمودة ، منها إقامة الدليل الحى العملى على أن الأمة يجب أن تتضامن شعوبها عند الشدائد والأزمات ، مهما حدث بين أبنائها من خلافات ، فما كادت كنانة الله فى أرضه تحس بأن هناك خطراً من قبل إسرائيل على سورية العربية المسلمة حتى تحرك جيشها وتجمع من كل مكان ورابط على الحدود ينتظر لحظة الانطلاق نحو الأرض المغتصبة والوطن السليب ، ليغسل العـار ويبلغ الانتصار ويسحق الفجار ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم ، وبذلك أدرك عبدة الطاغوت وسلالة القردة والخنازير أننا جادون ولسنا بهازلين حين قلنا ونقول إن أرض فلسطين يجب

القيت فى يوم الجمعة ١٦ صفر سـنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٦ مايو سـنة ١٩٦٧ م

أن يزول منها هذا السرطان اليهودى الاستعمارى الخبيث ، لأنها أرض العروبة والإسلام ، ولأنها أولى القبلتين ، وثالث الحرمين ، ومسرى سيد الخلق محمد وواسطة عقد خطواته فى رحلتى الإسراء والمعراج : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » وصدق رسول الله حين قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » .

ومن مكاسبنا العاجلة قبل دخولنا معركة الإيمان والثأر أننا تخلصنا من قوات الطوارئ الدولية التى كانت من مخلفات الظروف العصيبة التى مرت بنا فى معركة السويس وبورسعيد سنة ١٩٥٦ ، ثم أراد الاستعمار — من أجل سواد العيون عند خليلته اللئيمة إسرائيل — أن يستغل هذه القوات فيجعلها ستاراً يحتمى من خلفه الاحتلال اليهودى والكيد الصهيونى ، وقد ترتب على هذا التخلص أن عدنا إلى ممارسة حقنا المشروع فى السيطرة على خليج العقبة ، ومنع السفن الصهيونية والمعاونة للصهيونية من المرور بهذا الخليج ، ولقد كانت إسرائيل وما زالت تسئ استغلال مياه البحار من حولنا فى رحلاتها الإجرامية الخبيثة وتبذل جهودها الشيطانية لصهينة القارة الإفريقية عن طريق الدولار الأمريكى والمكر اليهودى ، وهى تستبيح لنفسها فى هذا الفساد كل جريمة ، حتى جريمة تحريف القرآن وتوزيعه على أبناء القارة السمراء : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » . ولا ريب فى أن تمكن جيشنا من منطقة خليج العقبة نقطة ارتكاز مهمة لمنع الوباء الصهيونى من الانتشار ، وللتأهب ليوم الفصل حين يتم تطهير الأرض التى تضم مهد عيسى وتراث محمد من الذين طعنوا عيسى فى نسبه ، وقاوموا محمداً فى دعوته حتى حق للقرآن أن يقول : « لتجدن أشد

الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » .

ومن مكاسب موقفنا الحاضر أننا استطعنا إلى مدى بعيد أن نسلط الأضواء الباهرة الكاشفة على الأخبية والجحور التى يلجأ إليها فريق من الحكام الذين يحسبون علينا وينسبون إلينا ، ومع ذلك لا يعنيهم أمر أمتهم وشعوبهم وأوطانهم بقدر ما يعنيهم أن يزيدوا خزائنهم امتلاء بالأصفر الرنان ويملئوا بطونهم بالشهوات والملذات ، ويضعوا أيديهم الملوثة بدماء شعوبهم فى أيدى أعداء الله وأعداء عباد الله وأعداء أرض الله ، وقد استطاعت هذه الأضواء كذلك أن تميز لنا بين أصدقائنا واعدائنا ممن يدينون بغير ديننا ، فهناك من ناصرنا ووقف إلى جانبنا ، وهناك من تنمر لنا وانحاز إلى أعدائنا وبقدر ما يوجد عند هؤلاء من استقامة أو إنصاف يكون تعاوننا على الصعيد الدولى والمستوى العالمى بمقتضى قول الله تبارك وتعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وأخيراً كان من نتائج موقفنا أن تحركت معانى الجهاد والنضال فينا ، فقد اغتصبت فلسطين من أيدينا عام ١٩٤٨ ، وكانت نكبة دونها كل النكبات . ولكن هذه النكبة فجرت وقود الثورة هنا وهناك ، وأخذنا منذ ذلك اليوم نتواصى بالعزم على استرداد فلسطين ، وكنا نتوق كل التوق إلى موقف تهيئ فيه الأقدار لأصحاب الثأر أن يأخذوا بثأرهم ، وأن يستردوا

ما سلب منهم ، وها قد جاء الميعاد ، وتحركت معانى الجهاد ، والمعركة ليست معركة ميدان فحسب ، إن الشعوب الآن تحارب حين تحارب بكّل أبنائها وكل طاقاتها ، وألوان الجهاد مختلفة ، فهناك جهاد بالسلاح والعتاد ، وهناك جهاد بالكلمة المثيرة الحافزة ، وهناك جهاد بالقلم المبين الأمين ، وهناك جهاد بالفكرة الرشيدة المجيدة لخدمة الهدف النبيل ، وهناك جهاد بالروح المعنوية القوية التى تتحمل تبعات النضال فى صبر وإيمان ، وإذا كان الجيش الأول من رجالنا وأبنائنا يرابط هناك على الحدود ، فيجب أن نكون من ورائه « الجيش الثانى » الذى يخدم ويمون ، ويقوى ويعاون ، ويحفظ ويصون : « لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

لقد كتب الله علينا الجهاد ، وليس هناك أشرف من جهادنا ضد عدو أجنبى محتل طالما هزئ بكرامتنا وعقيدتنا ولقد أخبرنا الرسول أن أمتــه ستقاتل اليهود حتى يقول الحجر للمسلم : يا مسلم ، إن من ورائى يهودياً فاقتله . ولعل هذا يكون جزءاً عادلا ورادعاً للذين أكثروا فى الأرض الفساد ، وفعلوا ما فعلوا من جرائم وآثام ، وصدق العلى الكبير : أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » . واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

مع المغرب الأقصى

الحمد لله عز وجل ، « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير » . أشهد أن لا إله إلا الله وثق الروابط بين المؤمنين ، وحثهم على رعايتها مع الاعتصام بحبله المتين : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جاء من ربه بالنعمة فجمع الكلمة ووحد الأمة ، وقال عن المؤمنين : « هم يد على من سواهم » فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبائه ، « أولئك هم الراشدون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن الآن فى أشد الحاجة إلى أن نهز العالمين العربى والإسلامى هزة قوية عنيفة ، توقظ من السبات ، وتجمع من الشتات ، ليلتقى الجميع على غسل العار والأخذ بالثأر وتحرير الديار من سلالة القردة والخنازير ، وعبدة الطاغوت والذهب ، ولذلك أحاول أن أقوم — عن طريق التعرف والتعريف من فوق هذا المنبر — بجولة فكرية روحية فى أنحاء بلاد العروبة والإسلام ، راجياً أن نتعرف إلى عوامل القوة والوحدة لنزداد منها ، ونتحسس مواطن الضعف والفرقة لنتجنبها ونقضى عليها ، والعالم الإسلامى نطاق فسيح مترامى الأطراف يقع فى وسطه العالم العربى كنسر يمد جناحيه بين آسيا وأفريقيا ، وصدر هذا النسر يتمثل فى مصر الغالية كنانة الله فى أرضه ، وجناحه الشرقى يتمثل فى شبه جزيرة العرب ، وجناحه الغربى يتمثل فى شمال أفريقية الذى ينتهى بمراكش أو المغرب الأقصى ، ونحن نذكر أن المغرب قد أعطى صوته لنا فى هيئة الأمم المتحدة ، ولم يكن العقل يتصور غير هذا أبداً ، لأن المغرب قطر عربى إسلامى ، ولكننا ارتجينا — وما زلنا نرتجى — من المغرب مزيداً من

ألقيت فى يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٨٧ هـ الموافق ٢٥ اغسطس سنة ١٩٦٧ م

التعاون وأضعافاً من الجهود ، وإلا ساءت الظنون باقتدار التضامن العربى الإسلامى على مواجهة الأحداث ومغالبة الشدائد ، والمغرب الأقصى هو منبت البطل الإسلامى الثائر على الاحتلال والاستعمار محمد عبد الكريم الخطابى طيب الله ثراه ، ولو أنك سألت شاباً عربياً عن نابليون مثلا لحدثك بما فيه الكفاية من تاريخه وحروبه ، ولكنك لو سألته عن عبد الكريم الخطابى عملاق المغرب وبطل الريف ، لما عرف عنه شيئاً ذا بال ، وهكذا نعرف عن غيرنا أضعاف ما نعرفه عن أنفسنا ، وسيظل هذا داء دوياً فينا ، حتى يأخذ الله بنواصينا ، فنتعرف إلى أبطال الإسلام الذين زانوا صدر التاريخ بما قاموا به من جلائل الأعمال .

وعبد الكريم الخطابى هو باعث الثورات الحديثة فى شمال أفريقيا كله ، ولقد أصيب الاستعمار الأوربى برجفة راجفة حينما نهض الخطابى بثورته فى المغرب سنة ١٩٢١ ، وظل يصارع الاحتلال بصرامة وبطولة خمس سنوات وكان يعتمد فى جهاده وجهوده على روح الإسلام ومبادئه وتعاليمه ، ورأينا أوربة الباغية تجعل حربها مع الخطابى حرباً صليبية استعمارية غربية ، حتى إن الملك الفونسو الثالث عشر خطب فى أواخر سنة ١٩٢٤ أمام البابا فى الفاتيكان وقال عن ثورة الخطابى : « إن أسبانيا قد جندت نفسها لحرب المسلمين فى أفريقيا حرباً لا تنفك عنها حتى تفوز بغرس الصليب فى ديار المسلمين ، وتجعل أتباع محمد يخنعون لها قهراً » . ومضى الخطابى يصارع دولتين كبيرتين احتلتا بلاده وهما فرنسا وأسبانيا ، وحينما عرض عليه قومه رياسة المغرب الشمالى رفض ، فأصروا على ذلك ووصفوا رفضه بأنه تخل عن تحمل التبعة ، فقبل قائلا : « سأتولاها قيادة فى المعركة بسلاحى ، أما الحكم فبيننا كتاب الله وسنة رسوله ، وعلينا العمل بهما ففيهما السعادة فى هذه الدنيا قبل الآخرة » .

وظل الخطابى مع جنوده المؤمنين بعزة الله وحرية الوطن ، يناضل

وينازل ، ويذيق أسبانيا ومن بعدها فرنسا الأهوال بعد الأهوال جزاء احتلالها لبلاده ، ولكن فرنسا استطاعت بالخديعة والخيانة أن تعتقله سنة ١٩٢٦ بعد خمس سنوات طويلة موصولة المعارك ، وحينما قيل له عند اعتقاله : ستحاكم أمام مجلس عسكرى ، وسيكون الحكم قاسياً ، أجاب بقوله : « هل تعتقدون أن سجنى أو نفيى أو قتلى سبيل لكم إلى احتلال وطنى ؟ هناك غيرى سيموتون فى الميدان ، وسوف لا تحتلون بلادنا إلا على جثث طلاب حريتها ، أما أنا فسواء لدى أقتلت هنا أم هناك فى أرض المعركة ، إننا فى الميدان على كل حال » . وحينما قرروا نفيه إلى جزيرة « رينو » إحدى جزر المحيط الهندى قال له أحد قواد الاحتلال : ليتك لم تعلن الحرب علينا ، فها أنت ذا قد رأيت النتيجة : فلم يهن البطل الثائر ولم يتضعضع ، بل قال وهو عميق الإيمان : « وهل تعتقدون أن نفيى هو خاتمة المعركة ضد الاحتلال ؟ لقد ساعدتم الشعب كثيراً بنفيى ، إنكم فتحتم على أنفسكم باباً من المحن والأهوال وبعدها ترحلون غير مأسوف عليكم » .

وكأن القدر قد استجاب لعبد الكريم الخطابى ، فقد تحمل آلام النفى والغربة عشرين عاماً طويلة ثقيلة ، وفى سنة ١٩٤٧ أراد أعداؤه أن ينقلوه من منفاه إلى منفى آخر ، وحينما كانوا يمرون به على مصر بطريق قناة السويس تمكن من الفرار منهم ، ولجأ إلى كنانة الله فى أرضه مواصلا جهاده ونضاله ، وظل عشر سنوات أخرى يوجه الثورة فى المغرب عن بعد ، من مكان إقامته بالقاهرة حتى خرج المحتلون بعد إقامتهم عشرات وعشرات من السنين ، ونالت بلاده استقلالها سنة ١٩٥٦ ، وظل البطل الشيخ يسهم فى توجيه النضالين العربى والإسلامى بالرأى والمشورة حتى لحق بربه فى أرض الكنانة ١٩٦٣ ، بعد أن رسم للمغرب الأقصى طريقاً كريماً يجب أن يسلكه دائماً ، وأن يتعاون فيه مع أشقائه فى سائر بلاد العروبة والإسلام ، حتى يكون وفياً

لذكرى الخطابى العملاق الذى كان يقول : « نحن قوم نحب السلام ، ولكننا نأبى المذلة والضيم ، وها نحن أولاء قد عاهدنا الله والشرف العربى أن ندافع عن استقلالنا الذى يهدده الأجنبى الغاصب » . وكان يقول : « نحن لا نحب الحرب ، ونحبذ السلام ، ولكن مع استقلالنا التام وعدم الخضوع لسيادة الأجنبى » وكان يقول : « لا يوجد فى هذه الدنيا حق للأمم أقدس ولا أرسخ من حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها » ، ولذلك قضى الخطابى حياته مجاهداً فى سبيل هذه الغاية ، ولا عجب فهو من أمة عقبة بن نافع محرر المغرب من محتليه قديماً ، وناشر الإسلام حتى شاطىء المحيط ، والخائض بقوائم جواده فى ماء المحيط ، متطلعاً إلى بقعة من اليابسة وراء الماء ليرفع فيها اسم الله العظيم فوق كل الأسماء ، وكان شعار عقبة فى الجهاد قوله : « اللهم تقبل نفسى فى رضاك ، واجعل الجهاد رحمتى ، ودار كرامتى عندك » . وصدق الله العلى الكبير : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

إن حاضرنا يتطلب تجميع كل القوى فى بلاد العروبة والإسلام لمناصرة الحق وإزهاق الباطل ، ومن واجبنا أن ننسى فى سبيل ذلك كل خلاف أو شقاق ، فالخطب جلل ، والطريق شاق طويل ، وقد آن للاخوة فى الله والعروبة أن يمسحوا بأيدى المحبة ما خلفته أيدى التفريق والتمزيق ، ولنأخذ العبرة من قول أولنا فيمن سعى بينهم الشيطان ففرقهم ثم لحظتهم عين الرحمن فجمعتهم . قال :

شواجر أرمـــاح تقطع بينهم ... شواجر أرحام ملوم قطوعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

موريتانيا المسلمة

الحمد لله عز وجل ، رفع بالإسلام قوماً وخفض به آخرين ، « ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء » أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل دينه مفتاحاً للرشاد وعاصماً من الفساد : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، جعل أخوة الدين فوق أخوة النسب ، فكان بذلك إمام الهادين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : الذين « يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

ما زالت رحلتنا مستمرة فى أرجاء العالمين العربى والإسلامى ، يستحث خطاها ما يجد من أحداث ، ويزكى مسيرها ما يشعر به من شدة الحاجة إلى التعارف الوثيق والتآلف العميق بين أبناء الأمة المؤمنة كلها ، حتى تستطيع أن تقف صفاً واحداً هائلا أمام أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال . وها هوذا ركبنا يتلبث برهة عند «جمهورية موريتانيا الإسلامية » التى أيدتنا بقوة وشجاعة فى اجتماعات هيئة الأمم المتحدة ، وتحافظ من عقيدة الإسلام ، مع أنها دولة صغيرة بعددها ومساحتها وإمكانياتها ، ولكنها كبيرة بدينها ويقينها « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » . وأظن أن أكثرنا لا يعرفون شيئاً ذا بال عن جمهورية موريتانيا الإسلامية ، بل لعل هناك من لا يعرف وجود دولة إسلامية بهذا الاسم ، بل لعل هناك من إذا

ألقيت فى يوم الجمعة ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٧ م

سمع كلمة « موريتانيا » ظن أنها دولة فى أمريكا أو أوربا ، مع أنها دولة شرقيه افريقية إسلامية تجاور المغرب الأقصى ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وأقل درجات الاهتمام بهم أن يعرف المسلم أقطارهم وجموعهم وأحوالهم ، إن لم يكن بالتفصيل فبوجه من وجوه التعميم والإجمال ، وإلا فكيف يتحقق فينا الإيمان وخالقنا جل جلاله يقول : « إنما المؤمنون إخوة » ؟ .

وموريتانيا دولة لا يبلغ أهلها المليون ، ومعظم أرضها صحراء ، ولكنها منطقة غنية بالمعادن ، وكانت محمية فرنسية سنة ١٩٠٣ ، ثم استعمرتها فرنسا استعماراً كاملا سنة ١٩٢٠ حين كان حكام فرنسا وبريطانيا وأسبانيا وإيطاليا يتحكمون فى شمال أفريقيا العربى الإسلامى ، ويوزعون دوله فيما بينهم حسب أهوائهم الاستعمارية المنطلقة بلا عنان ، ولكن موريتانيا استقلت فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، وهى الآن دولة جمهورية مستقلة ، وهى الدولة الوحيد التى نعرف أنها تذكر كلمة « الإسلام » فى اسمها ، فهى تسمى نفسها رسمياً « جمهورية موريتانيا الإسلامية » وهذه التسمية تذكرنا بأن دولا أخرى غيرها كانت أحق فيها بالحرص على هذه التسمية ، وبخاصة مما ضم منها مقدسات إسلامية كالبيت الحرام أو مسجد الرسول أو المسجد الأقصى ، كما تذكرنا هذه التسمية بقول الشاعر :

أبى الإسلام ، لا أب لى سواه　　　إذا افتخروا بقيس أو تميم !

وحينما استقلت موريتانيا الإسلامية » جعلت عاصمتها مدنية « شنقيط » بعد أن كانت العاصمة « سنت لويس » فى السنغال ، وشنقيط تذكرنا بالإمام الشيخ محمد محمود الشنقيطى الذى كان شديد التمسك بالسنة قولا للحق ولو على نفسه ، والذى كان يغار على لغة القرآن غيرة الشريف على

مقدساته وحرماته ، والذى فاخر طويلا بإسلامه وعروبته ، وجاور زمناً بمكة والمدينة ، ورحل إلى تركيا ثم استقر به المطاف فى مصر حتى توفى بها ، وقضى عمره قارئاً باحثاً وكان يقول : « أنا قتيل الكتب » كما تذكرنا شنقيط بالمؤرخ الإسلامى غالى ابن المختار الشنقيطى (المتوفى سنة ١٨٢٧ م) المتخصص فى كتابة السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وعقب استقلال جمهورية موريتانيا الإسلامية تولى رياستها « مختار ولد داده » المولود سنة ١٩٢٤ م ، وكانت فكرة الوحدة والتجمع هى الأساس فى دعوته ولذلك ألف هيئة التجمع الموريتانى التى ضمت مافى البلاد من أحزاب ، وقاومت نزعات التفرق والتمزق ، واتجهت إلى توحيد الكلمة من أجل الحرية والاستقلال ، وعلى الرغم من أن هذا الرجل المسلم قد اضطرته الظروف إلى أن يتعلم « الحقوق » فى فرنسا ، فإن فرنسا بمباهجها وبهارجها لم تستطع أن تخرجه عن شرقيته أو إسلاميته ، بل لعل هذه الفترة التى قضاها فى فرنسا قد زادته إيماناً بالإسلام ، إذ استطاع أن يقارن عن قرب بين مبادىء الدين العادلة الفاضلة الكاملة السمحة ، ومظاهر الانحلال والتفسخ فى المدينة الأوربية المادية التى استعبدها نداء البطن والفرج ، واستبدت بأهلها الملذات التافهة والشهوات المجنونة : « أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ، « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

موريتانيا هذه الصغيرة فى رقعتها القايلة فى سكانها ، الطفلة فى استقلالها إذ لم يكمل على استقلالها سبع سنوات بعد . هذه الدولة المجهولة من أكثرنا وقفت إلى جوارنا بشجاعة ، وأيدت حقنا ، وعارضت الاعتداء علينا ، وطالبت بإزالة آثاره فوراً ، وهى تعلم أن موقفها هذا يعرضها لتبعات ، ويوقعها فى مصاعب ، ويحرمها مغانم فاز بها الذين تنكروا للحق والعدل

والإنسانية استجابة للطمع الأشعبي ، وتأثراً بالدولار الأمريكي ، ولكن موريتانيا دولة إسلامية ، والإسلام رحم بين أهله وأخوة بين أتباعه ونسب بين المؤمنين به ، ولذلك اندفعت موريتانيا الإسلامية مع نزعتها الدينية فأيدت الدول العربية ، لأن بينها وبين هذه الدول وشائج يأمر الإسلام برعايتها ووقايتها ، وإذا كان هناك من يبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كما قال القرآن الحكيم .

أفيليق بنا بعد هذا أن نظل على جهلنا بشئون موريتانيا الإسلامية ؟ ألا يجب علينا بعد هذا أن نعرف تاريخها وأن نوثق علاقاتنا بها ؟ ألا يجب علينا أن نكثر إليها من بعثاتنا الدينية والعلمية حتى تزداد هذه العلاقات ثباتاً وتوطيداً ؟ ألا ينبغي لنا أن نفكر فى نشر اللغة العربية بين جميع ابنائها حتى يتمكن أبناؤنا من تفهم القرآن والحديث تفهماً كاملا ، وحتى نزيل أثراً مخفياً من آثار الاستعمار وهو اللغة الفرنسية التى فرضت نفسها لغة رسمية هناك بحكم الاحتلال الطويل ؟ .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

يقول سيد الخلق الناطق بالصدق محمد صلى الله عليه وسلم : « المؤمن مرآة أخيه » والمرآة تنعكس على صفحتها النقية الصافية صور الأشياء التى تقابلها ، فهل انعكست على مرئى عقولنا وقلوبنا صور أشقائنا فى الإسلام هنا وهناك ؟ هذا سؤال يحتاج إلى الجواب ، فليتنا نهيء أنفسنا لحسن الجواب عليه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

ليبيا العربية

الحمد لله عز وجل ، هدى عباده إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل التوحد عزة والتفرق ذلة : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، أحيا القلوب بسنته . وجمع الجموع على طريقته ، فحقق بذلك النصر المبين ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام :

نحن نقضي الآن من تاريخنا مرحلة حاسمة فاصلة ، بعد أن اكتوينا بنيران المحنة التي أوقدها علينا طواغيت الاستعمار والاستعباد ، وشياطين المكر والإفساد ، واستبان لنا بكل وضوح عملي واقعي أننا في أشد الحاجة إلى التجمع وإزالة التصدع ، وإلى توطيد الوحدة و الائتلاف ، ومقاومة نزعات التمزق والاختلاف ، لأنه لا عزة لنا إلا إذا كنا كما أراد ربنا أمة ذات جسد واحد وقلب واحد وهدف واحد : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » . ولقد سبق لهذا الصوت أن حدثكم عن صور من التعاون الكريم المثمر بين شعوب هذه الأمة المؤمنة ، وقد يكون من الأمانة والوفاء أن استعرض معكم صورة لها ضياؤها وبهاؤها ، وهي مستمدة مما صنعه شعب ليبيا العظيم بمناسبة العدوان الأثيم على أرض العروبة والإسلام : وليبيا قطر عربي إسلامي لا يفاخر باتساع مساحته ،

ولا بضخامة عدد سكانه ، ولكن من حقه أن يفاخر ببطولته وسيرته ، و استمساكه بعقيدته مع اعتزازه بعروبته ، ولقد تعرض الشعب الليبي خلال عصور التاريخ لغارات كثيرة من لا خلاق لهم ولا إنصاف عندهم ، وتعرض لغزو الفينيقيين واليونان والرومان والنورمانديين وفرسان القديس يوحنا وغير هؤلاء ممن يمثلون الاستعمار من جهة والصليبية الغربية من جهة أخرى ، ولكن هذا الشعب استعصم بعروة الإسلام الوثقى ، فجعلته على الدوام يقاوم فينتصر ويغنم ، وقد يسالم حيناً ولكنه لا يستسلم ، وكلما حاول أعداؤه أن يذيبوا قوميته ، أو يضعفوا عقيدته ، فزع إلى الإسلام يجد فيه الملجأ والمعتصم ولعل هذا هو الذى دفع بالمجاهد الكبير السيد محمد بن على السنوسى أن يوجد نظام « الزوايا » فى ليبيا منذ عشرات من السنين ، وأن يقيم هذا النظام على أساس دينى إسلامى . وأن يجعل حجر الأساس هو روح الجهاد ونزعة الاستشهاد ، فكانت الزاوية فى كل قبيلة معهداً ومصنعاً للرجال المتدينين الذى يحفظون القرآن ويفهمون معانى آيات القتال ، ويحيطون بغزوات الرسول ثم يأخذون فى أداء واجبهم بنشر الإسلام من ناحية ، ومقاومة الكفر والكفار المعتدين من ناحية أخرى ، ومن واحة « جغبوب » الصغيرة قامت الدعوة الدينية نشيطة ممتدة ، حتى صارت جغبوب بعد حين أعظم مدرسة فى الصحراء ، وحينما هجمت إيطاليا على ليبيا سنة ١٩١١ تريد بوهمها وزعمها أن تجعلها رقعة إيطالية وجدت من شعب ليبيا المطبوع على التدين ونزعة الجهاد وروح التقشف أبطال الصحراء الذين دوخوا أحفاد الرومان ، وظل عمالقة الصحراء من أبناء ليبيا يجاهدون بغى الطليان أكثر من ثلاثين عاماً ، قادهم فى كثير منها المجاهد الإسلامى المحتسب الشريف أحمد السنوسى الذى يعده المؤرخون الاسلاميون المجاهد الأكبر فى العصر الحديث ، واحتمل هذا القائدمع جنوده المؤمنين بفريضة الجهاد ونعمة الاستشهاد احتملوا ، ما احتملوا

من لفح الصحراء وبغى الأعداء وقلة الزاد والماء ، وانتشار الملاريا بلا دواء، وكانوا لا يجدون إلا حفنة البلح فى الطعام أو يأكلون عشب « الذباح » ، ولكنهم استطابوا الجهاد فى سبيل ربهم ، ولم يقصروه على معنى القومية أو الجنسية أو الإقليمية ، بل وصلوا أسبابه بالله خالق الخلق ، فكان الواحد منهم يلقى مصرعه فى حومة القتال وهو يتطلع وراء حجاب الحياة إلى نعيم الشهداء الأبرار عند من لا يضيع ثواب المجاهدين ، واشترك مع الليبيين فى حربهم مع الطليان مجاهدون مسلمون ، دفعتهم إلى الحرب غيرة على الإسلام، وأخوة فى الله . وإيمان بأن المؤمنين إخوة ، وأن ديارهم وطن واحد ، هو وطن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ومرت الأيام ، وتعاقبت الأعوام ، ونالت ليبيا استقلالها ، وأفاء الله عليها من نعمه ، وخيل إلى بعض الجهلاء أن شعب ليبيا قد شغلته شواغل الحياة عما كان عليه فى تاريخه من روح الجهاد فى سبيل الله ، ثم حدث العدوان الصهيونى الاستعمارى الأخير ، فإذا الشعب هو الشعب ، لم ينس طبيعته أو عقيدته ، فقد أحرق الشعب الليبى عقب العدوان متاجر اليهود الذين تسربوا إلى ميدان الاقتصاد فى البلاد ، واضطرت الحكومة أن تخرج هؤلاء اليهود من ليبيا أمام غضبة الشعب وثورته ، وهاجم شباب ليبيا سفارتى أمريكا وبريطانيا ، ورفعوا فوقهما العلم العربى ، وأغلقوا أبواب دور السينما والملاهى ، فليس هناك متسع لهذا اللهو والعبث ، والأمة تجاهد وتمتحن فى مصيرها ، ولبس أفراد من الشعب ثياب الحداد ، وصمموا أن لا يخلعوها حتى تزول آثار العدوان ، وبدأت المقاطعة للبضائع الأوربية والمصايف الأوربية والمدارس الأوربية ، وخاصة ما تعلق منها بدول العدوان الأثيم ، وتألفت فى مدن ليبيا لجان جمع التبرعات لضحايا العدوان ولصالح المجهود

الحربى ، وتجلت مواقف محمودة لأفراد هذا الشعب المسلم ، فهناك من تبرع بكل ما يملك ، وأسهم كل منهم بما يقدر عليه ، وحينما أعفت اللجان بعض الأفراد من التبرع مراعاة لأحوالهم الاقتصادية الرفيعة ، غضب هؤلاء وشعروا أن كرامتهم الإسلامية قد مست ، وأبوا إلا التبرع بما يستطيعون ، حتى إن صاحب مقهى فى سوق من أسواق البادية ثار حينما تخطته اللجنــة فى أخذ التبرع وحمل كل ما فى صندوقه وسارع إلى اللجنة يقدمه ويقول لرجالها فى غضب : لماذا لم تطلبوا منى تبرعى ؟ ألست مسلماً مثلكم ومثل الآخرين ؟ . . وتقدم نساء ليبيا بما عندهن من حلى ، وكانت قطع الذهب والجواهر يتوالى تقديمها من الشابات والعجائز على السواء ، وأرسل شعب ليبيا ملايين الدولارات إلى ضحايا العدوان ، كما أرسل الكثير من التبرعات العينية كالأطعمة والأدوية والثياب وغيرها إلى مصر والأردن وسورية ، وقدمت حكومة ليبيا عشرين مليوناً من الدولارات لهذه الدول ، ومنعت ضخ البترول إلى دول العدوان استجابة لرغبة الشعب الليبى القوى ، والمباحثات قائمة للتخلص من القواعد الأجنبية الباقية حتى تتطهر هذه الرقعة العزيزة الغالية من كل بقايا النفوذ الاستعمارى ، وحتى تظل على الدوام لؤلؤة فى جبين العروبة والإسلام ، وهكذا قام الشعب الليبى بخطوات لها أهميتها فى مناصرة أشقائه من الشعوب العربية ، فأثبت أن نزعات الجهاد التى ثبتها فى صدره الإسلام العظيم لم تضع ولم تضعضع ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : لم يرد من هذا الحديث مجرد التنويه بشعب شقيق . بل أريد منه ضرب الأمثلة على ما تستطيعه الأمة المؤمنة إذا تجاوبت شعوبها وتعاونت ، وفى ليبيا شعب عربى مسلم يجب أن يتسع نطاق

تلاقيه وتآلفه مع أشقائه ، وبخاصة شعب مصر المجاور له ، وفى ليبيا جامعة إسلامية ناهضة هى جامعة السنوسى الكبير ، ومن الواجب أن يزداد توثق العلاقات بينها وبين الأزهر الشريف أبى الجامعات ، وفى كل من مصر وليبيا قادة يجب أن تتلاقى عزائمهم وتتضافر جهودهم لعزة العروبة والإسلام وإذا كانت المحن تصهر النفوس وتطهر القلوب ، فإن هذه المحن نفسها يجب أن تمحو كل ما تركه الماضى من خلاف فى الرأى أو تعدد فى الاتجاه ، حتى يلتقى الأشقاء الأحبة على كلمة سواء وطريق واحد ، هو طريق الإيمان والعزة والكرامة الإسلامية : وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبيل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون .

فهرس

